الظَّواهِرُ الإسلاميَّة
في شعرِ المخضرمين
(دراسة تحليلية)

© دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

أبو شارب، مصطفى فتحي

الظواهر الإسلامية في شعر المخضرمين : دراسة تحليلية ـ الرياض .

٥١٢ صفحة ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك x ـ ٥٠ ـ ٧٧٥ ـ ٩٩٦٠

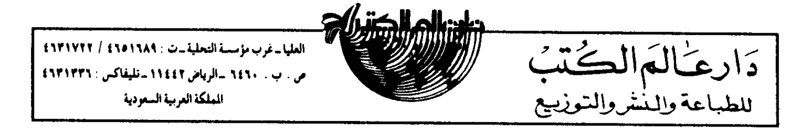
١ ـ الشعر العربي ـ نقد ـ عصر صدر الإسلام

أ ـ العنوان

ديوي ٢ ، ٨١١ ١٦/٣١٦٤

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

رقم الإيداع : ١٦/٣١٦٤
ردمك : x ـ ٥٠ ـ ٧٧٥ ـ ٩٩٦٠



دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع

العليا ـ غرب مؤسسة التحلية ـ ت : ٤٦٥١٦٨٩ / ٤٦٣١٧٢٢
ص . ب . ٦٤٦٠ ـ الرياض ١١٤٤٢ ـ تليفاكس : ٤٦٣١٣٣٦
المملكة العربية السعودية

الظّواهِر الإِسلاميّة
في شعر المخضرمين
(دراسة تحليليّة)

تأليف
الدكتور/ مصطفى فتحي أبو شارب
كلية الآداب - جامعة طنطا

دار عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض



إهـــــداء

إلي مَن .. خَفَّفت الألَم .. ومَسَحَت العرَق

وَجدَّدَت الأمل .. إلي زَوْجَتي

أهدِي هذا العمَل رمْزاً للوفَاء

والإخلاص .. والتَّقدير

مقدمة

يصحح هذا البحث ماكان قد استقر فى نفوس كثرة الباحثين من أن شعر المخضرمين فى عهد الرسول - ﷺ - وخلفائه الراشدين ظل ثابتا عند أغراضه ومعانيه القديمة ، وكأن الإسلام لم يمس قلوبهم ولانفوسهم.

ولكن طبائع الأشياء تؤكد أن الأحداث الجسام الخطيرة لها آثارها العميقة فى حياة البشر، ولم يكن الإسلام إلا أعظم هذه الأحداث خطرا، إذ نقل العرب من حياة الوثنية المادية إلى عالم التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار الذى له ملك السماوات والأرض، ومن الظلم والفساد إلى العدل والمساواة، ومن اقتراف الآثام إلى مكارم الأخلاق.

وصاغ الوحدات القبلية المتنابزة فى كيان واحد وجعلها أمة واحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتآلف وتتآزر على المودة والرحمة.

فمن الطبعىّ أن تترك هذه الأحداث آثارها فى نفوس العرب شعراء وغير شعراء وتدفعهم إلى أجواء جديدة من المشاعر والأحاسيس والتفكر والتدبر بتلاوتهم للقرآن الكريم وسماعهم لأحاديث الرسول-ﷺ- وفى هذه الأجواء العبقة بنور الإيمان تصحو الضمائر وتستشعر مراقبة الله الذى يتوجهون إليه بالصلوات والدعوات تضرعا وخفية راغبين فى نعيمه الدائم الذى لايزول رافضين عرض الدنيا الزائل، باذلين أنفسهم وأموالهم فى سبيل هذا الدين.

ألم يكن لكل ذلك تأثير واضح فى نفوس الشعراء وهم أرق الناس شعوراً وأدقهم حسا ، الذين ينقلون إلينا انطباعاتهم تجاه عصرهم وبيئاتهم؟

فى الحقيقة إن من جاهر بهذه الدعوة أو أيد هذه الفكرة لم يطلع اطلاعا كافيا على مادة هذا الشعر ولم يدرسه دراسة صابرة تمكنه من الإحاطة بدقائقه.

وهذا البحث يدرس جانبا من هذه المادة الغزيرة إذ الهدف منه رصد الظواهر الإسلامية فى شعر المخضرمين بالدراسة والتحليل.

ومهما اختلف مؤرخو الأدب فى تحديد لفظ الخضرمة والمخضرمين فإن الذى يعنينا ماذكره صاحب اللسان، فقد ذكر أن الناقة المخضرمة: هى التى قطع طرف أذنها، والخضرمة قطع إحدى الأذنين وهى سمة الجاهلية. وقد خضرم أهل الإسلام نعمهم، أى قطعوا من آذانها فى غير الموضع الذى خضرم فيه أهل الجاهلية فكانت خضرمة أهل الإسلام بائنة من خضرمة أهل الجاهلية، ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم ؛ لأنه أدرك الخضرمتين خضرمة الجاهلية وخضرمة الإسلام. وشاعر مخضرم: أدرك الجاهلية والإسلام.

و ذكر ابن برى أن أكثر أهل اللغة على أنه مُخَضْرِم، بكسر الراء، أما من قال: مُخَضْرَم بفتحها فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام[1].

وبهذا التأويل الأخير يطلق لفظ المخضرمين على هؤلاء الشعراء الذين عايشوا فترة الصراع بين القيم الإنسانية والمبادئ والأخلاق الجديدة التى جاء بها الإسلام، وبين القيم الموروثة التى كونتها الجهالة بنظمها المفسدة وأهوائها المضللة.

ولما كانت لهذه المرحلة خطورتها فى تاريخ أمتنا العربية، كما أنها تعد من أكثر مراحل تاريخنا الأدبى غموضا إلا أنها لم تحظ بالقدر الكافى من الدارسة الجادة العميقة الصابرة التى تستقل بها وتحاول أن تستبطن الظواهر والاتجاهات المختلفة التى توجهها، أو تحاول أن تجلو منها صورة محددة المعالم واضحة القسمات.

---

(١) لسان العرب لابن منظور- طبعة دار المعارف (د/ت)جـ٢ ص١١٨٦ (خضرم).

وصلتى بشعر المخضرمين وعصر الصراع ـ الذى أشرت إليه ـ صلة قديمة منذ بداية دراستى الجامعية فى كلية الآداب جامعة الأسكندرية، وقد توطدت هذه الصلة فى دراستى للعلاقة بين العرب والفرس وآثارها فى الشعر الجاهلى التى تقدمت بها للحصول على درجة الماجستير. وفى هذه الأثناء تعرفت على الجهد الذى بذله الباحثون فى دراسة شعر هذا العصر. فوجدت معظمهم يتخذونه وسيلة للانتقال أو معبرا يعبرون خلاله من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى، ومن وقف منهم عند هذا العصر اقتصر على شاعر بعينه ليدرس جانبا أو عدة جوانب من شعره.

أما الدراسات الجادة التى تناولت شعر المخضرمين فهى قليلة لاتكاد تفى بالغاية التى تبغاها النفوس، وإن حاولت أن تجلو صورة العصر وتوضح معالمه إلا أنها صورة باهتة ينقصها العديد من المعالم التى توضحها أدوات البحث العلمى الدقيق من استقصاء، ونقد وتحليل، ودراسة فنية مستفيضة.

ولعل أهم هذه الدراسات تلك الدراسة التى قام بها الدكتور/ يحيى وهيب الجبورى فى بحثه الذى تقدم به للحصول على درجة الماجستير من جامعة الأسكندرية عام ١٩٦٣م وموضوعها(شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه) ونشرته مكتبة النهضة فى بغداد عام ١٩٦٤، ولهذه الدراسة أهميتها،رغم أنها تسجيل تاريخى للوقائع والأحداث التي حدثت في عصر المخضرمين وعبروا عنها ـ بطبيعة الحال ـ في شعرهم ، فالشق الأكبر منها عني برصد الشعر ووصف أحواله وصلته بالأحداث الإسلامية في البيئات المختلفة التي نشأ فيها المخضرمون ، كما أنها عنيت برصد شعر المشركين واليهود؛ لذلك لم يتمهل الباحث في دراسة وتحليل المؤثرات والظواهر الإسلامية المختلفة،ومن ثم تسرع في إطلاق أحكامه وتعميمها في أغلب الأحيان،فقد رأى أن الشعر الإسلامي لم يوفق التوفيق المرتجى في تمثيل الدعوة

الإسلامية والتعبير عنها إلا بقدر ، ورأى أيضًا أن شعر الفتوح ـ برغم أنه قيل في مناسبات دينية هي الجهاد في سبيل الله ـ لم تتضح فيه الطوابع الإسلامية كل الوضوح ولـم يمثل جماعـة المسلمين ، بل كان غناء ببـطولات فردية أو جماعية قبلية ، وأن النزعة الإسـلامية لا تمثل عموم هذا الشعر ، بل الطابع العصـبي الجاهلي هو السائد المتمـيز فيه ، وفي أثناء عـرضه لخصائـص شعر المخضـرمين رأى أن النهج الجـاهلى هو السائد في أسـاليب شعـرهم ، وأن القصيدة العربية لم تنل تطورًا واسعًا على هدى الإسلام .

وكـأنه يريد للشعـراء أن يكونوا حـملة لهذا الدين أوفـقهـاء يدعون إليـه ويبلغـون رسالتـه؛ ولذلك تبـاينت أحكامه وتـرددت فى مواضع كـثيـرة من البحث. وقد ادعـى الباحث فى مقدمة بـحثه أنه درس فترة بكرا لـم يطرقها قبله أحد من الباحثين ؛ لأنه أغفل دراسة أخرى لاتقل أهمية عن دراسته، بل كان لصاحـبها قصب السبق فى طرق هذا الموضـوع. فقد قام حامـد متولى الخولى بدارسة شـعر المخضـرمين فى رسالته التى تـقدم بها للحـصول على درجـة الدكتـوراه من كلية دار العـلوم عام ١٩٥٦ ، وهى دراسة جـادة لها أهمـيتـها فى هذا الموضـوع، وأغلب ظنى أن الظروف لم تكن مـهيـأة أمام صاحبـها لنشرها ولذلك لم يتمكن الجبـورى من الاطلاع عليها، ولو اطلع عليهـا لادخر كثـيرا من الجهد الـذى بذله فى بحثه، أو على أقل تقـدير كان يمكنه أن يكمل مـا بدأه هذا البـاحث، فـقد أفـاض فى تعـريف الخـضرمـة والمخضرمين، وتحدث عن الجاهلية وشعـرائها وموقف الإسلام من الشعر،ثم عرض لشعر المخضرمين الجاهلى وأبان خصائصه ومزاياه، ثم عرض لشعرهم الإسلامى وأبان أيضا خصائصه ومزاياه وعقـد موازنة بسيطة ـ تنقصها وسائل البحث العلمى الدقيق ـ ليبين وجوه الاتفاق والاختلاف بين شعرهم الجاهلى والإسـلامى. وفى الشق الأخـير من بحـثـه تحدث عن نمـاذج من الشعـراء

المخضرمين أمثال حسان بن ثابت والحطيئة ولبيد وأمية بن أبى الصلت.

وإن كان هذا الباحث لم يبن دراسته على أساس فنى تحليلى إلا أننا نعترف له بالفضل فى طرق هذا الموضوع - شعر المخضرمين - وتحديد بعض معالمه.

ومن الدراسات العلمية الجادة بحث أستاذنا الدكتور/ محمد مصطفى هدارة (الإسلام والشعر) الذى كتبه عام ١٩٦٦م. ونشره فى كتابه دراسات ونصوص فى الأدب العربى، وقد تحدث فيه عن موقف القرآن الكريم من الشعر وموقف الرسول - ﷺ - ثم عرض للشعر فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين، وتحدث عن موضوعاته المختلفة ووضع أيدينا على العديد من الموضوعات الإسلامية الجديدة كالشعر التعليمى وشعر الاعتذار الإسلامى، ثم تحدث عن الشعر الحماسى وتحوله إلى شعر سياسى يعبر عن الانقسام الذى شهدته الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأشار كذلك إلى السمات الفنية التى تميز بها الشعر فى هذه الفترة.

ومن الدراسات الجادة أيضا تلك الدراسة التى قامت بها الدكتورة/ عائشة عبدالرحمن فى كتابها (قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر) الذى نشر بدار المعارف عام ١٩٧٠، وقد كشفت النقاب عن كثير من القضايا التى اختلف فيها النقاد والمؤرخون ، وجلت الغموض عن فترة المخضرمين بعد أن أفاضت فى تحديد مفهوم الخضرمة وإرهاصات التحول فى حياة المجتمع العربى قبل الإسلام، ورسوخ القيم الجديدة فى نفوس الشعراء بعد الإسلام ومدى تأثرهم بها.

ولهذه الدراسة أهميتها إذ حاولت ربط الأدب فى مختلف عصوره بالمجتمع بوصفه مرآة تنعكس عليها آثار التطور والتغيير.

وإلى جانب هـذه الدراسات هناك دراسات أخـرى ينبغى أن أشـير إليـها منها: بحث للدكـتور/ سعـيد حسن منصور بعـنوان(حركة الحيـاة الأدبية بين الجاهلية والإسلام). نشرته دار المعارف عام ١٩٧٦م وقـسمه إلى ستة فصول لامجال للحديث عنها فى هذا الموضع.

وثمة دارسة أخـرى نشرتها الهيـئة المصرية العامـة للكتاب عام ١٩٨٣م. وقام بها الدكتـور/ عبد الحليم حفنى وهى بعنوان :(الشعـراء المخضرمون). وهذه الدراسة تحتاج إلى وقفة طويلة ليس هنا موضـعها؛ لأن صاحبها ـ فى ظنى ـ لم يطلع على الدراسات السابقة التى عرضت لشعر المخضرمين، فهو لم يشر إليهـا لا من قريب ولا من بعيد،ثم إنه يتحدث فى أكـثر من خمس وعشرين صفحة عن المخضرم والشـاعر المخضرم وموقف الدين من الشعر ، ثم إننى حـاولت أن أصنف منهجـه وفقـا لمناهج البحث العلمى الدقـيق فلم أستطع أن أجد له تصنيفا يمكننا أن نخلص منه بنتائج علمية هامة تكمل مسيرة الباحـثين السابقـين. وبالإضافة إلى اضـطراب منهجـه نجده يتخـبط فى آرائه وأحكامه ؛ لأنه بنى بحـثه على قاعدة واهيـة يعوزها البحث والتنقـيب، فقد رأى أن الشعـراء المخضـرمين كانوا أضـعف جيلهم تمسكا بـالإسلام وآدابه ؛ ولذلك اختلطت نتائجه فلانكاد نظفر منها بشىء له أهميته.

وفى عام ١٩٨٣م أيضا نشر الدكتور/ سامى مكى العانى فى سلسلة عالم المعرفـة دراستـه(الإسلام والشـعر) وهى من الدراسـات العلمية الجـادة التى وضعت أيدينا على بعض اتجـاهات الشعر فى هذه الفـترة ، فقد بدأ دراسـته بتمهيد تحدث فيه عن مـكانة الشعر عند العرب قبل الإسلام وناقش فى الباب الأول دعوى ضعف الشعر الإسلامى ، وتحدث عن هذا الصراع الشعرى بين مكة والمدينة ، وأفاض فى بيـان موقف الإسلام من الشعر فـتحدث أولا عن موقف القرآن الكريم من الشعر ثم موقف الرسول- ﷺ.

وتحدث فى الباب الثانى عن أثر الإسلام فى الأغراض الشعرية المختلفة معتمدا على نصوص شعرية لشعراء صدر الإسلام وشعراء الدولة الأموية وقلما يذكر نصوصا لشعراء مخضرمين.

ثم تحدث فى الباب الثالث عن الخصائص الفنية لشعر صدر الإسلام والعصر الأموى ، وحاول إظهار أثر الدراسة فى الجوانب الفنية المختلفة، وبالرغم من أن هذه الدراسة لم تهتم ـ فى الغالب ـ بدراسة شعر المخضرمين إلا أنها أفادت الباحث إفادة ملحوظة حيث جلت كثيرا من الغموض الذى يحيط بأشعار فترة صدر الإسلام.

وثمة دارسة أخرى بعنوان :(شعر يثرب فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام) وهى دراسة جامعية تقدمت بها الباحثة ورد محمدى مكاوى عزب للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة الأسكندرية عام ١٩٩٠م، وهى لاتقل أهمية عن سابقتها ؛ إذ أنها أحدث دراسة علمية فى شعر هذه الفترة ، وإن كانت اقتصرت على شعراء يثرب دون غيرهم إلا أنها استطاعت أن توضح أهم ملامح شعرهم الجاهلى والإسلامى عن طريق الموازنة والمقارنة وبالتالى بيان أثر الإسلام فى موضوعات شعراء يثرب مركز الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام ، ثم بيان أهم الخصائص الشكلية فى شعرهم الجاهلى والإسلامى.

وإلى جانب هذه الدراسات العلمية التى أفادت الباحث وذللت أمامه كثيرا من الصعوبات، فهناك دراسات أخرى لاتقل أهمية عن سابقتها قام بها نخبة من الباحثين المدققين، وهى وإن كانت تتناول بعض الجوانب فى شعر المخضرمين إلا أنها لها أهميتها فى تحديد معالم شعرهم. وهذه الدراسات أشرت إليها فى مواضع مختلفة من البحث.

وينبغى أن أشير فى هذا الموضع إلى أهميــة المصادر الأدبية والتاريخية التى كانت منارا وهاديا للباحث فى هذه الدراسة، فلا غنى لأى باحث فى مجال الأدب من الرجوع إليـها ككتب السيرة والتـاريخ والطبقات وأخبـار الشعراء وكتب الأدب الجامـعة، واعتقد أن هذه المصادر فى غنى عن التـحدث عنها. بالإضافـة إلى دواوين الشعـراء أنفسـهم التى سجلت أثرا ملحـوظا فى هذه الدراسة. وهذه المصادر جمـيعها ـ بعد الاهتمام البالغ بدراسـتها ـ أفادتنى إفادة قيمة، وأمدتنى بمعلومات رئيـسة جديدة ، استطعت من خلالها أن أتمثل شعر المخضرمين وأقف على تحليل الظواهر الإسلامية فيه.

وقد تعلمت من أستاذى الجليل الدكتـور محمد مصطفى هدارة أن البحث العلمى المبتكر هو فى الحـقيقة ـ وقبل كل شىء ـ البـحث المستوعب الذى لايتجاهل صاحـبه شيئا مما كتب قـبله فى موضوعه. وبغير هذا الاسـتيعاب العلمى الضرورى لا يمكن للبـحث الجديد أن يسجل فى مـيدان العلم خطوة التقدم التى لابد منها ليكون بحثا مبتكرا.

ولست أدعى أن هذه الدراسة استـيعاب أو استقصاء لشـعر المخضرمين أو أنها كشفت النقاب عن كل الظواهر الإسلامـية التى وجدت فى شعرهم فهي لا تتجـاوز وضع لبنة في صرح ضـخم،فما زال كـثير من الموضـوعات في شعرهم جديرا بأن يفرد ببحث مسـتقل يكشف عن معالم جديدة تضاف إلى بعض النتائج التى توصلت إليـها من خلال الوقوف على النصـوص الشعرية والأحداث التاريخيـة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفـة، ودراستها دراسة صابرة متأنية وفقا للمنهج الذى اتبعناه فى هذا البحث.

فالفن ـ فى الحقيقة ـ جانب حيوى من جوانب الحياة العامة وثيق الصلة بها، يؤثر فيها ويتأثر بهـا، والأدب وبخاصة الشعر أسمى أنواع هذه الفنون.

لذا لانكاد نتصور أن الشعر فى أى أمة يعبر عن شخصية أصحابه فقط دون أن يتأثر بالبيئة التى عاش فيها ؛ لأن الشخصية والبيئة لهما أثرهما فى نمو أى فن وتطوره. ومن هذا المنطلق تحدد منهجنا فى هذا البحث، فقد قسمته ـ فضلا عن هذه المقدمة ـ إلى ثلاثة أبواب رئيسة :خصصت الأول منها لدراسة أثر الإسلام فى الحياة العربية ، وقسمت هذا الباب إلى فصلين تحدثت فى أولهما عن القيم الاجتماعية والخلقية التى استحدثها الإسلام وغير بها قيما جاهلية، فتحدثت عن العصبية القبلية وموقف الإسلام منها مبينا مفهوم(الأمة) الإسلامية،ومفهوم الأخوة الإسلامية، كما تحدثت عن الرق فى الجاهلية وموقف الإسلام منه وحللت مفهوم (المساواة) فى الإسلام، وتحدثت عن النزعة الجاهلية فى الفخر وتوجيه الإسلام لها، كما تحدثت عن بعض القيم الجاهلية التى أقرها الإسلام مثل دفع الظلم وإباء الضيم وحق الجار، كما تحدثت عن الآفات الخلقية والاجتماعية التى كانت سائدة فى الجاهلية وقد حرمها الإسلام كالخمر والميسر، والفتوة الجاهلية وأثرها فى سلوك الشعراء، كما تحدثت عن محاربة الإسلام للجرائم الخلقية والاجتماعية فتحدثت عن أسباب ظهور الصعاليك فى المجتمع الجاهلى، ومنهج الإسلام فى تحقيق التكافل الاجتماعى والاهتمام باليتامى وحسن معاملتهم، ثم تحدثت فى نهاية الفصل عن موقف الإسلام من جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة كتكريم المرأة وتنظيم علاقتها بالرجل، ومنع البغاء ووأد البنات، وحسن معاملة الأبناء، والمحافظة على أعراض المسلمين، والنهى عن بعض الفواحش التى كانت تشيع فى المجتمع الجاهلى.

ثم يأتى الفصل الثانى ليبين التعاليم الدينية التى أتى بها الإسلام وغير بها المجتمع العربى فى الجاهلية تغييرا كليا فتحدثت عن اضطراب العقيدة لدى عرب ماقبل الإسلام، ودعوة الرسول ـ ﷺ ـ إلى الاعتقاد بوحدانية

الله والنظر فى الكون والتأمل فى المخلوقات، وكيف وضحت آثار هذه العقيدة فى نفوس المسلمين وسلوكهم، ثم تحدثت عن العبادات التى وجب على المسلم أداؤها، وأوجزت الحديث حتى لايخرج البحث عن منهجه، وكان هدفى من ذلك الربط بين هذه العبادات وأثرها فى نفوس المسلمين ونتائجها التى انعكست على سلوكهم فى الحياة. ثم تحدثت عن بعض الآداب والتعاليم التى شرعها الإسلام لتحقيق مكارم الأخلاق ، كالإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما، والجهاد فى سبيل الله، والحض على قول الخير وفعله، وذم التكبر والكبرياء، والحياء ثم الصبر. وكان هدفى من ذلك أن أبين انعكاس هذه التعاليم فى نفوس الشعراء.

ويتحدث الباب الثانى عن الظواهر الإسلامية فى موضوعات شعر المخضرمين. وقسمته أيضا إلى فصلين تحدثت فى أولهما عن الظواهر الإسلامية فى الموضوعات التقليدية التى استمرت فى ظل الإسلام، فبعد أن بينت أثر الإسلام فى تفتيق شاعرية الشعراء المخضرمين وتوجيههم نحو الفضائل والمثل العليا تحدثت عن أغراضهم التقليدية، وحاولت قدر استطاعتى أن أوضح بالدراسة والتحليل ملامح التغيير والظواهر الإسلامية التى طرأت على موضوعات شعرهم معتمدا على النصوص فى محاولة لبيان مافيها من جديد يتلاءم مع الفكر الإسلامى الذى غير حياة العرب. فتحدثت عن شعر المديح ، وبيّنت السمات الإسلامية فى مدح الشعراء للرسول - ﷺ- بوصفه مصدرا للهداية، كما تحدثت عن صلة الرسالة بالسماء وتأييد الملائكة للرسول - ﷺ - ومعجزاته، وحيائه، وشفاعته يوم القيامة، ثم تنكيله بالملحدين، وتحدثت عن السمات الإسلامية فى مدح الصحابة الراشدين كحب الصحابة للرسول - ﷺ - وطاعتهم ونصرتهم له والتأسى بالصحابة فى العدل والمساواة، ثم تحدثت عن مدح الذات الإلهية. كما تحدثت عن الهجاء وموقف الإسلام منه وبينت السمات الإسلامية فيه التى

تمثلت فى: الذود عن الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ ، وتعيير المشركين بالكفر وعبادة الأوثان، وتغرير الشيطان للمشركين وطاعتهم له، ونقضهم لعهد الرسول ـ ﷺ ـ وعصيانه، وتحدثت عن هجاء المنافقين والمرتدين ثم هجاء اليهود .كما تحدثت عن شعر الفخر بأقوام المسلمين الذين نصروا الإسلام ورسوله، والفخر بالولاء للرسول ـ ﷺ ـ والتفانى فى نصرته والفخر بتقوى الله والإشادة بنعمه، وذود المشركين عن الكفر، وتأييد الملائكة وانتصار جند الله، ثم الفخر بنيل الشهادة فى سبيل الله. كما تحدثت عن الحماسة وتغير مفهومها فى ظل الإسلام وتأثر معانيها بفكرة الجهاد فى سبيل الله وقد تمثلت فى الهجرة إلى الله ورسوله، وتخليص المستضعفين من أيدى الكفرة، والإيمان بفكرة الجهاد فى سبيل الله، والصبر فى القتال والثبات فى المعارك واستشعار الوحدة الإسلامية، وإخلاص النية فى الجهاد من أجل تحقيق النصر أو الشهادة، ثم التطلع إلى نعيم الجنة. كما تحدثت عن الرثاء وتغير مناقب التأبين وخضوعها للمقاييس الإسلامية الجديدة وأوضحت السمات الإسلامية وقد تمثلت فى : انقطاع الوحى عن المسلمين بموت الرسول ـ ﷺ ـ وغياب النور الذى يهدى البشر، والعدل والتقوى، ونصرة الإسلام وجهاد الكفار، وذكر الجنة وما أعده الله للشهداء، والتماسك والصبر والامتثال لإرادة الله وقضائه، والتأمل الذاتى ورثاء الشعراء لأنفسهم، ثم رثاء الشعراء لأعضائهم التى فقدوها فى سبيل الله. ثم تحدثت عن النسيب وتوجيه الإسلام له وبينت السمات الإسلامية فيه، وقد تمثلت فى تقوى الله والرضا بقدره، والبعد عن الوصف المباشر والاتجاه إلى الرمز.

ثم جاء الفصل الثانى من هذا الباب دراسة للظواهر الإسلامية فى موضوعات الشعر الجديدة. وقد حصرتها فى الشعر التعليمى الإسلامى الذى يدعو إلى الإيمان بوحدانية الله، والتقوى وبر الوالدين ، والحض على

الوحدة والتحذير من النميمة ، والدعوة إلى صلة الرحم والرفق باليتامى والمساكين والحض على العمل الصالح ، والإيمان بالقضاء والقدر وبعض الوصايا العامة. ومن الموضوعات الإسلامية الجديدة التى تحدثت عنها فى هذا الفصل شعر التوبة والاعتذار الإسلامى، وشعر العتاب ، والنقائض الإسلامية، وشعر الصراع الدينى والسياسى وما تضمنه من حركة الردة وانقسام الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان، ثم شعر الحنين إلى الوطن وتصوير البيئات الجديدة فى أثناء حركة الفتوح الإسلامية.

ولاشك أن بعض هذه الموضوعات كانت لها أصول ثابتة وجذور غير نامية فى الشعر الجاهلى، ولكنها نمت وازدهرت ازدهارا واضحا عند المخضرمين فى ظل الإسلام.

ثم أفردت الباب الثالث للحديث عن الظواهر الإسلامية فى عناصر الشكل الفنى ؛ لأبين إلى أى مدى كان التوافق والتلاؤم بين المضمون والشكل. وقسمته إلى فصلين: درست فى أولهما لغة الشعر وموسيقاه، فتحدثت عن لغة الشعر وارتباطها بالتطورات التى حدثت فى المجتمع الإسلامى ، وتحقيق التجانس بين اللفظ والمعنى فى شعر المخضرمين ، وأثر القرآن فى تطور لغة شعرهم، واختفاء الجزالة البدوية القديمة التى حلت محلها بساطة الأسلوب ورقة الألفاظ، ثم تحدثت عن عدة ظواهر إسلامية ظهرت فى معجمهم الشعرى كالاقتباس من القرآن الكريم وأحاديث الرسول - ﷺ - ،وظهور ألفاظ وتراكيب ذات دلالات جديدة، وظهور ألفاظ ومصطلحات استدعتها الحياة الإسلامية الجديدة ثم تحدثت عن الظواهر الإسلامية فى أسلوب شعرهم. ثم تحدثت عن الموسيقا بوصفها عنصرا هاما فى عناصر الشكل الفنى، وبينت إلى أى مدى كان التزام المخضرمين بالأوزان

العربية المعروفة التى تتناسب وأذواق المتلقين فى هذه الفترة ، ثم تحدثت عن تنوع الأوزان العربية وموافقتها لأحوال النفس المختلفة، وبينت فى هذا الموضع أن الوزن وحده لا يكفى لتحديد الحالة النفسية للشاعر، وإنما تتحد عناصر الشكل الفنى المختلفة لتحديد حالته النفسية، كما بينت أثر الإسلام فى إحساس الشعراء بالاطمئنان النفسى الذى جعلهم يميلون إلى البحور الطويلة والقافية الموحدة، كما تحدثت عن الموسيقا الداخلية التى يحدثها جرس الألفاظ وتكرار حروف معينة داخل البيت الواحد، وتحدثت عن الأسباب التى دفعت المخضرمين إلى استخدام البحور ذات الإيقاع المتلاحق وانتشار الرجز بصورة واضحة، وتنوع حروف الروى المطلقة والمقيدة التى ساهمت فى روعة الموسيقا الخارجية لأغلب قصائدهم.

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تحدثت عن الصورة الفنية وبناء القصيدة، فتحدثت عن الصورة بوصفها مصطلحا نقديا عرفه القدماء والمحدثون، ثم عرضت للظواهر الإسلامية فى الصورة الفنية عند المخضرمين، فتحدثت عن المصادر الإسلامية فى صورهم وقد تمثلت فى: صورة الهداية، ومادتها التى حددتها فى النور والضياء، والحبل والنعمة والدليل والوحى، وصور التقوى، وصور الخير والشر والإيمان والكفر، التى استخدمت فيها مادة البيع والشراء، وصور الثواب والعقاب، ثم الرمز بوصفه، وسيلة من وسائل التصوير الفنى عند المخضرمين. كما تحدثت عن بناء القصيدة عند المخضرمين ، وناقشت فى هذا الموضع ثلاثة موضوعات رئيسة كان أولها التحرر من النهج الفنى للقصيدة العربية وثانيها: الميل إلى المقطعات، وآخرها الوحدة العضوية.

وختمت البحث ببيان أهم النتائج التى توصلت إليها ، وألحقت فى نهايته ثبتا بالمصادر والمراجع التى تم الاستفادة منها.

وبعد، فهذه دراسة متواضعة بذلت فيها أقصى مايحتمله جهدى ولم أضن عليها بالإخلاص والصبر، والوقت، وأملى أن تسد فراغا فى الدراسات الأدبية أشرت إليه فى هذه المقدمة. وأرجو أن يكون لها بعض النفع للمتخصصين وغيرهم الذين يبغون الاطلاع على شعر هذه الفترة المشرقة فى تاريخ أمتنا العربية.

ولى عظيم الثقة أن أزجى وافر شكرى لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة ولن يحول تواضعه بينى وبين الإشادة بما له على من أياد بيض كريمة منذ التحاقى بجامعة الأسكندرية. فقد كان لغزير علمه وسعة صدره وعظيم رعايته وحسن توجيهاته ما فتق أمامى مسالك هذا البحث، ويسر سبل الطريق الوعر، وخفف الآلام، ودفعنى إلى الأمام، فالله أسأل أن يجزيه عنا خير الجزاء، ويأجره أجر العلماء المخلصين، ويسبغ عليه من فضله ورضوانه، كما أسبغ هو على من فضله وعلمه وحسن رعايته.

كما أزجى وافر شكرى لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/ عبدالرحيم محمود زلط لما أبداه لى من عظيم اهتمام وحسن توجيه، فقد كان لتوجيهاته السديدة أثر كبير فى إتمام هذا البحث.

وأدعو الله أن أكون قد وفقت فى هذا البحث إلى ماقصدت إليه بفضل من الله ونعمة، وعلى الله قصد السبيل.

مصطفى فتحى أبو شارب

رمضان المعظم ١٤١٠هـ

أبريل ١٩٩٠م

الباب الأول
أثر الإسلام فى الحياة العربيّة

الفصل الأول
القيم الاجتماعيّة والخلقيّة
الفصل الثانى
التعَاليم الدينيَّة

الفصل الأول

القيم الاجتماعية والخلقية

الشعر فى كل أمة خاضع لتطور حياتها فى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، هى التى تحدد مجراه ومساربه واتجاهاته، وهى التى تفرض عليه ماشاءت من التغيرات، فينتقل من طور إلى طور، وتتبدل موضوعاته وصوره وألفاظه وأساليبه، وتستثار فيه معان جديدة لم تكن موجودة، وتغلب عليه صياغة لم تكن مألوفة، وبقدر هذه التغيرات التى تحدث فى حياة كل أمة، يكون خطر التغيرات التى تحدث فى تطور الشعر والأدب عامة[1] ؛ لهذا كان من الطبعّى أن نتتبع فى بداية هذا البحث أثر الإسلام فى الحياة العربية ؛ لأن الإسلام ذو أثر كبير فى تغيير قيمة الأشياء والأخلاق عند العرب ، فكان بمثابة ثورة صدمت العقل الجاهلى ولابد أن يكون لهذه الثورة صدى، كما كان فاصلا فى أمور كثيرة جعلت مقومات الحياة الاجتماعية والخلقية عند الجاهليين تهتز اهتزازًا عنيفا ، وكان هدفه الأساسى فى كل مراحل الدعوة وتعاليمها يتلخص فى توحيد العرب وتأمين استقرارهم الاجتماعى.

العصبية القبلية وموقف الإسلام منها .

ولما كان النظام القبلى هو الأصل فى المجتمع العربى قبل الإسلام، والقبيلة بوصفها وحدة اجتماعية تتألف من أبناء القبيلة الخلص الذين تربط بينهم وشائج الدم والنسب، وهؤلاء يكونون طبقة الأحرار، وهم عماد القبيلة وقوامها، وثمة طبقة أخرى تتكون من عناصر دخيلة هى طبقة العبيد، وهم الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة الذين يشترون بالمال أو يؤسرون فى الحروب، وطبقة ثالثة: هى طبقة الموالى، والولاء فى القبيلة نوعان: ولاء عتق، وهو مايحدث عندما يتحرر العبد من عبوديته ويقيم على

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د/ محمد مصطفى هدارة - طبعة دار المعارف ١٩٦٣م ص ٢٣.

ولائه للقبيلة، وولاء حلف، وهو مايحدث عندما ينزل فى القبيلة أفراد من القبائل الأخرى يعيشون فى جوارها، ويحتمون بها، ويصبحون أفرادا من أفرادها وعلى القبيلة حمايتهم، وبذلك يصبح لهم حق التوطن فى القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبهم الوفاء بجميع حقوقها، مثلهم مثل أبنائها.

وقانون القبيلة الذى يربط بينها ويرعى مصالحها ويحافظ على وحدتها وكيانها هو قانون العصبية وشعور أفرادها بأنهم وحدة واحدة يجمع بينهم دم واحد، فالفرد يحمى القبيلة والقبيلة تحمى الفرد، فإذا جنى أحدهم جناية شاركته فى مسئوليتها، وإذا قُتِلَ لها أحد أبنائها نهضت القبيلة للأخذ بثأره؛ لأنها تعتقد أن سفك دمه إنما هو سفك لدمها وإهدار لكرامتها. وإذا تتبعنا حروب العرب فى الجاهلية وأيامها وجدنا أن الثأر هو الدافع الأول والباعث الرئيسى لهذه الحروب، والتكاسل عنه والتوانى فى طلبه معناه الهوان والضيم، وهما السوأة الكبرى إذ يعنيان الذل والمهانة وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن أعراضها وشرفها وكرامتها، فنرى (أم عمرو بنت وقدان) تحذر أفراد قبيلتها من أن يضيعوا دم أخيهم، فتقول لهم تحضهم على طلب الثأر: إن ضيعتم دم أخيكم، وقعدتم عن الانتقام له، لتقصيركم فى طلب ثأره، فضعوا السلاح واطرحوه، وصيروا مع الوحش حياءً من فعلكم، واهجروا الناس وجانبوهم إلى الأبرق ذلك المكان الذى يمتلئ بالحجارة لتتزيوا هناك بزى النساء، وتتعطروا وتتزينوا بزينتهن، فإنكم إن لم تثأروا لأخيكم فإنكم إناث وبئس القوم أنتم، تقول[1]:

إنْ أَنْتُمُ لَمْ تَطْلُبُوا بِأَخِيكُمُ ... فَذَرُوا السِّلاَحَ وَوَحِّشُوا بالأَبْرَقِ
وَخُذُوا الْمَكَاحِلَ وَالْمَجَاسِدَ والْبَسُوا ... نُقَبَ النِّسَاءِ فَبِئْسَ رَهْطُ الْمُرْهَقِ

وعندما نقرأ الشعر الجاهلى نجد أن الثأر عندهم كان شيئا مقدسا أشبه شىء بالعقائد الراسخة المتمكنة من النفس، فهذا رجل من العرب، قُتِلَ

(١) شرح ديوان الحماسة للمزروقى، بتحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر، جـ٣، ص١٥٤٦.

أبوه، فأراد الطلب بثأره، فأتى ذا الخلصة[1] فاستقسم عنده بالأزلام، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فقال[2]:

لَوْ كُنْتَ يَاذَا الخُلصِ الْمَوْتُورَا   مِثْلى وَكَانَ شَيْخُكَ الْمَقْبُورَا

لَمْ تَنْهَ عَنْ قَتْلِ الْعُدَاةِ زُورَا

كما كانوا يحرمون على أنفسهم شرب الخمر وأكل اللحم، والاغتسال والاقتراب من النساء، ويصومون عن متاع الدنيا، ولا تهدأ لهم نفس أو تقرّ لهم عين، ويمسكون عن بكاء قتلاهم حتى يدركوا ثأرهم، فإذا أدركوه بكوا حينئذ، يقول الربيع بن زياد العبسى[3]:

مَنْ كَانَ مَسْرُورا بِمَقْتَلِ مَالك   فَلْيَأْت نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَار

يَجِدُ النِّساءَ حَوَاسِرًا يَنْدبْنَهُ   يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بِالأَسْحَار

قَدْ كُنَّ يَكْنُنَّ الْوُجُوهَ تَسَتُّرًا   فَالآنَ حِينَ بَرَزْنَ لِلنُّظَّار

وكانوا يعتقدون أنه إذا قتل الرجل فلم يطلب وليه بدمه ولم يثأر به، خرج من قبره طائر يسمى الهامة فلا يزال يزقو عند قبره حتى يثأر به[4]. وإلى هذا يشير ذو الإصبع العدوانى فى قوله:[5]

---

(١) ذو الخلصة: صنم. قال ابن إسحاق: (كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة) سيرة النبى - ﷺ - لأبى محمد عبد الملك بن هشام، بتحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - دار التراث القاهرة جـ١، ص٩١.

(٢) المصدر نفسه. (ومن الناس من ينحل هذا الرجز امرأ القيس بن حجر الكندى)

(٣) عيار الشعر لمحمد أحمد بن طباطبا العلوى، دراسة وتحقيق د/ محمد زغلول سلام. طبعة منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٨٠م ص٤٧. وراجع أيضا: نقائض جرير والفرزدق بشرح أبى عبيدة طبعة بريل ١٩٠٥م جـ١ ص٨٩، وقد ذكر الأبيات براوية مختلفة.

(٤) النقائض جـ١ ص٨٢، والمعانى الكبير فى أبيات المعانى لابن قتيبة الطبعة الأولى ١٩٨٤م، نشر دار الكتب العلمية، بيروت جـ٢ ص١٠٠٨ وما بعدها. وذكر قول عمرو بن معدى كرب:

لصاحت تنادي الهام منهم بأرضنا   صياح الندامي حول بيت تجـار

وراجع أيضا: تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ - من الأخبار لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمود شاكر، مسند على بن أبى طالب، مطبعة المدنى بالقاهرة (د/ت) ص٣٩.

(٥) المفضليات: اختيار المفضل بن محمد بن يعلى الضبى، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة السادسة بدار المعارف ص١٦٠.

ياعَمْرُو إنْ لاتَـدَعْ شتْمِى ومَنقِـصتَى   أَضْرِبْكَ حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةُ اسقُونِى

ومنه قول أبى دؤاد الإيادى:[1]

سُلِّـط الدَّهْـرُ والْمَـنُونُ عَـلَيْـهمْ   فَـلَهُـمْ فِـى صَدَىٰ الْـمَـقَـابِر هَـامُ

فنظام الثأر فى القبيلة على هذا النحو شديد التأثير فى حياة أفرادها لأنه بمثابة امتحان للقبيلة فى قوة تماسكها وإدراكها لوحدتها.

الأخوة الإسلامية.

فلما جاء الإسلام لم يكن من السهل انتزاع هذا الشعور القبلى المتغلغل فى النفوس والمسيطر على الحياة الاجتماعية ؛لأنه عندهم بمثابة غريزة من الغرائز التى طبعت عليها نفوسهم.

فقد شهد القرآن بأن العداوة كانت أصلا فى المجتمع العربى وروحا شريرا تحكمه وتسيطر عليه، فلما نزل القرآن وآمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر من آمن تحول المتعادون إلى أحبة، والمتحاربون إلى أخوة[2]، فقال تعالى:

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[3].

فالإسلام دعا إلى الأخوة الإسلامية بوصفها رابطة أقوى لتحل محل الرابطة القبلية الضعيفة، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[4].

---

(١) الأصمعيات: اختيار الأصمعى أبى سعيد عبد الملك بن قريب، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة بدار المعارف ص ١٨٧.

(٢) السلوك الاجتماعى فى الإسلام، حسن أيوب ، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م دار التراث العربى ص٢٩٦.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٤) سورة الحجرات، آية ١٠.

والأخوة الإيمانيـة الصادقة حين تتشبـع بها أسرة أو مجتمع أو أمـة، فإنها تُحْدث انقـلابا اجتماعيـا عميق الأثر، عظـيم الخطر، بعيـد المدى فى آثاره ونتائجه. ولذلك امتن الله تعالى على المـؤمنين بأن جعلهم مؤمنين مخلصين. وقدم التفضل بالأخـوة على التفضل بالإيمان، لتعظـيم فضل الأخوة وأنها لا تقل عن فـضل الإيمان إلا بمقدار مايـقل الفرع عن الأصل، مـع شدة ارتباط كل منهما بالآخر [١].

فالأخوة الإسلامية إنما تولد الجماعة، والأمة ـ وهى موحدة وليست مفرقة كالقبيلـة ـ بديلة للتنفيس عن غـريزة التعصب للنسب وكبـح جموح الانتماء للقبيلة ومن ثم تجعل التعصب للدين نـفسه، ويصبح الانتماء للذين يجمعهم الدين لا النسب والدم. وفى ذلك يقول أحد الباحثين: [٢] ويزداد هذا الإخاء توثقا وتأكدا إذا أضيف إليه عنصر الإيمـان فتجتمع الأخوة الدينية إلى الأخوة الإنسانية، وتزيـدها قوة على قوة، وإذا كان باب الإيمان مفتـوحا لكل الناس بلا قيد ولا شرط ولا تحـفظ على جنس أو لون أو إقليم أو طـبقة فإن الإخاء الدينى المتفـرع عن الإيمان والعقيدة لا يضعف الإخاء العـام، بل يشد عضده ويقويـه، ويجعل له فى واقـع الناس كتلـة حية ملمـوسة تؤمن به وتطـبقه، وتدعو إلـيه، وتدافع عنـه، فلا تناقض إذن بـين الإخاء البشرى الـعام وبين الإخاء الدينى الذى نلمسه فى مثل قوله تعالى: [٣]

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾

وقد نجح هـذا المعنى الـبديل فى عـهد النبـى ـ ﷺ ـ والخلفاء الـراشدين حينما أحسـن المسلمون تطبيقه والـتمسك به، فقوة العقيـدة والإيمان هى التى كانت تحركهم بطـريق مباشر وغير مباشر، وهذه صورة لم تـكن مألوفة قبل الإسلام، وهى غاية لم يكـن غير الإسلام يستطيع أن يحققـها، فأضعف من شأن القبيلة لتحل محلها فكرة الأمة، ومن ثم بدأت تظهر القومية الإسلامية،

---

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص ٢٩٦.

(٢) الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي،الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م نشر مكتبة وهبة ص٨٥.

(٣)سورة الحجرات آية ١٠.

يقول الله تعالى فى محكم كتابه:[1] ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهى أمة لها سلطان واحد هو الله عز وجل يعلو على السلطان القبلى وعلى كل السلطات، قال تعالى:[2] ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾.

وقوله تعالى:[3] ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وهذا التغيير الخطير فى المجتمع هو الذى أخبر الله عنه بأنه من وضع الله وحده وأن أى مخلوق لايقدر أن يفعله مهما أوتى من العقل ونور الفكر وحسن المعاملة[4]. قال تعالى لنبيه - ﷺ -:[5]

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وبهذه التعاليم الإلهية ألغيت العصبية القبلية وحلت محلها الرابطة الدينية التى وحدت بين الناس، وانتقل حق الأخذ بالثأر من الفرد والقبيلة إلى الدولة لتوقع الجزاء على القاتل حتى لا يجر الثأر سلسلة من المعارك والحروب التى لاتنتهى وتفنى فيها قبائل بأكملها، وتترسب فى نفوسهم العداوة والبغضاء والحقد والكراهية التى تساعد على نمو العصبية القبلية التى نهى عنها الإسلام ؛لأنه أرسى قواعد اجتماعية جديدة لهذه الأمة، فأمرهم بالتعارف وعدم التنابز، وأمرهم بتقوى الله الواحد القهار وأن يتعاونوا على الخير والبر، وأن ينهوا عن المنكر.

الرق فى الجاهلية وموقف الإسلام منه.

ومن الأمور الاجتماعية التى عالجها الإسلام ولها صلة وثيقة بمبدأ الأخوة

---

(١) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية٩٢.

(٣) سورة المؤمنين ، آية ٥٢.

(٤) السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص٢٩٦.

(٥) سورة الأنفال، آية ٦٣.

الإسلامية نظام الرق والعبودية، فالعبد أو الرقيق إنسان محروم من الأهلية، مملوك لإنسان غيره، يتصرف به تصرفه بملكه، فله أن يستخدمه ويؤجره ويرهنه، ويبيعه ويهبه.

وقد تفشى الرق بين عرب الجاهلية كغيرهم من الأمم القديمة، وكانت طبقة الرقيق فى بلاد العرب تمثل الطبقة الكادحة التى تقوم بالأعمال التى يترفع عنها السادة الأحرار، والسادة - فى الغالب - كانوا يعاملونهم معاملة سيئة تزيد من إحساسهم بالمهانة وشعورهم بأن تطلعاتهم معدومة، ليس لأحدهم الحق فى أى شىء مالم يمن به السيد. كما كانوا يشعرون بالغربة والعزلة لأنهم لم يكونوا على اتصال بأوطانهم الأولى، فكان عليهم أن يعيشوا وأن يموتوا فى هذا العالم الذى يضعهم فى قاعه الاجتماعى والذى لايسمح لقدراتهم بالظهور إلا فى دوائر بعينها يحرسها فى الوقت نفسه السادة[1].

ويحدثنا مالك بن حريم الهمدانى عن سياسة قومه فى معاملة العبيد وتعليمهم فهم ينزعون نعل العبد حتى يستطيع أن يسلك بالخيل السهل، وقد ملأت الخيل عقبيه دماء من كثرة السير، فيقول[2]:

ونَخْلَعُ نَعْلَ العَبْدِ من سُوءِ قَوْدِه	لِكيما يكونَ العبدُ للسَّهْلِ أَضْرَعَا
وقد وَعَدُوه عُقْبَةً فمشَى لهَا	فما نَالها حتى رأى الصُّبحَ أَدْرَعَا
وأَوْسَعْنَ عَقْبَيْه دماءً فَأَصْبحتْ	أَصابعُ رِجْلَيْه رواعِفَ دُمَّعَا

فكانت معاملة العبيد قبل الإسلام على هذا النحو الذى صوره الشاعر فى هذه الأبيات، فلما جاء الإسلام أقر الرق، ولكنه أقره فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج بدون أن يحدث ذلك أثرا سيئا فى نظام

(١) السود والحضارة العربية د/عبده بدوى - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ص١١١.

(٢) الأصمعيات ص ٦٥ وما بعدها

المجتمع الإنسانى ، بل بدون أن يشعر أحد بتغير فى مجرى الحياة والوسيلة التى ارتضاها للوصول إلى هذه الغاية من أحكم الوسائل وأبلغها أثرا وأصدقها نتيجة، وهى تتلخص فى العمل على تضييق الروافد التى كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه، وفى توسيع المنافذ التى تؤدى إلى العتق والتحرير، فقد كانت روافد الرق فى الجاهلية كثيرة متنوعة حصرها بعض الباحثين فى ثمانية روافد[١] ألغاها الإسلام جميعا ماعدا رافدين اثنين هما: رق الوارثة ورق الحروب. وعمد إلى هذين الرافدين فقيدهما بقيود تكفل نضوب معينهما بعد أمد غير طويل، وللدلالة على حرص الإسلام على تصفية الرق وإشاعة الحرية ماسلكه حيال العتق وتحرير العبيد، فقد كانت منافذ العتق قبل الإسلام ضيقة كل الضيق، فلم تكن له إلا سبيلا واحدة هى رغبة المولى فى تحرير عبده، فبدون هذه الرغبة كان مقضيا على الرقيق أن يظل هو وذريته راسفين فى أغلال العبودية أبد الآبدين. فحطم الإسلام هذه القيود جميعا، وفتح للعبيد أبواب الحرية على مصاريعها، وأتاح لتحريرهم آلاف الفرص، وتلمس للعتق من الأسباب مايكفى بعضه للقضاء على نظام الرق نفسه[٢].

ويمكن أن نشير فى هذا الموضع إلى نظرة الإسلام إلى تحرير الرقيق على أنه فدية كبيرة يتقرب بها العبد إلى ربه يكفر بها خطاياه، فقال تعالى:[٣]

---

(١) راجع حقوق الإنسان فى الإسلام د/ على عبد الواحد وافى ط٥ دار نهضة مصر ١٣٩٨هـ ١٩٧٩م ص١٨٤، ٢٠٢ وما بعدها، وسماحة الإسلام د/ أحمد محمد الحوفى ط٢ دار نهضة مصر (د/ ت) ص ٢٠٩ وما بعدها.

(٢) راجع حقوق الإنسان فى الإسلام ص٢٠٩ وما بعدها.

(٣) سورة النساء، آية ٩٢.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ .
وقوله تعالى:[1] ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ .

كما جعله من الأعمال الجليلة التى يتقرب بها المؤمن إلى الله للوصول إلى الجنة، فقال تعالى:[2] ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾. ولم يكتف الإسلام بهذه المنافذ بل خصص سهما من الزكاة التى كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة فى الإنفاق على تحرير الأرقاء وعتقهم، فقال تعالى:[3]

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وكذلك أوجب على الموالى حسن معاملة عبيدهم وإمائهم، وأوصى أن ينزلوهم منزلة أفراد أسرهم، وقد وردت هذه الأحكام والوصايا فى كثير من أى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول-ﷺ- نذكر منها قوله تعالى:[4]

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ .

---

(١) سورة المجادلة، آية ٣.

(٢) سورة البلد، الآيات١١، ١٢، ١٣.

(٣) سورة التوبة، آية ٦٠.

(٤) سورة النساء، آية ٣٦.

فقد قرن الله تعالى فى هذه الآية وجوب الإحسان إلى ملك اليمين وهو الرقيق بوجوب عبادته وعدم الشرك به، وجعلهما فى منزلة واحدة، فأبان من جهة عن شدة حرص الإسلام على حسن معاملة الرقيق، وكشف من جهة أخرى عن اتجاه الإسلام إلى القضاء على نظم الرقيق واستعباد الناس بعضهم لبعض.

المساواة فى الإسلام.

وكذلك قرر الإسلام مبدأ المساواة حين **جعل المؤمنين إخوة والتمايز** بينهم بالتقوى والعمل الصالح وسوّى **بين الأجناس والأقوام فالناس** جميعا سواء كأسنان المشط لافرق بين **أبيض وأسود، ولا فرق** بين سيد ومسود. وفى ذلك يقول أحد **الباحثين: «وقد حرص الإسلام** على تقرير هذه المساواة فى أكمل **صورها، وجعلها من العقائد** الأساسية التى يجب أن يدين بها كل مسلم. **فقرر أن الناس سواسية** بحسب خلقهم الأول وعناصرهم الأولى وأن ليس ثم **تفاضل فى** إنسانيتهم، وإنما يجرى التفاضل بينهم على أسس خارجة عن **الإنسانية** نفسها: على أسس كفايتهم وأعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ومجتمعه والإنسانية جمعاء[1]».

وبهذا المبدأ الإسلامى ذابت كل الفوارق بين طبقات المجتمع، فالسيد فى الجاهلية أصبح لا يشرف على العبد أو المولى إلا بتقوى الله، والعبد فى الإسلام له كل الحقوق والواجبات التى للسادة والأحرار، مادام يؤمن بالله واليوم الآخر، ولذلك «غضبت قريش من ترحيب الرسول ـ ﷺ ـ بالعبيد

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام ص٨.

أكثر من غضبها من عقيدته الدينية» [1] وطلبوا من الرسول - ﷺ - أن يخلى لهم مجلسه من الفقراء والعبيد والموالى حتى يرضوا أن يجالسوه ويسمعوا منه دعوته، وانتظر النبى - ﷺ - أمر الله فى ذلك فنزل قوله تعالى: [2] ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾.

وقد ذكر القرطبى فى تفسيره لهذه الآية الكريمة أن النبى - ﷺ - لم يرد أن يفعل ذلك، ولكن الله نهاه عن أن يفعله [3]، لأن مبدأ المساواة دعا إليه جل ذكره فى قوله: [4] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

وذكر ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية الكريمة حديثا مرويا عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال: إن النبى - ﷺ - قال: «انظُرْ فَإِنَّكَ لَسْتَ بِخَيْرٍ مِن أَحْمَرَ وَلاَ أَسودَ إِلاَّ أَنْ تَفْضلُه بِتَقْوىَ الله» [5]

وذكر الثعالبى: [6] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل نافع بن عبدالحارث الخزاعى حين قدم عليه من مكة: من استخلفت على مكة؟ قال:

---

(١) قصة الحضارة- ول ديورانت. ترجمة محمد بدران. المجلد الرابع(عصر الإيمان) الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م لجنة التأليف والترجمة والنشر جـ٢ ص٢٨.

(٢) سورة الكهف، آية ٢٨.

(٣) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرج الأنصارى القرطبى ط٣-١٩٨٩م- ١٤٠٩هـ. دار الغد العربى. المجلد الخامس ص٤١٢١.

(٤) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير طبعة مكتبة التراث الإسلامى- سوريا ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، جـ٤ ص٢١٧.

(٦) ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف ص١٢.

ابن أبزى[1] ، قال أتستخلف على أهل الله مولى! قال: إنه أقرؤهم لكتاب الله تعالى، قال: «إن الله تعالى يرفع بالقرآن أقواما».

ونتيجة لهذه المساواة لم يعد فرق بين عربى وأعجمى إلا بتقوى الله، وأوضح مثل على ذلك أننا نجد المسلمين فى فتح(جند يسابور) يحاصرونها قرابة شهرين يغادون أهلها ويراوحونهم القتال، حتى رمى إليهم بالأمان عبد منهم يدعى (مُكْنِفا) وكان قد أسلم من قبل، فقبل المسلمون الأمان وأقروهم على الجزية، فإذا بهم يقولون: إنما هو عبد، فقال المسلمون: إنا لا نعرف حركم من عبدكم، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه، ولم نبدل، فإن شئتم فاغدروا. فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر ـ رضى الله عنه، فكتب إليهم: إن الله عظّم الوفاء، فلا تكونوا أوفياء حتى تفوا [2].

وبوحى من هذه المثل والقيم الإسلامية ينطق الشعر معبرا عن روح الجماعة فى تطبيق هذه المساواة فى الأمصار المفتوحة، فقال عاصم بن عمرو يذكر شفاعة مُكْنِفٍ لقومه وما تدل عليه من معان: [3]

لَعَمْرِى لَقَدْ كَانَتْ قَرَابَةُ مُكْنِفٍ ... قَرَابَةَ صِدْقٍ لَيْس فِيهَا تَقَاطُعُ
أجَارَهُمْ مِنْ بَعْدِ ذُلٍّ وقِلَّةٍ ... وَخَوفٍ شَدِيدٍ والْبِلادُ بَلاقِعُ
فَجَازَ جِوارَ الْعَبْدِ بَعْدَ اخْتِلافِنَا ... وَرَدَّ أُموراً كانَ فِيهَا تَنَازُعُ

---

(١) ابن أبزى: (هو عبد الرحمن بن أبزى الخزاعى مولى نافع بن عبد الحارث. أدرك النبى -ﷺ- واستعمله على- كرم الله وجهه ـ على خراسان) راجع: أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرين، طبعة دار الشعب جـ٣، ص٤٢٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الرابعة بدار المعارف جـ٤ ص٩٣ وما بعدها.

(٣) معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة دار صادر بيروت، جـ٢، ص ١٧١.

النزعة الجاهلية فى الفخر وتوجيه الإسلام لها.

ومن القيم الثابتة التى تغنى بها الشعراء الجاهليون فى أشعارهم وكانت بمثابة قواعد اجتماعية وأسس أخلاقية لبناء المجتمع الجاهلى الإشادة والفخر بأحسابهم وأنسابهم ، يقول المتلمس:(١)

وَمَنْ كَانَ ذَا عِرْضٍ كَرِيمٍ فَلَمْ يَصُنْ   لَهُ حَسَبًا كَانَ اللَّئِيمَ الْمُذَمَّمَا

ولذلك «أول ما يحرص عليه العربى نسبه. ولم يكن هذا طبع العرب وحدهم فالسامى بصفة عامة ـ كما تقول التوراة ـ كان حريصا على الأنساب، وكان النظام الأبوى سائدا فى القبيلة، وإن كانت هناك بقايا نظام انتساب للأم»(٢)

فالتفاخر بالأحساب والتنابز بالألقاب كان من عادات أهل الجاهلية، فقلما نجد شاعرا لا يفتخر بقبيلته ومالها من فعال، فالزبرقان بن بدر التميمى أحد أعضاء وفد بنى تميم على رسول الله -ﷺ- يفاخر أيضا بقومه ليرفعهم فوق الناس جميعا، فيقول:(٣)

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلا حَيٌّ يُعَادِلُنَا   مِنّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمُ   عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ

...

فَلا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نُفَاخِرُهُمْ   إلا اسْتَفَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْتَطَعُ

فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فى ذَاكَ نَعْرِفُهُ   فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ والأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ

إِنَّا أَبَيْنَا وَلا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ   إِنَّا كَذَلِك عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

(١) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى تحقيق: على محمد البجاوى، طبعة دار نهضة مصر- القاهرة، ص١١٨.

(٢) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى، د/ محمد مصطفى هدارة، الطبعة الأولى، دار المعارف ١٤٠١هـ- ١٩٨١ م، ص٥٣.

(٣) السيرة: جـ٤، ص٢٢٥.

وأمثلة هذا الشعر الذى يتضمن الفخر بالقبيلة وبنسبها العريق كثيرة، وهى فى مجموعها تصدر عن شعور جماعى تغيب فيه ذاتية الشاعر، فالشاعر يتكلم بلسان الجماعة ويستخدم ضمير الجمع للدلالة على فنائه فى القبيلة واتحاده الكامل معها، فنرى لبيد بن ربيعة العامرى فى القسم الأخير من معلقته يفخر بقومه، فيعدد لنا مجموعة من الفضائل لا تخرج فى مجموعها عن الصورة التى ألفناها للخلق العربى فى الجاهلية، مستخدماً أيضاً ضمير الجمع، يقول[1]:

إنَّا إذَا الْتَقَت الْمَجَامِعُ لم يَزَلْ ... مِنَّا لزازُ عَظِيمةٍ جَشَّامُها

وَمُقَسِّمٌ يُعْطِى العشيرَةَ حَقَّها ... وَمُغَذْمِرٌ لِحُقُوقِها هَضَّامُها

فَضْلاً وذُو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغائبٍ غَنَّامُها

مِنْ معْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤُهُمْ ... وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وإمَامُها

لا يَطْبَعُونَ ولا يَبُورُ فِعَالُهُمْ ... إذْ لا تَمِيلُ مَعَ الهَوى أحْلامُها

فَبَنَى لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمْكُهُ ... فَسَمَا إليه كَهْلُهَا وَغُلامُها

فلا ضير أن يفخر العربى بقبيلته وأحسابه وأنسابه علي هذا النحو الذى رأينا، وإن كنا نرى بعضهم يغالى فى هذا الفخر والتحدى القبلى، يقول عمرو بن كلثوم[2]:

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر الأنبارى: تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص٥٩١ وما بعدها ، وراجع أيضاً: ديوان لبيد بن ربيعة العامرى، تحقيق إحسان عباس، وزارة الإرشاد الكويت ١٩٦٢م. ص٣١٩ وما بعدها

(٢) شرح القصائد السبع ص ٤٢٧، راجع أيضاً:

Arabic Literature An Introduction :By H.H.R GIBB.

Oxford at the charendon Press. Reprinted 1970. Second Revised Editio, P,23.

لَنَا الدُّنْيَا ومَا أَمْسَى عَلَيْهَا   ونَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا
بُغَاةً ظَالِمِينَ وما ظُلِمْنَا   ولَكِنَّا سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

أما إذا كان التفاخر بالأنساب يدفع الشعراء إلى التهاجى والتنابز بالألقاب ليرفعوا أقواماً ويضعوا أقواماً آخرين تركوا أحسابهم وأنسابهم مضيعة فأهملوها دون ضبط لأصولها وإلمام بفروعها، فهم يعيرونهم بذلك كما فعل بُشَير بن أبى جذيمة العبسى فى هجائه لأحد بنى قرد، بقوله:[1]

أَتَخْطِرُ للأَشْرافِ يا قِرْدَ حِذْيَمٍ   وَهَلْ يَسْتَعِدُّ الْقِردُ لِلْخَطَرَانِ
أَبَى قِصَرُ الأذْنَابِ أَنْ يَخْطِرُوا بها   ولُؤْمُ بنى قِرْدٍ بِكُلِّ مَكَانِ
لَقَدْ سَمِنَتْ قِعْدَاتُكُمْ آل حِذْيَمٍ   وأَحْسَابُكُمْ فِى الْحىِّ غَيْرُ سِمَانِ

فهذا يبعد بالإنسانية عن طريق الفضيلة، ولهذا وضع الإسلام قيمة اجتماعية وأخلاقية يرسم من خلالها السلوك والأخلاق التى ينبغى للمسلم أن يتحلى بها حتى ينال رضا ربه ومحبته، وحتى يستطيع أن يعيش حياة آمنة مطمئنة.

فيحدد الحق جلّ ذكره معالم طريق الفضيلة والهداية بقوله تعالى[2]:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن

(١) الحماسة ، المرزوقى جـ٣ ص١٤٤٣.
(٢) سورة الحجرات: الآيات من ١٠: ١٢.

يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وفى هذا المعنى نفسه يقع قول الرسول ﷺ «لا تَحَاسَدُوا وَلا تَنَاجَشُوا وَلا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»(1).

وقد حرص ﷺ على أن تشيع هذه القيم والمبادئ بين الناس وخاصة الشعراء، فكان ينكر أى معنى يوحى بروح العصبية القبلية أو تظهر فيه النزعة الجاهلية بمآثرها ومفاخرها. وهذا ما نراه فى موقفه من كعب بن مالك حين أنشد قصيدته التى مطلعها:

أَلا هَلْ أَتَى غَسَّانَ عَنَّا وَدُونَهُمْ ... مِنَ الأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَتَعْتِعُ

والتى يرد بها على هبيرة بن أبى وهب، وفيها يقول:

مَجَالِدُنَا عَن جِذْمِنَا كُلَّ فَخْمَةٍ ... مُدَرَّبَةٍ فِيهَا الْقَوَانِسُ تَلْمَعُ

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا، فقال

(1) صحيح مسلم بشرح النووى: الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار الريان للتراث، القاهرة، جـ١٦ص ١٢٠ وما بعدها.

كعب: نعم، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : «فهو أحسن» فقال كعب: مجالدنا عن ديننا[١].

وكان هدف الرسول ـ ﷺ ـ من ذلك أن يرده عما نزع إليه، وكلمة «ديننا» فيها إظهار للروح الإسلامية التى يرضاها الله ورسوله.

دفع الظلم وإباء الضيم وإقرار الإسلام لهما.

ومن القيم الاجتماعية والخلقية التى تمسك بها عرب الجاهلية إنكارهم للهوان وإباء الضيم، فهما السوأة الكبرى، والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل والمهانة وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها. فكان أقل شعور بالظلم يثيرهم وكيف لا يثورون وقد فرضت عليهم شهامتهم ونجدتهم الحفاظ على أعراضهم والدفاع عن ضعيفهم وحماية جارهم، يقول عنترة العبسى فى معلقته[٢]:

أَثْنِى عَلَىَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِى ... سَمْحٌ مُخَالَطَتِى إِذَا لَمْ أُظْلَمِ
فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِى بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ

ونرى مثل ذلك فى قول زهير بن أبى سلمى[٣]:

---

(١) السيرة: جـ٣، ص٨٨، ص٩٦، وللرسول (ﷺ) مواقف أخرى مع الشعراء أمثال النابغة الجعدى وحسان بن ثابت حاول فيها تعميق هذه القيم والمبادئ الإسلامية.

(٢) شرح القصائد السبع للأنبارى ص٣٣٦.

(٣) ديوان زهير بن أبى سلمى نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٤م، الدار القومية للطباعة والنشر ص٣٠، وقد شرح أبو عبيدة بيت جرير رقم ٣٩ من النقيضة ٢٨ والذى يقول:

وتكذب أستاه القيون مجاشع ... متى لم نذد عن حوضنا أن يهدما

فقال: متى لم نذد: أى متى لم ندفع، والحوض هنا العز والشرف «راجع النقائض جـ١ ص٧٧ وما بعدها».

وَمَنْ لا يَذُدْ عَـــنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ الـــنَّاسَ يُظْلَمِ

وإذا وقع الظلم على أحـدهم نالوا من ظالمه، وإذا تكبر عليـهم أحد أذلوه حتى يتقوم ميله، يقول المتلمس[1]:

وَكُنَّـــا إذا الجَبّـارُ صَعَّـــرَ خَـدَّهُ أَقَمْنَـا لَـــهُ مِـــنْ خَـــدِّهِ فَتَقَـــوَّمَا

ومـا أشد وقع الظلم على نفـس الإنسان وخـاصة إذا كـان من أهله وذويه الذين ينتسب إليـهم، فلا يملك إلاأن يقول كـما قال طرفة بن العـبد البكرى يشكو ظلم أهله له حين منعوه حـقه فى إرثه من أبيه وأساءوا إلـيه وإلى أمه، فلم يزد على أن قال[2]:

وَظُلْمُ ذَوِى الـقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

ولإحساسهم الشديد بوقع الظلم فى النفـوس تحالفت قريش فى الجاهلية، فتعـاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحـدة مع المظلوم على الظالم، حتى يؤدى إليـه حقـه، وسمت قـريش ذلك الحلف: حلف الفضـول، وقال الزبيـر بن عبدالمطلب[3]:

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفـــــــاً عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيْعـــــــــاً أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيـــــــــهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَعِزُّ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الجِوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوالـى البَـــــيتِ أَنَّا أُبَاةُ الـــــــضَّيْمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ

---

(١) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى ص١٢١.

(٢) ديوان طرفه بن العبد، تحقيق: على الجندى، مكتبة الأنجلو المصرية ص٥٧.

(٣) ثمار القلوب ص١٤٠ وما بعدها، الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام، شرح: عبدالرحمن السهيلى، تحقـيق: عبدالرحمن الوكيل، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧، دار الكتب الحديثة، جـ٢ ص٧٢ وما بعدها.

وقال أيضاً[1]:

إنَّ الفُضُولَ تَحَالَفُوا، وتَعَاقَدُوا ألا يُقِيـــمَ بِبَطْنِ مكَّـــةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاهَدُوا، وتَواثَقُوا فــالْجَارُ والمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِـمُ

وقد أقر الرسول ـ ﷺ ـ هذا الحلف لما فيه من مبادئ وقيم تتفق وتعاليم الإسلام، فقد رفع الإسلام دعوى الجاهلية بقولهم يا لفلان عند التعصب والتحزب لأن الله عز وجل جعل المؤمنين إخوة، ولا يقال إلا كما قال عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : يالله ويا للمسلمين لأنهم كلهم حزب واحد، وإخوة فى الدين[2].

وإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ أقر هذا الحلف فذلك لأن الإسلام جاء بإقامة الحق ونصرة المظلومين، فلم يزدد به هذا الحلف إلا قوة، وقد ندد الله تعالى فى محكم كتابه بعاقبة الظالمين فى أكثر من موضع، يقول جل ذكره[3]:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾.

وقوله تعالى[4]: **﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ... ﴾**.

وقد أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بنصرة أخينا ظالماً أو مظلوماً ويوضح ذلك فى قوله ـ ﷺ ـ : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، قَالُوا يَا رَسُولَ الله هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُوماً، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِماً، قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ»[5].

---

(١) الروض الأنف جـ٢، ص ٧٣.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢، ص٨٢.

(٣) سورة إبراهيم ، آية ٤٢.

(٤) سورة الشورى ، آية ٢٢.

(٥) صحيح البخارى بحاشية السندى، طبعة دار إحياء الكتب العربية جـ٢، ص٦٦.

حق الجار فى الجاهلية والإسلام.

ومن القيم الاجتماعية والخلقية التى أقرها الإسلام وحض عليها: حفظ الجوار والمحافظة على الجار، وهى عادات قديمة وصفات حميدة تحلى بها العربى قبل الإسلام، وافتخر بها بَرْذَع بن عَدِىٍّ الأَوْسِىّ فى قوله[1]:

لَعَمْرِ أَبِيهَا لا تَقُولُ خَلِيلَتِى ... أَلا إِنَّهُ قَدْ خَانَنِى الْيَوْمَ بَرْذَعُ
وَأَحْفَظُ جَارِى أَنْ أُخَالِطَ عِرْسَهُ ... وَمَوْلاىَ بِالنَّكْرَاءِ لا أَتَطَلَّعُ
وَأَبْذُلُ مَالِى دُونَ عِرْضِىَ إِنَّه ... عَلَى الْيُسْرِ وَالإِعْدَامِ عِرْضِى مُمَنَّعُ

وفى المعنى نفسه يفتخر قيس بن عاصم المنقرى بقومه ويعدد خصالهم الحميدةَ، فيقول فى ذلك[2]:

خُطَبَاءُ حِين يقُومُ قَائِلُهُمْ ... بِيضُ الوُجُوه مَصَاقِعٌ لُسْنُ
لا يَفْطَنُون لِعَيْبِ جَارِهِم ... وَهُمُ لِحِفْظِ جِوارِه فُطُنُ

فأولى بالمسلم أن يعترف بما للجار على جاره من حقوق وآداب يجب على كل من المتجاورين بذلها لجاره وإعطاؤها له كاملة، وبذلك أمر الله عز وجل فى قوله تعالى[3]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. وأمر الرسول - ﷺ - بذلك فى قوله: « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[4].

---

(١) مجالس ثعلب: لأبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق: عبدالسلام هارون ، الطبعة الثالثة بدار المعارف (وهو يخاطب بهذا الشعر مالك بن أبى كعب الخزرجى والد كعب بن مالك) جـ١، ص٢١٠.

(٢) عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م، جـ١ ص٢٨٦ وما بعدها . والحماسة بشرح المرزوقى جـ٤ ص١٥٨٤، والأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين، تحقيق: السيد محمد يوسف طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (د/ت) جـ١، ص١١٩.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٦.

(٤) صحيح مسلم جـ١٦، ص١٧٦، والبخارى جـ٤، ص٥٣.

وعنــه ـ ﷺ ـ أنه قال: «والله لا يُـؤْمِنُ والله لا يُؤْمِـنُ والله لا يُؤْمِنُ قِـيْلَ وَمَنْ يا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الذى لَا يأمن جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[1].

والإحســان إلى الجار له صــور متعددة لـيس هنا مـجال بحثـها، ونكتـفى بالإشارة فـقط إلى أن هدف الإســلام من وضع هذه القـيم هو السـعى إلى توطيد العلاقات الاجتـماعية والترابط بين طبقات المجتمع الإســلامى لتكتمل مكارم الأخلاق التى من أجلها بعث النبى ـ ﷺ ـ.

من الآفات الجاهلية التى نهى عنها الإسلام.

وإذا كان لـدى عرب ما قـبل الإسلام عـادات أقرهـا الإسلام أو وجهـها الوجهة الإســلامية الصحيـحة ـ اكتفينـا بالإشارة والحديث عن بـعضها دون حصر أو تـفصيل ـ فإن هنـاك آفات وجملة من الـفواحش كانت تشـيع فى مجتمـع ما قبل الإسلام سنـذكر بعضها عـلى سبيل التـمثيل لا على سـبيل الحصر.

انتشار الخمر وتحريم الإسلام لها.

كانت الخمر واستباحـة النساء والقمار من الآفات الجاهلية التـى ينهى عنها الإسلام فنجد الخمر تجـرى على كل لسان، واشتهر بالحديث عـنها ووصفها ووصف كئوسـها ودنانها وحوانـيتها ومجالسـها وما كان يدور فيـها الأعشى ميمون بن قيـس، وعدى بن زيد العبادى، وعرض لها كثـيرون فى أشعارهم مفاخريـن بأنهم يحتسـونها ويقدمونها لـرفاقهم. فكانت بـيوت الأشراف فى الجاهليـة تموج بالقيان اللائـى يلهين سادتهـن فى مجالس شربهـم وأنسهم، ويطربنهم، كذلك كانت الحانات والمواخير تنتشر فى الجزيرة العربية، ويجلب أصحابـها ـ وهم فى الغـالب يهود أو نـصارى ـ الخمر من بـصرى وبلاد الشام والحيرة والعراق. وكـانت تنصب على باب الحانة راية تدل عـليها كما

(١) البخارى: جـ٤، ص٥٣.

كانت تـنصب علـى أبواب البغـايا[1] فيأتيهـم الشباب ليشربوا ويسـتمتعوا ويستمعوا لبعض القيان ممن يصاحبنهـم، فيصف لنا طرفة بن العبد فى معلقته مجلس الشـراب الذى تنتقل فيه القيـنة من مكان لآخر تلبس الـثياب الموشاة والمصبوغة بأجمـل الألوان، المفتقة الأكمام لإدخال الندامى أيديـهم فى جيبها للمسها، وهذه القـينة بيضاء ناعمة رقيقة الجلد، إذا تجـردت من ثيابها، وهى تستجيب إذا طلـب منها الغناء، غنت على الفـور فى تؤدة ومهل مع طرف فاتر ونغمة هادئة جميلة، وهـذا دأب الشاعر طول حياته، يداوم على شرب الخمر حتى أنفق كل ما عنده على لذتـه لدرجة أن قومه اجتنبوه وابتعدوا عنه كما يبتعد الصحيح عن الأجرب خوف العدوى، يقول[2]:

نَـدَامَاىَ بِـيضٌ كـالنُّـجُومِ وَقَـيْنَـةٌ ... تَـرُوحُ عَلَـيْنَـا بَيْـنَ بُرْدٍ وَمُـجْسَـدِ

رَحِيبٌ قطـابُ الْجَيْبِ مِنْهـا رَفِيقَةٌ ... بِـجَسِّ الـنَّدَامَـى بَـضَّةُ الْمُـتَجَـرَّدِ

إِذَا نَحْـنُ قُلْنَا أَسْـمِعِيـنا انْبَرتْ لـنا ... علـى رِسْلِهـا مَطْـرُوفَةً لَمْ تَـشَدَّدِ

وَمَا زَالَ تَشْـرَابِى الْخُمُـورَ وَلَذَّتِى ... وَبَيْـعِى وَإِنْفَـاقِى طَرِيـفِى وَمُتْـلَدِى

إِلَى أنْ تَـحَامَـتْنِى الْـعَشِيـرَةُ كُلُّـها ... وَأُفْـرِدْتُ إِفْرَادَ الْـبَعِـيـرِ الْمُـعَبَّـدِ

وللأعشـى وصف قريب مـن هذا الوصف، إلا أننـا نلاحظ أن هذا الـفتق الذى تفتقه القـينة فى كمها إلى رفعها لجس الندامـى لها أوضح وأصرح عند الأعشى حيث يقول[3]:

وَقَدْ أَقْـطَعُ الْـيَوْمَ الطَّـوِيلَ بِـفِتْـيَةٍ ... مَسَـامِيحَ تُـسْقَى والْـخِبَاءُ مُـرَوَّقُ

---

(١) المفصـل فى تاريخ الـعرب قبل الإسلام: لجـواد على، الطـبعة الثالـثة، طبعـة مكتبة الـنهضة بـغداد، جـ٤ ص٦٦٧ وما بعدها، والقـيان والغناء فى العصر الجاهلـى، د/ ناصر الدين الأسد، الطبعة الـثانية، دار المعارف بمصر ١٩٨٦م، ص٦٢ وما بعدها.

(٢) ديوان طرفة ص٤٧ وما بعدها. .

(٣) ديوان الأعشى الـكبير ميمون بـن قيس، شرح وتعليـق محمد محمد حـسين الطبعة السـابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة. بيروت، ص٢٦٩.

وَرَادِعَةٍ بِالْمِسْكِ صَفْرَاءَ عِنْدَنَا ... لِجَسِّ النَّدَامَى فِى يَدِ الدِّرْعِ مَفْتَقُ
إِذَا قُلْتُ غَنِّى الشَّرْبَ قَامَتْ بِمِزْهَرٍ ... يَكَادُ إِذَا دَارَتْ لَهُ الْكَفُّ يَنْطِقُ
وَشَاوٍ إِذَا شِئْنَا كَمِيشُ بِمِسْعَرٍ ... وَصَهْبَاءُ مِزْبَادٌ إِذا مَا تُصَفَّقُ
تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهْوَ دُونَهُ ... إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّقُ

ويصف عدى بن زيد بيت الخمار المبنى بالدنان المكسورة والمظلل بالخصف، وهذا البيت فى أرض السواد به دواخيل التمر وأباريق الخمر ، يقول[١]:

يَا لَيْتَ شِعْرِى وَأَنَا ذُو عَجَّةٍ ... مَتَى أَرَى شُرْبًا حَوَالَىَّ أَصِيصُ
بَيْتُ جَلُوفٌ بَارِدٌ ظِلُّهُ ... فِيهِ ظِبَاءٌ وَدَوَاخِيلُ خَوصُ

ونرى حسان بن ثابت فى جاهليته يذهب إلى الحانة مع صحبة من الندمان ليشربوا الخمر المعتقة الصافية، ويستمتعوا بلذة اللهو والاستماع إلى الغناء، يقول[٢]:

وَقَدْ غَدَوْتُ عَلَى الْحَانُوتِ يَصْحَبُنِى ... مِنْ عَاتِقٍ مِثْلِ عَيْنِ الدِّيكِ شَعْشَاعِ
تَغْدُو عَلَىَّ وَنُدْمَانِى لِمِرْفَقِهِ ... نَقْضِى اللُّذَاذَةَ مِنْ لَهْوٍ وإِسْمَاعِ
إِذَا نَشَاءُ دَعَوْنَاهُ فَصَبَّ لَنَا ... مِنْ فَرْغِ مُنْتَفِخِ الحَيْزُومِ رَكَّاعِ
. . .
فِى فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ أَوجُهُهُمْ ... نَحْوَ الصَّرِيخِ إِذَا مَا ثَوَّبَ الدَّاعِى

ومعاقرة الخمر عند سحيم بن وثيل الرياحى ترتفع منزلتها فوق الزوجة والثروة والولد فلا يحفل بشىء فى حياته إلا بالخمر، يقول[٣]:

(١) ديوان عدى بن زيد العبادى، تحقيق: محمد جبار المعيبد، طبعة دار الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص٧٠.
(٢) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: د. سيد حنفى، طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣ ص ٣٣٥وما بعدها
(٣) البيان والتبيين لأبى عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون -مكتبة الخانجى بالقاهرة جـ٣، ص٣٤٣، وعيون الأخبار: جـ١ ص٢٥٩ وفيها بعض الاختلاف .

تَقُولُ حَذْرَاءُ: لَيْسَ فِيكَ سِوَى الْـ ... خَمْرِ مَعِيبٌ يَعِيبُه أَحَدُ
فَقُلْتُ: أَخْطَأْت، بَلْ مُعَاقَرَتِى الْـ ... خَمْرَ وَبَذْلِى فِيهَا الَّذِي أَجِدُ
هُوَ الثَّنَاءُ الَّذِي سَمِعْتِ بِهِ ... لا سَبَدٌ مُخْلِدِى وَلا لَبَدُ
وَيْحَك لَوْلا الخمورُ لَمْ أَحْفِلِ الْـ ... ـعَيْشَ وَلا أنْ يَضُمَّنِى لَحَدُ
هِى الْحَيَا والْحَياةُ واللَّهْوُ لا ... أَنْتِ ولا ثَرْوَةٌ وَلا وَلَدُ

وإلى جانب هؤلاء الشعراء نجد أمثلة عديدة فى الشعر الجاهلى لوصف مجالس الغناء والشراب والقيان عند امرئ القيس[١]، ولبيد بن ربيعة[٢] وعبدة بن الطبيب[٣] وعبيدة بن الأبرص [٤]، والمرقش الأصغر [٥]، وغيرهم الكثير، وكلها أوصاف يشيع فيها هذا اللون العابث والمجون الفاحش على النحو الذى رأينا.

الفتوة فى الجاهلية وأثرها فى سلوك الشعراء.

وإلى جانب ذلك نرى بعض الشعراء الجاهليين عندما يتحدثون عن الخمر وأوصافها وتمتعهم بها وإسرافهم فى شربها مع الرفاق والأصحاب، يضمنون حديثهم حديثا عن الفتوة فى الجاهلية. فالحياة فى نظر طرفة بن العبد ثلاثة أمور ضرورية للفتى الكريم: الأمر الأول: ينبغى أن يسبق العواذل قبل أن يلمنه، فيشرب من خمر عتيقة كميت اللون، متى صب عليها الماء أزبدت. والأمر الثانى: ينبغى أن ينصر المستغيث الملهوف أو المكروب، فيركب جواداً كريماً سريع الجرى لينقذه فى الحال. والأمر الثالث: عليه أن يجعل يوم الغيم قصيراً بالتمتع بالنساء، ولاسيما إذا كانت امرأة شابة ناعمة حسناء، تحت بيت مرفوع بالعمد، فيقول[٦]:

---

(١) راجع ديوانه بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة بدار المعارف ص٨٦.
(٢) راجع ديوانه بتحقيق: إحسان عباس، طبعة الكويت ١٩٦٤م ص٣١٣ وما بعدها.
(٣) راجع المفضليات ص١٤٣ وما بعدها.
(٤) راجع ديوانه بتحقيق: حسين نصار، الطبعة الأولى مصطفى البابى الحلبى ص٢٩ وما بعدها.
(٥) راجع المفضليات، ص٢٤٢. .
(٦) ديوان طرفة ص٥٠وما بعدها.

فَلَوْلاَ ثَـلاثٌ هُنَّ مِنْ حَاجَةِ الْـفَتَى وَجَدِّكَ لَـمْ أَحْفِلْ مَـتَى قَـامَ عُوَّدِى

فَمِـنْهُـنّ سَبْقِـى العَـاذِلات بِشَـرْبَةٍ كُمَـيْتٍ مَـتَى مَا تُـعْل بـالْمَاء تُـزْبِدِ

وكَـرِّى إذَا نَادَى الْمُـضَافُ مُـجَـنَّبـاً كَـسِيـدِ الْغَـضَـا نَبَّـهْـتَهُ الْـمُتَـوَرِّدِ

وتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ -والدَّجْنِ مُعْجِبٌ- بِبَـهْكَـنَةٍ تَحْـتَ الطِّرَافِ الْـمُعَـمَّدِ

ونرى أيـضاً امرأ القـيس يقرن لـذة النساء بـلذة الركوب لـلصيد، ويـقرن السمـاحة والجود فى سباء الخـمر للأضياف بالـشجاعة فى منـازلة الأعداء، فيقول[1] :

كَـأَنِّي لَـمْ أَرْكَـبْ جَـوَاداً للَـذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَـطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَـلْخَالِ

ولَمْ أَسْـبَأ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولَـمْ أَقُلْ لِخَـيْلِـى كُرِّى كَرَّةً بَـعْدَ إجْـفَالِ

تعفف بعض الجاهلين عن الخمر لمعرفة أضرارها.

وبرغم انتـشار الخمر فى الجاهـلية وشيوع حانـاتها وشاربيهـا إلا أننا نجد بعضهم تعفف عنها وعن سـكرها، من هؤلاء قس بن ساعدة الإيادى، وزهير ابن أبى سلمى، والنابغة الجعدى والذبيـانى، وعبدالمطلب بن هشام، وعثمان ابن عفان[2]، وقد قـيل له رضـى الله عنه: ما مـنعك مـن شرب الخمـر فى الجاهلية، ولا حرج علـيك فيها؟ قال: إنى رأيتها تذهب الـعقل جملة، وما رأيت شيئاً يذهب جملة ويعود جملة[3].

---

(1) ديوان امرئ القيس ص٣٥.

(2) المحبر لأبى جعفر محمد بن حـبيب، تحقيق، إيلزة ليختن شتيتر، المكتب التجـارى للطباعة والنشر، بيروت، ص٢٣٧ وما بعدها ، نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، جـ٤ ص٨٨ ومـا بعدها، والعقد الفريد لابن عبدربه، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م جـ٦، ص٣٣٨وما بعدها.

(3) العقد الفريد، جـ٦، ص٣٨٨.

ومنهم أيضاً قيس بن عاصم المنقرى، وكان يأتيه تاجر خمر فيبتاع منه حتى ينفذ ما عنده، وسكر سكراً قبيحاً فآلى ألا يذوق خمراً أبداً، وقال فى ذلك[1]:

وَجَدْتُ الْخَمْرَ جَامِحَةً وَفِيــهــا ... خِصَالٌ تَفْضَحُ الــرَّجُلَ الْكَرِيمَا

فَلا واللهِ أَشْرَبُهَــا حَيَــاتِى ... وَلا أَدعُو لــهــا أبــداً نَدِيمــا

وَلا أُعْطِى لَهَا ثَمَنَاً حَيَاتِى ... وَلا أَشْفِى بِهــا أَبَداً سَقِيــمــاً

فَإِنَّ الْخَمْرَ تَفْضَحُ شَارِبِيــهــا ... وَتَجْشُمُهُــمْ بِهَا أَمْراً عَظِيــمَا

إِذَا دَارَتْ حُمَيَّاهــا تَعَلَّــتْ ... طَوَالِعُ تَسْفَهُ الــرَّجُلَ الْحَلِيــمَا

ومنهم أيضاً عامر بن الظرب العدوانى، وقد ذكر أنها تحوج الإنسان إلى السؤال وتذهب بعقول البشر وتضيع أموالهم، فأقسم ألا يشربها، وقال[2]:

سَــآَلَةٌ لِلْفَتَى مَا لَيْسَ فِــى يَــدِهِ ... ذَهَّابَةٌ بِعقُولِ الْقَومِ والْمَــــالِ

أَقْسَمْتُ باللهِ أَسْقِيــهــا وَأَشْرَبُهــا ... حَتَّى يُفَرِّقَ تُرْبُ الْقَبْرِ أَوْصَالِى

مُوَرِّثَــةُ الْقَومِ أَضْغَانــاً بِلا إِحَنٍ ... مُزَرِّيَةٌ بِالْفَتَى ذِى الــنَّجْدَةِ الْحَالِى

ومهما يكن فقد كانت الخمر فى الجاهلية وما يتبعها من إباحة النساء ظاهرة شائعة فى المجتمع الجاهلى، هذا بالإضافة إلى شيوع آفة الميسر، وهو القمار، فقد قال ابن كثير: «وكل شىء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. .وكان أهل الجاهلية يتقامرون إلى مجىء الإسلام فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. . .وقيل إن ميسر أهل الجاهلية كان بيع اللحم بالشاة أو الشاتين»[3].

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى: تحقيق: إبراهيم الإبيارى نشر دار الشعب عن طبعة دار الكتب بمصر ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م، جـ٤، ص ٤٩٥٧، والعقد الفريد جـ٦ ص٣٤٦. والنويرى جـ٤ص٨٨ وما بعدها.

(٢) الأمالى لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادى، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م ،ج١ ، ص٢٠٤ ، والنويرى جـ٤، ص٨٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ص٩١ .

وكان لانتشار هذه الآفـات أضرار بالغة على طبقات المجـتمع آنذاك، ولم يكن من السهل إقلاعهم عن هذه الفواحش لشدة ارتباطهم بها وإدمانهم لها.

منهج الإسلام فى تحريم الخمر والحكمة من ذلك.

فلما جاء الإسلام أخذهم بمنهج تربوى حكيم، فتدرج معهم فى تحريمها، فبين لهم أولاً أن إثمها أكبر مـن نفعها فى قوله جل ذكره:[1] ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ .

ثم منعهم من الصلاة وهم سكارى، فقال تعالى[2]: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ فحـرم السكر فـى أوقات الصلاة، فتركها قـوم، وقالوا: لا خير فى شىء يحول بيننـا وبين الصلاة، فقال عمر بن الخطـاب ـ رضى الله عنه ـ: «إن الله عز وجلّ تقارب فـى النهى عن شرب الخمر وما أراه إلا سيحرمها»[3] ثم أنزل سبحانه الآية الجـامعة القاطعة فى قوله تعالى[4]: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ .

وفى هاتين الآيتين أكد الله سبحانه وتعـالى تحريم الخمر والميسر ـ القمار ـ تأكيداً بليغـاً، إذ قرنهما بالأنصاب والأزلام، وجعلهمـا رجساً، وهى كلمة لا

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٩.

(٢) سورة النساء ، آية ٤٣.

(٣) النويرى: جـ٤، ص٧٧.

(٤) سورة المائدة ، الآيتان ٩٠، ٩١.

تطلق فى القرآن إلا على ما اشتد فحشه وقبحه، وجعلهما من عمل الشيطان، وإنما عمله الفحشاء والمنكر. وطلب اجتنابهما، وجعل هذا الاجتناب سبيلاً إلى الفلاح. وذكر من أضرارهما الاجتماعية، قطع الصلات بين الناس وإيقاع العداوة والبغضاء، وذكر من أضرارهما الروحية، الصد عن الواجبات الدينية من ذكر الله والصلاة، ثم طلب الانتهاء عنهما بأبلغ عبارة «فهل أنتم منتهون» وكان جواب القوم على هذا البيان الحاسم: قد انتهينا[1].

ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها[2]. وقد أخذهم الرسول ـ ﷺ ـ بنفس المنهج السماوى فى التدرج في التحريم. فروى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب بالمدينة قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ وَلَعَلَّ الله سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمـرًا فَمَنْ كَان عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيَنْتَفِعْ بِه ، قَال: فـما لبثنا إلا يسيـرا حتى قال النبي ـ ﷺ ـ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْخَمْرَفَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِه الآيَةُ وعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلا يَشْرَبْ وَلايَبِعْ قال: فاستقبل الناسُ بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها» [3].

وقد جعل لها الرسول ـ ﷺ ـ حدا: أربعين جلدة، ولما وجد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن بعض العرب لايزال يتورط فى شربها رفع حدها إلى ثمانين جلدة[4]، وكان لايتوانى في تطبيق هذا الحد علانية ـ كما

---

(١) الحلال والحرام فى الإسلام -د/ يوسف القرضاوى دار التراث العربى للطباعة والنشر الطبعة الحادية عشرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٦٣.

(٢) راجع كتاب الأشربة فى صحيح مسلم المجلد الخامس جـ١٣، ص١٤٣ وما بعدها. والبخارى جـ٣، ص٣٢ وما بعدها، وسنن الترمذى (الجامع الصحيح) لأبى عيسى محمد بن عيسى، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م طبعة مصطفى البابي الحلبى بمصر جـ٤، ص٢٩٠ وما بعدها، وسنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى، نشردار إحياء التراث العربى، بيروت جـ٤، ص٢٨٦ وما بعدها، وسنن الدارمى أبي محمد عبدالله بن الفضل الدارمى، عناية محمد أحمد دهمان، نشر دار إحياء السنة النبوية جـ٢ص١١٠وما بعدها.

(٣) صحيح مسلم المجلد الرابع جـ ١١، ص٢

(٤) المصدر نفسه: جـ ١١، ص٢١٥ وما بعدها.

سنرى فيما بعد. ومما لاشك فيه أن الإسلام حض على الفضائل وبنى صرحا قويما للأخلاق الإنسانية، ووجه الإنسانية إلى الخير الذي يتواءم مع طبيعتها وفطرتها الأصلية.

محاربة الإسلام للجرائم الخلقية.

كذلك نجد الإسلام يحارب الجرائم الخلقية كالسلب والنهب والغارة علي ملك الآخرين، ويفترض ابتداء أن الإنسان يجب أن يعيش عن طريق شريف، وأن يحيا علي ثمرات كفاحه، ولا يبنى كيانه علي نهب وسلب ما لا يملك.

أسباب ظهور الصعاليك فى المجتمع الجاهلي.

وإذا تأملنا حياة المجتمع الجاهلي نجد هذه الظاهرة واضحة تماما في شعر الشعراء الصعاليك الذين لفظهم المجتمع لكثرة جرائمهم، فأرادوا أن يحققوا مبدأ التكافل الاجتماعي بين طبقات المجتمع، وكانت لهم فلسفة خاصة في نظرتهم إلى الحياة، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: «وينظر هؤلاء الفقراء الجياع، المحتقرون من مجتمعهم المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية إلى الحياة ليشقوا لهم طريقا في زحمتها، وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة فلا يجدون أمامهم إلا أمرين: إما أن يقبلوا هذا الحياة الذليلة المهينة التى يحيونها على هامش المجتمع، فى أطرافه البعيدة، خلف أدبار البيوت، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم فى ذلة واستكانة وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم، وينتزعون لقمة العيش من أيدى من حرموهم منها، دون أن يبالوا فى سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة، فالحق للقوة والغاية تبرر الوسيلة»[1].

ولكى يحقق الصعلوك هذه الفلسفة عليه أن يسعى ويعمل ويكافح ويغامر

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، د/ يوسف خليف، الطبعة الرابعة ١٩٨٦م، بدار المعارف ص٣٣.

بنفسه ولا يرضى بالدون ولايقنع بالطعام يصيبه فيسد رمقه ويغنيه ويترك عياله وأتباعه - فقراء المجتمع - يتضورون جوعا. فكأن مهمته تفريج الغمة عن الآخرين. ويجعل نفسه قيما على هذا المبدأ الإنسانى النبيل، لايعذرها، وعليه أن يعمل قدر استطاعته، ولايعفى نفسه من المغامرة من أجل دفع غائلة الجوع والضياع عن الآخرين.

فنرى الصعلوك ينظر إلى المال على أنه كل شىء، وأن أقدار الرجال على قدر مافى أيديهم من أموال، فإن اغتنوا عزوا ،ومنعوا وتغاضى الناس عن ذنوبهم، أما الفقراء فشر الناس، تهون أقدارهم وإن ارتفعت أحسابهم وشرفت أنسابهم، ويحتقرهم حتى أقرب المقربين إليهم، ويتضح لنا ذلك من قول عروة بن الورد العبسى [1]:

دَعِيْنِي لِلْغِنَى أَسْعَى، فَإِنِّى ... رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الْفَقِيْرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ ... وإنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخِيْرُ
ويُقْصِيهِ النَّدِىُّ، وَتَزْدَرِيهِ ... حَلِيْلَتُهُ، وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيْرُ
وَيُلْفِى ذو الغِنى،وَلَهُ جَلالٌ، ... يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبِهِ يَطِيْرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ، والذَّنْبُ جَمٌّ ... وَلَكِنْ لِلْغِنى رَبٌّ غَفُورُ

وليس الهدف من حصول الصعلوك على المال تحقيق الثراء لنفسه، بل لتطبيق مبدأ الكفاية للجميع، فإن «المتأمل فى أدب الصعاليك يرى أنهم كانوا فى ثورتهم على مجتمعهم يهدفون إلى الإصلاح وينشدون المساواة والعدالة الاجتماعية.

وهذه الأهداف التى عبروا عنها فى شعرهم تعد من أهم عناصر مذهبهم فى التكامل الاجتماعى. فالصعاليك لم يهاجموا القوافل أو يغيروا على القبائل لرغبتهم فى الإغارة ذاتها، ولاليفيدوا غنى وثروة وجاها يرفع من

(١) ديوان عروة بن الورد، نشر دار بيروت، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م- ص٤٥.

مقامهم فى المجتمع الأرستقراطى الذى يعيشون فيه، بل نراهم على النقيض من ذلك تماما، يأخذون من الأغنياء ليعطوا الفقراء، ولم نر واحدا منهم يصيب الغنى قط، أو كانت الثروة هدفا له، بل ظلوا جميعا فقراء على الرغم من كثرة مغانمهم وأسلابهم من إغارتهم، وذلك بسبب إباحتهم مافى أيديهم لأمثالهم من الفقراء»[1].

وهذه الفلسفة ليست مجرد دعوة بل حولوها إلى سلوك حقيقى يبرز معنى أصيلا فى اتجاه تكافلهم الاجتماعى، يقول عروة:[2]

إنّى امرؤٌ عَافى إنَائى شِرْكَةٌ ... وَأَنْتَ امرؤٌ عَافى إنَائكَ واحدُ
أَتَهْزَأُ منِّى أَنْ سَمِنْتَ، وأَنْ تَرَى ... بوَجْهِى شُحُوبَ الْحَقِّ، والْحَقُّ جَاهدُ
أُقَسِّمُ جِسْمِى فى جِسُومٍ كَثيْرةٍ ... وَأَحْسُو قَرَاحَ الْمَاءِ، وَالْمَاءُ بَاردُ

ولم يكن جوده، وكرمه بمقصور على الصعاليك، وإنما كان يتناول الضعفاء والفقراء وكل ضعيف أقبل عليه، فقد كان بيته بيت الضيف، وفراشه فراشه، وحديثه العذب يسامره حتى ينام، يقول:[3]

فرَاشِى فِراشُ الضَّيْفِ والْبَيْتُ بَيْتُهُ ... وَلَمْ يُلْهِنِى عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ
أُحَدِّثُه، إنَّ الْحَدِيثَ مِن الْقِرَى ... وتَعْلَمُ نَفْسِى أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

ومن الواضح أن عروة كان صعلوكا شريفا، إذ كان يستشعر فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبر بالفقراء فهو لايسعى لنفسه فحسب، بل يسعى للمعوزين من قومه حتى يدفع عنهم البؤس والشقاء.

وإذا كانت وسيلتهم لتحقيق أهدافهم هى السلب والنهب والغارة على ملك الآخرين- وهذا مرفوض أخلاقيا- فالجريمة هنا يقع وزرها على المجتمع المفرط، لاعلى الفرد المضيع المستهتر. فإذا كفل المجتمع للفرد ضروراته وما

(١) دراسات ونصوص فى الأدب العربى د / محمد مصطفى هدارة، طبعة دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ١٩٨٥م، ص٦٢ وما بعدها.
(٢) ديوان عروة ص٢٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٩.

يكفيه عن طريق الحث على العمل الشريف أولا ثم عن طريق الإنفاق وبذل الأموال لاختفت هذه الظاهرة من المجتمع. ومن ثم ينبغى أن نتحدث فى هذا الموضع عن دور الإسلام فى تحقيق التكافل الاجتماعى.

التكافل الاجتماعى فى الإسلام.

فرضت الزكاة فى الإسلام على كل مسلم ملك نصابا من المال بشروط فرضها الله فى كتابه الحكيم، فى قوله تعالى: (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾.

والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب، بل هى غرس لمشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد لعلاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات، وقد نص القرآن الكريم على الغاية من إخراجها بقوله تعالى: (٢)

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾

فقد حبب الإسلام إلى بنيه أن تكون نفوسهم سخية ووصاهم بالمسارعة إلى دواعى الإحسان ووجوه البر، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الشاغل، لاينفكون عنه فى صباح أو مساء، يقول الحق جل ذكره: (٣) ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالزكاة والصدقات فى الإسلام هما قوام التكافل الاجتماعى؛ لأنهما يساعدان على تطهير النفس البشرية من أدران النقص ورذائل البخل والشح، والشره، والطمع، والتسامى بالمجتمع إلى مستوى أفضل وأنبل بمواساة الفقراء

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦٧.

(٢) سورة التوبة ، آية ١٠٣

(٣) سورة البقرة، آية ٢٧٤.

وسد حاجات المعوزين والبؤساء والمحرومين، وإقامة المصالح العامة التى تتوقف عليها حياة الأمة الإسلامية وسعادتها. كذلك يساعدان على الحد من تضخم الأموال عند الأغنياء والتجار والمحترفين، حتى لا تصبح الأموال حكرا لطائفة محدودة داخل الأمة، ومن ثم تظهر طبقة المنحرفين الذين مثلنا لهم بصعاليك الجاهلية.

وكما فرض الله ـ عز وجل ـ الزكاة ، وأمر بالإسراع إلى الصدقات حث المسلم أن يقتصد فى مطالب نفسه، ولا يميل إلى التبذير الفاحش من أجل المفاخرة حتى لايستنفد ماله، فإن عليه أن يشرك غيره فيما أتاه الله من فضله، وأن يجعل فى ثروته متسعا يسعف به المنكوبين ويريح المتعبين. فقد قال الرسول- ﷺ -: «يَاابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَالْيدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيدِ السُّفْلَى»[1].

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى حين قرن النهى عن التبذير بأمر الإنفاق على ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل، فإن المبذر متلاف سفيه، يضيع أمواله فى شهواته الخاصة التى يزينها له الشيطان، يقول الله تعالى:[2] ﴿**وآت ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً**﴾.

ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق هدفها الأساسى هو التعاون والمساواة، واستتباب السكينة وضمان السعادة بعطف القوى على الضعيف، ورفق المكثر بالمقل، والخوف من أن يتسرب الشقاء إلى الناس عندما يحيون متقاطعين لايعرفون إلا أنفسهم ومطالبها فحسب. ونتائج هذه الأهداف النبيلة لايسعد بها الضعفاء والفقراء وحدهم، بل يرتد أمانها واطمئنانها إلى الباذلين

(١) صحيح مسلم: المجلد الثالث جـ٧ ص ١٢٦ ومابعدها.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان ٢٦، ٢٧.

أنفسهم، فتقيهم زلازل الأحقاد وعواقب الأثرة العمياء فى الحياة الدنيا، ويفوزون بالآخرة كما وعدهم الرسول -ﷺ- فى قوله: «السخيُّ قريبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيْدٌ مِنَ النَّارِ، والْبَخِيلُ بعيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيْدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيْدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، قَرِيْبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَجاهِلٌ سَخِيٌّ أحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالى مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ»[1].

وقد أغرى الله العبد بالإنفاق، فجعل العطاء الجميل قرضا حسنا، لايرده لصاحبه مثلا أو مثلين بل يرده أضعافا مضاعفة، يقول عز وجل:[2]

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ .

وقوله تعالى:[3] ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ .

وعلى هذه الشاكلة حاول الإسلام أن يقيم ضربا من العدالة الاجتماعية فى محيط هذا المجتمع، إذ جعل رد الغنى بعض ماله على الفقير وعلى الصالح العام للأمة حقا دينيا، إنه لايعيش لنفسه وحدها، بل يعيش أيضا لأمته، ومن هنا يتحقق الهدف الأسمى لهذا الدين الجديد فى أن يشعر كل إنسان بمشاعر أخيه، باذلاً له ولمصلحة أمته كل ما يستطيع.

معاملة اليتامى واهتمام الإسلام بهم .

ومن الجوانب الاجتماعية التى حرص عليها الإسلام رعاية اليتيم وكفالته وحفظ ماله. واليتيم: الذى مات أبوه، فهو يتيم حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم، وقد يطلق بعد البلوغ مجازا[4]، وحكى الماوردى: أن اليتيم من فقد أمه، وذكر القرطبى أن الأول هو المعروف[5].

(١) الترمذى، كتاب البر والصلة جـ٤، ص٣٤٢.
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٤٥، والحديد، آية١١.
(٣) سورة البقرة ، آية ٢٦١.
(٤) اللسان(يتم) جـ٦ص ٤٩٤٨.
(٥) تفسيره الجامع لأحكام القرآن المجلد الأول ص٥١٤.

وقد اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية برعايته والعناية بشأنه اهتماما بالغا، لأنهم كانوا فى الجاهلية لايورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكرا، ويقولون: لايعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة. ولكن الإسلام نظر إلى الورثة الصغار نظرة عادلة فرأى أنهم أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر فى مصالحهم، كما رأى أن الجاهليين عكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة، ففضلوا بأهوائهم، وأخطئوا فى آرائهم وتصرفاتهم[1]. فأنزل الله قوله تعالى:[2]

﴿للرجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. ثم يأتى التعقيب على هذه الآية بقوله جل ذكره محذرا الأوصياء الذين يأكلون مالم يبح لهم من أموال اليتامى:[3]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

كما حذر الأوصياء من أن يستبدلوا الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى، فقال تعالى[4]: **﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾**.

ورعاية أمور اليتيم تشمل كل احتياجاته، كما تشمل كفالته ورعايته وحفظ ماله، وتنميته. وللوصى أن يخلط مال اليتيم بماله ويخصم منه قدر نفقة اليتيم لأن الصحابه ـ رضى الله عنهم ـ بعدما نزلت الآيات محذرة من أموال

---

(١) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص١٧١١ وما بعدها.

(٢) سورة النساء، آية ٧.

(٣) السورة نفسها ، آية ١٠.

(٤) السورة نفسها ، آية ٢.

اليتامي عـزلوا أموالهم عن أموال اليتـامى، وانطلق من كان عنده يـتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فشق ذلك على اليتامى وعلى الأوصياء أنفسهم[1]، فأنزل الله تعالى حكم التخفيف عنهم وأباح خلط أموالهم بأموال اليتامى، فقال تعالى[2] : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

وقد روى أبو هـريرة ـ رضى الله عنه ـ عن الـنبى ـ ﷺ ـ «قال: اجتـنبوا السبع المـوبقات. قالوا: يارسـول الله وماهن؟ قال: الشرك بـالله، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[3].

فكأن الإسلام جند المسلمين جميعا لـلقيام بحق اليتامى، والتقرب إلى الله بالعـطف عليهـم، والفوز بأعظم الـدرجات بسبب الـبذل لهم، والقـيام بما يحتاجـون إليه وتفقد شئـونهم فى كل حين، وهذا هـو هدف الإسلام الذى يسعى إليه ومنـهجه فى إدخال السرور على الجميع، وفـى نشر روح السعادة بين أفـراد المجتمـع، وفى تحقـيق أكبـر قدر من الرعـاية والعـناية بـالضعـفاء والمحرومين من الناحيتين: المادية والمعنوية[4].

موقف الإسلام من جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة.

نظّم الإسلام جوانب الحيـاة الاجتماعية المختلفة، فلا نكـاد نجد جانبا من هذه الجوانب إلا وضع فيه مـن السنن والقوانين ما يكفل للإنســان حياة طيبة مسـتقيمـة قوامها الـعدل والإنصاف، وفـى ذلك يقول أحـد الباحثـين: «جاء الإسلام فوجد الضلال والانحراف فى التحريم والتحليل، فكان أول ماصنعه

(١) راجع تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٩٧٥.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٢٠.
(٣) صحيح البخارى جـ٢ ص١٣١.
(٤) السلوك الاجتماعى فى الإسلام ص٢٧٦.

لإصلاح هذا الجانب الخطير من التشريع أن وضع جملة من المبادئ التشريعية جعلها الركائز التى يقوم عليها أمر الحلال والحرام فيما يحل ويحرم ، وبذلك كانت أمة الإسلام بين الضالين والمنحرفين- يمينا وشمالا- أمة وسطا كما وصفها الله الذى جعلها خير أمة أخرجت للناس»[1].

تكريم الإسلام للمرأة وتنظيم علاقتها بالرجل.

وإذا كانت الأسرة هى اللبنة الأولى لأى مجتمع. فقد اهتم الإسلام بها اهتماما بالغا بأن نظم العلاقة الأسرية بين الرجل والمرأة، والله سبحانه وتعالى خبير بصير بما يحتاج إليه خلقه. فنظم حقوق المرأة ورعاها خير رعاية وكفل لها الحرية الكاملة فى قوله تعالى:[2] ﴿ **وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾. وحفظ مكانتها وكيانها فى المجتمع بأن نظم الزواج وهذب من العلاقات الزوجية، إذ جعل الزواج سكنا ومودة ورحمة كما فى قوله تعالى:[3] ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

كما حرم الجمع بين الأختين، وهو ما يعرف بزواج المقت، وحرم زواج الابن امرأة أبيه بعد موته، كما حرم الشغار، وهو أن يتزوج الرجل أخت صديق له على أن يزوجه أخته، أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، كما حرم أن تعضل المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها، وحرم البغاء وشدد النكير عليه حتى القتل لأن بعض أهل الجاهلية كانوا يفرضون ضريبة يومية على الأمة، عليها أن تؤديها لسيدها، بأى طريق اكتسبتها، وكانت كثيرا

(١) الحلال والحرام ص١٨.

(٢) سورة النساء، آية ٣٢.

(٣) سورة الروم، آية٢١.

ماتلجأ إلى احتراف الـزنا لتدفع ماضرب عليها، وكان بعضـهن يكرهن على ذلك إكراهـا، طلبا لـعرض دنيوى تـافه، وكسب قـذر رخيص، فلـما جاء الإسلام ارتفع بأبنائه وبنـاته عن هذا الهوان، ونزل قوله تعالى بتحريم البغاء فى قوله:(1)

﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ورفض الرسول -ﷺ- ذلك كل الرفض فلم يجز لحرة أو لأمة أن تتكسب بفرجها أيا كان الدافع إليه، وأهـدر مايمكن أن يقال من الحاجة والضرورة أو نبل الغاية، ليبقى المجتمع الإسلامى طاهرا من هذه الخبائث والموبقات(2).

والآيات القرآنية كـثيرة، تتضمن التعالـيم الإلهية للعباد فى حـسن معاملة الزوجات والعدل بينهن، وحسن معاشرتـهن وإعطائهن حقوقهن حين تفصم العلاقة الـزوجية. وتأمر الزوجـة أن تحافظ على زوجهـا وبيتها،حتـى تتوافر الحياة الطيـبة الآمنة(3). فإن لم تـتوافر هذه الحـياة واستحـالت العشـرة بين الزوجين فعلى الأقارب أن يـتدخلوا ليصلحوا بينهما، وإن اسـتحالت العشرة بعـد ذلك وعزم الرجـل على الطـلاق لشىء يـكرهه فى امـرأته، فعلـيه أن يسرحها بـالمعروف ولايظلمها، كـما قال الله عز وجل:(4) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

والأمثلة على تطبيق هذا السلوك الاجتماعى والأخلاقى ـ الذى يهدف إلى بناء مجتمع يـقوم أساسا على المحبة وحسن الخلق ونُبـذ العداوة والبغضاء –

---

(1) سورة النور، آية ٣٣.

(2) الحلال والحرام ص١١٢.

(3) راجع الآيات الكـريمة فى سورة البقرة، الآيـة ٢٢١ وما بعدها، والمائدة آيـة ٥، والنور ٣٢،٣٣،والروم٢١، والأحزاب والمجادلة ١،٤،والممتحنة ١٠،١١،والطلاق ١:٧، والتحريم ١:٥.

(4) سورة البقرة، آية ٢٣١.

كثيرة، فهذه امرأة عرضت نفسها على أبى الأسود الدؤلى(ظالم بن عمرو بن سفيان) بعد أن عددت خصالا حميدة فى نفسها، وسألته أن يتزوجها، فوافق. فجمعت أهلها وتزوجته. فوجد عندها خلاف ما قدره، وأسرعت فى ماله، ومدت يدها إلى خيانته، وأفشت سره، «فغدا على من كان حضر تزويجه إياها فسألهم أن يجتمعوا عنده، ففعلوا، فقال لهم:

أَرَيْتَ امرءاً كُنْتُ لَمْ أَبْلُهُ ... فَقَالَ اتَّخِذْنِى صَدِيقًا خَلِيْلا
فَخَالَلْتُهُ ثُمَّ أَكْرَمْتُهُ ... فَلَمْ أَسْتَفِدْ مِنْ لَدُنْه فَتِيْلا
وَأَلْفَيْتُه حِينَ جَرَّبْتُهُ ... كَذُوبَ الْحَدِيثِ سَرُوقًا بَخِيْلا
فَذَكَّرْتُه ثُمَّ عَاتَبْتُهُ ... عِتَابًا رَقِيقًا وَقَوْلاً جَمِيْلا
فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَلاذَاكِرَ اللهَ إلا قَلِيْلا
أَلَسْتُ حَقِيقًا بِتَوْدِيعِه ... واتِّبَاعِ ذَلِكَ صُرْمًا طَوِيْلا

فقالوا له: بلى والله ياأبا الأسود! فقال: تلك صاحبتكم، وقد طلقتها لكم، وأنا لا أحب أن أستر ما أنكرته من أمرها»[1]

وهذه أم حسان زوجة عمرو بن شأس تجفو عرارا ابنه وكان ابن سوداء، فكانت تبغضه وتؤذيه وتظلمه، وكان عمرو ينهاها عن ذلك فلا تستجيب له «فقال فى ذلك:

أَلَمْ يَأْتِها أَنِّى صَحَوْتُ وأَنَّنى ... تَخَشَّعْتُ حَتّى ما أُعَارِمُ مَنْ عَرَمْ
وأُطْرِقُ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ، وَلَوْ يَرَى ... مَسَاغًا لَنَابيه الشُّجاعِ لَقَدْ أَزَمْ
أَرَادَتْ عِرَارًا بالْهَوانِ وَمَنْ يُرِدْ ... عِرارًا لَعَمْرِى بالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ
وإنَّ عِرَارًا إنْ يَكُنْ غَيْرَ واضحٍ ... فَإِنّى أُحِبُّ الْجَوْنَ ذَا المَنْكِبِ العَمَمْ

---

(١) الأغانى جـ١٢ ص٤٤٧٦، وراجع أيضا خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧-١٩٦٨م جـ١ ص٢٨٣ وما بعدها.

فَإنْ كُنْت مِنِّى أو تُحــبِّين شِيــمَتِى   فَكُونى لَهُ كـــالسَّمْنِ رُبِّت لَهُ الأَدمْ

وَإلا فَبــــــينى مِثْلَ مَابَانَ راكـبٌ   تَزَوَّد خمـــــسًا لَيْس فِى سَيْرِه أَتَمْ

وجهد عمرو أن يصلح بينها وبين ابنه فلم يستطع فطلقها ثم ندم»[1].

وللأمة الإسلامية فى رسول الله- ﷺ - أسـوة حسنة، فقد دعا المسلمين فى حجة الوداع إلى مـعاملة الزوجات بالمعروف، فقـال ﷺ: «. . . أما بَعد أَيُّهَا النَّاس، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نسَائكم حَقّـاً وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقّـاً، لكُمْ عَلَيـهنَّ أَنْ لاُيوطئنَ فُرُشكُمْ أَحَدًا تكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهنَّ أَنْ لا يَأتِينَ بفَاحشَة مُبــيِّنَة ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ قَد أَذنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجعِ، وَتَضْربُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْر مُبرِّحٍ ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رزقُهنَّ وكسْوَتُهنَّ بالْمَعْرُوف. واستوصُوا بالنِّساء خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عنْدكُمْ عوَانٍ لايمْلُكْنَ لأَنْفُسهنَّ شيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانة الله ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكَلمـات الله ؛ فَاعْقلُوا أَيُّهَا النَّاس وَاسْمعُوا قولى؛ فَإِنِّى قَدْ بَلَّغْتُ وَقَدْ تَركْتُ فَيكُمْ مَا إن اعْتَصَمْتُمْ بِه فَلَنْ تَضلُّوا أَبَدًا أَمْرًا بَيِّنًا كتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبيه»[2].

وفى ضـوء هذا المنهج الإسـلامى الذى يعمل على حـفظ كـيان الأسـرة المسلمـة التى تقوم على المـودة والرحمـة، نهى الإسلام عن بعض العـادات الجاهلية التى كان يفعلها العرب، وكانت أشبه بالعقائد الراسخة فى نفوسهم.

---

(١) راجع رسائل الجاحظ ، بتحقيق : عبد السلام هـارون ، الطبعة الأولى ١٣٩٩م- ١٩٧٩م، مكتبة الخانجى بمصر ، من رسالة فخر السودان على البيضان جـ ١ ص٢٢٢ ومابعدها ، والشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف ١٩٨٢م جـ١ ص٤٢٥ وأسد الغابة جـ٤ ص٢٣٩. والاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق: على محمد البجارى ، طبعة دار نهضة مصر(د/ت) جـ٣ص١١٨٢

(٢) راجع صحيح مسلم، المجلد الثالث جـ ٨ ص ١٨٣ وما بعدها، والسيرة جـ٤ص٢٧٦، والطبرى جـ٣ص١٥١.

فنهى الرجل إذا أراد سفرا أن يعقد شجرتين، فإذا رجع فوجدهما على ماكانتا عليه قال: قد وفت امرأته، وإذا لم يجدهما قال: قد نكثت. وهذا مايسمى بالرتيمة، وقد ورد ذكرها فى الشعر الجاهلى، يقول الشاعر:(١)

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَاجَاتُنَا فِي نفُوسنا   لإِخْوَانِنا لَمْ تُغْنِ عَنَّا الرَّتَائِمُ

كذلك كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها حلقت رأسها وأخذت نعلى زوجها فعلقتهما فى عنقها وضربت بهما وجهها، وإذا ما تكثرت المرأة بموت ميتها نشرت شعرها فى مأتمه(٢).

وقد نهى الإسلام عن مثل هذه العادات، فقال رسول الله -ﷺ-: «لَيسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ أَوْ شَقَّ الْجيُوبَ أَوْ دَعَا بِدَعْوىَ الجَاهليّة»(٣).

وقد رأت الخنساء الصبر خيرا لها من أن تفعل ذلك، فقالت:(٤)

وَلَكِنِّى رَأَيْتُ الصَّبْرَ خَيْرًا   مِنَ النَّعْلَيْنِ والرَّأسِ الْحَلِيقِ

وَمِنْ رَحضِ الْغُرابِ إِذا تَنَادى   دُعَاةُ الْمَوتِ بِالْكَأسِ الرَّحِيقِ

وهدف الإسلام من ذلك هو حفظ كيان المرأة، فيجعلها أولا تؤمن بالله ورسوله وتطيع زوجها ثم تحسن تربية أبنائها ؛ لأنهم نواة المجتمع إذا صلحوا صلح المجتمع وإذا فسدوا هلك المجتمع، فدور المرأة خلق أجيال تستطيع أن تحافظ وتحمى القيم والتعاليم الإسلامية العربية، يقدمون أنفسهم فداء لهذه القيم، فلا يليق بها إذا فقدت زوجها أو أحد أبنائها أن تفعل مثل هذه العادات الجاهلية إن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتحتسب ذلك عند ربها وتصبر حتى يرضى عنها الله ورسوله.

---

(١) مجالس ثعلب جـ١ ص٩٧

(٢) المعانى لابن قتيبة جـ ٣ ص١١٩٧.

(٣) صحيح مسلم جـ٢ ص١٠٩.

(٤) المعانى لابن قتيبة جـ٣ ص١١٩٧، وراجع أيضا ديوان الخنساء ، نشر إسماعيل اليوسف، دار الكتاب العربى- دمشق (د/ت) ص١١٠ فقد ذكر البيت الأول، ولم يرد ذكر البيت الثانى..

معاملة الأبناء وتحريم الإسلام لوأد البنات .

وفى مجال الاهتمام بالمرأة حرم الإسلام وأد البنات خشية العار أو خشية الفقر، فقال جل ذكره[1]: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ . وقوله تعالى[2]: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ .

وقوله تعالى أيضا[3] : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَايَحْكُمُونَ﴾ .

ونفهم من قول الشاعر[4]:

يُبْكَى عَلَيْنَا وَلا نَبْكِي عَلَى أَحَدِ   لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنْ الإِبِلِ

أن بعض العرب كانوا يتصفون بغلظة الأكباد وقساوة القلوب ولذلك لايرحمون بناتهم فكانوا يصنعون ذلك خشية السبى، إذ كان سباؤهن كثيرا فى الجاهلية، ويعدون السبى سبة ما بعدها سبة لأنها تعنى الذل والمهانة. فهذا قيس بن عاصم أحد سادات العرب قبل الإسلام وأد كل بناته، وذلك لأن «المشمرج اليشكرى أغار على بنى سعد فسبى نساء واستاق أموالا، وكان فى النساء امرأة، خالها قيس بن عاصم وهى رميم بنت أحمر بن جندل السعدى، وأمها أخت قيس. فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفدوها، فوجد عمرو بن المشمرج قد اصطفاها لنفسه. فسأله فيها، فقال قد جعلت أمرها إليها فإن اختارتك فخذها. فخيرت، فاختارت عمرو بن

(١) سورة الإسراء، آية ٣١.

(٢) سورة التكوير، الآيتان ٨، ٩.

(٣) سورة النحل ، الآيتان ٥٨، ٥٩.

(٤) ثمار القلوب، ص ٣٤٨ وذكر أنه بلعاء بن قيس ونسبه ابن قتيبة فى عيون الأخبار جـ٢ ص١٩٢ للمخبل.

المشمرج، فانصرف قيس فوأد كل بنت تولد له وجعل ذلك سنة، واقتدت به العرب فى ذلك، فكان كل سيد يولد له بنت يئدها خوفا من الفضيحة»[1].

والإسلام لا يفرق بين الذكور والإناث من الأبناء، وكان الرسول -ﷺ- مثلا أعلى فى معاملة ذريته، فقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم، فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا والله ما نُقبِّل. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وأَمْلِكُ إنْ كان اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ» وقال ابن نُمَيْر مِنْ قَلْبِك الرَّحمةُ [2]. وروى أيضا عن أبى هريرة أن الأقرع بن حابس أبصر النبى ـ ﷺ ـ يقبل الحسن، فقال: إن لى عشرة من الولد ماقبلت واحدا منهم. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إِنَّهُ مَنْ لايَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»[3].

كذلك كانوا فى الجاهلية يسترقون أبناءهم منه الإماء، فنهى الإسلام عن ذلك وجعلهم أحرارا كآبائهم، فالجارية إذا صارت أم ولد تعتق بمجرد موت سيدها، فقد قال ﷺ «الولدُ للفِرَاشِ حُرّةً كَانَتْ أو أَمَةً»[4]. ولا يجوز بيعها لنهيه عليه الصلاة والسلام عن بَيع أم الولد، من أجل رعاية أولادها، ولأن بيعها يتنافى مع حريتها المنتظرة بموت سيدها.

وبكل ذلك كفل الإسلام للمرأة حقوقها، وأوجب على الرجل أن يرعاها خير رعاية حتى إننا نراها تشارك فى الأحداث السياسية والفتوحات الإسلامية فى عهد الرسول -ﷺ- وخلفائه الراشدين، تحرض الرجال على التضحية بأنفسهم فى سبيل الله وتشد أزرهم وتغرس فى نفوسهم تعاليم الإسلام السمحة بما فيها من قيم دينية وروحية جاءت فى الذكر الحكيم والسنة النبوية المطهرة.

---

(١) الأغانى جـ١٤ ص٤٩٤٥.

(٢)صحيح مسلم، المجلد الخامس جـ١٥ص٧٦، والبخارى جـ٤ص٥١.

(٣)مسلم، جـ١٥ ص٧٦ وما بعدها.

(٤) البخارى، جـ٤ ص١٦٨.

المحافظة على أعراض المسلمين .

وفى مجال المحافظة على سلامة عرض المسلم وصيانة كرامته أمر الله - سبحانه وتعالى - نساء المؤمنين أن يستترن عند خروجهن بجلباب سابغ كاس يتميزن به عمن سواهن من الكافرات الفاجرات، فقد كانت بعض نساء الجاهلية إذا خرجن من بيوتهن كشفن عن بعض محاسنهن من مثل النحر والعنق والشعر، فيتبعهن الفساق والعابثون فنهى الإسلام عن ذلك فى قوله تعالى: [١]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فأراد الله عز وجل أن يحفظ المرأة المؤمنة بإرخاء بعض جلبابها عليها حتى لا ينكشف شىء من تلك المفاتن من جسدها، وبهذا يعرف من مظهرها أنها عفيفة طاهرة مؤمنة فلا يتعرض لها ماجن أو منافق بإيذاء[٢]، وحتى لاتكون هذه المفاتن مادة يتغنى بها الفاسقون من الشعراء.

وكذلك أمر الله عز وجل المسلمين أيضا بغض البصر فى قوله تعالى: [٣]

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ * ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾

فذلك أعف وأطهر لقلوبهم وألسنتهم من دنس الفواحش. فقد منع الرسول - ﷺ - الفضل بن العباس وهو رديفه عام حجة الوداع من النظر إلى الخثعمية وصرف وجهه عنها. ومنع بعض أصحابه من الدخول عليه من أجل صفية زوجته، وقال لهم: إنها صفية. ومنع امرأتين من نسائه من النظر

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٥٩.

(٢) الحلال والحرام ص١٣٥.

(٣) سورة النور، الآيتان ٣٠، ٣١.

إلى ابن أم مكتوم، فقالتا: أليس أعمى؟ فقال: «أفعمياوان أنتما»[1]. وبيّن الرسول - ﷺ - الحكمة من غض البصر وعفة اللسان بقوله: «إنَّ الله كَتَبَ عَلَى ابْنِ ادَمَ حظَّهُ مَنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلكَ لاَمَحَالَةَ، فزنا العَيْنِ، وزنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَتَمنَّى وَتَشْتَهِى، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلك كُلَّهُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[2].

فقد حرم الإسلام كل علاقة جنسية تقوم على غير الزواج، كما حرم كل قول أو عمل يفتح نافذة إلى علاقة محرمة، وهذا سر نهى القرآن عن الزنا بهذا التعبير المعجز فى قوله تعالى:[3] ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾.

ولهذا نرى الرسول - ﷺ - والخلفاء الراشدين من بعده، يمنعون الشعراء من التفحش فى القول، وينهونهم عن التشبيب بالنساء، وهدفهم من ذلك المحافظة على طهارة المجتمع من إشاعة الفواحش فيه، وانتشار الرذائل بين المسلمين.

بعض الفواحش التى كانت تشيع فى المجتمع الجاهلى، وموقف الإسلام منها.

كذلك حرم الإسلام جملة من الفواحش التى كانت تشيع فى المجتمع الجاهلى، فعندما نزل القرآن الكريم أنكر على مشركى العرب تحريمهم على أنفسهم من الطيبات من أنواع الحرث والأنعام مالم يأذن به الله، ومن ذلك تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، فقد كانوا فى الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر، شقوا أذنها ومنعوا ركوبها، وتركوها

---

(١) بهجة المجالس ق ٢ ص١٨ وما بعدها. (والفضل: هو الفضل بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى ابن عم الرسول -ﷺ- ويعد أكبر أولاد العباس وكان من شجعان الصحابة ووجوههم. خرج بعد وفاة الرسول (ﷺ) إلى الشام مجاهدا فاستشهد فى وقعة أجنادين، وقيل مات فى طاعون عمواس سنة ١٣هـ. والخثعمية: هى أسماء بنت عميس بن سعد الخثعمى صحابية من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة، تزوجت عدة من الصحابة وتوفيت نحو عام ٤٠هـ) راجع أسد الغابة جـ٣ ص٣٦٦، جـ٧ ص١٤.

(٢) البخارى: جـ٤ ص٨٨.

(٣) سورة الإسراء، آية ٣٢.

لآلهتـهم، لاتنحر ولا يحمل عليـها، ولاتطرد عن ماء أو مرعى، وسـموها (البحـيرة)، أى مشـقوقة الأذن، وكـان الرجل إذا قدم من سـفر، أو برأ من مرض أو نحو ذلك سيب ناقته وخلاها، وجعلهـا كالبحيرة، وتسمى(السائبة) وكانت الشاة إذا ولـدت أنثى فهى لهم، وإذا ولدت ذكرا فهـو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم، وتسمى (الوصـيلة)، وكان الفـحل إذا لقح ولد ولده قـالوا: قد حـمى ظهره، فـلا يركب ولا يحمل عليه ويسـمى (الحامى) وفى تفسير هذه الأربعة أقـوال كثيرة تدور حول هذا المحور.[1]

وقد أنـكر القرآن الكريم عليـهم هذا التحـريم،ولم يجعل لهم عـذرا فى تقليد آبائهم فى هذا الضلال، فقال تعالى:[2]

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيـــرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾.

وكذلك كانوا فى الجاهلية إذا أصابتهم مصيبة أو حين قالوا: الدهر فعل بنا ذاك، فسبوه[3]. فنهاهم الرسـول ـ ﷺ ـ عن ذلك بقوله: «لاَتَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»[4]. ويقول أيضا حاكـيا عن ربه عز وجل: «يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرَ بِيَدِى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»[5].

كذلك أبطل الإسلام مـاكان أهل الجاهلية يتواصون به بينهم، ويسـتعملونه

(١) الحلال والحرام ص٢٤ وما بعدها.
(٢) سورة المائدة، الآيتان ١٠٣، ١٠٤.
(٣) مجالس ثعلب جـ٢ ص٥٨٣.
(٤) مسلم جـ١٥ ص٣.
(٥) البخارى جـ٤ ص٧٨.

فى جاهليتهم من التطير واتقاء مخالطة ذى الداء، حذار أن يعديهم داؤه فى المؤاكلة والمشاربة والمجالسة، وغير ذلك من المخالطة[1] فكانوا يكرهون دنو ذوى الداء منهم، ولذلك قال لبيد بن ربيعة للنعمان بن المنذر فى الربيع بن زياد العبسى:[2]

مَهْلاً أَبَيْتَ اللَّعْنَ لاتأْكُلْ مَعَهْ ... إنّ استَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ
وإنّه يُدْخِلُ فيها إصْبَعَهْ ... يُدْخِلُها حَتّى يُوارِى أشْجَعَهْ
كَأنّما يَطْلُبُ شَيْئًا ضَيَّعَهْ

فتخوف الملك وترك مؤاكلته ومنادمته. «وقد أكثر شعراء الجاهلية فى ذلك لكثرة استعمالهم إيَّاه وتصديقهم به»[3] وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:[4]

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾

ويقول الحق سبحانه وتعالى مبينا أن أحدا من خلقه لن يصيبه إلا ما سبق له فى أم الكتاب من خير أو شر[5]: **﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾** وكذلك نهى الرسول ـ ﷺ ـ أمته عن هذا الاعتقاد الباطل بقوله: «لاعَدْوى وَلا صَفَرَ وَلاَ هَامَةَ، فَقَالَ أعرابىٌّ: يَارَسُولَ اللهِ فَمَا بالُ الإبِلِ تَكُونُ فِى الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ فَيَجِئُ الْبَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ فِيها فَيُجْرِبُها كُلَّهَا، قَالَ: فَمَنْ أَعْدَى ٱلأَوَّلَ»[6]. وقال أيضا ـ ﷺ ـ

(١) تهذيب الآثار مسند على ص١٠ ، وراجع أيضا عيون الأخبار جـ١ ص١٤٦ وزهر الآداب وثمر الألباب للحصرى القيراونى تحقيق زكى مبارك ومحمد محيى الدين عبد الحميد ط٤ دار الجيل بيروت ١٩٧٢ جـ٢ ص٥٢٤.

(٢) راجع البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، طبعة دار الاعتصام القاهرة بيروت ١٣٩٢هـ-١٩٧٢ م ص ٥٨ والأغانى- دار الكتب جـ ١٧ صـ١٨٥

(٣) تهذيب الآثار مسند على ص ٣٥.

(٤) سورة الحديد، آية ٢٢.

(٥) سورة التوبة، آية ٥١.

(٦) صحيح مسلم جـ١٤ ص٢١٣.

«أَرْبَعٌ مِنْ أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَنْ يَدَعُوهَا: الطعْنُ فِى ٱلأَنسَاب وَالنِّيَاحَةُ، وَمُطِرنَا بِنَوْءِ كَذَا، وَالْعَدوْى، اشْتَرَيتُ بَعِيـرًا فَجَرِبَ - أَوْ جَرِبا - فَجَعَلْتَهُ فِى مِئة مَنَ الإِبِلِ فَجَرِبَتْ مَنْ أَعَدى ٱلأَوَّلَ»[1] وكان هدف الإسلام من ذلك نقل البشر من اعتقاداتهم القديمة الضالة إلى الاعتقاد بالله عز وجل والإيمان بقضائه وقدره وأنه جل ذكره بيده الأمر كله.

وإلى جانب هذه الأمور الاجتماعية نجد الإسلام يقف موقفا واضحا إزاء هؤلاء المرتدين الذين تركوا دين الإسلام إلى دين آخر وإلى غير دين، فأمر المسلمين أن يدعوهم إلى العودة إلى الإسلام ثلاثة أيام، ويشددوا عليهم فى ذلك، فإن عادوا إلى الإسلام ورجعوا عن غيهم وثابوا إلى رشدهم فهو خير، وإلا فالقتل بالسيف حدا، لقوله سبحانه وتعالى:[2] ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ وقال - ﷺ - «مَنْ بَدَّلَ دِينَهَ فَاقْتُلُوهُ»[3]. فكل من جحد فريضة من فرائض الإسلام المجمع عليها الشرع أو أنكر ألوهية الله تعالى ورسله أو أظهر استخفافا بالدين فقد كفر، وينبغى أن يعامل معاملة المرتد، كما سنرى فى موقف الخلفاء الراشدين الذين لم يألوا جهدا فى التصدى والوقوف فى وجه هؤلاء المرتدين الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ومعاملتهم بما أمر الله ورسوله فيهم.

ولاشك أن هذه الواجبات والآداب التى تمثل الجوانب الاجتماعية المختلفة جوانب تعبدية مثلها مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج وقراءة القرآن وقيام الليل وذكر الله، وقد نبه الرسول - ﷺ - إلى مدى خطورة هذه الجوانب الاجتماعية فقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ -

---

(١) تهذيب الآثار مسند على ص١٠، وراجع ما رواه الترمذى فى كتاب القدر جـ٤ ص٤٥٠ وما بعدها.
(٢) سورة المائدة، آية ٣٣.
(٣) صحيح البخارى، جـ٤ ص١٩٦.

قـــال «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلسُ قَالُوا: الْمُفْلسُ فينَا مَنْ لادرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ: إنَّ الْمُفْلسَ منْ أُمَّتي يَأْتي يَوْمَ الْقيَامَة بصَلاة وَصيَام وَزَكَــاة، وَيَأْتي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا منْ حَسَنَاته وَهَذَا منْ حَســنَاته فَإنْ فَنيَتْ حَسَنَاتُه قَبــل أن يُقْضَى مَاعَلَيْه أَخَذَ منْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْه ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّار»[1].

ويلاحظ أن كثـيرا من الوصايا الاجـتماعـية إنما نزل بمكة فى أثناء التركـيز القوى على بناء العقيدة فى نفوس المؤمنين وعند بناء اللبنات الأولى فى صرح الإسلام، وتأسيس القواعد الأساسيـة التى بنى عليها باقى التشريع بعد ذلك فى المدينة.

وفى ذلك دليل على أن أصول التشريع الاجتـماعى والتوصية والإرشاد إنما كانت بمكة مرتبطة تاريخيا بنزول العقيدة، عـقيدة توحيد الله وتنزيهه، وعقيدة الإيمان بالغيب وبالبعث والجزاء. وكـان هدف الإسلام من ذلك إعداد الإنسان ليكون عبدا خالصا لله لا لأحد سواه كما سنرى فى الفصل التالى.

❋ ❋ ❋

(1) صحيح مسلم جـ١٦ ص١٣٥ وما بعدها.

الفصـل الثانى

التعاليم الدينية

الإسـلام دين الله الخالد وكلمـته البـاقيـة، أرسل الله به رسوله مـحمـدا ـ ﷺ ـ، وبعثـه على فترة من الرسل، وكـان العالم وقتـئذ تمر عليه مـوجات فاسدة مفـسدة، أفسدت على الناس عقيدتهم، فـأوشكوا على الانهيار، وقد صور القـرآن الكريم حال المجـتمع آنذاك أبلغ تصـوير، فقـال رب العزة:[1] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾؛ لأنهم تركـوا الخالق وعـبدوا المخلوق، بل سـولت لهم أنفسـهم، وزينت لهم شـيـاطين الإنس والجن، فعبدوا الشمس والنجوم، والحـيوان والنار والأصنام من الأحجار والأخشاب وغـيـرها، وتركوا دعـوات الرسل وألقـوا بما جـاءوهم به بعـيـدا عن واقع المجتـمع، واستـبدلوا بنظام التـآلف، نظام التباغض، وتـفكك أواصر المودة والرحمة. يقول الحق تبارك وتعالى:[2] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ وأمـام هذا الاضطراب العـقـائدى والاجتماعى، كانت البشرية فى حاجـة ماسة إلى دين ينظمها ويسلك الإنسانية كلها فى سلك الحق والعدل والمساواة. وإذا كانت مشيئـة الله تعالى، اقتضت أن يبعث إلى كل أمة رسولا، ليصحح عقائدهم ويقوّم ما اعوج من أخلاقهم، لقوله تعالى[3]: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ لذا كان اختـيار النبى ـ ﷺ ـ لهذه المهمة العظيمـة التى زكـاها القـرآن الكـريـم، فقـال تعالى[4]: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وقـال سبحـانه:[5] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٣

(٢) سورة يونس، آية ١٨.

(٣) سورة فاطر، آية ٢٤.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٥٨

(٥) سورة الفرقان. آية ١.

الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وقوله[1]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وقوله:[2] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله:[3] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقوله:[4] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ فالإسلام هو شرع الله الأبدى وكلمته السارية فى الوجود التى تفرض سلطانها على كل الشرائع السالفة. وهو يقوم على ركنين أساسين هما: العقيدة والعمل.

والعقيدة تتمثل فى الإيمان بوحدانية الله، يقول رب العزة:[5] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ *﴾ ويقول أيضا فى نفى التعدد والعبودية معا:[6] ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فلا عبودية إلا لله الواحد القهار رب العالمين، المهيمن على كل شئون الكون ومقدارته:[7] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصار وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فالله تبارك وتعالى موجود موصوف بالقدرة وبالعلم وبالحياة وبالسمع والبصر وبالجمال وبالحكمة والإرادة إلى آخر هذه الصفات التى تردد ذكرها فى القرآن الكريم فى كثير من المناسبات، يقول جل ذكره:[8] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.
(٢) سورة سبأ، آية ٢٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ٨٥.
(٤) سورة التوبة، آية ٣٣.
(٥) سورة الإخلاص.
(٦)سورة المؤمنين، آية ٩١.
(٧) سورة الأنعام، الآيتان ١٠٢،١٠٣.
(٨) سورة الحشر: الآيتان ٢٣: ٢٤.

الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾. والقرآن يحث دائما على النظر فى الكون والتأمل فى المخلوقات ويرفع من قيمة العقل البشرى ويعلى من قدر الفكر، حتى لقد ذكر العقل فى أكثر من أربعين موضعا مقرونا بالتبجيل والتكريم والحث على الجد إلى إدراك الحقائق وكشف مستورات الوجود، مثل قول الله سبحانه وتعالى[1] : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وقوله تعالى: [2] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وقوله تعالى: [3] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * ﴾.

وهو فى هذه الآية يحض على اكتشاف غرائب النبات والحيوان والجماد ثم يرتب على ذلك الخشية من الله إشارة إلى مابين معرفة الكون والعلم به ومعرفة مكونه والعلم به كذلك من صلة.

والإسلام كثيرا ما يخاطب الوجدان ويستثير الخواص النفسانية الكامنة فى

(١) سورة البقرة ، آية ١٦٤.

(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠، ١٩١.

(٣) سورة فاطر ، الآيتان ٢٨،٢٧

الإنسان لتسمو إلى الله جل علاه وتستشعر لذة معرفته، يقول الله تعالى:(١) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وأبرز مظاهر هذه العقيدة أن تظهر آثارها فى أقوال معتنقيها وأفعالهم فالمؤمن متى اعتقد أن خالقه قادر كانت النتيجة العملية لهذه العقيدة أن يتوكل عليه وأن يلجأ إليه، وإذا اعتقد أنه عالم راقبه واستولت عليه خشيته، وإذا اعتقد أنه واحد لم يدع سواه ولم يسأل غيره ولم يصرف وجهه إلا إليه. والآيات فى ذلك كثيرة مثل قوله تبارك وتعالى:(٢) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

ويقترن بالإيمان بالله وحده وبربوبيته الإيمان بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، يوم يبعث الناس يوم الحساب، ويرى الناس أعمالهم (٣): ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *﴾ ذلك اليوم الذى ينصب فيه الحق جل وعلا ميزان العدل الإلهى ليأخذ كل ذى حق حقه، يقول تعالى:(٤)﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * ﴾.

---

(١) سورة الرعد ، آية ٢٨.

(٢) سورة الأنفال ، الآيتان :٢: ٤

(٣) سورة الزلزلة ، الآيتان ٨،٧.

(٤) سورة يونس ، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

وفى الإيمان بالجزاء الإلهى العادل على الخير والشر فى الدنيا ثوابا وعقابا فى الآخرة، ما يغذى الإحساس الفطرى الأصيل بضرورة القصاص من الظالم الفاجر الذى أفلت من يد العدالة الدنيوية والمثوبة لمن فعل الخير ودعا إليه ولم يجز إلاَّ بالتنكر والاضطهاد، وعدم التسوية بين الأخيار والأشرار والأبرار والفجار، والمصلحين والمفسدين، يقول تعالى:[1] ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ *** ﴾.

وفى الإيمان بالجنة والنار وما فيها من نعيم وعذاب حسى ومعنوى، مطابقة لواقع الإنسان، من حيث هو جسم وروح، لكل منهما مطالبة وحاجاته، ومن حيث إن فى الناس من لايكفيه نعيم الروح أو عذابها وحدها مجردة عن الجسم. كما أن منهم من لايقنعه نعيم الجسم أو عذابه بمعزل عن الروح. لهذا كان فى الجنة الطعام والشراب والحور العين ورضوان من الله أكبر، وكان فى النار سلاسل وأغلال، وزقوم وغسلين، وطعام من ضريع، لايسمن ولايغنى من جوع، ولهم فوق ذلك من الخزى والهوان ما هو أشد وأنكى[2].

بكل ذلك دعا رسول الله - ﷺ - قومه فلم يؤمن به إلا نفر قليل من ذوى النفوس الخيرة الذين رأوا فى دعوته صلاحا لأحوالهم، ووقف أكثر القوم ينكرون الدعوة ؛ وذلك لأن الأفكار الجديدة لايقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعا ماديا عاجلا. فلم يكن من السهل اعتناقهم هذه الدعوة الجديدة وهم أصحاب تجارة، وثرواتهم قائمة على علاقاتهم بالقبائل الأخرى والشعوب الكائنة فى الشمال والجنوب، وهم كذلك أصحاب المكانة الدينية الاجتماعيةلقيامهم على خدمة الكعبة التى حققت لهم السيادة والمكانة بين القبائل المختلفة الوافدة للحج أو العمرة.

---

(١) سورة الجاثية، الآيتان :٢١،٢٢.

(٢) الخصائص العامة للإسلام ص١٤٧.

فإيمانهم بمثل هذه الدعوة ـ فى رأيهم ـ سيقلب لهم الأوضاع ويضيع من أيديهم كل هذه المكاسب المادية ويغير كل القيم والتقاليد المتعارف عليها. فأخذوا يجابهون هذه الدعوة بكل مالديهم من قوة ووسائل، فآذوا الرسول ـ ﷺ ـ ، ثم «إنهم عدوا على من أسلم، واتبع رسول الله ـ ﷺ ـ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم؛ فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم»[١].

وكان عمار بن ياسر يشهد بلالا وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء، فقال يذكر إعتاق أبى بكر لبلال، وكان اسم أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ عتيقا[٢]:

جَزَى اللهُ خَيْرًا عَنْ بِلالٍ وَصَحْبِه ... عَتِيقًا وَأَخْزَى فَاكِهًا وَأَبَا جَهْلِ
عَشِيَّةَ هَمَّا فِى بِلالٍ بِسَوءَةٍ ... وَلَمْ يَحْذَرا مايَحْذُر المرءُ ذُو الْعَقْلِ
بِتَوْحِيدِه رَبِّ الأَنَامِ وَقَوْلِه ... شَهِدْتُ بِأن الله رَبِّى عَلَى مَهَلِ
فَإِنْ يَقْتلُونِى يَقْتلُونِى فَلَمْ أَكُنْ ... لأُشْرِكُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ خِيفَةِ الْقَتْلِ
فَيَاربَّ إِبْراهِيمَ والْعَبْدِ يُونُسَ ... ومُوسَى وعِيسَى نَجِّنِى ثُمَّ لاتَبْلِ
لَمَنْ ظَلَّ يَهْوِى الْغَىَّ مِنْ آلِ غَالِبٍ ... عَلَى غَيْرِ بِرٍّ كَانَ مِنْهُ وَلا عَدْلِ

فلم يكن أمام الرسول ـ ﷺ ـ إلا أن يأمر المضطهدين من أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة، وهناك حمدوا جوار النجاشى وعبدوا الله وأمنوا على دينهم، فقال عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى، وهو من مهاجرى الحبشة[٣].

---

(١) السيرة: جـ١ ص ٣٣٩.
(٢) حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى، طبعة دار الشهباء (د/ت) جـ١ ص٢٧١.
(٣) السيرة: جـ١: ص٣٥٣، وأسد الغابة: جـ٣ ص٢٠٧.

يَارَاكِبًا بَلِّغًا عَنِّى مُغَلْغَلَةً مَنْ كَانَ يَرْجُو بَلاغَ اللهِ والـدِّيـنِ
كُلَّ امْرِئٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ مُضْطَهَدٍ بِبَطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمَفْتُونِ
أَنَّا وَجَدْنَا بِلادَ اللهِ وَاسِعَةً تُنْجِى مِنَ الـذُّلِّ والْمَخْزَاةِ والْهُونِ
فَلا تُقِيمُوا عَلـى ذُلِّ الْحَيَاةِ وَخِزْ ىِ فِى الْمَمَاتِ وَعَيْبٍ غَيْرِ مَأْمُونِ
إِنَّا تَبِعْنَا رَسُولَ اللهِ واطَّرَحُوا قَوْلَ النَّبِـىِّ وَعَالُوا فِى الْمُوَازِيـنِ
فَاجْعَلْ عَذَابَكَ فِى الْقَوْمِ الَّذِيـنَ بَغَوْا وَعَائِذٌ بِكَ أَنْ يَعْلُوا فَيَطْغُونِى

وأخذ القوم يضطهدون الرسول - ﷺ - حتى أمره الله بالهجرة إلى يثرب، وبذلت قريش مائة ناقة لمن يرد عليهم محمدا خوفا من أن يعظم شأنه خارج بلادهم. وتقدم سراقة بن مالك للقيام بهذه المهمة[1] ولكنه رجع بلا شىء، فلامه أبو جهل، فقال سراقة فى ذلك:[2]

أَبَا حَكَمٍ واللهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا لأَمْرِ جَوَادِى إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهْ
عَلِمْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَـاوِمُهْ
عَلَيْكَ بِكَفِّ الْقَوْمِ عَنْهُ، فَإِنَّنِى أَرَى أَمْرَهُ يَوْمًا سَتَبْـدُو مَعَالِمُهْ
بِأَمْرٍ يَوَدُّ النَّاسُ فِيـهِ بِأَسْرِهِمْ بِأَنَّ جَمِيـعَ النَّاسِ طُرًّا يُسَالِمُهْ

وهذا إقرار من المشركين أنفسهم بأن دعوته - ﷺ - منزّلة من عند الله الواحد القهار ولكنهم رفضوا اعتناقها خوفا على مصالحهم المادية. ومهما كان أمر هؤلاء القوم وموقفهم، فقد أذعن الرسول - ﷺ - لأمر ربه وهاجر إلى المدينة برفقة صاحبه أبى بكر - رضى الله عنه - بعد أن مكث بمكة ثلاث

(1) هو سراقة بن مالك بن جعشم الكنانى، وقصته فى خروجه وراء الرسول-ﷺ- وما حدث له ولفرسه مشهورة تحدثت عنها كتب السيرة والتاريخ.
(2) الروض الأنف جـ ٤ص ٢١٧.

عشرة سنة بعد مبعثه يدعو قـومه إلى هذه العقيدة فلم يستجب إلا نفر قليل.

وفى ذلك يقول الشاعر:[1]

ثَوَى فِى قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيـــا!

وَيَعرِضُ فِى أهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَـهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِى وَلَمْ يرَ رَاعِيـــا

فَلَمّا أَتَانَا أَظْهَر اللهُ دِيــنَهُ ... فَأصْبَحَ مَسْرُورًا بِطيبَةَ رَاضِيـــا

وَأَلْفَى صَدِيقًا واطْمـأنّتْ به النَّوَى ... وَكَانَ لَـهُ عَوْنًا من الله بَادِيـــا

يَقُصُّ لَـنَا مَاقَالَ نُوحٌ لِقَوْمِه ... وَمَا قَالَ مُوسَى إذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا

وَأَصْبَحَ لايَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا ... قَرِيبًا، وَلا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيـا

بَذَلْنَا لَهُ الأَمْــوالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا ... وَأَنْفُسَنا عِنْدَ الْوَغَى والـتَّآسِـيـا

وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لا شَىْءَ غَيْرَهُ ... وَنَعْلَمُ أَنّ اللهَ أَفْضَلُ هَادِيَا

واتخذ رسول الله ـ ﷺ ـ يثرب مركزا لدعـوته الإسلامية، منها خرجت جيوش المسلمين لنشر كلمـة الله فى شتى بقاع الأرض ليعلو السلطان الإلهى على كـل السلطات، وليــقـــوضـــوا أعـظم دولتين آنذاك وهمـــا الفـــرس والروم. وذلك لأن الإسلام اقـتحم على نفوســهم مناطق عقـائدهم، وغرس فيهـا بذور التوحيد والإيمان ليـثمر قوة مـعنوية عظيمة حفـزتهم إلى الاندفاع خارج بلادهم لنشر هذه الدعوى فى كل مكان؛ لأن عقـيدة التوحيد منحت المسلم يقـــينا لارب إلا الله يخـاف ويرجى، ولا إله الله يجـتـنب سـخطه، ويلتمس رضاه، وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة فى حياته وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبـه ورضى بالله وحده ربا، عليه يتـوكل، وإليه ينيب، وفى فـضله يطمع، ومن قوته يسـتمـد، وله يتودد وإليه يحـتكم، وبه

(١) المعارف لابن قتيبـة، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٨١م ص ١٥١وذكر الأبيات الثلاثة الأولى وتردد فى نسـبتها بين حسان بن ثابت وصرمـة بن أبى أنس، وأسد الغابة جـ٣ ص١١٨ وما بعدها، ونسبهـا أيضا إلى صرمة بن أبى أنس وكذلك مـروج الذهب للمسعودى بتحـقيق محمد محـيى الدين عبد الحميد طبعة المكتبة الإسلامية بيروت جـ٢ ص٢٨٧.

يعتصم. كما قال تعالى: [1] ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ومن ثم يتحقق الهدف والغاية إذا كان الإنسان وثيق الصلة بربه لأنه يحمى نفسه من التمزق والصراع الداخلى، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات وشتى الاتجاهات، وهذه الصلة جديرة بأن تحرر الإنسان من العبودية لأنانيته وشهوات نفسه، ولذات حسه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية، ورغباته الشخصية عن طريق العبادات المفروضة لأنها شحنة روحية تذكره بالله كلما نسى، وتقوى عزمه كلما ضعف، وتنير طريقه كلما انطفأت من حوله المصابيح[2].

وأول هذه الفرائض الصلاة. فالصلاة فريضة على كل مسلم إذ أمر الله تعالى بها فى غير ما آية من كتابه الحكيم، فقال تعالى: [3] ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

وقال تعالى: [4] ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ﴾. وجعلها الرسول - ﷺ - القاعدة الثانية من قواعد الإسلام الخمس، فقال: «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»[5] ومن الحكمة فى شرعية الصلاة أنها تطهر النفس وتزكيها وتؤهل العبد لمناجاة ربه فى الدنيا ومجاورته فى الدار الآخرة، وتبعد العبد عن الرذائل وتطهره من سوء القول والعمل لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: [6] ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ ولبيان فضيلة الصلاة نورد جملة من أحاديث الرسول - ﷺ -

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٠١.

(٢) الخصائص العامة للإسلام راجع ص ١٤ وما بعدها..

(٣) سورة النساء، آية ١٠٣.

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٣٨.

(٥) البخارى ، جـ١ ص١١، مسلم جـ١ ص١٧٧.

(٦) سورة العنكبوت ، آية ٤٥.

التى رواها مسلم فى صحيحه، فروى قوله ـ ﷺ ـ : «بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَة»[1] وقوله ـ ﷺ ـ عندما سئل أى الأعمال الأفضل؟ فقال: «الصلاة لوقتها»[2] وقوله ـ ﷺ ـ : «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِه شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لاَيَبْقَى مِنْ دَرَنِه شَيْءٌ. قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[3] وقوله ـ ﷺ ـ : «مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحسِنُ وضوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَالَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»[4]. والصلاة فى جملتها توحى بعدة معان لها أثرها البالغ فى نفوس العرب، وأهمها الالتزام، وهو ما حاول الإسلام زرعه فى نفوس العرب، إذ أن العربى بطبيعته يميل إلى الحرية المطلقة ويأنف من التقييد، فجاءت الصلاة لتلزمه بفروض معينة لها أوقات معينة ينبغى المداومة والمحافظة عليها. ثم إنها استشعار لعظمة الخالق سبحانه وتعالى فى أثناء الخشوع فى الركوع والسجود، ومن معانيها أيضا الدعاء والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى، ففى الصلاة يناجى المرء ربه بما يشاء فهى وسيلة للتقرب إلى الله تبطل دعواهم القديمة بأن ما يعبدونه من أصنام وغيرها تقربهم إلى الله زلفى، يقول الحق تبارك وتعالى:[5] ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. وفى ذلك يقول أحد الباحثين[6] «فإيمان الإنسان بوجود قوة عليا تهيمن على الكون وشعوره بالعجز حيال صراع الطبيعة المستمر، واعترافه بالنعم التى أسبغها الله عليه ـ كل ذلك يحفزه إلى التعبير

(١) مسلم: جـ ٢ ص٧١.
(٢) نفسه: جـ٢ ص٧٣.
(٣) نفسه: جـ٥ ص١٧٠.
(٤) مسلم : جـ٣ ص١١٢.
(٥) سورة الزمر ، آية ٣.
(٦) روح الإسلام: السيد أمير علـى. ترجمة أمين محمود الشريف، راجعه: محمـد بدران، محمد مصطفى زيادة نشر مكتبة الآداب ١٩٦١- ١٩٦٣م جـ٢ ص٣١

عمـا يجيش فى نفـسه من العواطف الفـياضـة بكلمات تحمل مـعنى الشكر والحب أو التوبة والابتهال لخالقه الذى لاتأخذه سنة ولا نوم، والذى وسعت رحمـته كل شىء ، وما الـصلاة إلا تعبـير عن هذه المشاعـر التى تملأ القلب البـشرى، على أن هذه المشـاعـر كلها إنما هى ثـمرة التطور الراقى إذ كـان المتوحشون يلجأون إلى معاقبة أصنامـهم إذا لم يستجيبوا لدعائهم»، فالصلاة حطمت كل الحواجـز بين بين المرء وربه إذ يشعر الفـرد فى الصلاة أنه واقف بين يدى الله. وما رواه الرسول ـ ﷺ ـ عن ربه خيـر دليل على ذلك، فقد قال ﷺ «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَّمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِى مَاسَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (**الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ**) قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمَّدَنِى عَبْدِى وإِذَا قَالَ (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيم**) قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَـىَّ عَبْدِى، وإِذَا قَالَ (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّين**) قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَجَّدَنِى عَبْدِى ـ وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى. فَإِذَا قَالَ (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) قَالَ: هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى. وَلِعَبْـدِى مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين**): قَالَ هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ»[1].

ومثل هذه الصلاة التى قسمت بين العـبد وربه لاتتفق ولاتنسجم مع عبادة غيـر الله ومن مظاهرها الشرك؛ والوثنيـة والخرافة، وعـبودية غـير الله، ومن مظاهرها؛ رهبة الملوك والأمراء وأصحاب القوة والأمر والنهى، واعتقاد النفع والضر فيـهم، والتزلف إليهم بكل وسيلة وتملقهم، ومـسايرتهم فى جورهم وعدوانهم، « فجـميع أركان الصلاة، وجمـيع مايقوله المصلى فيـها، ويقطعه على نفـسه ويعلنه ينافى ذلك أشـد المنافاة، ويـعارضه أشـد المعارضـة، وهو يعارض الكلمة التى يفـتتح بها صلاته، وهى قوله (الله أكبـر) ويعارض قوله «**الْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ**» فلا رب غيره ولاحمد لغيره ، وهو يعارض قوله «**إِيَّاكَ**

(١) مسلم جـ٤ ص١٠١ وما بعدها.

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره، وهو ينافى الركوع والسجود، فلا ركوع جسديا ومعنويا ولاسجود ظاهرًا وباطنا إلا لله تعالى؛ لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة، من أشجع الناس أمام الملوك والأمراء ، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق، وأزهدهم فى حطام الدنيا وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعداون»(١)

وليس بعجيب أن نرى كثيرا من المسلمين الأوائل يدركون هذه الحقيقة فيقومون إلى أصنامهم يحطمونها ويحرقونها، ويعلنون إسلامهم، وينشدون شعرا فى ذلك يعبر عن حقيقة الإيمان الجديد، ويحمل مشاعر الحسرة والندم على ماسلف من أفعالهم ،كما سنرى بعد ذلك.

وأبطلت صلاة الاستسقاء - التى سنها الرسول - ﷺ - وأعلنها فى الناس وخرج لها إلى المصلى - ماكان يفعله العرب فى جاهليتهم الأولى إذا احتبس عنهم المطر ويئسوا من نزوله، يجمعون البقر ويعقدون فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر ويصعدون بها فى جبل وعر، ويشعلون فيها النار التى تسمى نار الاستمطار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر. يقول الجاحظ«فإنهم إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ماقدروا عليه من البقر ثم عقدوا فى أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها فى جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا»(٢)،وفى ذلك يقول الورل الطائى:(٣)

(١) الأركان الأربعة: الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، فى ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى: أبو الحسن على الحسني الندوى. نشر دار القلم بالكويت. الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م ص٤٧ وما بعدها.

(٢) الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. الطبعة الثانية بمطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٩٦٥ جـ٤ ص٤٦٦، وراجع أيضا ثمار القلوب ص ٥٧٩ وما بعدها، وعيار الشعر ص٥١.

(٣) الحيوان: جـ٤ ص٤٦٨، وثمار القلوب ص٥٨٠ وقد ذكر أمية بن أبى الصلت ذلك فى شعره (راجع ديوانه بتحقيق عبد الحفيظ السطلى- المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٤ ص٣٩٦ وما بعدها، والحيوان جـ٤ ص٤٦٦ وما بعدها، وعيار الشعر: ص٥١ وما بعدها.

لاَدَرَّ دَرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعْيُهُم ... يستَمْطِروُن لَدَى الأَزَمَاتِ بالعُشَرِ

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقَوراً مُسَلَّعَةً ... ذَرِيعَةً لَكَ بيْنَ اللهِ والمَطَرِ

فكانوا يتخـذون ذلك ذريعة بين الله والمطر، فجـاءت الصلاة بما فيـها من تقرب إلى الله ودعاء لتبطل دعواهم.

وثانى هذه الفرائض الزكاة. وقـد تحدثنا من قبل عن أهميتـها والغاية من مشروعيتها وأثرها فى تحقيق التكافل الاجتماعى فى الإسلام فهى لاتقل أهمية عن الصلاة، ولذا قرنهـا الله بالصلاة فى أكثر من مـوضع فى كتابه الكريم، من مثل قوله:[١]

﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

والزكاة المشـروعة فى الإسلام تختلف عن أنواع الجـبايات والإتاوات التى كانت الحكومـات أو المجتمـعات تفرضـها قبل الإسـلام، لذلك نرى بعض الشعراء الجاهليين يتضررون من كثـرة الضرائب وقسوة من يطالبون بها، فنرى جابر بن حنى التغلبى يشكو ذلك ويتوعد فى قصيدة مفضلية، فيقول:[٢]

وَيَوْمًا لَدَىْ الحَشَّارِ مَنْ يَلْوِ حـقَّهُ ... يُبَزْبَزْ وَيُنْزَعْ ثَوبُهُ ويُلَطَّمِ

وفـى كـلِّ أَسْوَاقِ الـعِرَاقِ إتـاوَةٌ ... وفى كلِّ مـابَاعَ امـرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

. . . .

أَلا تَسْتَحِى مِنَّا مُلـوكٌ وتَتَّقِى ... مَحَارِمَنَا لايَبُوءُ الـدَّمُ بـالـدَّمِ

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة أن البيت الأول فيه تفضيل طريف إذ يقـول: إن الحاشـر وهو جـابى المال إذا أراد أحـد أن يمطله حقـه اضطره إلى الدفع بالعنف والإهانة.[٣]

---

(١) سورة المزمل، آية ٢٠.

(٢) المفضليات، ص٢١١.

(٣) دراسات ونصوص فى الأدب العربى ص١٦.

فنظام الضرائب كان معمولا به فى الجاهلية، فلم يكن من حق الفلاح حصد زرعه وحمله إلى مخزنه أو جنى ثمره ونقله إلى الأسواق والتصرف فيه مالم يره جباة الضرائب لأخذ العشر منه، وهو حصة الحكومة العينية كما كانت تفرض الضرائب على الأسواق والموانى.

وقد ذكر أبو الحسن الندوى أن الزكاة المشروعة فى الإسلام لها سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات ومن أبرز هذه السمات وأعمقها فى التأثير ما يقترن بهذه الفريضة ويرافقها من روح الإيمان والاحتساب، وهى الروح التى تتجرد منها الضرائب الرسمية والجبابات القانونية بطبيعة الحال، بل على العكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسآمة والسخط، والاستثقال والاستكثار، فإن دافع هذه الضرائب لايعتقدَ أنها مشروعة من الله ولايثاب عليها أجرا أو ثوابا، بل يعتقد فى أكثر الأحيان أن مصدرها تشريع أفراد مثله، أو أخس منه، وتنفق فى كثير من الأحيان فى الأهواء والشهوات، وفى المحافظة على السلطات، أو لخدمة أشخاص معدودين، أو أحزاب محدودة، ثم لايرافق هذه الأحكام والتشريعات شىء من الترغيب والترهيب الدينيين بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية.

ولهذه الحكمة البالغة التى لايقدر عليها إلا العلى الحكيم، جاءت الزكاة فى القرآن والحديث، وفى التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل، ومالها من نتائج فى الدنيا والآخرة، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب، والنمو والبركة فى المال والعقاب الأليم لمن امتنع عنها، ومحق ماله.(1) فيقول الله تعالى:(2) **﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾**.

(1) الأركان الأربعة ص115 وما بعدها.

(2)سورة البقرة ، الآيتان 261، 262.

من أجل ذلك شدد النكير على مانعها، فمن منعها جاحدا لفرضيتها كفر، ومن منعها بُخْلاً مع إقراره بوجوبهـا أثم، وأخذت منه كرها مع التعزير، وإن قاتل دونها قـوتل حتى يخضع لأمر الله ويؤدى حق مـاله، لقوله تعالى:[1]

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

وقوله تعالى:[2] **﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾** .

وقال ـ ﷺ ـ : «أُمرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلَهَ اللهُ ويؤْمِنُوا بِى وَبِمَا جِئْتُ بِهِ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّى دِمَاءهُمْ وأَمْوَالَهُم إلا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله».[3]

وروى البخارى ومـسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ وكَانَ أَبُو بَكْر ـ رَضِىَ اللهُ عنه ـ وكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَب، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ـ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ : أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولوا لاَ إلَهَ إلا اللهُ فَمَنْ قَـالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إلَّا بِحَقِّه وَحِسَابُهُ عَلَى الله. فَقَالَ: وَالله لأُقَـاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاة والزَّكَاة ـ فَإنَّ الزَّكَاةَ حقُّ المال. والله لَوْ مَنَعُونى عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلى رَسُولِ الـله ـ ﷺ ـ لَقَاتَلْتُهُم عَلَى مَنْعِه. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب:

---

(١) سورة التوبة ، الآيتان ٣٤، ٣٥.
(٢) السورة نفسها ، الآية: ١١.
(٣) مسلم: جـ١ : ص٢١٠- ٢١١.

فـوَ اللَّه مَاهُو إلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبـى بَكْرٍ لِلْقِتَـــالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»(١).

ولذلك عندما ظهـر المرتدون بعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ وامـتنعوا عن أداء الزكاة خرج إليـهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فى جيوش المسلمين لـيروعهم ويفـزعهم ويرجـعهـم عن غيـهم، وقد وضح هذا المـعنى فى أشعـار بعض المرتدين وفى أشعار المـسلمين الذين ثبتوا على دينهم. فالزكـاة ـ كما رأينا ـ صورة من صور البر التى دعا إليـها الإسلام ، وقد أكد الرسول ـ ﷺ ـ أن وجوه البر كثـيرة فليست الصدقات بالمال فحـسب، وإنما كما قال ﷺ: «كُلُّ سُلامىٍ من النَّاسِ عَلَيْه صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فـــيــه الشَّمْسُ. قَالَ: تَعْدلُ بَيْنَ الاثنين صَدَقَـةٌ، وَتُعينُ الرَّجُلَ فى دَابَّته فَتَحْمِلُهُ عَلَيْها أوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعـهُ صَدَقَةٌ. قالَ: والْكَلمَةُ الطَّيِّـةُ صَدَقَةٌ وكُلُّ خُطوَةٍ تمشيهـا إلَى الصَّلاة صَدَقَةٌ. وَتُميطُ الأَذَىٰ عن الطَّرِيْقِ صَدَقَةٌ»(٢).

وهذه التعـاليم فى البيئـة الصحراوية التي عـاش العرب فيـها دهورا على التخـاصم والنزق تشير إلى الأهداف السـامية التى رسـمها الإسـلام، وقاد العرب فى جاهليتهم المظلمة إليها.

وكذلك فرض الله عز وجل الصيام على أمة مـحمد ـ ﷺ ـ كما فرضه على الأمم التى سبقتـها بقوله تعالى(٣): **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الـصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** والصيام هو الإمساك بنية التعبد عن الأكل والشرب وغشيان النسـاء وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويوضح ابن القيم مقاصد الصيام وأثره فى النفس والحياة، فيقول:

---

(١) مسلم ، جـ١ - ص٢٠١ ومابعدها، والبخارى جـ١ص٢٤٣.
(٢) مسلم ، جـ٧ ص٩٤، ٩٥.
(٣) سورة البقرة ، آية ١٨٣.

«المقصـود من الصيـام حبس النفس عـن الشهوات وفـطامها عن المـألوفات وتعديل قوتها الشهوانيـة لتستعد لطلب مافيه غاية سعادتها ونـعيمها، وقبول ماتزكو به مما فيـه حياتها الأبدية، ويكسر الجوع والظمأ من حـدتها وسورتها ويذكرها بما للأكباد الجائعة من المساكين، وتضـييق مجارى الشيطان من العبد بتضـييق مجارى الطعـام والشراب، وتحبس قوى الأعـضاء عن استرسـالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها، ويسكن كل عضو منها، وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين»[1] ويمضى ابن القـيم ببـلاغـتـه فى شـرح أسـرار الصـوم ومقاصده، فيقول: «وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحمـيتها عن التـخليط الجالب لها المواد الفاسـدة التى إذا استولت عليها أفـسدتها، واستفراغ المواد الرديئـة المانعة من صحتها، فـالصوم يحفظ على القلب وعلى الجـوارح صحـتهـا، ويعيـد إليها مـا استلبـته منهـا أيدى الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى. . . والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستـقيمة، شرعه الله لعباده رحمة لهم، وإحسانا إليهم وحمية وجنة» [2].

ويتضح من الآية السابقة أن فريضة الصـوم كانت معروفة عند جميع الأمم تقريبا، ولكن يمكن القول بأن الناس قـديما كانوا يرون ـ بدون استثناء ـ أن الصوم ضرب من الندم أكثر من الامتناع عن الطعام والشراب، وحتى اليهود أنفسهم لم يفهموه على أنه وسيلـة لتهذيـب النفـس وإنكـار الـذات إلا فى

---

(١) زاد المعاد فى هدى خـير العباد: لشـمس الدين محمـد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ،دار الكتب العلمـية- بيروت (د/ت) جـ١ ص٢١١.

(٢) المصدر نفسه.

العصور المتأخرة[1] ؛ لأن الصوم عندهم كان مرادفا لتذليل النفس والعقوبة، أما الشريعة الإسلامية فلم تعتبر الصوم إيلاما للنفس ولاعقوبة من الله، ولم ترد فى القرآن ولا فى السنة كلمة تدل على ذلك، بل اعتبرته عبادة، يتقرب بها العبد إلى الله، ولم يشرع من الأحكام الغليظة المجحفة، ومن القيود القاسية الضيقة، ما يجعله مرادفا لتعذيب النفس وإرهاقها، وحملها على مالاطاقة لها به [2].

وللصيام فى الإسلام- كما رأينا- مغزى دينى عميق يتمثل فى صلة الإنسان بربه وبمجتمعه، كما أنه أحدث تغييرا ملحوظاً فى نفوس العرب إذ يعود الصبر ويقوى عليه ويعلم ضبط النفس ويساعد عليه، ويوجد فى النفس ملكة التقوى ويقويها، وبخاصة التقوى التى هى العلة البارزة من الصيام، كما ورد فى الآية السابقة. كما أنه يعود الأمة النظام والاتحاد، وحب العدل والمساواة ويكوّن فى المؤمنين عاطفة الرحمة تجاه المعوزين والمحتاجين، لذلك لم يفرضه الله عز وجل إلا بعد أن رسخت العقيدة فى قلوب المسلمين، وفعلت فعلها وألفوا الصلاة وهاموا بها، وتلقوا الأوامر والأحكام الشرعية بقبول واستعداد كأنهم منها على ميعاد [3].

ولبيان فضل الصوم نورد بعض ما ورد عن الرسول- ﷺ - فى هذا الشأن، فقد قال- ﷺ-: « قال الله عز وجل: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لي وأَنَا أَجـزى بِهِ ، والصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرفُثْ يَوْمَئِذٍ ولايَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ.

(١) روح الإسلام ، جـ٢ ص٣٩.

(٢) الأركان الأربعة، ص٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

والَّذى نَفْسُ مُحَمـد بِيَده لَخُلُوفُ فَم الصَّائِم أَطْيَبُ عنْدَ اللّه يَوْمَ الْقيَـامَةِ منْ رِيحِ الْمسْك. وللصَّائِم فَرحَتَان يَفْرَحُهُمَا إِذَا أفْطَرَ فَرِحَ بِفطْرِه، وَإِذَا لَقَى رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه»(١).

وقال ﷺ أيضـاً: «إِنَّ فى الجَنَّة بابًا يُقالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْه الصَّائمُون يَوْمَ القـيَامة لايَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحـدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائمُون فَيَدْخُلُونَ منْهُ فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ منْهُ أَحَدٌ»(٢).

فالإسلام ـ على هذا النحو ـ لم ينظر إلى الصيام على أنه حرمان مؤقت من شهوات الدنيا المحظورة ونزواتهـا المنكودة، ولكنه ينظر إليه كسلوك عملى يسمو بالإنسان عن الرذائل ويوجهه دائمـا إلى الخير، وتأكيدا لهذا المعنى قال رسـول الله ـ ﷺ ـ : «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الـزُّور وَالعَمَلَ به فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فـى أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» (٣). وإلي جانب الصـيام سن الرسول ـ ﷺ ـ قيام الليل فى رمضان ليجتمع الصيام بالنهار والقيام بالليل ويخوض المسلمون فى بحر التلاوة والذكر والتأمل.

والركن الأخير من الأركان الخمسة للإسلام هو الحج. والحج فريضة على كل مسلم ومسلمة استطاع إليـه سبيلا. لقوله تعالى(٤) : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ . وهو فريضة جماعية حيث يتوجه المسلمون إلى البيت الحرام الذى كان أول بيت يتعبـد فيـه الناس، قـال تعـالى: (٥) ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيـهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾ .

---

(١) مسلم ، جـ٨- ص٣٠ ومابعدها، والبخارى جـ١ - ص٣٢٦.

(٢) مسلم ، جـ٨-ص ٣٢ وذكر مثله البخارى جـ١-ص ٣٢٤ ومابعدها.

(٣) البخارى ، جـ١ـص ٣٢٦.

(٤) سورة آل عمران ، آية ٩٧.

(٥) سورة آل عمران ، الآيتان ٩٦, ٩٧.

فالحج ـ كما هو واضح ـ قديم قدم البشرية، ولكن ينبغى هنا أن نعرض لصور الحج التى كان عرب ما قبل الإسلام يؤدونها لنعرف الحكمة التى من أجلها شرع الحق تبارك وتعالى الحج فى الإسلام وجعله ركنا من أركانه.

وفى هذا الموضع لانغوص فى معالم الحج وصوره بل نكتفى بالإشارة إلى وضع العرب عند ظهور الإسلام لنلمس ملامح التغيير التى سنها الإسلام، ودور الإسلام الإصلاحى فى هذه الفريضة، وكان أهل الجاهلية قد أدخلوا فى الحج عادات جاهلية وأمورا ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان، واصطلحوا على أشياء، وتواضعوا عليها من الزمن القديم، فكان تحريفا في الحج الذى شرعه الله على لسان إبراهيم، وتوارثته قبائل العرب جيلا بعد جيل، وجنى على كثير من مقاصده وفوائده، وكانت الحمية الجاهلية والنخوة القبلية وما كانت قريش عليه من التفاخر والكبرياء، وحرصهم على التميز هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات، فجاء القرآن والتشريع الإسلامى بإزالة هذه البدعة والتحريفات، وإبطالها، وقد تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة فاجتثه، واستأصل شأفته، وأبدله بخير منه[1].

فمن ذلك ماذكر الرواة «أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل أنه كان لايظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد، إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة، وأعجبهم حتى خلفت الخلوف، ونسوا ماكانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدى البدن، والإهلال بالحج

---

(١) الأركان الأربعة ص٢٨٧ وما بعدها.

والعمرة، مع إدخالهم فيه ماليس منه، فكانت كنانة وقريش إذا أهلّوا قالوا: لَبَّيْكَ اللّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْك لاشَرِيْكَ لَك، إلا شَرِيْكٌ هُو لَك، تملُكُه ومَا مَلك، فيوحدون بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده» [(١)].

فهم لايوحدون الله لمعرفة حقه فى العبادة إلا جعلوا معه شريكا من خلقه أو من صنع أيديهم. يقول الحق تبارك وتعالى: [(٢)] **﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾** ويذكر الرواة بعد ذلك أن قريشا ومن لحق بهم من كنانة وخزاعة وغيرهم «كانوا يتشددون فى دينهم فى الجاهلية فابتدعوا رأى الحمس، رأيا رأوه وأداروه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولامثل منزلتنا، ولاتعرف له العرب مثل ماتعرف لنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم: فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ـ ﷺ ـ ،ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولانعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحمس، والحمس أهل الحرم، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم، بولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم مايحرم عليهم» [(٣)].

ثم إنهم ابتدعوا فى ذلك أمورا لم تكن لهم، حتى قالوا لاينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط، ولايسلأوا السمن وهم حرم، ولايدخلوا بيتا من شعر، ولايستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم، ما كانوا حرما، ثم رفعوا فى ذلك، فقالوا: لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من

---

(١) السيرة: جـ١ - ص٨٢ ومابعدها.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٦.

(٣) السيرة: جـ١ - ص٢١٦.

الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا، ولايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منهـا شيئا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم مـتكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثيـاب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فـرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها، ولم يمسهـا هو ولا أحد غـيره أبدا، وكـانت العرب تسـمى تلك الثيـاب اللقى، فحملوا على ذلك العرب، فدانت به، ووقفـوا على عرفات، وأفاضوا منها، وطافوا بالبيت عراة، أما الرجال فيطوفـون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا عليها ثم تطوف فيه. . . فكانوا كذلك حتى بعث الله تعالى محمـدا - ﷺ - فأنزل عليه حين أحكم له دينه، وشرع له سنن حجه[1] قوله تعالى[2]: ﴿ وَلَقَدْ أَنـــزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ فرفعهـم فى سنة الحج إلى عرفات والوقوف عليها والإفـاضة منها، ثم أنزل الله على رسـوله - ﷺ - فـيمـا كـانوا حرمـوا على الناس مـن طعامـهم ولبـوسهـم عند البيت حـين طافوا عـراة وحـرموا مـاجـاء به من الحل من الطعـام﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنـدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3] .

والمراد بالزينة فى هذه الآية اللباس وعدم التـعرى. ومما نزل فى ذلك قوله تعالى [4] : ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾؛ لأنهم كانوا يطوفون عراة ويصفقون بأيديهم، ويصـفرون، وكانوا لايدخلون تحت سقف ولايحول بينهم وبين السماء عـتبة باب ولاغيرهم، فإذا احتـاج بعضهم إلى حاجة من

(١) السيرة جـ١ ص ٢١٩ ومابعدها.
(٢) سورة البقرة ، آية ٩٩.
(٣) سورة الأعراف ، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٤) سورة الأنفال ، آية ٣٥.

داره تسنم البيت من ظهره[1] فقال سبحانه وتعالى[2] : ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

ومنها أن أهل الجاهلية كانوا قد اتخذوا موسم الحج سوقا للتفاخر والمساجلة، فقد ذكر القرطبى أن عادة العرب إذا قضت حجتها تقف عند الجمرة، فتفاخر بالآباء وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم، وغير ذلك، حتى إن الواحد منهم ليقول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة، عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطنى مثل ما أعطيته. فلا يذكر غير أبيه فنزل قوله تعالى [3]: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ . ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر أيام الجاهلية[4].

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر رد التشريع الإسلامى هذا الركن العظيم إلى أصله الإبراهيمى، ووضعه الأصيل النقى، البعيد عن تأويل الجاهليين، وتحريف الغالين وانتحال المبطلين، بعد أن أصبح الحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات وحوادث، وما يتلبس به الحاج من التجرد من المظاهر، وما يأتى من عمل ونسك من إحرام ووقوف وإفاضة ـ رجم وسعى وطواف ـ تخليدا لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفى الأسباب، والتوكل على الله والتفانى فى سبيله، وإيثار لطاعته ومرضاته، وتمرد على العادات والأعراف والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة، وتجديد لذلك الإيمان القوى، والحب العميق، والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع.

---

(١) راجع معانى القرآن. لأبى زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتى، ومحمد على النجار. الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م. جـ١ ص١١٥ومابعدها.

(٢) سورة البقرة ، آية ١٨٩ .

(٣) السورة نفسها، آية ٢٠٠ .

(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص٩١١.

والحج ضامن لبقاء هذه المعانى السامية، والقيم الربانية كلها، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التى هى فوق القوميات والعنصريات الوطنيات المحدودة المصطنعة، ودعوة للناس أن يسيروا على نهج إبراهيم ويتشبعوا بروحه، ويقوموا بدعوته[1] ويعرفوا قيمة هذه الأماكن التى يتجرد الإنسان فيها من كل ما التصق به أو خالطه من مواريث فكرية واجتماعية، ومن امتيازات طبقية أو جنسية تبعد به عن فطرته أو تقطع الصلات الإنسانية بينه وبين المجتمع فتظهر المساواة واضحة بين جميع الناس، فالحاج يجىء متجردا من كل زينة فى لباس متواضع يتساوى فيه الغنى مع الفقير، والشريف مع الأجير، يذكره باللباس الذى يلبسه بعد الموت ويخرج به من الحياة. فإذا كانت عبادة الحج هى مسيرة المؤمن لتأكيد الإعلان بوحدانية الله تعالى، فإنها فى الوقت نفسه احتفال بعودة رسالة الله إلى إبراهيم عليه السلام إلى صفائها فى وحدة الألوهية، وتظهر عقيدة التوحيد من رجس الوثنية المادية. ولذا كان الدعاء فى هذه العبادة: «لبيك اللهم لبيك. لاشريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك»[2].

فالعبادات التى شرعت فى الإسلام، وكانت أركانا للإيمان به- على هذا النحو الذى رأينا- ليست طقوسا مبهمة من النوع الذى يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلف بأداء أعمال غامضة وحركات لامعنى لها.

كلا إن الفرائض التى ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هى تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل متمسكا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف.

الآداب والتعاليم التى شرعها الإسلام.

وإلى جانب هذه العبادات كانت هناك التعاليم الدينية الأخرى التى تحض على مكارم الأخلاق متمثلة فى مجموعة الآداب والتعاليم التى شرعها

---

(١) الأركان الأربعة ص٢٥٧ وما بعدها.

(٢) منهج القرآن فى تطوير المجتمع. محمد البهى. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م نشر مكتبة وهبة ص٢٧.

الإسلام. والأخلاق فى الإسلام لاتعتمد على مجرد الأمر الصارم والتكليف التعبدى بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستثارة الضمائر، فهى أخلاق مفهومة معللة بالحكم والمصالح المترتبة عليها فى الدنيا والآخرة(١). ونستطيع أن نذكر فى هذا الموضع من الآداب والتعاليم ما قد يفيد فى تفسير الظواهر الإسلامية فى شعر الشعراء المخضرمين لتكتمل الفائدة عندما نتحدث عن هذه الظواهر:

الإحسان إلى الوالدين وبرهما وطاعتهما.

فمن هذه التعاليم والآداب قول الحق تبارك وتعالى(٢):

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ .

وقوله تعالى:(٣) **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾** .

وقوله تعالى:(٤)**﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾**.

وقوله تعالى:(٥) **﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾** .

فقد أوجب الحق تبارك وتعالى طاعتهما، وكتب على الولد برهما

(١) الخصائص العامة للإسلام ص٤٠ وما بعدها.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) سورة النساء، آية ٣٦.

(٤) سورة الأنعام، آية١٥١.

(٥) سورة لقمان، آية١٤.

والإحسان إليهما حتى قرن ذلك بحقه الواجب له من عبادته وحده دون غيره.

وقد سئل ﷺ «أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتها، قَالَ: ثُمَّ أَىّ؟ قَالَ: ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ. قال: ثُمَّ أَىّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِى سَبِيل الله»(١)

وجاء رجل إليه-ﷺ- فقال: «يَارَسُولَ الله مَنْ أَحَقُّ بحُسْنِ صَحَابتى؟ قَالَ: أُمُّكَ. قال: ثم من؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ أُمُّكَ؟ قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قال: ثم أبوك»(٢). وقد روى عن أبى بكر-رضى الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -ﷺ- : «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَر الكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَارَسُولَ الله، قَالَ: الإِشْرَاكُ بالله. وَعُقُوقُ الْوالَديْنِ، وَكانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ، فَقَالَ أَلا وَقَوْلُ الزُّور وشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وقَوْلُ الزور وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لايَسْكُتْ»(٣) وجاء رجل إليه-ﷺ- يستأذنه فى الجهاد، فقال «لَكَ أَبَوان؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»(٤).

والمسلم إذ يعترف بهذا الحق لوالديه ويؤديه كاملا طاعة لله تعالى، وتنفيذا لأوامره، فإنه يلتزم كذلك إزاء والديه بمجموعة من الآداب منها: طاعتهما فى كل مايأمران به، أوينهيان عنه، مما ليس فيه معصية لله عز وجل، وتوقيرهما بالقول ولا يؤثر عليهما أحدا، ولا يسافر إلا بإذنهما ورضاهما، ثم برهما بكل ماتصل إليه يداه من طرق البر والإحسان، ثم صلة رحمهما بالدعاء والاستغفار لهما.

---

(١) البخارى جـ٤ ص٤٧.
(٢) نفسه جـ٤ ص٤٧.
(٣) نفسه جـ ٤ ص٤٨.
(٤) نفسه جـ ٤ ص٤٧.

الجهاد فى سبيل الله.

قرن الرسول-ﷺ- الجهاد بالصلاة على وقتها وبر الوالدين وأبان أنها أحب الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى.

والجهاد فى الإسلام فى سبيل الله، وليس فى سبيل دنيا أو جاه أو متعة، وليس هناك إذن قتال فى القرآن من أجل غزو أو توسع استعمارى، فلا يكاد الإسلام يبيح الحرب إلا فى ثلاث حالات مقترنة بتحديد الهدف والغاية: حالة الدفاع وأمربها عز وجل فى قوله[1]: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وحالة نكث العهد والكيد للدين الإسلامى فى قوله تعالى:[2] ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أو حيث تقتضى ذلك اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة والقضاء على الفتنة ووقاية دين الله وحمايته من أعدائه الألداء الذين يضمرون له كل سوء، فى قوله تعالى:[3] ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقوله تعالى:[4]﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ولم تتجاوز حروب الرسول-ﷺ- هذه الحالات سواء فى ذلك حروبه مع العرب وحروبه مع اليهود وحروبه مع الروم والفرس[5].

وقد ورد فى فضل الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله تعالى من الأخبار الإلهية الصادقة والأحاديث النبوية الصحيحة الثابتة ما يجعل الجهاد من أعظم القرب وأفضل العبادات. ومن تلك الأخبار الإلهية قوله تعالى:[6] ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) سورة البقرة، آية ١٩٠. (٢)سورة التوبة، آية ١٢.
(٣) سورة البقرة، اية ١٩٣. (٤)سورة الأنفال، آية ٣٩
(٥) راجع حقوق الإنسان فى الإسلام ص ٢٠٢، ومنهج القرآن فى تطوير المجتمع ص٢٢١، ٢٤٧.
(٦) سورة التوبة، آية ١١١.

اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقوله تعالى:(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقوله سبحانه وتعالى فى فضل المجاهدين المستشهدين(٢) : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

ومن الأحاديث النبوية، قول الرسول-ﷺ- : «مَثَلُ الْمُجَاهد فى سَبيل الله وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهدُ فى سبيله كَمثَل الصَّائم القَائم وَتَوَكَّلَ اللهُ للمُجَاهد فى سَبيله بأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرْجعَهُ سَالمًا مَعَ أَجْر أو غَنيمة»(٣) وقوله - ﷺ - «والَّذى نَفسى بيَده لَوْلا أَنَّ رجَالاً منَ الْمُؤمنينَ لا تَطيبُ أَنْفُسُهُم أَنْ يَتَخَلَّفُوا عنِّى وَلا أجدُ مَا أَحْملُهُمْ عَلَيه ما تَخَلَّفْتُ عَنْ سَريَّة تَغْزُو فى سَبيل اللَّه، والَّذى نَفْسى بيده لَوَددْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فى سبيل الله ثُمَّ أُحْيا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحيَا ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحيَا ثُمَّ أُقْتَل»(٤)وقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحدِّثْ به نفسَه مَاتَ عَلَى شُعبَة منْ نفَاق»(٥).

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠: ١٢.
(٢) سورة آل عمران، الايتان ١٦٩، ١٧٠
(٣) البخارى، جـ ٢، ص ١٣٥
(٤) نفسه، جـ ٢: ص ١٣٧
(٥) مسلم، جـ ١٣، ص ٥٦.

فأصبح الجهاد بهذه التعـاليم فرض كفاية على المسلمين. وصار بلورة نورانية تجذب وجدانهم وتلهب مشاعـرهم، وباتت الدنيا لاتساوى جناح بعوضة فى نظرهم، فلا همّ لهم إلا الآخرة والوعـد المنتظر، ومن هنا انطلق المسلمون - وكل هذه المعانى تعتمل فى نفوسهم - يـنافحون عن دين الله وينشرون كلمته فى كل مكان بأموالهم وأنفسهم وألسنتـهم، وتداول الشعراء والمجاهدون هذه المعانى فى أشـعارهم موقنين بوعـد الله لهم لايعبـأون بما تركوا وراءهم من مشاغل الحياة الدنيا ولا يألون جـهدا فى تقديم أرواحهم فى سبيل الجنة التى وعد الله بها، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد.

الحض على قول الخير وفعله.

وقد أمر الـرسول - ﷺ - المسلمين بأن يقولوا خيـرا ويفعلوا خيـرا فهو أزكى لهم وأفضل. يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ يَؤْمِنُ بالله والْيَوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أوْ لـيَصْمُتْ، وَمَنْ كَان يـؤمنُ بالـلّه والْيَوْمِ الآخر فَلا يـؤذِ جَارَه، وَمَنْ كَانَ يُؤمنُ بالله واليَوْمِ الآخر فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَه»[1] وقد كـره النبى - ﷺ- الإطراء فى المدح، فسـمع رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدحـة، فقَال: «أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُل»[2].

وروى أن رجلا ذكر عند النبى - ﷺ- فـأثنى عليه رجلا خيـرا فقال النبى -ﷺ-: «وَيْحَك قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبكَ، يقوله مـراراً: إن كَان أحَدُكُم مَادحاً لا مَحَالَةَ فَلْيقُل أحـسبُ كَذا وكذا، إنْ كَان يُرَى أنَّهُ كَذَلكَ، وَحـسِيبُهُ الله وَلا يزكى عَلَى الله أحَدًا»[3].

وقـال - ﷺ - «أتَدرُونَ مَا الغيـبَةُ قَالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعلَمُ. قَال: ذِكْرُكَ

(١) البخارى، جـ ٤، ص ١٢٥.
(٢) نفسه، جـ ٤، ص ٥٩.
(٣) نفسه، جـ ٤، ص ٥٩ وما بعدها

أخَاكَ بِمَا يكْرَهُ قِيلَ أفــرأيْتَ إنْ كَانَ فِى أَخِي مَا أَقُولُ، قَالَ: إنْ كَان فيـــه مَاتَقُولُ فَقَد اغْتَبْتَهُ، وإنْ لَمْ يكُن فِيه فَقدْ بَهتَّه»(١).

وقد نهى الله عـز وجل عبـاده عن النيل من أعراض المسلمين، وشـبه من يفعل ذلك بمن يأكل لحوم الناس، فـقال جل ذكره(٢): ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾. وقوله(٣): ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

وقد وضع المسلمـون الأوائل هذه التعاليم نصب أعينهم، فكثـير منهم نزه نفسه عن التفحش فى القول حتى لايرد السيـئة بسيئة مثلها، فيروى أن أبا ذر -رضى الله عنه- قد شتمه رجل، فـقال له: «ياهذا؟ لاتغرقن فى شتمنا ودع الصلح موضعا فإنا لانكافئ من عصى الله فينا، بأكثر من أن نطيع الله فيه»(٤) هكذا كان المسلمـون يطيعون الـله ورسوله، وكمـا نهى الرسول -ﷺ- عن الغيبة والبهتان نهى عن الـسباب والمشاتمة، فقال ﷺ: « إنَّ من أَكْبرِ الكبَائر أنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالدَيْه، قِيلَ يارَسُولَ الله وكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والدَيْه؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ويَسُبُّ أُمَّه»(٥).

وقد أدرك الشعراء هذا المعنى، فقال كعب بن زهير(٦):

وَمَنْ دَعَا النَّاس إلى ذَمِّه	ذَمُّوهُ بالحَقِّ وَبالْبَاطِلِ
مَقَالَةُ السَّوْءِ إلى أَهْلِها	أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرٍ سائِلِ

(١) مسلم، جـ ١٦، ص ١٤٢.
(٢) سورة الحجرات، آية ١٢
(٣) سورة الهمزة، آية (١)
(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس: لأبى عمر يوسف بن عبدالبـر النمرى القرطبى ـ تحقيق محمد مرسى الخولى ومراجعة عبدالقادر القط، طبعة الدار المصرية للطباعة والترجمة والنشر، ق ١، ص ٤١٨.
(٥) البخارى، جـ ٤، ص ٤٧.
(٦) التمثيل والمحـاضرة للثعالبى: تحقيق عـبدالفتاح محمد الحـلو، طبعه دار إحياء الكتب العربيـة، عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م، ص ٦١ وبهجة المجالس ق ١، ص ٤٠١ ولم نجدها فى شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى طبعه دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م.

وقال أيضا ﷺ «سِبابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» [1].

ذم التكبر والكبرياء.

وكما نهى ﷺ عن السباب والمشاتمة، نهى أيضا عن الكبر والعجب والتيه لأنه من العادات الجـاهلية التى لم يقـرها الإسلام وعرفـت به بعض العرب كبنى مخـزوم وبنى أمية، وبني جعـفر بن كلاب[2]، فنهى عن ذلك بقـوله - ﷺ: «لايَنْظُرُ اللهُ إلــى مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خُيَلاء» [3]. وقال أيـضا: «ألا أُخْبِرُكُمْ بِأهْلِ الجَنَّة؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتضَاعِفٍ، لَو أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأبَرَّهُ، ألا أُخْبِركُم بِأهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»[4] لأن ذلك يتنافى مع مـبادئ الإســلام التى تدعو إلــى الابتعاد عــن الشر واجتنــاب المفاسد وتحض عــلى الخير والـعمل الصالح وصـفاء النفس وطهـارة الروح لأن ذلك أدعى للمودة والـتراحم بين المسلمين، فقـد قال الله- عز وجل[5]: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الـلَّهِ وَالَّذِيــنَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

وقال سبحانه[6] : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيـصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وإن كانت حقيقة الرحمـة رقة القلب وانعطاف النفس للمغفرة والإحسان، فإنها لن تكون دائما مجرد عاطفـة نفسية لا أثر لها فى الخارج، بل إنها ذات آثار خارجيـة ومظاهر حقيقـية تتجسم فى كـثير من الأمور كالـعفو عن زلل

---

(١)البخارى، جـ ٤، ص ٥٧.
(٢) ثمار القلوب، ١١٧.
(٣) البخارى، جـ ٤، ص ٢٣.
(٤) البخارى، جـ ٤، ص ٦١.
(٥) سورة الفتح، آية ٢٩.
(٦)سورة التوبة، آية ١٢٨.

الآخرين ومساعدة الضعفاء وإغاثة الملهوفين، وإطعام الجائعين، وكسوة العارين ومداواة المرضى، ومواساة المحزونين وغيرها.

ولكى نتبين أثر هذه الرحمة فى المجتمع جدير بنا فى هذا الموضع أن نذكر قول الرسول - ﷺ: « مَثَلُ المُؤمنينَ في توادِّهم وتَراحُمهمْ وتعاطُفهمْ مَثَلُ الجَسَدِ إذَا اشْتكى مِنْهُ عُضوٌ تَداعَى لَهُ سَائِرُ الجَسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى »(1)

فالإسلام على هذا النحو دين تجمع وألفة. ونزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة فى تعاليمه، فهو لم يدع أبناءه إلى العزلة والانشقاق، أو الفرار من تكاليف الحياة، ولم يأمرهم أن ينقطعوا فى دير أو صومعة للعبادة، بل حث دائما على التجمع والجماعة، ونبذ الفرقة وعلى سبيل المثال صلاة الرجل فى الجماعة أفضل وأزكى من صلاته وحده، فهو يرغب فى تكثير سواد المسلمين ورؤيتهم حشودا متضاعفة تجمعهم الصحبة الكريمة التى تتنزه عن الأغراض الدنيئة(2).

الحيـاء.

كذلك وصى الإسلام بنيه بالحياء، وجعل هذا الخلق السامى أبرز مايتمير به الإنسان من فضائل، فقال رسول الله - ﷺ - «الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أوْ بِضْعٌ وَستُّون شُعْبَةً فَأفضلُها قَوْلُ لا إلهَ إلا اللهُ وأدْنَاها إمَاطَةُ الأذَى عَنِ الطَّريقِ والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَان»(3).

وأصل الإيمان تصديق القلب واللسان والعمل بالأركان التى أفضلها لا إله إلا الله وآخرها إماطة الأذى عن الطريق، أما الحياء فهو الاستحياء، وجعله الرسول - ﷺ - شعبة من الإيمان لأنه يدعو صاحبه إلى فعل البر واكتساب الطاعة، ويحميه من التردى فى الرذائل فالإيمان إذن: «صلة كريمة بين العباد

(1) مسلم: ج - 16، ص 140.
(2) خلق المسلم: محمد الغزالى. الطبعة الثامنة 1394 هـ - 1974 م دار الكتب الحديثة ص 185 وما بعدها.
(3) مسلم جـ 2 ص 6

وربهم، ومن حق هذه الصلة، بل أثرها الأول تزكية النفوس، وتقويم الأخلاق وتهذيب الأعمال، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست فى النفس عاطفة حية، تترفع بها أبدا عن الخطايا وتستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور، أما الإلمام بالمحاقر دون تورع، والوقوع فى الصغائر دون اكتراث، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها، ثم فقدانها لإيمانها»[١] .

وقد أراد الرسول - ﷺ - أن يبث هذه التعاليم فى نفوس العرب الذين عاشوا فى تلك البيئة الصحراوية القاسية لأنها أحوج ماتكون الى مثل هذه التعاليم لأن الانسان إذا فقد حياءه وفقد أمانته أصبح وحشا كاسرا ينطلق معربدا وراء شهواته انطلاق السائمة فى مرعاها، ويدوس في سبيلها أزكى العواطف، فينهب أموال الفقراء واليتامى غير شاعر نحوهم برقة، وينظر إلى آلام المنكوبين والمستضعفين فلا تهتز جوارحه بشفقة، لأن أثرته الجامحة وضعت على عينيه غشاوة مظلمة لايعرف إلا مايغويه ويغريه بالمزيد، ويوم يتخلى الحياء عن المرء فهو فى حال انحدار متواصل، وهبوط إلى الدرك الأسفل لأنه أفلت من قيود الدين وانخلع من ربقة الإسلام[٢]، ولذلك أكد الرسول - ﷺ - على التزام هذا الخلق الكريم في قوله: «الْحَيَاءُ لا يأتى إلا بِخَيرٍ» [٣] وقال - ﷺ - «الحياءُ خَيْرٌ كُلُّهُ أوْ الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ» [٤]

الصبر

ومن الأخلاق السامية التى وصى الإسلام بها أبناءه: الصبر، فقد جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح فى الآخرة، ودخول الجنة، واستحقاق التحية من الملائكة وذلك فى مثل قوله تعالى فى شأن الأبرار من عباده[٥] :

﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾

---

(١) خلق المسلم ص ١٥٩.
(٢) المرجع نفسه ص ١٦٠
(٣) مسلم جـ ٢ ص ٦
(٤) نفسه جـ ٢ ص ٧
(٥) سورة الإنسان، آية ١٢.

وفى شأن عباد الرحمن الذين لهم الجنة[1]:

﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾.

وفى شأن أولى الألباب من عباده الأخيار[2]:

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

فالصبر هنا يحمل فى طياته جملة شعب الإيمان وأخلاق الإسلام[3] وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر، إلى ماله من قيمة كبيرة دينية وأخلاقية، لأنه لم يكن من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى ماديا ومعنويا، ويسعد فرديا واجتماعيا، فلا ينتصر دين ولا تنهض دنيا إلا بالصبر[4]. ولقيمة عامل الصبر والتحمل فى تكوين المجتمع وقوته يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله -ﷺ- بالصبر، ويطلب إليه أن يستعين فيه بالله سبحانه[5]: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾.

لأنه وحده هو الذى يعين على اجتياز الأزمات والشدائد وذلك بإحياء الأمل فى النفوس وتجديده من وقت لآخر[6]. والقرآن يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته حين يحدثنا عن خلق الإنسان وما حف به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة، يقول تعالى[7]: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ أى فى شدة ومشقة لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذات بالآلام، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف، التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، وما يعانيه من الناس من حدة اللسان، وأذى اليد، وحسد النفس.

---

(١) سورة الفرقان، آية ٧٥

(٢) سورة الرعد، الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٣) الصبر فى القرآن. يوسف القرضاوى، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ نشر مكتبة وهبة ص ١٠

(٤) المرجع نفسه ص ١٢

(٥) سورة النحل، آية ١٢٧

(٦) منهج القرآن فى تطوير المجتمع ص ٧١

(٧) سورة البلد، آية ٤.

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عـامة، فأهل الايمان ـ على وجه خاص ـ أشد تعرضا للأذى والمحن والابتلاء فى أمـوالهم وأنفسهم وكل عزيز لديهم، فـقـد اقتـضى نظام الكـون أن يكون لهم أعـداء يمكرون بهم ويكيـدون لهم ويتربصون بهم الدوائر[1] ، فقال تعالى[2]:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

وقـال ﷺ «ما يُصـيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزنٍ وَلا أذى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوكَة يُشـاكُهـا إلا كـفَّر الله بهـا عَنْ خَطاياه»[3]. وقال أيضـا: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْه»[4] ويؤكدُ القـرآن الكريم على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة فى قوله تعالى[5]: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ .

فالله سبحـانه وتعالى بين السبيل للمؤمنين إذا تعرضـوا لأزمات الدنيا وما فيها من متع المال والأولاد والثراء والقوة، أو إذا تعرضوا لأزمات الإيمان حين يثيـرها أهل الكتاب السـابقون والوثنيـون الماديون وهى أزمات يشـعرون فى مواجهتها بالأذى النفسى والمادى معا. واجتياز هذه الأزمات أو تلك والتغلب عليها يتـوقف على ممارستهم الصبـر والتحمل، وممارسة الصـبر فى مثل هذه المواقف من الأمـور العظام التى يتنافس فـيـها المتنافـسـون من أهل التقـوى وأصحاب الإرادة القوية[6].

(١) الصبر فى القرآن ص ١٤ وما بعدها.
(٢) سورة العنكبوت، الآيتان ٢، ٣.
(٣) البخارى جـ ٤ ص ٢
(٤) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.
(٥) سورة آل عمران، آية ١٨٦.
(٦) منهج القرآن فى تطوير المجتمع ص ٩١.

وقد تنبه الدكتور يوسف القرضاوى[1] إلى عدة ملاحظات فى الآية السابقة جديرة بالانتباه والتسجيل: الأولى: أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة «أذى كثيرا» وهذا يدل على أن حربا كلامية ستعلن على أهل الإيمان لتشويه دعوتهم، وتلويث سمعتهم، والتشكيك فى سيرتهم وسريرتهم، وهى حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء، فلابد أن يوطن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها، ويصبروا على تجرع غصصها حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل. والثانية: أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى، ومعنى التقوى التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة فلا يواجه الدس بالدس ولا الافتراء بالافتراء، لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية فى السلم والحرب والرخاء والشدة، والثالثة: أن الآية قرنت كذلك بين الذين أتوا الكتاب (من اليهود والنصارى) وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب، ومن على شاكلتهم، هذا على اختلاف الفريقين فى الدين والوجهة، وفى هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحدت بينهم على مابينهم من اختلاف، وهذا ما أثبته التاريخ قديما حينما نجد اليهود ـ وهم أهل الكتاب ـ ينضمون إلى جهة المشركين عباد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما ليقفوا فى وجه النبى ـ ﷺ ـ. وإلى جانب هذا النوع من الصبر نجد الصبر على الطاعات والعبادات التى شرعت فى الإسلام وتحتاج فى أدائها والقيام بها والمداومة عليها إلى تحمل ومعاناة فالصلاة مثلا فريضة متكررة يقول الحق تبارك وتعالى فى شأنها[2]: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

ويقول تعالى[3]: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ والتواصى بالصبر قرين التواصى بالحق، وقد أقسم الله -عز وجل- على أن

(١) الصبر فى القرآن ص ١٧ وما بعدها
(٢) سورة طه، آية ١٣٢
(٣) سورة البقرة، آية ٤٥

فلاح البشر منوط بهما، فى قوله تعالى[1]: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

والصبـر على المعاصى هو عنصر المقـاومة للمغـريات التى بثت في طريق الناس وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة[2].

وقد استعـان المسلمون الأوائل بالصبر فى أمور حـياتهم، وكانوا على يقين بأن نصر الله قريب. وأن فرجه آت لاريب فيه، وأن بعد العسر يسرا، وأن ما وعد الله به المؤمنين من النصـر، وما وعد به المبتلين مـن العوض والإخلاف لابد أن يتحقق وهذا التعيـين الراسخ جدير بأن يبدد ظلمة القلق من النفس، ويطرد شبـح اليأس من القلب وأن يضىء الصـدر بالأمل فى الظفر، والثـقة بالغد، وهذا كسب نفسى كبير. لأن اليأس داء قـتال، أما الأمل فقوة محركة وشحنة دافـعة إلى الأمام[3] جعلت المسـلمين يقفون فى مـواجهـة المشركين ويتحملون فى سبيل نشر دعـوتهم وإعلاء كلمة الحق ألوانا مختلفة من الأذى والبلاء، وصنوفا متعددة من المشقة والعذاب.

* * *

(١) سورة العصر

(٢) خلق المسلم ص ١٣٣ وما بعدها.

(٣) الصبر فى القرآن ص٩١.

الباب الثانى

الظواهر الإسلامية في موضوعات شعر المخضرمين

الفصل الأول

السمات الإسلامية فى الموضوعات التقليدية

الفصل الثانى

الظواهر الإسلامية فى الموضوعات الجديدة

الفصل الأول

السمات الاسلامية فى الموضوعات التقليدية

مما لاشك فيه أن المجتمع العربى قبل الإسلام ـ كما سبق أن بينا فى الباب الأول ـ قد تعرض لهزات عنيفة قوية منذ بعث الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق لينبثق نور الإسلام فى ظلام جاهليته، فنقله بذلك من طور البداوة الوثنية ـ التى كانت تحكم العاطفة وتغلب الهوى، ولا تسخر فى حياتها إلا قوة البدن والسيف ـ إلى طور الوحدانية والنظر فى الكون والتفكير والتدبر فى شئون الحياة الدنيا والاستعداد للآخرة، وتسخير العقل وما ينتجه من بدائع العلوم والفنون لخدمة أهداف الحياة وبلوغ السعادة فيها[١].

والشعر من أهم هذه الفنون التى أنتجها العقل العربى، لأنه كما ذكر ابن سلام: «علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[٢] وذكر أيضا: أن الشعر فى الجاهلية عند العرب «ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون»[٣]. وذكر الجاحظ أن العرب فى جاهليتها كانت تعتمد فى تخليد مآثرها «على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها»[٤] وذكر أيضا فى موضع آخر أن العرب أوعى لما تسمع، واحفظ لما تأتى، ولها الأشعار التى تقيد عليها مآثرها، وتخلد لها محاسنها، وجرت من ذلك فى إسلامها على مثل عاداتها فى جاهليتها»[٥].

لذا كان للتطور الذى شهده المجتمع العربى منذ ظهور الإسلام وانتشار

---

(١) اتجاهات الشعر العربى: ص ٢٣.

(٢) طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحى، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدنى بالقاهرة ١٩٧٤ م ـ جـ ١ ص ٢٤ ، والعمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن الحسن بن رشيق القيروانى، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، الطبعة الثالثة مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣ م ـ جـ ١ ـ ص ٢٧ وما بعدها (ونسبا هذه الكلمة لعمر بن الخطاب).

(٣) ابن سلام: جـ ١ ـ ص ٢٤.

(٤) الحيوان: جـ ١: ص ٧٢.

(٥) البيان والتبين: جـ ٣ ـ ص ٣٦٦

الفـتوحـات فى أرجاء الجـزيرة وخـارجهـا أثر واضح فى نفـوس الشعـراء المخضرمين، الذين أسلمـوا وعايشوا فترة إرهاصـات الدعوة الجديدة وبداية ظهورها، وعاشوا فى كنفها مؤمنين بها.

وكان لابد لهذا التطور الذى ترك آثاره على نفوسهم أن يترك بصماته على شعـرهم ويسمه بسمـات مميزة، وتظهر فـيه ظواهر تطبعـه بالطابع الإسلامى والمبادئ الإسلامية الجديدة التى هزت المجتمع آنذاك، وكان من شأنها أن تفتق شاعريـة الشعراء، فنسمع فى تلك الحـقبة عن شعـراء لم يكن لهم ذكر فى الشعر قبل ذلك، فهز الإسلام نفوسهم وأثار نخوتهم، وحملهم على القول دفاعا عن عقيدتهم وأنفسهم مؤيدين للدعوة الجديدة.

وكان من شأنها أيضـا أن تغير اتجاه الشعر وتوسع أفقه وتسـمو بغايته الى الفضائل والمثل العليا التى استثناها الله سبحانه تعالى فى قوله[1]:

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ*﴾.

وقد شجع الرسـول - ﷺ - الشعر الذي يحض على الفـضائل ومكارم الأخلاق، فقال: « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً» [2]، وموقفه مع كعب بن مالك- كمـا مر بنا- وغيـره من الشعراء أكبر دليل على ذلك. ونرى أيضـا الخلفاء يوجهون الـشعر والشعراء إلى هذه الـفضائل فقال عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- : «الشعـر كلام، فحـسنه حسن وقبـيحه قـبيح»[3]. وقال أيـضاً: «تعلموا الشعر، فإن فيه محاسن تبتغى، ومساوئ تتقى»[4]. ونراه أيضاً يقف موقفا صائبـا تجاه الحطيئة عندما وجه هجاءه للزبرقان بن بدر، فحـبسه عمر،

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤: ٢٢٧.

(٢) البخارى: جـ٤ ص ٧٣.

(٣) رسائل الجاحظ: من كتاب القيان جـ٢- ص ١٦٠.

(٤) زهر الآداب: جـ١ - ص٥٨.

وقال له: إيّاك والشعر. قال: لا أقدر يا أمير المؤمنين، على تركه، مأكلة عيالى، ونملة على لسانى[1]. قال: فشبب بأهلك، وإياك وكل مدحة مجحفة. قال: فما المدحة المجحفة؟ قال: تقول: بنوفلان خير من بنى فلان، امدح ولاتفضل. قال: أنت يا أمير المؤمنين أشعر منى[2].

ونرى سويد بن كراع العكلى- الذى هجا قومه زمن عثمان بن عفان- -رضى الله عنه-، فاستعدوه عليه، فتوعده، فكف عن هجائهم، ولكن نفسه ظلت تنازعه إلى هجائهم- يصور تصويرا طريفا، صراع نفسه مع القوافى التى تريد أن تتدفق فى هجائهم ولكن خوفه من عثمان جعله يروغها ويصانعها ويحبسها فى نفسه أمدا طويلا، فهو يذعن لأوامر عثمان خوفا من عقابه، يقول[3]:

أَبِيتُ بِأَبْوَابِ القَوَافِي كَأَنَّمَا ... أُصَادِى بها سِرْبًا مِنَ الوَحْشِ نُزَّعَا

وَجَشَّمَنى خَوفُ ابْنِ عَفَّانَ رَدَّهَا ... فَثَقَّفْتُهَا حَوْلا جَرِيدا ومَرْبَعَا

وَقَدْ كان فى نَفْسِي عليها زِيَادَةٌ ... فَلَمْ أَرَ إلا أَنْ أُطِيعَ وأَسْمَعَا

ورأى معاوية بن أبى سفيان عبدالرحمن بن الحكم بن أبى العاص معجبا بالشعر، فوجهه إلى هذه الفضائل التى تعلمها فى مدرسة الرسول -ﷺ- فقال: «فإذا فعلت فإياك والتشبيب بالنساء، فتعرى الشريفة وترمى العفيفة، وتقر على نفسك بالفضيحة. وإياك والهجاء فإنك تحنق به كريما، وتستثير به لئيما. وإياك والمدح، فإنه كسب الوقاح، وطعمة السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ماتزين به نفسك وشعرك، وتؤدب به غيرك»[4].

فكان الرسول-ﷺ- وخلفاؤه-كما رأينا- ساهرين على التمكين للقيم

---

(١) النملة: الداء، وأصلها قروح تخرج فى جنب الرجل (راجع تهذيب الآثار، مسند عمر بن الخطاب، جـ٢، ص٦٩١).

(٢) تهذيب الآثار مسند عمر بن الخطاب جـ٢ ص٦٤٧ وما بعدها.

(٣) الشعر والشعراء: جـ١، ص٧٨، جـ٢ ص٦٣٥.

(٤) مجالس ثعلب: الطبعة الرابعة بدار المعارف، جـ٢ ص ٤١١.

الإسلامية من المجتمع العربى، ووجهوا الشعر والشعراء الوجهة الإسلامية الصحيحة، ومن ثم بدأت هذه القيم تتسرب إلى نفوس الشعراء، وحلت محل القيم الجاهلية الموروثة، أو التقت مع بعض منها. ومن الطبعّى أن تظل أغراضهم الشعرية القديمة مستمرة فى العهد الإسلامى الجديد، لأنه لم يكن من هدف الإسلام وتعاليمه بتر هذا الجيل عن ماضيه، ولأن القيم التليدة الموروثة لايمكن تركها أو التنازل عنها بين غمضة عين وانتباهتها؛ ولأن القيم الطريفة الجديدة لايمكن أن ترسخ فى نفوس أية أمة إلا بمرور فترات زمنية وأطوار حضارية معينة هذا بالإضافة إلى أن أغراض الشعر العربى تنحصر كلها فى نوع واحد؛ وهو النوع الغنائى الذى مازال حتي عصرنا هذا مصدر كل شعر إنسانى؛ لهذا كله كان لابد أن تستمر أغراضهم الشعرية القديمة، ولكن مع نوع من التهذيب والتعديل والتحوير فى بعض مضامينها وأساليبها تقتضيهما سنة التطور وطبيعة القيم الجديدة التى وضعها الإسلام وهزت نفوسهم، بل هزت المجتمع بأسره. وإلى ذلك أشارت إحدى الباحثات عندما فرقت بين شعر يثرب في العصر الجاهلى وصدر الإسلام، فقالت: «إن ملامح شعر يثرب قد تغيرت فى صدر الإسلام عنها فى الجاهلية تغيرا واضحا، بينما نرى فى شعرها الجاهلى الفخر بالقوة والكثرة والثراء، ووصف ماكان بين الأوس والخزرج من عداء، وما يدور بينهما من تلاح، إذ بنا نرى شيئا آخر فى صدر الإسلام من ناحية الموضوعات والألفاظ والصور، فالفخر صار يشيد بانتصارات المسلمين، وسرعة الاستجابة لدعوة النبى-ﷺ- وتأييده، والرد على هجاء المشركين، كما تأثرت الألفاظ بما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف، واستعمل الشعراء كلمات لم يكن لهم بها سابق عهد»[1]. وفى هذا الفصل سنتناول الأغراض التقليدية التى تناولها شعر المخضرمين لنبين أهم ملامح التغيير التى طرأت عليها، موضحين الظواهر الإسلامية والسمات المختلفة التى أثرت فيها.

* * * *

---

(١) شعر يثرب فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام: ورد محمدى مكاوى عزب. رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الآداب. جامعة الاسكندرية ١٩٩٠م ص١٠٨.

أولاً: المديح.

كان من الطبعىّ أن يتطور شعر المديح ويلتزم المنهج القويم، وينأى عن الإسفاف والعبث والمغالاة، ويتمثل الأفكار والمبادئ والفضائل الإسلامية بعد أن ركز الإسلام اهتمامه بتوجيه الشعراء إلى الخير ليعبروا عن عواطفهم النبيلة ومشاعرهم المتسامية الصادقة فالفضائل التى كان يمدح بها الجاهلى ويغرق الشعراء فيها ويتفننون فى معانيها كوصفهم الممدوح بالفتوة، والإقبال على الشهوات كشرب الخمر والمقامرة ومداعبة النساء، أصبحت من الرذائل التى لايقرها الإسلام، فلا ينبغى للشاعر أن يصف بها أحدا، ولاينبغى للمدوح أن تكون فيه هذه الصفات. وقد اتفق النقاد على أن فى شعر المديح الجاهلى مجموعة من الفضائل الإنسانية لاتجرى عليها أحكام التغيير والتعديل، لأنها تتفق والفطرة الإنسانية السليمة. وقد حصر قدامة بن جعفر هذه الفضائل، ورأى أن الشاعر إذا مدح بها فقد أصاب وإن مدح بغيرها فقد أخطأ، يقول: «إنه لما كانت فضائل الناس، من حيث إنهم ناس، لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ماعليه أهل الألباب، من الاتفاق فى ذلك، إنما هى: العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجل بهذه الأربع خصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا. وقد يجوز فى ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه، ويتفنن فى معانيه، أو بالنجدة فقط، فيعمل فيها مثل ذلك، أو بهما، أو يقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يسمى مخطئا، لإصابته فى مدح الإنسان ببعض فضائله لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال، لا بغيرها،

والبالغ فى التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها، ولم يقتصر على بعضها»[1].

ويتضح لنا من قول قدامة أن هذه الفضائل التى حددها بالعقل والعفة والعدل والشجاعة ، يمكن للشاعر أن يغرق ويتفنن في معانيها فيستخرج لنا تفريعات وأقساما أخرى، فمن أقسام العقل ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان والسياسة والكفاية، والصدع بالحجة، والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك، مما يجرى هذا المجرى.

ومن أقسام العفة القناعة، وقلة الشره، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما يجرى مجراه، ومن أقسام الشجاعة، الحماية، والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة وقتل الأقران، والسير فى المهامة الموحشة، وما أشبه ذلك.

ومن أقسام العدل السماحة، ويرادف السماحة التغابن، وهو من أنواعها، والانظلام، والتبرع بالنائل، وإجابة السائل، وقرى الأضياف، وماجانس ذلك[2]، وقد يجوز للشاعر أن يركب بعض هذه الفضائل مع البعض فيخلق لنا تفريعات أخرى حصرها قدامة فى ستة أقسام [3].

والشاعر الجاهلى لايهتم- فى الغالب- بمسألة الصدق والكذب عندما كان يتمثل كل هذه الفضائل وتفريعاتها فـي مديحه ليسجل لمدوحه ماتنم عنه من مآثر ومفاخر، وكان دافعه الأول الحظوة بما يغدقه عليه الممدوح من نوال وعطاء والمنزلة التي ينالها الشاعر بجوار هذا الممدوح، لذلك كانت صفة الكرم من الصفات التى تبارى الشعراء فى التفنن فيها وحاولوا إبرازها بوضوح فى قصائدهم.

---

(١) نقد الشعر: لأبى الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، نشر دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، (د/ت)، ص٩٦، وراجع أيضا الموشح فى مآخذ العلماء علي الشعراء لأبى عبيدالله بن محمد بن عمران المرزبانى، نشر: جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ المطبعة السلفية ص٢٢١.

(٢) نقد الشعر: لقدامة، ص٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٨.

ومما لاشك فيه أن هذه الفضائل استمرت فى شعر المديح؛ لأنها تلائم المنظور الإسلامى لافى شعر صدر الإسلام فحسب بل فى شعر العصور المختلفة. ولكن الدوافع التى دفعت الشعراء المخضرمين للمديح بعد ظهور الإسلام اختلفت عن سابقتها فى الجاهلية. فلم يعد العطاء والتكسب هو الدافع الأول كما كان من قبل، فلم يفتح الرسول-ﷺ- ولا أحد من خلفائه الراشدين بيت مال المسلمين ليجيز الشعراء على قولهم إذا أحسنوا، بل كل ما كانوا يصنعونه، التصدق بكلمة طيبة أودعوة صالحة، لذلك التزم الشعراء الصدق فى مديحهم، فلم يعد الشاعر يمدح الرجل إلا بما فيه، ومن ثم كانت المعانى الإسلامية والفضائل النفسية الخالصة هى أول تطور موضوعى يدخل شعر المديح منذ ظهور الإسلام، فقد حاول هؤلاء الشعراء من خلال مديحهم للرسول -ﷺ- تأكيد جملة من المبادئ والأسس الإسلامية التى أراد الرسول -ﷺ- إرساءها فى أذهان الناس عند بدء الدعوة تلك الأسس والمفاهيم المتجسدة فى سيرته الشريفة، منها هداية الرسالة الإسلامية التى بشر بها رسول الله - ﷺ- قومه قريشا والعرب المحيطين به أولا، ثم البشرية كافة بعد ذلك، وأن الله هو الذى بعث محمدا ليبلغ رسالة الرحمة إلى من فى الأرض، وهى محاولة من الشعراء لتأكيد صلة الرسالة الإسلامية بالسماء، وأنها وحى من الله أنزل على محمد لتبليغ الرسالة للناس. ومن خلال مديحهم للرسول -ﷺ- حاولوا تأكيد صلاحية الرسالة التى يبشر بها، فهى هداية للناس فى الدنيا، وانقاذ لهم من سوء المصير فى الآخرة، وفى ذلك طرف من الدعاية للدين الجديد، ونشر لمفاهيمه بأسلوب مبتكر.

أما حين كان الشعراء يمدحون الخلفاء من بعد الرسول -ﷺ- فإنهم كانوا يصورون الجوانب المشرقة من سيرتهم، حين يطبقون تعاليم القرآن والسنة، ويسيرون على هدى سيرته -ﷺ- وكذلك عدوا اقتداء الممدوح من غير الحكام بالرسول - ﷺ - والسير على منهاجه، من أعظم المناقب التى يمدح بها الرجال، كذلك توجه الشعراء إلى مدح الذات الإلهية، معترفين بقدرته،

مشيدين بأفضاله، مقرين بأفعاله على المخلوقــات كافة[1].

وقبل أن نتـحدث عن هذه المعانى عند الشعــراء المخضرمين نعرض لـشعر بعــضهم الذى لم تظهــر فيــه الروح الإسلامــية بوضــوح لنبين أسبــاب ذلك وملامح التغيير التى شكلتها العقيدة فى نفوسهم.

فإذا عرضنا لقصيدة كعب بن زهيــر «بانت سعاد» التى ذكر الرواة أنه قالها فى مدح الرسول -ﷺ- بعد أن أهدر دمه لشعر قاله فيه، نجدها تشتمل على بعض الأوصاف الحـسية التى وصف به الرسـول -ﷺ- ومن أيده من قريش فى قوله[2]:

إنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَـــــاءُ به ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ الـــلَّه مَسْلُولُ

فِي عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا

زَالُوا فَمَــــا زَالَ أَنْكَاسٌ ولاكُشُفٌ ... عِنْدَ الــلِّقَاءِ ولا مِيـلٌ مَعَازِيــلُ

ورأى أحد البـاحثين[3] أن شـعـراء الإسـلام لم يبـرزوا من الإسـلام فى مديحهم إلا معاني سطحية لاتحمل سمات التصوير الشاعرى، واستشهد على ذلك بقصيدة كعب ورأى أنها لم تخرج عن أسلوب الجاهلية فى الشعر سواء فى الألفاظ أم المدح.

ونحن إن كنا نتـفق معه في أن قـصيـدة كعب تجري على النـسق الجاهلى حيث بدأها الشاعـر بنسيب استغـرق خمسة عشـر بيتا وتعرض فيـها لبعض الصفات الحسـية التي تتنافى مع وجهة النظر الإسلامية، فـإننا لانتفق معه فى تعميم الحكم على شعراء الإسلام، بل إننا لانتفق معه فى حكمه على قصيدة كعب نفسها؛ لأنه أنشد هذه القصـيدة فى حضرة الرسول -ﷺ- وأصحابه، فلم ينكرها أحد، والرسـول -ﷺ- نفسه قد أغـضى عما فى هذه القـصيدة وغيرها لإدراكـه أن الشعراء لم يقصدوا إلى هذه المعـانى بذاتها، بل لكونها

(١) الإسلام والشعر: سـامى مكى العانى، سلسلة عالم المعرفة إصدار المجلس الوطنـى للثقافة والفنون والآداب بالكويت. العدد ٦٦ سنة ١٩٨٣م، ص١٣٣ ومابعدها.

(٢) ديوانه ص ٢٣.

(٣) الشعراء المخضرمون: عبدالحليم حفنى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م، ص٤٦.

تقليدا لنهج فنى متوارث، هذا بالإضافة إلى أن قصيدة كعب نفسها أقرب إلى الاعتذار منها إلى المدح، وقد قالها كعب عند قدومه إلى الرسول -ﷺ- ليعلن توبته وإسلامه فلم تكن نفسه قد تشبعت بعد بقيم الإسلام وتعاليمه.

وينطبق هذا الوصف على قول ضرار بن الخطاب الفهري حين أعلن إسلامه يوم فتح مكه، فقال [(١)]:

يَانَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيـ ... ـىُ قُرَيْشٍ وَأَنْتَ خَيْرُ لَجَاء

حِيْنَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ سعَةُ الأرْ ... ضِ وَعَادَاهُمُ إِلَهُ السَّمَاءِ

وقريب من هذا ما قاله أبو عزة الجمحى فى مدحه للرسول -ﷺ- وكان مشركا من أسرى بدر- حين مَنَّ عليه، وتركه يعود لعياله، بشرط ألا يظاهر عليه أحدا، فقال [(٢)]:

ألا أَبْلغَا عَنِّى النبىَّ مُحَمَّداً ... بِأَنَّكَ حَقٌ والمَلِيكُ حَمِيدُ

وأَنْتَ امْرؤٌ تَدْعُو إلى الرُّشْدِ والتُّقَى ... عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الكَرِيم شَهِيدُ

وَأَنْتَ امْرؤٌ بُوِّئْتَ فِيْنَا مَبَاءَةً ... لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعُودُ

وإِنَّك مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ ... شَقِىٌّ وَمَنْ سَالَمْتَهُ لَسَعِيدُ

ولَكِن إذا ذُكِّرْتُ بَدْراً وأَهْلَهَا ... تَأَوَّبَ مَابِى حَسْرةٌ وتَعُودُ

فهذا الشعر وأمثاله لم يصدر عن حقيقة الإيمان الصادقة التى نتحدث عنها، ولذلك غابت فيه السمات الإسلامية والمعانى الدينية الحقيقية.

---

(١) أسد الغابة: جـ٣، ص٥٣.

(٢) السيرة : جـ٢، ص ٣٠٦ ،وطبقات فحول الشعراء: جـ١، ص٢٥٣ ومابعدها. ورواية السيرة فيها بعض الاختلاف.

أولا: مدح الرسول -ﷺ-.

أما الشعراء المخضرمون الذين تمكنت القيم الإسلامية والتعاليم الدينية من نفوسهم، فتوجهوا بشعرهم ومديحهم إلى الرسول -ﷺ- بوصفه قائدا للمسلمين، وحاملا للواء الدعوة الإسلامية، وكان لابد أن يتوجه المدح إلى شخص القائد أولا ثم من يليه من الرجال، ولابد أن يكون ثمة فرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلى شيخ القبيلة أو أحد رجالها البارزين، وأن يمدح الشاعر الإسلامى الرسول -ﷺ- أو أحد أصحابه الذين عاشوا فى كنفه وتعلموا فى مدرسته، فبعد أن تغيرت القيم الأخلاقية والاجتماعية، وتطورت أسس الحكم والقيادة تغيرت المضامين التى طرقها الشعراء فى مديحهم، فصفات الرسول-ﷺ- جعلتهم يستثيرون معانى كل الفضائل الإنسانية فى مدحه، يرجون فى ذلك الوفاء بما فى أنفسهم من تقدير وإجلال له، أكثر مما يودون عطاءه ونواله، لعلمهم أن ذلك الجانب المادى لايتفق مع نهجه فى الحياة، وأن هدفه صرف الشعراء نحو تأكيد أسس الدين الجديد، وإلى نشر الرسالة بين الناس، والتمكين لها فى أرجاء الأرض، ومن هنا ظهر فى مديحهم عدة معان إسلامية:

١ - الرسول -ﷺ- والهداية.

حاول الشعراء المخضرمون الذين توجهوا بمديحهم إلى الرسول -ﷺ- تأكيد هذا المضمون الإسلامى، فنرى العباس بن عبدالمطلب يستأذن الرسول -ﷺ- فى مدحه إياه، فيأذن له بقوله: (لايفضض الله فاك)، ثم يتناول فى مديحه معنى جديدا لم يطرقه الشعراء من قبل، تظهر فيه الإشعاعات الإسلامية بوضوح، فيتحدث عن الرسول -ﷺ- مذ كان نطفة قبل أن تشرق الأرض بميلاده، وهو طيب فى صلب آدم، حيث كان فى الجنة يخصف هو وحواء من ورقها، ثم انتقلت هذه النطفة من آدم إلى نوح، حيث نجاه الله فى السفين وأغرق قومه، فانتقلت هذه النطفة من صلب إلى رحم بعد أن امتلأت الأرض بالناس واستقرت فى بيت عز مرتفع وسط العشيرة، فهم دونه كالنطاق، ثم أشرقت الأرض بميلاده -ﷺ- وعم نوره جميع الآفاق، حيث

هداهم إلى سبل الرشاد والخير، والناس جميعا يعيشون فى كنف هذا النور والخير، ويستأنسون به، يقول [1] :

من قَبْلِهَا طِبْتَ فى الظِّلال وفى	مُسْتَودعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْورَقُ
ثُمّ هَبَطْتَ الْبِلادَ لا بَشَرٌ أنْـ	تَ ولا مُضْغَةٌ، ولا عَلَقُ
بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكبُ السَّفِين وقَد	أَلْجَم نَسْراً وأَهْلَهُ الْغَرَقُ
تُنَقَّلُ مِنْ صَالِب إلَى رَحِمٍ	إذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ
حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ الْمُهَيْمِنُ مِنْ	خِنْدفَ عَلْيَاءَ تَحْتَها النُّطُقُ
وَأنْتَ لَمّا وُلِدْتَ أشْرَقَتْ الأَرْ	ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ
فَنَحْنُ فِى ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفى النُّـ	ورِ وسُبْلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ

والمقصود بالضياء والنور فى هذه الأبيات، هو النور المحمدى الذى أشرق على الأرض ليهدى من عليها إلى سبل الخير والرشاد، بعد أن كانوا فى عماية وضلال، ويخرجهم أيضا من الظلمات التى غرقوا فيها.

ويقرن كعب بن مالك هذا النور المحمدى- الذى لا يعدله نور أى شهاب ساطع- بسيرته الشريفة العادلة فهو لاينطق إلا بالحق، لأنه كما قال الحق تبارك وتعالى[2]:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

فمن يجب دعوته ينج من الخسران والهلاك، لأنه لم يأمر بمعصية بل يحض على طاعة الله، ويدعو العرب بل البشرية جمعاء إلى هداية الإسلام، يقول [3]:

---

(١) المعانى: لابن قتيبة. جـ١، ص٥٥٦ ومابعدها، والاستيعاب: جـ٢، ص٤٤٧ وما بعدها، وأسد الغابة: جـ٢، ص١٢٩ ومابعدها.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

(٣) ديوان كعب بن مالك الأنصارى. دراسة وتحقيق: سامى مكى العانى. منشورات مكتبة النهضة. بغداد (د/ت) ص١٧٤.

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمّ يَتْبَعُهُ ... نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ على الشُّهُبِ
الْحَقُ مَنْطِقُهُ والْعَدْلُ سِيرَتُهُ ... فَمَنْ يُجِبْهُ إليه يَنْجُ مِنْ تَبَبِ
نَجْدُ الْمُقَدَّمِ، مَاضِي الْهَمِّ مُعْتَزِمٌ ... حِينَ الْقُلُوبِ على رَجَفٍ مِنَ الرُّعُبِ
يَمْضِي وَيَذْمُرُنَا عَنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ... كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَمْ يُطْبَعْ عَلَى الْكَذِبِ
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ ... وكَذَّبُوه فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ

فالنور فى هذه الأبيات تعبير عن الهداية. وهذه المعانى المضيئة نراها تتردد كثيرا فى شعر المخضرمين، فيغرقون فى وصفها، ويتفننون فى تصويرهم لها، فنرى حسان بن ثابت فى مدحه للرسول -ﷺ- يبين لنا خيبة الأمل، وسوء الحظ الذى أصاب هؤلاء القوم الذين رحل عنهم النبى -ﷺ- عندما تركهم وهاجر إلى المدينة ليحل على قوم آخرين بهذا النور المتجدد ليهديهم ويرشدهم إلى الحق، فما أسعد هؤلاء القوم الذين حل عليهم بنوره يتلو عليهم كتاب الله المنزل من عليائه، فصدقوه وعزروه ونصروه، فأسعدهم الله بحسن صحابته -ﷺ- يقول [(1)]:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُم نَبِيُّهُم ... وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إلَيْهِم وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُم ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُم بِهِ بَعْدَ الضَّلالَةِ رَبُّهُمْ ... وَأَرْشَدَهُم- مَنْ يَتْبَعِ الحَقَّ يَرْشَدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلَّالُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا ... عَمِيٌّ وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبَ ... رِكَابُ هُدىً حَلَّتْ عَلَيْهِم بِأَسْعَدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لايَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ... وَيَتْلُو كِتَابَ الله فِي كُلِّ مَشْهَدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ ... فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ
لِيَهْنَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ ... بِصُحْبَتِهِ- مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعَدِ

(1) ديوان حسان: ص376 ومابعدها، الروض الأنف: جـ4 ص221 ومابعدها، أسد الغابة: جـ1، ص452.

ونرى حسان بن ثابت فى قصيدة أخرى يمزج بين مدحه للرسول -ﷺ- ومدح الذات الإلهية- فالله سبحانه وتعالى شق له من اسمه اسما فسماه محمدا، واسم الله تعالى المشقوق منه محمود، والحمد لايكون إلا لله، ولايقع إلا عليه، فأراد الله تبارك وتعالى أن يشرك نبيه -ﷺ- فى اسم من هذا الوصف تعظيما له فسماه محمدا. وقد بعثه الله سبحانه وتعالي كالسراج المنير الذى يهديهم إلى طريق النجاة بعد أن ضلوا الطريق بسعبادتهم للأوثان واختلافهم فى الأديان، فألقى عليهم تعاليم الإسلام السمحة لينجيهم من عذاب النار ويبشرهم بالجنة. ويستقى الشاعر هذا المعنى من آى الذكر الحكيم فى قوله تعالى [1]: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فيقول [2]:

وشَقَّ لَـهُ مِنَ اسْمِـــــه لِيُـعِزَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذا مُحَمَّـــدُ

نَبِـيٌّ أَتَانَـا بَعْـدَ يَأْسٍ وَفَـتْـــرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوثانُ فِى الأَرْضِ تُعْبَدُ

فَأَمْسَى سِـرَاجاً مُسْتَـنِيـراً وَهَادِيـاً ... يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيـــلُ الْمُهَنَّدُ

وأَنْــذَرَنـا نَــاراً وَبَــشّــرَ جَـنَّــةً ... وَعَلَّمَنَا الإِسْـــلامَ فَاللَّهَ نَحْمَدُ

(١) سورة المائدة: آية ١٩.

(٢) ديوانه ص ٣٣٨ وما بعدها، وخزانة الأدب: جـ١، ص ٢٢٣ ومابعدها.

٢ -صلة الرسالة بالسماء.

كذلك حاول الشعراء المخضرمون تأكيد صلة رسالة الرسول -ﷺ- بالسماء وأنها وحى من الله عز وجل أنزل على محمد لتبليغ الناس وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، فنرى حسان بن ثابت يطرق هذا المعنى الإسلامى الجديد، فيمدح الرسول -ﷺ- ويعدد الفضائل التى اتفق عليها النقاد، ثم يذكر اختيار الله عز وجل للرسول -ﷺ- واصطفاءه من بين خلقه، ومحاباته له بالأخلاق الزكية الطاهرة، فيقول [١]:

يَارُكْنَ مُعْتَمَدٍ وَعِصْمَةَ لائذ	ومَلاذَ مُنْتَجِعٍ وَجَارَ مُجَاوِرِ
يَامَنْ تَخَيَّرَهُ الإلَهُ لِخَلْقِهِ	فَحَبَاهُ بِالْخُلُقِ الزَّكِيِّ الطَّاهِرِ

ويؤكد أصيد بن سلمة هذه الصلة، وأن الله هو الذى بعث رسوله -ﷺ- ليحمل الأمانة ويبلغ رسالة الرحمة إلى من فى الأرض، فيقول[٢]:

إنَّ الَّذى سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ	حَتّى عَلا فِى مُلْكِهِ فَتَوحَّدَا
بَعَثَ الَّذى لا مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى	يَدْعُو لِرَحْمَتِهِ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ[٣] كَالْغَزَالَةِ وَجْهُهُ	قَرْنًا تَأَزَّرَ بِالْمَكَارِمِ وارْتَدَى
فَدَعَا الْعِبَادَ لِدِينِهِ فَتَتَابَعُوا	طَوْعًا وكَرْهًا مُقْبِلِينَ عَلَى الْهُدَى

ونرى مالك بن نمط الهمدانى الذى قدم مع وفد همدان على رسول الله -ﷺ- يمدحه بأبيات تقليدية يتحدث فيها عن ناقته التى حملته من بلاد همدان حتى يلتقى به -ﷺ- ليشهد أنه رسول مبعوث من عند الله، وكأنه ينظر إلى قوله تعالى[٤]: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

(١) الاستيعاب، جـ١، ص٢٧٦، وأسد الغابة: جـ١ ص٣٥٢.

(٢) أسد الغابة، جـ١، ص١٢١.

(٣) الدسيعة: مجتمع الكتفين، وقيل هى العنق، راجع اللسان جـ٢ ص١٣٧٤

(٤) سورة التكوير، الآيتان ١٩, ٢٠.

ثم يضيف إلى هذا المعنى بعض الصفات الحسية الأخرى كالشجاعة المتمثلة فى شدته ونكايته بأعداء الدين، يقول[1] :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِى فَحْمَةِ الدُّجَى ... ونَحْنُ بـــأعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَلْدَدِ

وَهُنَّ بِنَا خُوصٌ طَـلائع تَغْتَلـى ... برُكْبَانِهَـا فى لاحب مُتَمَدِّدِ

عَلَى كُلِّ فَتْلاء الــذِّرَاعَيْنِ جَسْرة ... تَمُرُّ بِنَا مَرَّ الْهجَفِّ الْخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصـاتِ إِلَى مِنىً ... صَوَادر بالــرُّكْبَانِ مِنْ هَضْب قَرْدَدِ

بِأَنَّ رَسُولَ الـلـه فِينَا مُصَدَّقٌ ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذى الْعَرْشِ مُهْتَدِ

فَـمَا حَمَلَتْ مِنْ نَـاقَـةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ... أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِه مِنْ مُحَمَّدِ

ويرى كعب بن مالـك أن الله بعثه -ﷺ- ليجمع بـه أمر هذه الأمة التى تفرقت أهواؤها ، وتشتت أمورها، فيقول [2]:

لَمَّ الإلـهُ بـه شَعْثاً وَرَمَّ بِـهِ ... أُمُـورَ أُمَّتِهِ وَالأَمْـرُ مُنْتَشِـرُ

٣- تأييد الملائكة للرسول -ﷺ- .

ومن المعانى الدينية الجديدة التى طرقها الشعراء المخضرمون فى مديحهم للرسول -ﷺ- تأييد السماء له بالملائكة التى تعزره وتنصره على أعدائه، فيذكر كعب بن مالك جبريل- عليه السلام- وهو الروح الأمين الذى ينزل عليه بالوحى من عند ربه، ويمده بتأييد منه، وكأنه يستقى هذا المعنى من آى الذكر الحكيم فى قوله تعالى[3] : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ من رَبِّكَ بالْحقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِيـن

(١) السيرة: جـ٤، ص٢٧٠، وأسد الغابة: جـ٥، ص٥١ ومابعدها.

(٢) ديوانه: ص٢٠٨.

(٣) سورة النحل ، آية ١٠٢

آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وقوله تعالى [1]: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ فيمزج الشاعر بين القوة التى يتميز بها المسلمون لوجود الرسول -ﷺ- بينهم يدعوهم ويستجيبون لأوامره، لأنهم مؤمنون بأنه مؤيد من السماء، فيقول[2]:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ ... إذا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لانَتَطلَّعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ من عند ربِّه ... يُنَزَّلُ مِن جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

ويمدح حسان رسول الله -ﷺ- بأنه خير بنى آدم، وقد أمده الله بالملائكة لينصروا جنده، فجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والملائكة جميعا تظل جنوده المؤمنين لينصروهم على أعداء الدين فيقول [3] :

أَنْتَ النَّبِىُّ وَخَيْرُ عُصْبَةِ آدَمَ ... يَامَنْ يَجُودُ كَفَيْضِ بَحْرٍ زَاخِرِ

مِيكالُ مَعْكَ وَجِبْرَئِيلُ كِلاهُمَا ... مَدَدٌ لِنَصْرِكَ مِنْ عَزِيزٍ قَاهِرِ

٤- معجزات النبى -ﷺ- .

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى طرقها الشعراء فى مديحهم للرسول -ﷺ- إثبات معجزاته، وموازنتها بما كان للأنبياء -عليهم السلام- من معجزات، وهذا اللون من المديح اصطنعه الشعراء لإيمانهم بأفكار الإسلام وعقيدتهم التى التزموا بمبادئها. فنرى كعب بن مالك يشير إلى معجزة -سليمان عليه السلام-، وإحدى معجزات الرسول -ﷺ- فيقول [4]:

وَإِنْ تَكُ نَمْلُ الْبَرِّ بالْوهْمِ كَلَّمَتْ ... سُلَيمانَ ذَا الْمُلْكِ لَيْسَ بالْعَمى

فَهَذَا نَبِىُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سبَّحَتْ ... صِغَارُ الْحَصى فى كَفّه بالتَّرنُّمِ

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٩٢ : ١٩٤
(٢) ديوانه: ص ٢٢٤ . .
(٣) الاستيعاب جـ١ ص٢٧٦، وأسد الغابة جـ١ ص٣٥٢.
(٤) ديوانه: ص ٢٧٠ .

ثم يشير إلى معجزة كليم الله موسى - عليه السلام - فى قوله تعالى[1]: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾، ويوازن بينها وبين معجزة معراج الرسول -ﷺ- فيقول[2]:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّم اللَّهَ جَهْرَةً ... عَلَى جَبَلِ الطُّورِ الْمُنِيفِ الْمُعَظَّمِ

فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّداً ... على الْمَوْضِعِ الأعلى الرَّفِيعِ الْمُسَوَّمِ

٥ - حياؤه -ﷺ- .

تحدثنا من قبل عن الحياء بوصفه شعبة من شعب الإيمان.كما قال -ﷺ- وقد ذكر صاحب اللسان[3] :أن الحياء: التوبة والحشمة، وقد حيى منه حياء واستحيا واستحى، والحياء غريزة، ومع ذلك جعله الرسول -ﷺ- شعبة من شعب الإيمان المكتسبة، وذلك لأن المستحى ينقطع بالحياء عن المعاصى، وإن لم تكن له تقية، فصار كالإيمان الذى يقطع عنها ويحول بين المؤمن وبينها، فالإنسان إذا لم يستحى صنع ماشاء؛ لأنه لايكون له حياء يحجزه عن المعاصى والفواحش، ورجل ذوحياء، وامرأة حيية، واستحيا الرجل واستحيت المرأة، ومنه قول الشاعر:

وإِنِّى لأَسْتَحِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ ... عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ الذى لايَرَى لِيَا

معناه: آنف من ذلك.

وتقترن صفة الحياء فى رسول الله -ﷺ- عند بعض الشعراء المخضرمين بالفضائل الأخرى الحسية والمعنوية؛ ولأن الحياء من الإيمان كما قال -ﷺ- يصبح مدحه بهذه الصفة من المعانى الدينية الجديدة، فعن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: «لم يكن النبى -ﷺ- فاحشا ولامتفحشا، وكان يقول: إنَّ مِنْ خِيَارِكُم أَحَاسِنِكُم أَخْلاقاً»[4].

---

(١) سورة النساء، آية ١٦٤.

(٢) ديوانه: ص٢٧٠.

(٣) اللسان (حيا) جـ٢ ص١٠٧٩ ومابعدها.

(٤) مسلم: جـ١٥، ص٧٨ وروى البخارى مثله، واللفظ (احسنكم) جـ٤ ص٢٧٢.

وعن أبى سعيد الخدرى قال: «كان رسول الله -ﷺ- أَشَدَّ حيَاءً من الْعَذْراءَ فِى خِدْرِها، وكان إذا كَرِه شَيْئاً عرَفْنَاهُ فى وَجْهه»(١) .

ويعبر أبو دهبل الجمحى (وهب بن زمعة) عن هذه المعانى فى مدحه للرسول -ﷺ- فيقول (٢):

إنَّ الْبِيُوتَ مَعَادِنٌ فَنِجَارُهُ ... ذَهَبٌ وَكُلُّ بيوته ضَخْمُ
عُقمَ النِّسَاءُ فَمَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ ... إنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِه عُقْمُ
مُتَهَلِّلٌ بِنَعَمْ، بلا مُتَبَاعِدٌ ... سِيَّان مِنْهُ الْوُفْرُ وَالْعُدْمُ
نَزْرُ الْكَلامِ مِنَ الْحَيَاءِ تَخَالُهُ ... ضَمِناً وَلَيْسَ بِجِسْمِه سُقْمُ

٦- شفاعة الرسول -ﷺ- يوم القيامة.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى طرقها الشعراء المخضرمون فى مديحهم للرسول -ﷺ-: الشفاعة. وإذا تتبعنا مادة (شفع) نجدها تحمل معنى الطلب. فقد ذكرها صاحب اللسان فقال: شفع لى يشفع شفاعة، وتشفع: طلب. والشفيع: الشافع، والجمع شفعاء، واستشفع بفلان على فلان، وتشفع له إليه، فشفعه فيه، وشفع لى بالعداوة: أعان علىَّ، واستشهد بقول النابغة:

أَتَاكَ امْرؤٌ مُسْتبطِنٌ لِىَ بِغْضَةً ... لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلُ ذَلِكَ شَافِعُ

وتقول: إن فلانا ليشفع لى بعداوة أى يضادنى.

وذكر أن الشفاعة: كلام الشفيع للملك فى حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه فى معنى طلب إليه والشافع: الطالب لغيره، يتشفع به إلى المطلوب. يقال: تشفعت بفلان إلى فلان، فشفعنى فيه . . . واستشفعته إلى فلان، أى سألته أن يشفع لى إليه، وتشفعت إليه فى فلان فشفعنى فيه تشفيعا، قال حاتم

(١) مسلم: جـ١٥، ص٧٨.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى جـ٤ ص ١٦٠٤ وما بعدها، وعيون الأخبار جـ١، ص٢٧٨ ومابعدها.

يخاطب النعمان:

فككتَ عَدِيًّا كُلَّها مِنْ إسَارِها   فَأَفْضِلْ وشَفِّعْنى بِقَيْسِ بْنِ جَحْدَرِ [(١)].

فمادة (شفع) ودلالتها الجاهلية هى نفسها التى استخدمها المخضرمون بعد الإسلام ولكنهم استخدموها للدلالة على معنى دينى جديد، فبعد أن كان الشفيع يسأل الملك أو شيخ القبيلة أو أحد الرجال البارزين فى حاجة لغيره، أصبح للشفاعة سمة إسلامية جديدة، فقال -ﷺ-: «أَنَا أوّلُ النّاس يَشْفَعُ فى الْجنّة، وأَنَا أكثرُ الأنبياء تَبَعاً»[(٢)] وقال أيضا: «لكلِّ نَبِىٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِىٍّ دَعْوَتَه، وإنِّى اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِى شَفَاعَةً لأُمَّتِى يَوْمَ القيامة فهى نائلة إن شَاءَ اللّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِى لايُشْرِكُ باللّه شَيْئا» [(٣)]. وهذه الشفاعة التى تحدث عنها الرسول -ﷺ- يوضحها حديث أنس بن مالك الذى رواه مسلم فى صحيحه، فقال: قال رسول الله -ﷺ-: «يَجْمَعُ اللّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقيامَةَ فَيَهْتَمُّونَ لذَلكَ (وقَالَ ابْنُ عُبَيْدٍ فَيُلْهَمُونَ لذلك) فيَقُولُونَ لَو اسْتَشْفَعْنا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هـذَا، قَالَ: فيأتونَ آدَمَ -ﷺ- فَيقُولُونَ أنْتَ أدَم أَبُو الْخَلْقِ خَلَقَكَ اللّهُ بيَدِه ونَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِه وأَمَرَ الملائكَةَ فَسَجَدوا لَكَ اشفَع لَنَا عنْد رَبكَ حَتَّى يُرِيحنَا مِنْ مكَانِنَا هـذا فَيَقُولُ: لَستُ هُنَاكم[(٤)]، فيذكُرُ خَطيئَتَهُ الَّتى أصَابَ فيَسْتَحِىٍّ ربَّهُ منْهَا ولكن ائْتُوا نُوحاً أوّلَ رَسُول بَعَثَهُ اللّهُ، قالَ: فَيأتُونَ نوحاً -ﷺ- فيقُولُ: لستُ هُناكُمْ فَيَذكُرُ خَطيئَتَهُ التى أَصَابَ فَيَسْتَحْىٍّ رَبَّهُ منهـا، ولكن ائتُوا إبْراهيم -ﷺ- الَّذى اتَّخَذهُ اللَّهُ خَليلا فَيأتونَ إبراهِيمَ -ﷺ- فيقُولُ: لَستُ هُنَاكُم ويَذْكُرُ خَطيْئَتَهُ الَّتى أصَابَ

(١) اللسان (شفع) جـ٤ ص٢٢٨٩.

(٢) مسلم جـ٣ ص٧٣.

(٣) المصدر نفسه جـ٣ ص٧٤.

(٤) لست هناكم: أى لست أهلا لذلك.

فَيَسْتَحْيِ رَبَّهُ منْهَا وَلكنِ ائتُوا مُوسَى -ﷺ- الَّذى كَلَّمَهُ اللَّهُ وأعطاهُ التَّوْرَاةَ، قالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيه السَّلام، فَيـقُولُ: لَسْتُ هُنَاكم، ويَذكرُ خَطِيئتَهُ الَّتي أصَابَ فَيَسْتَحيِ رَبَّهُ منهـا ولكنِ ائتوا عـيسى رُوحَ الله وكَلمتَهُ، فيَأتُونَ عيْسَى رُوحَ الله وكَلمتَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ولَكنِ ائتُوا مُحـمَّدًا -ﷺ- عَبْداً قَدْ غُفِرَ لَهُ مـا تَقَدَّمَ منْ ذَنْبه ومَـا تَأخَّرَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه -ﷺ- :فيَأتونى فأسـتَأذنُ علَى ربِّى فَيُؤْذَنُ لى، فَإذَا أنَا رَأيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجداً فَيدَعُنى مَاشَاءَ اللَّهُ فَيُقالُ يَا مُحَمَّدُ ارفَعْ رَأسَك قُلْ تُسْمَعْ سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشفَّعْ، فأرفَعُ رَأسى فأحـمَدُ ربِّى بتَحْميـد يُعلِّمُنيه ثُمَّ أشـفعُ فيـحدُّ لى حـدًّا فأخرجُهُمْ منَ النَّار وأُدْخلُهُمُ الجنَّةَ، قَالَ: فَلا أدرى فى الثَّالثَة أو فى الرَّابعـة قـالَ: فَأقُولُ يَاربِّ مَابَقِيَ فى النَّارِ إلا مَنْ حـبَسَهُ الْقُرآنُ أى وَجَبَ عَلَيـه الخلُودُ»[1]فنستطيع من خلال الحديث أن نفـهم معنى الشفاعة بمفـهومها الدينى الجديد وميـقاتها يوم الحشر العظيم يوم ينصب الحق ميزان العدالة وتتبع كل أمة ماكانت تعبد، ثم تميز المؤمنين من المنافقين، ووضع الصراط، ثم حلول شفاعة الرسول -ﷺ- فى المذنبين على الصراط.

وهذا المعنى الجديد صـاغه عبداللـه بن رواحة فى شعره عندمـا وقف أمام النبى -ﷺ- ونظر إليه ليـشعر بهذا الإحسـاس النفسى وهو معرفـة الخير فى وجهه -ﷺ- ثم يأمل شفاعته يوم القيام؛ لأن الذى يحرم هذه الشفاعة يبقى فى النار خالدا كـما بيَّن الحديث السابق. كـما أنه يأمل ثباته ونصره كـثبات الأنبياء ونصرهم، فيقول [2] :

---

(١) مسلم جـ٣ ص ٥٣ ومابعدها.

(٢) الأبيات فى الاستيعاب جـ٣ ص ٩٠٠، وأسد الغابة جـ٣ ص٢٣٥، وديوانه دراسة وتحقيق حسن محمد باجوده. نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة ١٩٧٢م ص٥٤ والرواية فيها اختلاف.

إنِّى تَفَرَّسْتُ فِيـــكَ الْخَيْرَ أعْرِفُهُ   وَالـــلَّهُ يَعْلَمُ أَنْ مَا خَانَنى الـــبَصَرُ
أَنْتَ الـــنَّبِـــىُّ وَمَنْ يُحْرَمْ شفَاعَتَهُ   يَوْمَ الْحسَابِ فَقَـــدْ أزْرَى به الْقَدَرُ
فَثَبَّتَ الـــلَّهُ مَا آتـــاكَ مِنْ حَسَنٍ   تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كـالَّذى نُصِرُوا

ونلاحظ فى هذه المدائح المتقدمة اهتمام الشعراء بالفضائل المعنوية أكثر من اهتمامــهم بالفضائل الحســية، وذلك لأن المعانى الدينية الخـالصة هى الفكرة الغالبة فى شعرهم.

٧ ـ التنكيل بالملحدين.

وإذا كنا لانعدم فـى شعر المديح عند المخـضرمين وجـود بعض الأوصاف الحسية، فإنها لم تكن تقصد لذاتهـا، بل كانت مقترنة في الغالب بمعان دينية ترمى إليهـا، فترى بعـضهم يمزج بعض الأوصـاف الحسيـة للرسول ـ ﷺ ـ بمعنى دينى جـديد، فيـقررون أنه ـ ﷺ- جـاء بالحق الذي ينكل بالملحـدين مسـتخـدمين مادة (لحـد) بمدلول إسلامى جـديد، فأصل الإلحـاد كمـا ذكر صاحب اللســان: الميل والعدول عن الشىء، وألحد: مارى، وجـادل وألحد الرجل: أى ظلم فى الحرم ومنه قول الشاعر:

قَدْنِى مِنْ نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَـــدِي   لَيْسَ الإمَامُ بـالشَّحِيحِ المُلْحِدِ![1]

أى الجائر بمكة. ثم تطورت دلالتها لترتبط بعـد ذلك بالدين، فيقال: لحد فى الدين يلحـد وألحد: مـال وعدل وحـاد عنه، والملحد العـادل عن الحق المدخل فيه ماليس فيه[2]. وقد ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى[3]:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِيـــنَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أن الإلحاد يـكون بثلاثة أوجـه: أحدها بالتـغيـير فـيها كـما فـعله

(١) نسبه الجوهرى لحميد بن ثور الهلالى، ونسبه ابن برى لحميد الأرقط: اللسان (لحد) جـ ٥ ص ٤٠٠٥

(٢) اللسان (لحد) جـ ٥ ص ٤٠٠٥ وما بعدها.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٨٠

المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هى عليه، فسموا بها أوثانهم، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناه من المنان، والثانى: بالزيادة فيها، والثالث بالنقصان منها، كما يفعل الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الله تعالى بغير أسمائه ويذكرونه بغير مايذكر من أفعاله إلى غير ذلك مما لا يليق به»(١).

وقد بُعثَ الرسول - ﷺ - ليقيم نظام الحق للبشرية بأنه لا إله إلا الله، وينكل بالملحدين الذين أشركوا مع الله آلهة آخرى، وفى ذلك يقول حسان ابن ثابت:(٢)

مَتَى يَبْدُ فى الدَّاجِى الْبَهِـيْمِ جَبِيْنُهُ	يَلُحْ مِثْلَ مِصْبَاحِ الـدُّجَى الْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَوْ مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدٍ	نِظَامٌ لِحَقٍّ أَوْ نَكَالٌ لِمُلْحِدِ

وعلى هذا النحو كان مديح الشعراء المخضرمين للرسول -ﷺ- وتمثلهم للمعانى الدينية الجديدة وفاء بما فى أنفسهم من تقدير وإجلال له، كما كان وفاء بما فى أنفسهم لدينهم وغيرتهم الشديدة على عقيدتهم.

ثانيا: مدح الصحابة الراشدين.

وإلى جانب مدح الشعراء المخضرمين للرسول - ﷺ - نراهم يتوجهون بمديحهم إلى الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم، ويتحرون الصدق فى مديحهم إياهم ويبعدون عن الإسراف والغلو ولا يمدحون الرجل إلا بما فيه، فذكروا أجل مناقبهم وفضائلهم كتأييد الله لهم بالنصر والمعونة والحفظ والتسديد، وبذلهم أنفسهم ومفارقتهم أهلهم وأموالهم ورياستهم فى طاعة الله تعالى ورسوله وملازمتهم النبى - ﷺ - ومعاداة الناس فيه، وجعل أنفسهم وقاية عنه وغير ذلك.

(١) تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٨٥٥

(٢) ديوانه ص ٣٨٠.

١ ـ حب الصحابة للرسول ـ ﷺ ـ وطاعتهم ونصرتهم له.

روى أبو سعيد أن رسول الله ـ ﷺ ـ جلس على المنبر فقال:

«عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وأُمَّهَاتِنَا قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ: رَسُولُ الله ـ ﷺ ـ إِنَّ آمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ لا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاخَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ»[١].

وروى أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدثه فقال نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فَقُلْتُ: يارَسُولَ اللَّه لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إلى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنا تَحتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثنَينِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[٢].

فقد صحب أبو بكر الرسول ـ ﷺ ـ في هجرته من مكة الى المدينة ونصره بتأنيسه له في الغار، وحمله على عنقه، وبوفائه، ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى[٣]: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**﴾.

ويتحدث حسان بن ثابت في مديحه لأبي بكر عن هذا الموقف، ويمزج معه بعض الفضائل الأخرى، فهو أحب الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ كما روى عمرو بن العاص أنه سأل الرسول ـ ﷺ ـ «أيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إليكَ. قَالَ: عَائِشَةُ، فَقَالَ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ: قَالَ: أَبُوهَا»[٤].

---

(١) مسلم جـ ١٥ ص ١٥٠ وما بعدها، والخوخة بفتح الخاء: الباب الصغير بين البيتين أو الدارين ونحوه.

(٢) مسلم جـ ١٥ ص ١٤٩

(٣) سورة التوبة، آية ٤٠

(٤) راجع مارواه مسلم في صحيحه جـ ١٥ ص ١٥٣..

فيقول[1]:

وَثَانِى اثْنَين فى الغَارِ الْمُنيف وَقَدْ ... طَافَ العَدُوُّ به إذْ صَعَّدَ الجَبَلا
وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

ويشيد كعب بن زهير فى مديحه للأنصار بمواقفهم الإسلامية كطاعتهم لله ونصرتهم لرسوله - ﷺ - وبلائهم فى محاربة المشركين لإعلاء كلمة لا إله إلا الله فيقول:[2]

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ، فَلا يَزَلْ ... فى مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِى الأنْصَارِ
والبَاذلينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ... يَوْمَ الْهِيَاجِ وَقُبَّةِ الجَبَّارِ
يَتَطَهَّرُونَ - كَأنَّهُ نُسُكٌ لَهُمْ- ... بِدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ

ونرى حسان بن ثابت يمدح الزبير بن العوام فيضمن مديحه بعض المعانى الإسلامية، فهو حوارى الرسول - ﷺ - فقد قال الرسول - ﷺ : «لِكُلِّ نَبِىٍّ حَوارِىٌّ وَحَوارِىَّ الزُّبَيْرُ»[3] الذى اهتدى بهديه والتزم بذلك قولا وعملا، واتبع منهاجه وطريقه فى نصرة الحق والعدل، وهو الذى شهد المشاهد كلها مع الرسول - ﷺ - وله صلة رحم بالرسول - ﷺ - فهو ابن عمة رسول الله - ﷺ - وله يد طولى فى نصرة الإسلام فهو أول من سل سيفا فى الله -عز وجل- عندما وقع الخبر أن رسول الله - ﷺ - أخذه الكفار وهو بمكة فأقبل الزبير يشق الناس ليذب عن الرسول - ﷺ - فصلى عليه ودعا له ولسيفه، كما أنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة[4].

وفى هذه المعانى يقول حسان:[5]

---

(١) ديوانه ص ٣٩٥

(٢) ديوانه ص ٢٥ وما بعدها، وطبقات ابن سلام جـ ١ ص ١٠٣.

(٣) مسلم جـ ٥ ص ١٨٨

(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٥٠ وما بعدها.

(٥) ديوانه، ص ٢٩٤

أقَامَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ وَهَدْيِه ... حَوَارِيُّهُ والقَوْلُ بالفعلِ يُعْدَلُ
أَقَامَ عَلَى منْهَاجِه وطَرِيقه ... يُوالِى وَلِيَّ الحَقِّ والحَقُّ أَعْدَلُ
هُوَ الفَارِسُ المَشْهودُ والبَطَلُ الذى ... يَصُولُ إذَا مَاكَانَ يَومٌ مُحَجَّلُ
إذا كَشَفَتْ عن سَاقِها الحَرْبُ حَشَّهَا ... بأَبيضَ سَبَّاقٍ إلى المَوت يُرقِلُ
وَإنّ امْرأً كَانت صَفِيَّةُ أُمَّهُ ... ومَنْ أسَدٌ فى بَيْتِهَا لَمُرَفَّلُ
لَه مِن رَسُولِ اللّه قُرْبى قَرِيبَةٌ ... ومنْ نُصْرَةِ الإسلام مَجدٌ مُؤَثَّلُ
فكم كُربَةٍ ذَبَّ الزُّبَيرُ بسَيفِهِ ... عَن المُصطَفَى واللهُ يُعْطِى فَيُجْزِلُ

وإلى جانب هذه المعانى الدينية الجديدة التى طرقها المخضرمون فى مديحهم للصحابة مثل التأسى بالنبى - ﷺ - فى سيرته وعدله، فنجد حميد ابن طاعة السكونى يمدح عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذاكرا بعض فضائل عمر الإسلامية كخوفه من الله، ومتابعته لأحوال المسلمين وبره بأقاربه، فيقول[1] :

مَا إنْ رَأَيْنَا مِثْلَكَ ابْنُ الخَطَّابْ ... أَبَرَّ بالدِّينِ وَبالأَحْسَابْ
بَعْدَ النَّبِيِّ صَاحِبِ الكِتَابْ

٢ - التأسى بالصحابة الراشدين فى العدل والمساواة.

وكذلك مدح المخضرمون رجال المسلمين الذين تربوا ونشأوا فى مدرسة العقيدة النبوية بالعديد من المعانى الإسلامية الخالصة. فنجد النابغة الجعدى ينشد عبدالله بن الزبير مدحته التى يشبهه فيها بالخلفاء الراشدين فى سيرته بين الناس، من حيث إقامة الحق والعدل بينهم فيقول:[2]

---

(١) كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء: لمحمد بن حبيب، تحقيق عبدالسلام هارون جـ ١ من نوادر المخطوطات، الطبعة الثانية مصطفي البابى الحلبى ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ص ٨٨.

(٢) ديوان النابغة الجعدى. نشر عبدالعزيز رباح، المكتب الإسلامى دمشق ١٩٦٤ م ص ٢٠٤ وما بعدها، وتاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر (د/ ت) ص ٣٣٨.

حكَيــتَ لَنَا الـصِّدِّيــقَ لَمَّا ولَيْتَنَا   وَعُثْمَانَ والـــفَارُوقَ فَارتَاحَ مُعْدِمُ
وَســوَّيْتَ بيْنَ النَّاسِ فى الحَقِّ فــاسْتَوَوا   فَعَادَ صَبَاحَاً حَالِكُ الـــلَّيْلِ مُظْلِمُ

وتتضح لنا هذه السمات الإسلامية فى قصيدة حارثة بن بدر الغُدَانى[1] التى مدح بها زياد بن أبى سفيان، فيذكر عدله وحزمه وقصده فى الأمور وحسن سياسته فى الرعية وعدم ظلمهم، على الرغم من أنه تولى الإمارة فى زمن خبيث ملىء بالمفاسد والشرور، امتلأت صدور الناس فيه بالضغائن، ولكن لحكمته ومهابته وحسن سيرته، فى الرعية، وعدم ظلمهم، وإقامته ميزان العدالة باتباعه منهج القرآن، خافه كل حاضر وباد، واستقرت على يديه أمور الرعية، وفى ذلك ذكر الطبرى[2] «أنه أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفا شديدا، حتى أمن الناسُ بعضهم بعضا، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تُغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم يُرَ مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدا قبله». ويعدد لنا الشاعر هذه الخصال فى قوله:[3]

أَلا مَــنْ مُبْلِــغٌ عَــنّى زِيَادًا   فَنِعْمَ أَخُو الخَلِيــفَةِ والأمِيــرُ!
فَــأَنتَ إمــامُ مَعْدَلَةٍ وقَصْدٍ   وحَزْمٍ حِينَ تَحــضُرُكَ الأُمُورُ
أَخُوكَ خَلِيــفَةُ اللَّهِ ابْنُ حَرْبٍ   وأَنْتَ وزيــرُه نِعْمَ الــوزيــرُ!
تُصــيب على الــهَوَى مِنْهُ وتَأتى   مُحِبَّكَ مــا يُجِنُّ لنــا الضَّمــيــرُ
بِأَمــرِ اللّهِ منْصُورٌ مُعــانٌ   إذا جَارَ الــرَّعِيــةُ لا تَجُورُ

(1) كان مع عائشة يوم الجمل، وأصيب ابنه وأخوه ذرّاع (الطبرى جـ ٤ ص ٥٣٦)
(2) الطبرى، جـ ٥ ص ٢٢٢
(3) المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٢٢٣ وما بعدها..

يَدرٌّ عـــلـــى يَدَيْك لمـــا أرادوا ... مـن الدُّنْيـــا لَهُمْ حَلَبٌ غَزِيـرُ
وَتَقْسِمُ بـالسّواءِ فـــلا غَنِيٌّ ... لضَيـمٍ يَشْكـيكَ ولا فَقِيـــرُ
وكـنـت حيًا وجِئتَ عـلـى زَمَان ... خَبـيـث ظاهـرٌ فيـــه شُرُورُ
تَقَاسَمـت الرِّجـــالُ به هَوَاهَا ... فَمـا تُخْفِى ضَغـائنَهـا الصُّدُورُ
وخـــافَ الحَاضِرونَ وكُلُّ بـاد ... يُقِيمُ عَلَى المَخَافَة أو يَسِيـرُ
فـلمّا قَامَ ســـيْفُ الله فِيهُمْ ... زيـادٌ قـــام أبْلَجُ مُسْتَنِيـرُ
قَوِىٌّ لا مِنَ الحَدَثـــانِ غِرٌّ ... ولا جَزِعٌ ولا فــانٍ كـبـيــرُ

وهذه المناقب الدينية التى أسبغها الشعراء على الصحابة، ورجال المسلمين والأمراء. تمنى عبدالملك بن مروان أن يمدح بمثلها، فقد ذكر صاحب الأغانى أنه قال: «يامعشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم»[1] وهو يقصد بذلك قصيدة أيمن بن خريم الأسدى التى مدح بها الهاشميين، وتشمل عدة صور ناطقة بالمعانى الدينية، فنهارهم صيام وعمل وجهاد، وليلهم صلاة وتلاوة للقرآن، وقد زكاهم الله وأصبحت الولاية لهم، ولكن الضغائن والأحقاد مزقت ماشيدوا، ثم جعلهم بعد ذلك أفضل الناس كلهم، فقال:[2]

نَهَارُكُـمُ مُكَابَـدةٌ وَصَـوْمٌ ... ولَيـلُكُم صَلاةٌ واقْتِراءُ
وَلِيـتُمْ بـالـقُرآنِ وبالـتَّزكِّى ... فـأَسْرع فِيكُمُ ذَاكَ الـبَلاءُ
أَأَجْعَلَكُمْ وأَقـوامًا سَوَاءٌ ... وبَيْنَكُـمُ وبَيْنَهُمُ الْهَـوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لأَرْجُلِكُمْ وَأَنْتُم ... لأَرْؤُسِهِـمْ وأَعْيُنِهِـمْ سَمَـاءُ

---

(١) الأغانى: جـ ٢٠، ص ٣١٠

(٢) المصدر نفسه جـ٢٠، ص ٣١٠ وما بعدها

ثالثا: مدح الذات الإلهية.

وقد استحدث المخضرمــون لونا جديدا من المديح عندما توجهوا بمديحهم إلى الذات الإلهية، وضمنوا أشعارهم العديد من الســمات الإسلامية، فجاء شعــرهم أقرب إلى الدعــاء والمناجاة منه إلى المديح. فنرى حــسان بن ثابت يتوجه إلى الله -سبـحانه وتعالى- بهذه المناجاة التى يعترف فيــها بوحدانيته، وينزهه عن كل شرك، ويقر بنعمائه، فــهو الهادى، وهو المعين الذي يستحق العــبادة لأن الأمــر كله بيــده، ويتــمــثل هذا الدعــاء الذي يردده المؤمنون فى صلواتهم[1]: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم يقرر أن جزاء الله لكل من آمن به وأقر بوحدانيته جنات من الفردوس خــالدا فيها كما وعد الله بذلك المؤمنين فى قوله تعالى:[2] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ فيقول:[3]

فــأنت إلــــهُ الخَلْقِ ربِّى وَخــالقى   بذَلك مــا عُمِّرتُ فــى النَّاسِ أَشْهَدُ

تَعَاليْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا   سِوَاك إلــهـــــــاً أنْتَ أعْلا وأَمْجَدُ

لَكَ الخَلْقُ والـــــنَّعْمَاءُ والأمْرُ كُلُّه   فــــــــإيَّاكَ نَـسْتَهْدِى وإيَّاكَ نَعْبُدُ

لأنَّ ثَوابَ اللهِ كُلَّ مُوحِّدٍ   جِنَانٌ من الفِرْدَوسِ فــيـــهــا يُخَلَّدُ

فشعر المديح عند المخضــرمين ـ على هذا النحو الذي رأينا ـ لم يعد مجرد ذكــر لبعض الفـضائل المعنويــة أو الحســية التى يتــميــز بها الرســول ـ ﷺ ـ وأصحابه، ولكنه أصــبح حججا ومبــررات وأسانيد يؤيد بها الشــاعر الدعوة الإسلامية والتعاليم الدينية الجـديدة، ويدحض بها دعاوى خصومه من الكفار والمشــركين. وعلى هذا الأساس كــانت الفكرة الرئيســة للمديح هى المعــانى الإسلامية الخالصة التى كانت السمة الغالبة فى شعر هؤلاء بالإضافة إلى أنهم لم يوجهوا المدح لمن لا يستحق، ولم يمدحوا الرجل إلا بما فيه فبعدوا بـذلك

(١) سورة الفاتحة ،الآيتان ٥، ٦.   (٢) سورة الكهف، الآيتان ١٠٧، ١٠٨

(٣) ديوانه. ص ٣٣٩.

عن الغلو والإسراف الذي كان شـائعا فى مدائحهم الجاهليـة؛ لأن دوافعهم التى كانت تدفعهم لمدح الرجل كالمكاسـب المادية والمنافع الدنيوية قد تغيرت وتحولت إلى دوافع نفسية وغيرة دينية دفعتهم إلى القول دفعا، فخرج شعرهم معبرا عما يجيش فى نفوسهم من مشاعر ذاتية وأحاسيس وعاطفة صادقة نبيلة تغمرها العقائد الدينية والمعانى الإسلامية الخالصة.

* * *

ثانيا : الهجاء .

الهجـاء فن من الفنون الشعرية القـديمة التى وجدت فى العصـر الجاهلى ووجوده أمر طبعىّ مع وجود المديح. فطالما وجد أناس يستحقون المديح وجد آخرون يستحقون الهجاء، فـالهجاء إذًا ضد المديح، لأن معناه سلب الفضائل والصفـات المستـحسنة التى تخـتصهـا النفس، وإثبات صـفاتهـا وفضـائلها المستهجنة[1].

وقد رأى قدامـة، وتبعه ابن رشيق أن سلب الفـضائل النفسيـة فى الهجاء أفضل من ذكر المعـايب الخلقية الجسميـة وأن أشد الهجاء أعفه وأصـدقه، أما القذف والإفحاش فسباب محض، ليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن[2].

وبعد ظهور الإسلام منعت التعاليم الدينية فن الهـجاء وجعلته إثما كبيرا، لايجـوز أن يجرى به لسـان شاعـر إلا فى حالات نادرة سـمح بها القـرآن الكريم؛ لأن الرسول - ﷺ - كان يهدف - كـما رأينا ذلك فى الباب الأول - إلى وجود المحـبة والألفـة، وخلق روح التعـاطف والتواد بين الناس، فـمنع السباب والمشاتمة حـتى لاتقع العداوة والبغضاء بينهم، كمـا شدد العقوبة على

(١) نقـد الشعـر لقدامـة، ص ١١٣، ص ١٨٧، والعمـدة جـ ٢ ص ١٧٤ والصناعتين لأبى هلال العـسكرى تحقيق، على محمد البجاوى ومحمـد أبوالفضل إبراهيم المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م ص ١٠٤

(٢) نقد الشعر، ص ١٨٧ وما بعدها، والعمدة جـ ٢ ص ١٧١، ص ١٧٤

كل من قال هجاء مقذعا فى الإسلام . وفسر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الهجاء المقذع فى توجيهه للحطيئة بقوله: « إياك والهجاء المقذع، قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؟ قال: المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم[1]» .

وهذا الموقف جعل الشعراء أنفسهم يعرضون عن الهجاء المقذع خوفا من العقوبة التى ستلحق بهم فلم يكن سويد بن كراع العكلى وحده هو الذى يصارع نفسه حتى لاتتدفق القوافى فى هجاء قومه - كما مر بنا - ولكننا نجد أيضا الشماخ بن ضرار الذبيانى يهذب شعره فى هجاء الربيع بن علباء السلمى، فيقول: لولا شدة حذر الخليفة عثمان بن عفان، ولولا خوفى من عقابه لهجوتك هجاء موجعا شديد الوقع، فيقول فى قصيدته:[2]

لَوْلا ابْنُ عَفَانَ والسُّلْطَانُ مُرْتَقَبٌ ... أورَدْتَ فَجّا مِنَ اللَّعْبَاءِ جُلْمُودِ

فموقف الإسلام - على هذا النحو - جعل فن الهجاء يتطور تطورا ملحوظا منذ ظهور الإسلام، لتغير الأسباب الدافعة إليه. فبعد أن استقر الرسول - ﷺ - والمهاجرون فى المدينة وبدأت شوكة المسلمين تقوى بعد أن ألف بين المهاجرين والأنصار وآخى بين الأوس والخزرج، بدأت عداوة المشركين واليهود للمسلمين تظهر بوضوح، متمثلة فى هذه الأشعار التى قالها عبدالله بن الزبعرى وأبوسفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وغيرهم، والتى نالوا بها من الرسول - ﷺ - والمسلمين فى المدينة، وأفحشوا فى هذه الأشعار حتى خاضوا فى الأعراض، وطعنوا فى الأنساب، وحاولوا رد من أسلم منهم إلى دين آبائه. فما كان من المسلمين إلا أن شكوا ذلك للرسول - ﷺ - ، فقال لهم: «قُولُوْا لَهُمْ كَمَا يَقُولُونَ لَكُمْ»[3] وروى عنه - ﷺ - أنه قال : «إنَّ المؤمِنَ يُجاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِه، والَّذى نَفْسى بيَدِهِ لكَأنَّما تَنْضَحُونَهُمْ بِالنَّبْل»[3].

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٧٠ . .
(٢) ديوان الشماخ بن ضرار الذبيانى: تحقيق : صلاح الدين الهادى ، طبعة دار المعارف ١٩٧٧ م ص ١٢٢
(٣) تهذيب الآثار: مسند عمر، جـ ٢ ص ٦٢٥.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٢، ص ٦٣٢

فالرســول ـ ﷺ ـ كان يدرك أهميــة الشعر بالــنسبة للعــرب، ويدرك تماما أن قريشا استخدمت هذا السلاح لمحاربة المسلمين والاستظهار عليهم، وهذا يتضح لنا من موقف صفوان بن أمية عندما قال لأبى عزة الجمحى: إنك امرؤ شاعر، فأَعِنَّا بلسانك، فاخرج معنا[1].

وفى ذلك، يقول أحــد الباحثين: «لــم يكن أعداء الإسلام يتــورعون عن استخدام أى سلاح لمحاربة هذه الدعــوة، فكان الشعر هو سلاحهم الدعائى أو الإعلامى لتشويه حقــيقتها، والتهوين من أمرها، وهجــاء القائمين عليها، للتصغير من شأنهم فى نفوس العرب»[2].

فمــا كان من الرسول ـ ﷺ ـ تجــاه هذه الحرب إلا أن يرد عليــهم بحرب مثلها؛ لأن الإســلام لايسلب أهله حق الدفاع عن أنفسهم فقال ـ ﷺ ـ فــيمــا روت عائشة رضى الله عنها. «اهْجُوا قُريشًا، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيهم مِنْ رَشْقِ النَّبلِ. فَأرسل إلى ابن رواحة فــقال: اهجهم، فــهجاهــم. فلم يرض، فأَرْسلَ إلى كَعْبِ بنِ مَالك، ثم أرْسَلَ إلى حَسَّان بنْ ثَابت، فَلَمَّا دَخلَ عَلَيْه حَسَّانُ قَال: قَدْ آنَ أَنْ تُرْسلُوا إلى هَذا الأسَد الضَّارب بِذَنَبـه. قَالَ: ثُمَّ أدْلَع لسَانَهُ فَجَعَل يُخرجُه، فَقَالَ: والَّذى بَعثَك بالحَقِّ لأَفرِيَنَّهم بـلسَانى فَرْيَ الأَديْمِ فقالَ رسُولُ الله ـ ﷺ ـ لاتَعْجَلْ، فإنَّ أبَا بكْرٍ أعْلمُ قُرَيشٍ بأنْسَابِهــا، وإنَّ لى فيــهمْ نسبًا حَتَّى تُخَلِّص نَسبى. فأتَاهُ حَسَّانُ، ثُمَّ رَجَع، فَقَالَ: يارَسُولَ الله، قَدْ خَلَّصْت نَسبكَ والَّذى بَعثَك بالحقِّ لأَسُلَّنَّكَ منْهُم كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةَ منَ الْعَجــين. قــالتْ عائشةُ: فَسَمعْتُ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ يَقُول: إنَّ رُوحَ القُدُس لايَزَال يُؤَيِّدكَ، مَا نَافَحتَ عَنَ الله ورَسُوله ـ ﷺ ـ وَقَالتْ: سَمعْتُ رَسول الله ـ ﷺ ـ يَقُولُ: هَجاهُمْ فَاَشْفَى وَاشْتَفَى»[3].

---

(1) السيرة: جـ ٣، ص ٤، الطبرى، جـ ٢، ص ٥٠٠ وما بعدها.

(2) شعر السيرة النبوية: دراسة توثيقية، شوقي رياض أحمد، الطبعة الأولى(د/ ت) دار المأمون للطباعة والنشر، ص٥٤.

(3) تهذيب الآثار: مــسند عمــر، جـ ٢ ص ٦٢٩ وما بعدها . وروى مــثله مسلم فى فــضائل حــسان برواية مختلفة جـ ١٦، ص ٤٨ وما بعدها

فدوافع الهجاء عند الشعراء المخضرمين الذين أسلموا - كما هو واضح - اختلفت تماما عنها فى الجاهلية، واختلفت أيضا عند شعراء المشركين، فأصبحت الحرب الكلامية بين الفريقين مصدرها الأساسى هو الدين الجديد، إما بمعاداته من ناحية المشركين، وإما بالذود عنه من ناحية المسلمين.

ولذلك نجد معانى الهجاء نفسها قد دخلها بعض التغيير والتعديل، بسبب الأحداث الجديدة التى طرأت على المجتمع، واختلاف القيم، فبعد أن كانت فى الهجاء القديم مجرد نفى للفضائل الأربع ومشتقاتها التى اتفق عليها النقاد فى شعر المديح، اتجه بها المخضرمون منذ ظهور الإسلام وجهات جديدة تبعا لتعدد أنواع الهجاء ودوافعه.

وقد ذكر صاحب الأغانى(1) : أن الرسول - ﷺ - قال للأنصار:

«مَا يَمنَعُ الْقَوْمُ الَّذِينَ نَصَرُوا رَسُولَ اللَّه - ﷺ - بِسِلاحِهِمْ أَنْ يَنْصُرُوه بِأَلسِنَتِهِمْ؟» ثم يتحدث عن هجاء المسلمين للمشركين فيقول: «فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبدالله بن رواحه يعيرهم بالكفر. قال: فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة. فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة».

ونستخلص من هذا النص أن هجاء المسلمين وخاصة هجاء الأنصار للمشركين كان له اتجاهان:

اتجاه جاهلى قديم يمثله حسان وكعب، وهو الخوض فى الأحساب والأنساب والأيام والمثالب، وهو يناقض روح الإسلام وتعاليمه.

---

(1) الأغانى . طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٩٦ هـ، ١٩٥٠ م، جـ ٤، ص ١٣٧ وما بعدها

واتجاه إسلامي يمثله عبـد الله بن رواحه، وهو الهجاء بالكـفر والإعراض عن سبيل الهداية، وهو يتفق مع روح الإسلام وتعاليمه.

ومع أننا نؤمن بأن شعرا كثيرا مما هجيت به قريش قد ضاع لإعراضهم عن روايته بعد إسـلامهم. إلا أننا لانتفق مع صاحب الأغـانى فى بعض ماذكره؛ لأن شعرا كـثيرا مما قاله حسان وكـعب فى هجاء قريش يتضمن مـعانى دينية خالصة كـما سنرى. أما ماذكره عن هجاء ابن رواحـة وأنه لم يؤثر فيهم إلا بعد إسلامهم فهذا أمر طبيعى لأن هجاء الكفار وتعييرهم بالكفر حقيقة واقعة يفتخـرون بها،فلم يؤثر فيهم تصريح ابن رواحـة بكفرهم لأنه لم يسلبهم أى صفات نفسية. أما هجـاء كعب وحسان فكان يتردد بين الاتجاهين فكان أشد وقـعا على نفـوسهم ؛ لأنه سلبـهم أفضـل ما عندهم بتـعريضـه لمفاخـرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وخلط ذلـك بالمعانى الدينية. وقد فطن الرسول - ﷺ - لذلك: بقوله عن حسان: «هَجَاهُمْ فَأَشْفَى وَاشتَفَى» (١).

وقد فطن ابن رشيق إلى مثل ذلك حيث قال:(أرى أن التعريض أهجى من التصريح، لاتساع الظن فى التـعريض، وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته. . . على أن يكون المهجو ذا قدر فى نفسه وحسبه)(٢).

فكان من الطبعىّ أن يتأثر الهجاء فى بعض معـانيه وصوره وأساليبه بالقيم الإسلاميـة الجديدة، وقد استـخدم المخضرمون هذه الناحـية استخـداما بارعا مهما اخـتلفت طريقتهم فى تناول موضوعاتـه ؛ لأن هدفهم كان واحدا وهو الذود عن الإسلام والمسلمين وتقويم اعوجاج خصومهم؛ لأن فن الهجاء كما يقول أحـد الباحثين: «قد يكون ظاهـره إحصاء للعيـوب والمثالب، وهى فى حقيقتها مثالب المجتـمع وعيوبه، يريد الشعراء من أسلافنا أن يطهروا المجتمع

(١) تهذيب الآثار مسند عمر جـ٢ ص٦٣٠ ورواية مسلم (هجاهم حسان فشفى واشتفى) جـ١٦ ص٤٩.
(٢) العمدة: جـ٢ ص١٧٢ ومابعدها.

من نقائصها، ويستنقذوه من براثنها، ففى الظاهر هجاء وفى الحقيقة إصلاح وتهذيب وتقويم لكل اعوجاج فى المجتمع سواء اتصل بالفرد أو اتصل بالجماعة»[1] وهو بهذا التفسير يوضح لنا قيمة اجتماعية أخرى لفن الهجاء، تضاف إلى القيمة الأخلاقية التى حددها الرسول - ﷺ - وفسرها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من قبل والتى تقوم على الاستثناء فى قوله تعالى[2]: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ .

ومن ثم برزت السمات الإسلامية فى هجاء المخضرمين للمشركين واليهود والمنافقين؛ لأنهم تأثروا بنهج القرآن وأسلوبه فى هجاء الخصوم الذى يعتمد على تسفيه معتقداتهم ومناقشة حججهم ثم إبطالها وكشف زيفها، وبيان سوء المنقلب والمصير الذى يأوون إليه.

ومن هذه المعانى التى طرقها الشعراء المخضرمون فى هجائهم:

١- الذود عن الإسلام والرسول - ﷺ .

ولكى نتحدث عن هذه المعانى الإسلامية فى شعر المخضرمين ينبغى أولا أن نشير إلى دوافع الهجاء لديهم كما أفصحوا عن ذلك فى أشعارهم، فيبين حسان فى شعره الدوافع والأسباب التى دفعته إلى هجاء المشركين، فيخاطب أبا سفيان بن الحارث ويصفه بالحماقة، وذلك بأن سلب منه أفضل صفاته النفسية، وهى رجاحة العقل؛ لأنه تطاول على الرسول - ﷺ - بالهجاء وحاول الاستظهار عليه، فأراد حسان أن يرد غائلته، ويدافع عن الرسول - ﷺ - وعن المسلمين، فيقول[3]:

لَنَا فِى كُلِّ يَـــوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ   قِتَالٌ أَوْ سِبَـــابٌ أَو هِجَـــاءُ

---

(١) فصول فى الشعر ونقده. شوقى ضيف، الطبعة الثانية بدار المعارف ١٩٧٧ ص٢٠ (وقد ورد النص بهذه الصورة التى اثبتناها. وأعتقد أن الاستخدام الصحيح (لسواء) أن يكون هكذا: سواء اتصل بالفرد أم اتصل بالجماعة).

(٢) سورة النساء ، آية ١٤٨

(٣) ديوانه ص٧٤ ومابعدها.

فَنُحْكِمُ بِـــالـــقَوافِي مَنْ هَجَانَا	وَنَضْرِبُ حَيْثُ تَخْتَلِطُ الـــدِّمَاءُ
أَلا أَبْلِغْ أَبَـــا سُفْيَانَ عَـــنِّي	فَـــأَنْت مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَســـولَ اللهِ مِنْكُمْ	وَيَمْـــدَحُهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْـــهُ	وعِنْدَ اللهِ فِـــي ذَاكَ الْجَزاءُ
أَتَهْجُوهُ ولَـــسْـــتَ لَـــهُ بِكُفْوٍ	فَـــشَـــرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
فَـــإِنَّ أَبِـي وَوَالِدَهُ وعِرْضِي	لِعِـــرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

ولم يقف هجاء حسان لقريش على تركهم دين الإسلام أو الإعراض عنه أو نيلهم من الرسول - ﷺ - بل دافع عنه بلسانه بعد أن أصيب فى رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفتاه فى غزوة أحد، فعرف حسان أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى صنع ذلك برسول الله - ﷺ - ، فوجه إليه هجاءه الذى يذكره فيه بما صنعه برسول الله - ﷺ - ويدعو عليه أن تنزل عليه صاعقة من السماء فتهلكه، ثم يذكره بمصيره الذى يصير إليه، وهو خزى فى الحياة الدنيا، وعذاب يلقاه فى نار جهنم فى الآخرة، يقول[1]:

إذا اللهُ أَعْطَى مَعْشَرًا بِـــفِعَالِهِمْ	ونَصْرِهِمُ الرحـــمنَ رَبَّ المَشَارِقِ
فَـــأَخْزَاكَ رَبِّى يـا عُتَيْبَ بن مَالك	ولَقَّاكَ قَبْلَ المَوْت إحْدَى الـصَّوَاعِقِ
بَسـطْـتَ يَمِيـنًا لِـلـنَّبِـيِّ تَعَمُّدًا	فَـــأَدْمَيْتَ فَاهُ قُطِّعَتْ بِالـبَوَارِقِ
فَهَلاَّ ذَكَـــرْتَ اللّهَ والمَنْزِلَ الَّذى	تَصِيـــرُ إليـه عِنْدَ إحـــدَى الصَّفَائِقِ
فَـقَـد كَانَ شَيْنًا فى الحَيَـاةِ لأَهْلِهِ	وفِى النَّارِ يَوْمَ البَعْثِ إِحْدَى العَوَالِقِ

ومن الملاحظ أن حسانا فى هجائه الذى يتمثل فيه المعانى الدينية دفاعا عن الدين أو دفاعا عن الرسول - ﷺ - يتميز بهذه الأفكار المنطقية التى تأتى

---

(١) ديوانه ص ١٥٧، ومابعدها.

على أنها مبررات وأسانيد تبرهن على صحة ما يقول، ولكن عندما تغيب هذه النزعة الدينية فى شعره نجده يميل إلى الاتجاه الفاحش الذى نهى عنه الإسلام، ولم يكن الفحش غريزة فى نفس حسان تستثيرها بعض أقوال القوم، ولكن شدة غيرته على دينه دفعته أحيانا إلى ذلك. ولم يكن يؤثر فى المشركين آنذاك إلا هذا اللون الفاحش مثلما فعل فى قصيدته التى وجهها إلى هند بنت عتبة بعد أن سمع هجاءها للمسلمين فى غزوة أحد.

ويوضح كعب بن مالك هذه الدوافع حينما يتوجه بهجائه إلى عبدالله بن الزبعرى الذى رمى الرسول - ﷺ - قبل إسلامه بفاحش القول وتطاول على من هو أشرف وأطهر منه، فيقول[1] :

سَأَلْتُ بِكَ ابْنَ الزِّبَعْرَى فَلَمْ ... أُنَبَّأْكَ فِى الْقَوْمِ إلا هَجِينَا
خَبِيثاً تُطِيفُ بِكَ الْمُنْدِيَاتُ ... مُقِيماً عَلَى اللُّؤْمِ حِيناً فَحِينَا
تَبَجَّستَ تَهْجُو رَسُولَ الْمَلِيـ ... ـكِ قَاتَلَكَ اللهُ جِلْفاً لَعِينَا
تَقُولُ الْخَنَا ثُمَّ تَرْمِي بِهِ ... نَقِيَّ الثِّيَابِ تَقِيّاً أَمِينَا

ويوضح كعب سببا آخر من أسباب الهجاء، وهو عصيانهم للرسول -ﷺ- وإعراضهم عن رسالته، فيقول[2] :

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أُفٍّ لِدِينكُمْ ... وَأَمْرِكُمُ السَّيْءِ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا

وهؤلاء المشركون - فى رأى حسان - يستحقون الهجاء ؛ لأنهم أعلنوا تمردهم عن دعوته - ﷺ - ورفعوا أصواتهم الكاذبة لتعلو كلمة الشرك، فيقول[3]:

---

(١) ديوانه، ص ٢٧٧.

(٢) ديوانه، ص ٢٩١.

(٣) ديوانه، ص٩٥.

حِيْنَ أَعْلَنْـــتُمْ بِصَـوْتٍ كَاذِبٍ وَأَبُو سُفْيَـان كـى يَعْلُو هُبَـــلْ

٢ ـ التعيير بالكفر وعبادة الأوثان .

وتظهر هذه المعانى بوضوح فى كثير من أشـعار المخضرمين التى استمدوها من آيات الذكر الحكيم، فعيـروهم بإعراضهم عن دين الله وتمسكهم بأوثانهم وعدم تأييـدهم للرسول ـ ﷺ ـ الذى بعـثه الله -عـز وجل- بالحق، فلم يصدقوه وصدوا عن هداه وأعـرضوا عن دينه، وتعرضوا له بالأذى، ثم بينوا لهم سوء المصير والمنقلب، كمـا أوضحه الله ـ عز وجل ـ فى قوله[١]: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيـدًا * إِنَّ الَّذِيـنَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيـهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *** ﴾.

فيبين حسان إعراضهم عن دعوته ـ ﷺ ـ وتمسكهم بشركهم فيقول: [٢]

وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتَ عَبْـــدًا يَقُـــولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَـلاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُـــوهُ فَقُلْتُم لانُجِـيْبُ وَلانَشَـــاءُ

ولم يتـوقف حسان عنـد ذلك، بل نراه فى قصـيدة أخرى يوضـح موقف قريش إزاء هذا الدين الجديد، ثم يوضح موقـفه إزاء هؤلاء القوم المشركين، هل يتركهم على غيهم، أم ينتصـر لهذا الدين بلسانه؟ فكأنه حمل على عاتقه مهمة نشر هذه الدعوة التى جـاء بها الرسول ـ ﷺ ـ إلى جانب أنه استقى هذه المعانى من قـوله تعالى[٣]: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي الـــسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ**

(١) سورة النساء ، الآيات ١٦٧ : ١٦٩ .
(٢) ديوانه ص ٧٥.
(٣) سورة الرعد الآيتان ١٥ ، ١٦.

تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

ويستعين أيضا بقوله تعالى[1]: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ فيأخذ حسان مغزى هذه الآيات ليخاطب قريشا بقوله[2]:

أَمَّا قُرَيشٌ فإنِّي غَيْرُ تَاركهم	حَتَّى يُنيبُوا منَ الغيَّات للرَّشَد
ويتركوا اللاَّتَ والعُزَّى بمَعْزلَة	وَيَسْجُدُوا كُلُّهُمْ للْخَالق الصَّمَد
وَيَشْهَدُوا أَنَّ مَاقَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ	حَقٌّ ويُوفُوا بِعَهْدِ الواحدِ الأَحَد

وفى هجائه لبنى جمح يوم بدر يعيرهم بجحودهم للقرآن وتكذيبهم للرسول - ﷺ - ويبين لهم أن الله ناصره وظاهر لأمره بالرغم من حقدهم وكفرهم، فيقول[3]:

قُتِلَتْ بَنُو جُمَحٍ بِبَدْرٍ عَنْوةً	وتَخَاذَلُوا سَعْياً بِكُلِّ سَبِيلِ
جَحَدُوا القُرآنَ وكَذَّبُوا بِمحَمَّدٍ	واللّه يُظْهِرُ أَمْرَ كُلِّ رسول

وفى هجاء حسان لصفوان بن أميه نرى لونا جديدا من الهجاء بالكفر فقد وصى أمية بنيه بعدة وصايا حفظها صفوان ووصى بها أبناءه، وكان الكفر وتآلف الشرك هما جوهر الوصية ومضمونها، فيقول حسان على لسان صفوان بن أمية[4]:

إنِّي حَفِظْتُ وَصَاةَ مَنْ هُوَ عَالِمٌ	لما عَلَتْنِي كَبْرَةٌ ومَشِيبُ

(١) سورة الزمر ، آية ٥٤.
(٢) ديوانه ص ١٦١.
(٣) ديوانه ص ٢٨٤.
(٤) ديوانه ص ٢٨٥.

قَالَ ابـنُهُ لِبَنِى بَنِيــــــــه ورَهْطِه إنِّي بِمَا أَوْصَى أَبِى لَطَبــــــيبُ
أَوْصَاهُمُ بـــــــالْكُفْرِ عِنْدَ مَمَاتِه وتألُّفَ الإشـــــــراكُ والـتَّكْذِيبُ

وهذه الفكرة لم تسيطر على حسان وحده بل نراها تظهر بوضوح فى شعر أبى خيثمه (مالك أحد بنى سالم بن عـوف) الذى هجا به أبا سفيان وجماعة من قريش، فيقول[1]:

وَيَنْدَمُ قَوْمٌ لَمْ يُطِيعُوا مُحمَّــدًا عَلَى أَمْرِهِمْ وَأَىَّ حِينِ تَنَــــــــدُّمِ
فَأَبْلغْ أَبَا سُفْيَانَ إمَّا لَقِيتَـــــــهُ لَئِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْلِصْ سُجُــودا وتَسْلِمِ
فَأَبْشِرْ بِخِزْيٍ فِى الْحَيَاةِ مُعَجَّلٍ وَسِرْبَالِ قَارٍ خَالِداً فِي جَهَنَّـــــــمِ

ويستلهم كعب بن مالك آى الذكر الحكيم فى هجائه للمشركين، مثل قوله تعالى[2] : **﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيــــهَا خَالِدُون﴾** فيـعيرهم بشركـهم وعبادتهم الضالة للأوثـان، ويبين لهم سوء المنقلب الذى سيصيرون إليه، فيقول[3]:

فَكَبَّ أَبُو جَهْلٍ صَرِيعـــاً لِوَجْهِهِ وَعُتْبَةُ غَادَرْنَهُ وَهْوَ عَاثِــــــــرُ
وَشَيْبَةَ وَالـتَّيْمِيَّ غَادَرْنَ فـى الْوَغَى وَمَا مِنْهُمُ إلا بِذِي الْعَرْشِ كَافِرُ
فَامْسَوا وَقُـــودَ الـنَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا وَكُـــــلُّ كَفُورٍ فِى جَهَنَّمَ صَائِرُ

ويبين لهم كـعب فى قصيـدة أخرى أن كل من خـالف دين الإسلام فـقد سلك سبل الضلال والغواية، فيقول[4]:

وَإنْ تَرَوا أَمْرَنَا فِى رَأْيِكُمْ سَفَهًا فَرَأْىُ مَنْ خَالَفَ الإسْلامَ تَضْلِيلُ

---

(١) السيرة جـ٢ ص١٣٠١،(ووردت هـذه الأبيات فى ديوان عبدالله بن رواحـة ص١٠٥، وقد أشار إلى ذلك ابن اسحاق فى السيرة ولكن ابن هشام أكد أنها لابى خيثمة).
(٢) سورة البقرة، آية ٣٩.
(٣) ديوانه، ص٢٠١.
(٤) المصدر نفسه ص٢٥٥.

ولم يكتف كعب فى هجائه ببيان هذه المعـاني الإسلامية الجديدة، بل نراه يتأثر بأسلوب القرآن فى هجائه، فيقـارن بين الذين آمنوا والذين كفروا، فهما ليـسا سـواء، فشـتان بين حـزب الإله المؤمنين وبين حزب الكفـر وهم أهل الشرك الذين عظموا الحجارة، فيقول[1] :

لَيْسَا سَوَاءً وَشَتَّى بَيْنَ أَمْرِهِمَا   حِزْبُ الإِلهِ وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالنُّصُبِ

ثم يقارن بين مصير هؤلاء وأولئك، فيقول[2]:

شَتَّانَ مَنْ هُوَ فِى جَهَنَّمَ ثَاوِياً   أَبداً وَمَنْ هُوَ فِى الْجِنَـــانِ مُخَلَّدُ

فهذه المعانى الإسلامية الجديدة يستـمدها الشاعر من معانى الآيات القرآنية فى مثل قوله تعالى[3]: ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ۞ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۞** ﴾.

ولم يكن كعب وحده هو الذى يعير المشركين بالكفر، ويوازن بين المؤمنين والكافـرين، بل نجد حـسان بن ثابت يتـأثر أيضا بهـذا الأسلوب فى الموازنة حين يوازن بين قـومه الذين آمنوا ووفـوا بعدهم للرسـول - ﷺ - ومُشركى قريش الذين كـفروا بربهم، فلا يـستوى العصـاة مع المطيعين، فـتأثره بالآية السابقة واضح فى قوله[4]:

وَفَوا إِذْ كَفَرْتُم ياسُخَيْنَ بِرَبِّكُم   وَلايَسْتَوِى عَبْدٌ عَصَى وَمُطِيعُ

---

(١) ديوانه ص١٧٥.
(٢) نفسه ص١٩١.
(٣) سورة السجدة: الآيات ١٨ : ٢٠.
(٤) ديوانه، ص٩٨.

٣- تغرير الشيطان للمشركين وطاعتهم له.

كذلك عير المخضرمون المسلمون قريشا بطاعتهم للشيطان وموالاتهم له، فقد اتبعوا خطواته حين أغراهم، فسلموا زمامهم له، حتى سلك بهم طرق الهوان والضلال وصدهم عن سواء السبيل، وهذه المعانى الإسلامية استقاها الشعراء من قوله تعالى[١] : ﴿ **وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا *** ﴾. وقوله تعالى[٢] : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ** ﴾. فيضمن حسان بن ثابت هجاءه هذه المعانى، فيقول[٣]:

سِرْنَا وَسَارُوا إِلَى بَدْرٍ لِحَينِهُمُ	لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينَ الْعِلْمِ مَاسَارُوا
دَلَّاهُم بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ	إِنَّ الْخَبِيثَ لِمَنْ وَالاه غَرَّارُ
وَقَالَ: إِنِّى لَكُمْ جَارٌ فَأَوْرَدَهُم	شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخِزْىُ والْعَارُ

ولم يكن حسان وحده هو الذى يعير المشركين بتغرير الشيطان لهم، بل نجد أبا أحمد بن جحش يضمِّن شعره هذه المعانى فهو يفرق بين هؤلاء الذين وفقوا إلى الهدى ودين الحق، وبين أولئك الذين غرر بهم الشيطان وتمادوا فى طغيانهم وأعرضوا عن سبل الهداية فحق عليهم العذاب، فيقول[٤]:

وكُنَّا وأَصْحابًا لَنَا فَارَقُوا الْهُدَى	أعَانُوا عَلَيْنا بِالسِّلاحِ وَأَجْلَبُوا
كَفَوْجَيْنِ: أَمَّا مِنهُما فَمُوفَّقٌ	على الحَقِّ مَهْدِيٌّ وَفَوْجٌ مُعَذَّبُ

(١) سورة النساء ، الآيات: ١١٩: ١٢١.
(٢) سورة الأنفال ، آية ٤٨.
(٣) ديوانه ص٣٨٨ وما بعدها.
(٤) السيرة جـ٢ ص٨٣.

طَغَوْا وتَمنَّوْا كِذْبَةً وَأَزَلَّهُــــمْ عَــن الْحَقِّ إِبليسٌ فَخَابُوا وَخَيَّبُوا

٤ ـ نقض العهد وعصيان الرسول ـ ﷺ .

ومن المعانى الإسـلامية التى طرقـها المخضرمـون فى الهجاء نقض العـهد وعصيـان الرسول ـ ﷺ ـ فنجد عبـدالله بن رواحة يعير أبا سـفيان باللؤم وعدم الوفـاء؛ لأنه رجع عن غزوة بدر الآخرة، ونقض وعـد الرسول ـ ﷺ ـ ثم يعيـره بعجزه، وأن الوفاء ليس من شـيمتـه ، ولو وفَّى والتقى بالمسلمين لعاد مذمومـا؛ لأنه سيفقد خيرة قومـه فى هذا اللقاء، ثم يذكِّره ببدر الأولى وما فـعله المسلمون بهم هناك. ويقرر بعـد ذلك عصيـانهم للرسول ـ ﷺ ـ وإعراضهم عن الإسلام، ثم يقف الشاعر موقف حسان نفسه حين جعل نفسه وأهله وماله فـداء للرسول ـ ﷺ ـ حتى لا ينال منه المشـركون ثم يبين لهم استشـعار المسلمين لحلاوة الإيمان المتمثلة في طاعـتهم للرسول ـ ﷺ ـ الذي هداهم إلى سبل الحق والرشاد وأنقذهم من ظلمات الجـهل التي يتخبط فيها المشركون، فيقول:[1]

وَعَدْنَا أَبا سُفْيَـــانَ بَدْراً فَلَمْ نَجِدْ لِمِـيـعَاده صِدْقاً وَمَـا كَـانَ وَافِـيَا

فَأُقْسِمُ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقِيــــــتَنَا لأَبُتَ ذَميــمـــاً وَافْتَقَدْتَ المَوالِيَا

تَرَكْنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَــــــةَ وابْنِه وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرَكْنَاهُ ثَاوِيَا

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللّه أفٍّ لِدينِكُمْ وَأَمْرِكُمُ السَّــيِّءِ الَّذي كَانَ غَاوِيَا

فَإِنِّي وَإنْ عَنَّفْـــــتُمُوني لَقَائِلٌ فِدًى لِرَسُولِ اللّه أَهْلِي وَمَالِيَا

أَطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِيـــنَـا بِــغَيْرِهِ شِهَابًا لَنَـا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا

(١) ديوانه: ص١٠٩.

وإذا كـان صـاحب الأغـاني قـد ذكر أن ابـن رواحة كـان يعـيـر قـريش بالكفر، وكان قوله أشد القول عليهم بعـد إسلامهم، فهذا يؤكد لنا إعراضهم عن رواية شعره بعد إسلامهم، وإعراض الرواة كذلك من بعدهم.

وأغلب الظن أن دافع ابن رواحة إلى تعـييرهم بالكفر مـا رآه من الرسول - ﷺ - حينما حرضه على المشركين، فقال:

فَخَبِّرُونـي أَثْمَانَ الْعَبَـــاءِ مَتَى ... كُنْتُمْ بَطَارِيـقَ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مُضَرُ

فعـرف الكراهية في وجه رسول الله - ﷺ - اذ جـعل قومه أثمان العـباء فغير أسلوبه في الهجاء حتى يرضى عنه الرسول - ﷺ - فقال:[1]

نُجالدُ النَّاسَ عَنْ عِرْضٍ فَنَأسِرَهُمْ ... فِيـنَا الـنَّبِيُّ وَفِيـنَا تَنْزِلُ الـسُّورُ

وَقَدْ عَلِمْتَمْ بِأَنَّا لَيْسَ غَالِبَنَا ... حَيٌّ مِنَ النَّاسِ، إِنْ عَزُّوا وَإِنْ كثُروا

يَاهَاشِمَ الْخَيْرِ إِنَّ اللّـــهَ فَضَّلَكُمْ ... عَلَى الْبَرِيَّةِ فَضْلاً مَالَهُ غِيَرُ

إِنِّي تـــفَرَّسْتُ فِيْكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ ... فَرَاسَةً خَالَفَتْهُم فِى الَّذِي نَظَرُوا

وَلَوْ سَأَلْتَ أَو اسْتَنْصَرْتَ بَعْضَهُمُ ... فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا آوَوْا وَمَا نَصَرُوا

٥ - هجاء المنافقين والمرتدين:

وإلى جانب هجاء المسلمين للمشركين دفاعًا عن دينهم ورسولهم - ﷺ -، نجد بعض الشعـراء المخضرمين يوجهون هجـاءهم إلى المنافقين الذين ظهروا في المجتمع الإسلامي بعد أن قوى الإسلام في المدينة.

والنفاق له دلالتـه عند المسلمين، ويقصد به الدخول فـي الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهوالذي يستر كفره ويظهر إيمانه[2].

---

(١) ديوانه، ص٩٣ وما بعدها، راجع أيضا: طبقات ابن سلام: جـ١صـ ٢٥٥ ومـا بعدها، والطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد كاتب الواقدي، دار التحرير القاهرة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م جـ٣ق٢ص٨١.

(٢) اللسان (نفق) جـ٦، ص ٤٥٠٩

ولم يكن أمر هؤلاء يخفى على الرسول - ﷺ - فكثير من مواقفهم كشفها القرآن الكريم، وأشار إليها الرسول - ﷺ - تلميحا وتصريحا، فلم يخف أمرهم على المسلمين ومن ثم لم يسلموا من ألسنة المخلصين من الشعراء، فنجد حسان بن ثابت يوجه سهامه إلى الضحاك بن خليفة الأشهلي الذي عرف بنفاقه، وحبه ليهود بنى قريظة، فقال[1]:

أَلا أَبْلِغ الضَّحَّاكَ أَنَّ عُرُوقَهُ	أَعْيَتْ عَلَى الإِسْلامِ أَنْ تَتَمَجَّدَا
أَتحِبُّ يُهْدَانَ الحِجَازِ ودِينَهُمْ	كَبِدَ الحِمَارِ ولاتُحِبُّ مُحَمَّدَا
وإِذَا نَشَا لَكَ نَاشِيءٌ ذو غِرَّةٍ	فَهُ الفُؤادِ أَمَرْتَهُ فَتَهَوَّدَا
لَو كُنْت مِنَّا لَم تُخَالِفْ دِينَنَا	وتَبِعْتَ دِينَ عَتِيدٍ حِينَ تَشَهَّدَا [2]
دِينًا لَعَمْرِكَ مَا يُوَافِقُ دِينَنَا	مَا اسْتَنَّ آلٌ بِالبَدِيِّ وخَوَّدَا

وكذلك وجه الشعراء المخضرمون هجاءهم إلى المرتدين. والردة عن الإسلام أى الرجوع عنه، وارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد إسلامه[3]. وقد بينا من قبل موقف هؤلاء من الإسلام بعد وفاة الرسول - ﷺ - وردع أبى بكر لهم، ومحاربته إياهم، ونجد الشعراء المخلصين يحملون على عاتقهم محاربة هؤلاء المرتدين كما حاربوهم من قبل وهم كفار فوجهوا إليهم هذا اللون من الهجاء الذي يتضمن المعاني الإسلامية الجديدة كإبطالهم فريضة الصلاة، وامتناعهم عن آداء الزكاة، كما نرى في قول عمرو بن قريط عندما هجا قومه بني عامر[4] :

---

(١) ديوانه، ص٣٠٢.

(٢) عتيد رجل من الأنصار تشهد بشهادة الحق عند موته، قبل أن يصير الرسول-ﷺ-إلى المدينة.

(٣) اللسان(ردد)، جـ٣، ص١٦٢١.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، تحقيق على محمد البجاوي طبعة دار نهضة مصر. (د/ت)جـ٥ص١٤٠.

ثَقُلَتْ صَلاةُ الْمُسْلِمينَ عَلَيْكُمُ بَنِـي عَامِرٍ وَالْحَقُّ جَدّ ثَقِيـلِ

وَاتْبَعْتُمُوهَا بالـزَّكَاةِ وقُلْتُـمُ أَلا لاتَفِـرُّوا مِنْهُمَا بِقَتِـيلِ

فَلا يَبْعُدَ اللهُ الْمُهَيْمِـنُ غَيْرَكُمْ سَبِيـلكُم فِـي كُلِّ شَرٍّ سَبِيـلِ

٦ ـ هجاء اليهود.

بعد أن وحد الرسول ـ ﷺ ـ بين قلوب أهل المدينة كان يأمل من اليهود أن يصدقوه بما أثبته لله من تنزيه وتوحيد، ويعينوه على محاربة الوثنية لتدعيم هذه العقيدة؛ لأن صلتهم بالكتب المقدسة وألفتهم لأحاديث المرسلين تساعدهم في إقناع العرب الأميين بأن الرسالات السماوية حق، وأن الإيمان بها واجب، وكان أمله هذا متمشيًا مع ماجاء يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى[1]: **﴿وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ باللَّه شَهِيداً بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عندَهُ علْمُ الْكتَاب﴾**.

وقام الرسول ـ ﷺ ـ بعدة أعمال برهن فيها على حسن نواياه تجاه هؤلاء اليهود، إلا أنهم أبوا إلا أن يدخلوا معه في نزاع، اتخذ في أول الأمر شكل الجدل والمناقشات الدينية، ثم تطور إلى محاولات لتعجيز الرسول ـ ﷺ ـ واستمروا في تعنتهم له، وجرت المسلمين إلى مجادلات أدت أحيانا إلى التراشق، حتى نهى الله المسلمين عن ذلك في قوله تعالى:[2]**﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ في الْكتَاب أَنْ إذَا سَمعْتُمْ آيَات اللَّه يُكْفَرُ بهَا وَيُسْتَهْزَأُ بهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا في حَديث غَيْره إنَّكُمْ إذاً مّثْلُهُمْ إنَّ اللَّهَ جَامعُ الْمُنَافقينَ وَالْكَافرينَ في جَهَنَّمَ جَميعاً﴾**.

وتمادى اليهود في تحرشهم بالرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين إلى أن نفذ صبرهم، وكانت غزوة الخندق الشهيرة، وقد لقى اليهود بعدها جزاء وفاقا لما أقدموا عليه من خيانة وغدر، وتحالف مع أهل الشرك، فأجليت قبائلهم

---

(١) سورة الرعد، آية ٤٣.

(٢) سورة النساء، آية ١٤٠.

الرئيسة، وهى بنو قينقاع، وبنو النضير عن يثرب وقضى على بني قريظة[1] .

ويوضح الحق تبارك وتعالى موقف اليـهود من الإسلام والمسلمين في قوله تعالى[2] : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ .

فيهـود المدينة لا يختلفون عن مشـركي مكة وبالرغم من أنهم أهل الكتاب سخط الله عليـهم لكفرهم بالرسـول - ﷺ - كذلك سخط عليـهم الرسول والمسلمـون، ووقف الشعـراء المخلصون منهم مـوقفـا صارما إذ حـملوا على عاتقـهم مناقشتهم فـيما أوتوا من علم الكتـاب، وناقشوهم أيضا في كـفرهم وموقـفهم العـدائي من الرسول - ﷺ - ثـم بينوا لهم سوء العـاقبـة نتيـجة لموقفهم هذا.

واحتـاج الشعراء في خـوضهم لهذه المعـركة إلى أسلحـة جديدة من نوع خاص تعـتمد أسـاسا على قوة الإيمان وصـدق العقيـدة، وأسلوب خاص في عرض الحـجج والأسانيد وتأييـدها بالدليل العقلي والمنـطق. فالشاعـر عندما يتعرض لليهود بالهجاء والمناقشـة لابد أن يضمِّن شعره ما يستطيع من المعاني الإسلامـية؛ لأنه يناقش ويجـادل أهل كتـاب يفقـهون هذه المعانـي ويتأثرون بها، ونستطيع أن نلمس ذلك في قول كعب بن مالك[3]:

---

(1) ديوان كعب بن مالك، ص٤٢ .

(2) سورة المائدة، الآيات: ٧٨: ٨٢ .

(3) ديوانه ص٢٠٣ وما بعدها.

لَقَدْ خزِيَتْ بِغَدْرَتها الحـــــبُورُ | كَذَاكَ الـــــدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ
وَذَلكَ أَنَّهــــمْ كفَروا بـــــرَبٍّ | عَزِيـزٍ أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيــــــــــرُ
وقَد أُوتُوا مَعــاً فَهْمـــاً وَعلْمــاً | وَجَاءَهُمُ مِنَ الـــلَّه الـــنَّذِيـــرُ
نَذيـــرٌ صَـــــادقٌ أدَّى كتَـــابًا | وآيَات مُبيَّنَةً تُنِيـــــــــــرُ
فَقَالُوا مَا أتَيــــتَ بـــأَمْرِ صِدْقٍ | وأَنْـــــتَ بِمُنْكَرٍ منَّا جَدِيـــرُ
فَقَالَ بَلَى لَقَدْ أدَّيْــــتُ حَقّــــاً | يُصَدِّقُنِـي بِه الْفَهِمُ الخَبِيــــرُ
فَمَن يَتْبَعْهُ يُهْدَ لِكـــــلِّ رُشْد | وَمَنْ يَكْفُرْ بِه يُجْزَ الْكَفُورُ
فلَمَّا أُشْرِبُوا غَدْراً وكُفْراً | وَجَدَّ بِهِم عَنِ الْحَــقِّ الـــنُّفُورُ
أَرَى الـــلَّهُ الـــنَّبِــيَّ بِرأْيِ صِدْقٍ | وكَـــــانَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا يَجُورُ
فـــــأَيَّدَهُ وَسلَّـــطَهُ عَلَيْهِـــمْ | وكَـــان نَصِيـــرَهُ نعْمَ النَّصِيـــرُ
فَغُودِرَ مِنْهُمُ كَعْبٌ صَرِيـــــعًا | فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ الـنَّضِيـــــرُ

....

فَتِلْكَ بَنُو النَّضِيـــــرِ بِدَارِ سَــوْءٍ | أَبَارَهُمُ بِمـــا اجْتَرمُوا الْمُبِيـــرُ

ويضمِّن حسان بن ثابت هجاءه ليهــود بني قريظة هذه المعاني الجديدة، فهم ناصروا الكفار واتخذوهم أولياء، وقد أنزل اللـه عليه التوراة ولكنهم ضيعوها لكثرة اختلافهم وحقدهم، وكفروا بالقـرآن وما قاله الرسول -ﷺ- فيقول:(١)

تَعَاهَدَ مَعْشَرٌ وَلُّوا بِكُفْرٍ | ولَـيْس لَهُمْ بِبَلْدَتِهِمْ نَصِيـــــــرُ
هُم أوتـــــوا الــــكتَابَ فَضَيَّعُوهُ | فَهُمْ عُمْيٌ مِنَ الــــــتَّوْراةِ بُورُ
كَفَرْتُم بـــــــالْقُرآنِ وَقَدْ أَبَيْتُمْ | بِتَصْدِيقِ الَّذي قَالَ الـــنَّذِيـــرُ

(١) ديوانه ص ٢٥٣.

وقد انتهت هذه الحرب الهجائية بعد فتح مكة ودخول قريش في الإسلام ومن ثم أصبح الهجاء-كما بينا-إثما كبيرا تقام له الحدود، ويقف الخلفاء منه موقفا شديدا وقد أثرت هذه التعاليم في نفوس الصحابة الذين نشأوا في مدرسة رسول الله-ﷺ-فكانوا يؤمنون بأن الهجاء الذي ينال من أعراض المسلمين صنو للكفر، فترفعوا عن قوله.

ويحدثنا الجاحظ، بأن يزيد بن معاوية أمر كعب بن جعيل بهجاء الأنصار، فقال له: أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان، لا أهجو قوما نصروا الله ورسوله-ﷺ- وآووه[1]. فهكذا كان تأثير تعاليم الإسلام في نفوس أبنائه، فسلكت بهم طريق الفضيلة والمثل الكريمة، لتظهر بوضوح مكارم الأخلاق التي من أجلها بعث النبي - ﷺ.

* * *

ثالثا: الفخر.

مما لاشك فيه أن طبيعة الحياة القاسية التي عاشها العرب قبل الإسلام جعلت موضوع الفخر من الموضوعات التي استنفذت قصائدهم الشعرية. فالشاعر الجاهلي دائم الفخر بنفسه وبشجاعته وبقبيلته، فيتحدث دائما عما تعتز به قبيلته من الأنفه والحمية والاعتزاز بالنفس وتضييق الخناق على الأعداء، ويعدد أيامها مشيدا بحسبها ونسبها وكثرة عدادها وقوتها، ويذكر مفاخرها ومناقبها مشيدا برجاحة عقول أبنائها وبصبرهم في الملمات، وحمايتهم لجارهم وبيان كرمهم وسخائهم في أيام الجدب الشديدة، وإغاثتهم لمن يطلب نجدتهم. وقد يصل الأمر به إلى أن يبني فخره على ادعاء كاذب أو يبالغ فيه مبالغة غير مقبولة، كقول الشاعر[2] :

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ ... تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

(١)البيان والتبيين: جـ١، ص ٦٣، ص١٧٢

(٢)شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٤٠ قصيدة عمرو بن كلثوم.

وبعد ظهور الإسلام تطور الفخر تطورا ملحوظا، ففي ظل الأفكار الإسلامية كان محظورا علي الشعراء أن يفخروا بقبائلهم أو يشيدوا ببلائهم لأن هذا-كما سبق أن ذكرنا-يعد انحرافا عن حدود المثالية التى وضعها الإسلام للمسلمين حتى لاتتجدد الضغائن وتظهر النعرات والعصبيات الجاهلية التي عمل الإسلام علي اختفائها، وأحل محلها روح القومية والوحدة الإسلامية. ولكن الإسلام-كما رأينا-لايمنع المسلمين من الاعتزاز بأنفسهم فلا ضير أن يفتخر الشعراء بأقوامهم وبلائهم ما دام ذلك في سبيل العقيدة والذود عنها وتسخير كل امكاناتهم وبذل أرواحهم رخيصة في سبيل نشرها وتحقيق النصر لها. فمبدأ الانتماء الذي دعا إليه الدين الجديد هو الانتماء إلى الإسلام وأبنائه، ولذلك رأينا-من قبل-النبي- ﷺ-يوجه كعب بن مالك شاعر الأنصار إلى هذا المعنى حينما أنشده قصيدته العينية ونراه أيضا-ﷺ-يسأل النابغة الجعدي حينما أنشده قصيدته الرائية التي يفتخر فيها بقومه وشجاعته وبلغ قوله:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال النبي-ﷺ-«إلى أين المظهر يا أبا ليلى فقال: إلى الجنة بك يارسول الله. فقال له النبى -ﷺ-: أجل إن شاء الله»[1].

فقد سعى النبى -ﷺ- والخلفاء الراشدون إلى انتزاع هذا الشعور القبلى المتغلغل والمسيطر على نفوس الشعراء المخضرمين، وكبحوا جموح الانتماء للقبيلة أو التعصب للنسب، وجعلوا الانتماء للدين أو لطائفة المسلمين الذين يجمعهم هذا الدين.

وقد نجح الإسلام فى تحقيق هذه الغاية إلى حد بعيد، فأصبحت العقيدة الإيمانية هى التى تحرك الشعراء بطريق مباشر وغير مباشر، وهى صورة لم تكن مألوفة للشعراء قبل الإسلام.

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٢٨٩ والعمدة جـ١ ص٥٣ والخزانة جـ٣ ص١٦٩ ومابعدها، وراجع أيضا ترجمة النابغة فى الاستيعاب وأسد الغابة.

ولذلك عندما نرى الشعراء المخضرمين الذين أسلموا يفتخرون يجعلون هذه المبادئ الإسلامية شغلهم الشاغل؛ لأنهم استجابوا لروح الإسلام وتعاليمه، فألقوا بعصبيتهم خلف تدينهم بالدين، ومن ثم كان المضمون الإسلامى فى شعر الفخر هو الهدف والغاية، وخاصة بعد أن وجهه الإسلام التوجيه الصحيح، وحذر على الشعراء هذا اللون من الفخر الذى يقوم على الادعاءات الكاذبة - كما بينا فى الفصل الأول.

السمات الإسلامية فى موضوعات الفخر:

١ - الفخر بأقوام المسلمين الذين نصروا الإسلام ورسوله.

ومن الظواهر الإسلامية التى نلاحظها فى شعر الفخر عند المخضرمين: فخر شعراء الأنصار بأنهم هم الذين نصروا الرسول -ﷺ- وشدوا أزره وصدقوه فى الوقت الذى أنكر فيه أهل الأرض دعوته وكفروا به، ولكنهم استبشروا بقدومه -ﷺ-، فأنزلوه فى جوارهم، فسعدوا به، وكانوا فى أمن وسعة، وقسموا أموالهم مع هؤلاء المهاجرين الذين قدموا مع الرسول -ﷺ-.

وهذه المعانى الإسلامية الجديدة استمدها الشعراء من معين القرآن الكريم من مثل قوله تعالى[1]: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

وقوله تعالى[2]: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

وقوله تعالى[1]: ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وقوله تعالى[2]: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

وقوله تعالى[3]: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ .

وقوله تعالى[4]: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

وهذه المعانى الدينية يصوغها حسان شعرا عندما يفتخر بقومه، فيقول[5]:

قَوْمى الَّذِيْنَ هُمُ آوَوا نَبِيَّهُمُ ... وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الأَرْضِ كُفَّارُ

إِلاَّ خَصَائِصُ أَقْوَامٍ هُمُ سَلَفٌ ... لِلصَّالِحِينَ مَعَ الأَنْصَارِ أَنْصَارُ

مُسْتَبْشِرِيْنَ بِقَسْمِ اللَّهِ قَوْلُهُمُ ... لَمَّا أَتَاهُم كَرِيْمُ الأَصْلِ مُخْتَارُ

أَهْلاً وَسَهْلاً ففى أَمْنٍ وفى سعَةٍ ... نِعْمَ النَّبِىُّ وَنِعْمَ الْقِسْمُ وَالجَارُ

فَأَنْزَلُوهُ بِدَارٍ لايُخَافُ بِهَا ... مَنْ كَانَ جَارُهُمُ دَاراً هىَ الدَّارُ

وَقَاسَمُوهُ بِهَا الأَمْوَالَ إِذ قَدِمُوا ... مُهَاجِرِينَ وَقِسْمُ الْجَاحِدِ النَّارُ

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١٧ .

(٢) سورة يونس، الآيات ٦٢: ٦٤ .

(٣) سورة الزمر ،الآيتان ١٧ :١٨ .

(٤) سورة الحشر، الآية٩ .

(٥) ديوانه ص ٣٨٨ ومابعدها.

ونرى هذه الظواهر الإسلامية تظهر بوضوح أيضا فى قصيدة أخرى لحسان ابن ثابت وإن كانت تختلط فيها صور الفضائل الجاهلية المتصلة بالسيادة والمجد وشرف النسب وسعة السلطان، فهو يتحدث عن هذه الفضائل التى كانت لقومه قبل الإسلام، ثم تغلب عليه النزعة الدينية حيث جعل هذه الفضائل مجال فخرهم بعد الإسلام، فقد قال فيهم الرسول -ﷺ-: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ للأَنْصَارِ ولأَبْنَاء الأَنْصَارِ وأَبْنَاء أبنَاء الأَنْصَار»[1] وقال أيضا من حديث له: «. . . وفِي كُلِّ دُورِ الأَنصارِ خَيْرٌ»[2] وقال أيضا: «لَو أنَّ الأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادياً أوْ شِعْباً لَسَلَكْتُ فِى وَادِى الأَنْصَارِ ولَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَار»[3]. فقد أكرمهم الله ورسوله -ﷺ- بنصرة هذا الدين فهم أهل لكل خير وبابهم مفتوح لكل طارق، ولم يفحشوا فى مجالهم، ولم يبخلوا على من سألهم، وإذا احتمل أحدهم دية وفَّى، دون تخاذل، وجارهم لايضام أبدا؛ لأنهم يغمرونه بالكرم والبذل، وهم أصحاب العقول الناضجة، فإذا نطق منهم أحد لم ينطق إلا بالحق، وإذا حكم لايحكم إلا بالعدل حتى فى حروبهم مع أعدائهم لم يمثلوا بقتلاهم لشدة خوف أعدائهم منهم، وفى ساعة السلم تجدهم مسالمين لم يعتدوا. وفيهم أمين المسلمين سعد بن معاذ الأوسى الذى حكَّمه الرسول -ﷺ- فى بنى قريظة والنضير، فحكم أن يقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم، فقال له النبى -ﷺ-: حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللَّه[4] مِنْ فوق سبعة أرقعة. ومنهم أيضا حنظلة بن أبى عامر الذى أصاب أهله ثم

(١) مسلم جـ١٦ ص٦٧.
(٢) المصدر نفسه جـ١٦ ص٦٩.
(٣) البخارى جـ٢ ص٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه جـ٢ ص٣١٣.

سمع صيحة الجهاد يوم أحد فخرج مسرعا يلبى نداء الجهاد فى سبيل الله، فاستشهد، فغسلته الملائكة من جنابته، يقول(1):

كُنَّا مُلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ... فَلَمَّا أَتَى الإِسْلاَمُ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ

وَأَكْرَمَنَا اللَّهُ الَّذِى لَيْسَ غَيْرَهُ ... إِلهٌ بِأَيَّامٍ مَضَتْ مَالَهَا شَكْلُ

بِنَصْرِ الإِلهِ وَالنَّبِىِّ وَدِينِهِ ... وَأَكْرَمَنَا بِاسْمٍ مَضَى مَا لَهُ عَدْلُ

أُولَئِكَ قَوْمِى خَيْرُ قَومٍ بِأَسْرِهِم ... فَمَا عُدَّ مِنْ خَيْرٍ فَقَوْمِى لَهُ أَهْلُ

يَرُبُّونَ بِالمَعْرُوفِ مَعْرُوفَ مَنْ مَضَى ... وَلَيْسَ عَلَى مَعْرُوفِهِمْ أَبَداً قُفْلُ

إِذَا اخْتُبِطُوا لَم يُفْحِشُوا فِى نَدِيِّهِمْ ... وَلَيْسَ عَلَى سُؤَّالِهِم عِنْدَهُم بُخْلُ

وَحَامِلُهُم وَافٍ بِكُلِّ حَمَالَةٍ ... تَحَمَّلَ لاغُرْمٌ عَلَيْهِ وَلاخَذْلُ

وَجَارُهُمْ فِيهِمْ بِعَلْيَاءَ بَيْتُهُ ... لَهُ مَا ثَوَى فِينَا الْكَرَامَةُ وَالْبَذْلُ

وَقَائِلُهُمْ بِالحَقِّ أَوَّلُ قَائِلٍ ... فَحُكْمُهُمُ عَدْلٌ وَقَوْلُهُمُ فَصْلُ

إِذَا حَارَبُوا أَوْ سَالَمُوا لَم يُشَبَّهُوا ... فَحَرْبُهُمُ خَوْفٌ وَسِلْمُهُمُ سَهْلُ

وَمِنَّا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتَهُ ... وَمَنْ غَسَّلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرُّسْلُ

ونراه أيضا فى قصيدته الميمية التى مطلعها:

أُولـئِكَ قَوْمِى فِإنْ تَسْأَلِى ... كِرَامٌ إِذَا الضَّيْفُ يَوْماً أَلَمْ

يشيد بهذه الفضائل التى عرف بها قومه قبل الإسلام، ثم تعتمل فى نفسه هذه المعانى الإسلامية ليجعل من حديثه السابق مجالا لفخره فى الإسلام، فهم وإن كانت لهم هذه الفضائل إلا أنهم كانوا يتخبطون فى ظلمات الغى والضلال، فلما جاءهم الرسول -ﷺ- من أرض الحرم بهذا النور الذى بعث به من عند الإله يدعوهم إلى هذا الدين الجديد تجمعوا حوله وأطاعوه

(1) ديوانه ص141 ومابعدها.

وصدقوا بما جاء، ورحبوا به ليقيم فيهم وآزروه ليجاهر بما أخفاه، وهم على استعداد أن يبذلوا أنفسهم وأولادهم وأموالهم فى سبيل هذه الغاية، ويدافعوا عن الرسول -ﷺ- ويمنعوه من بغى كفار قريش فإن جاءوا بجموعهم يظنون أنهم سينالون منه -ﷺ- قاموا إليهم بسيوفهم يدفعون عنه كل شر، يقول[1]:

فَلَمَّا أَتَانَا رَسُولُ الإلـه	بِالنُّورِ وَالدِّينِ بَعْدَ الظُّلَمْ
رَكَنَّا إِلَيْهِ وَلَمْ نَعْصِه	غَدَاةَ أَتَانَا مِن أَرْضِ الْحَرَمْ
وَقُلْنَا صَدَقْتَ بِمَا جِئْتَنَا	هَلُمَّ إِلَيْنَا وَفِينَا أَقِمْ
فَنَادِ بِمَا كُنْتَ أَخْفَيْتَهُ	نِدَاءً جِهَاراً وَلاتَكْتَتِمْ
فَنَشْهَدُ أَنَّكَ عَبْدُ الْمَلِيك	أُرْسِلْتَ نُوراً بِدِينٍ قِيَمْ
فِإنَّا وأَوْلادَنَا جُنَّةٌ	نَقِيكَ وَفِى مَالِنَا فَاحْتَكِمْ
فَنَحنُ وَلاتُكَ إِذْ كَذَّبُو	كَ لَمْ نُنْبِ عَنْكَ وَلَمْ نَحْتَشِمْ
فَطَارَ الْبُغَاةُ بِأَشْيَاعِهِمْ	إِلَيْهِ يَظُنُّونَ أَنْ يُخْتَرَمْ
فَقُمْنَا بِأَسْيَافِنَا دُونَهُ	نُجَالِدُ عَنْهُ بُغَاةَ الأُمَمْ

وإن كنا نرى حسانا يفتخر كثيرا فى شعره بفضائل قومه فإننا نلاحظ أن المعانى الإسلامية لم تغب عن نفسه، فهو يجعلها دائما الهدف والغاية من هذا الفخر؛ لأنه يعقب على فخره بقوله: (فلما أتى الإسلام) أو بقوله: (لما أتاهم كريم الأصل) أو بقوله: (فلما أتانا الرسول) ثم إنه بعد هذا التعقيب يعدد مفاخر قومه التى أكرمهم الله بها فى الإسلام. ولذلك نرى -الرسول -ﷺ- يستعين به فى الرد على شعراء الوفود الذين أتوا لمفاخرته -ﷺ- فى السنة التاسعة للهجرة إذ علت كلمة الله وانقشعت ظلمات الجهل بنوره وهداه. ومن هذه الوفود وفد بنى تميم الذى جاء متفاخرا بالخطابة والشعر،

(١) ديوانه ص ١٣٩ ومابعدها.

فقام شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد قصيدة يفخر فيها بقومه يستمد معانيها من معين القيم الجاهلية التى ترتكز على أساس العصبية القبلية، فقد عمد فى فخره إلى إعلاء شأن قبيلته على جميع القبائل، فجعل لهم السؤدود والرياسة والغلبة والسلطان على كل من يعاديهم أو يحاول أن يجاريهم فى جاه أو مجد، وأبرز ماعندهم من الصفات التى لاينافسهم فيها أحد، ولايستطيع أحد أن يلحق بهم، فهم فوق الناس جميعا لما لهم من فضائل يعترف بها الجميع وكلمتهم قاطعة كحد السيف لاترد.

فيجيبه حسان بقصيدة على وزن شعره ورويه، ولكنه يبنى فخره فيها على أساس إسلامى مقابل الأساس القبلى عند الزبرقان، فجعل المسلمين من المهاجرين والأنصار وحدة إسلامية واحدة، تقابل وحدة القبيلة عند الزبرقان التى تستمد فضائلها من معين الجاهلية، أما وحدة المسلمين عند حسان فتستمد فضائلها من معين الإسلام. فهم سادة المهاجرين والأنصار وبينهم الرسول-ﷺ- الذين بينوا للناس كافة منهج الله وحكمه وأمره ونهيه وطريقته التى ينبغى للناس أن يتبعوها؛ لأنها خليقة بذلك ففيها صلاح وفلاح كل من يخشى الله، ويسعى جاهدا على كسب رضوانه والتقرب منه عن طريق اتباعه هذا الدين الجديد والدعوة التى دعا إليها الرسول -ﷺ- وأصحابه من المهاجرين والأنصار. وهذا المعنى الدينى الجديد ورد فى مواضع كثيرة من آى الذكر الحكيم، من مثل قوله تعالى[1] : ﴿ **مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ .

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ٣٨، ٣٩.

وقوله تعالى[1]: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

وهم أيضا قوم مخلصون فى تعاملهم مع الآخرين فإذا ماحاربوا أعدوا لعدوهم كل ما استطاعوا من قوة ليلحقوا به أكبر خسارة ممكنة، وأعداؤهم هنا هم أعداء الإسلام الذين قال الحق تبارك وتعالى فى شأنهم[2]:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

أما إذا عاملوا إخوانهم فى الدين وأتباعهم الذين اتبعوهم فكانوا رحماء نافعين لهم؛ لأنهم يلتزمون بأمر الله فى قوله تعالى[3]: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . وهذه الصفات ليست من الأمور المحدثة بل هى غرائز تليدة جبلوا عليها وصارت دستورا لحياتهم، وهم كذلك سباقون إلى الدخول فى الإسلام، فقد شرفوا بالانتماء له، وإن كان هناك من يريد أن ينافسهم فى هذا السبق فسيأتى تاليا أو تابعا لسبقهم، فهم أرباب المكانة الأولى ؛لأنهم آمنوا وأخلصوا لله ولرسوله -ﷺ- فرفعهم الله إلى أعلى الدرجات بإيمانهم، يقول[4]:

إِنَّ الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهِمْ	قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ	تَقْوَى الإِلَهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِى شَرَعُوا
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ	أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِى أَشْيَاعِهِمِ نَفَعُوا

(١) سورة الفتح ،آية ٢٦.

(٢) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٣) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٤) ديوانه ص٢٣٨ ومابعدها.

سَجِيَّةٌ تلـــــكَ منهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخَلائقَ فَاعْلَمْ شرُّهَا البِدَعُ
إنْ كَانَ فِى الـــنَّاسِ سبَّاقُونَ قَبْلَهُمُ ... فكُلُّ سَبْقٍ لأدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لايَرْقَعُ الـــــنَّاسُ مَا أَوهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عِنـدَ الـــدِّفَاعِ ولايُوهُونَ مَا رَقَعُوا
إنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْمـاً فَازَ سَبْقُهُمُ ... ووَازَنُوا أهْلَ مَجْدٍ بِالنَّدَى مَتَـــعُوا

ثم نراه بعد هذا الفخر الشامل -مستجمعا هـذه المعانى والقيم-، يفصِّل هذه الفضائل التى تتفق مع تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة ليحبب الإسلام إلى نفوس هؤلاء القوم الذين جاءوا ليعلنوا إسلامهم. فهؤلاء المسلمون يحسنون معاملة الجار كما أمرهم الله سبحانه وتعالى بذلك فى قوله(١) :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ .

فهم لايبخلون على جارهم بفضلهم، وإذا وفقوا فى تحقيق أمانيهم لايدنسوها بعيب يشينها. ثم يصف جماعة المسلمين بالحلم ورجاحة العقل، فقد تخلصوا- بفضل الإسلام- من حمية الجاهلية، وأصبحت سماحته هى الطاغية على أخلاقهم، فإذا جهل عليهم أحد فلن يستجيبوا له؛ لأن صدورهم تتسع لذلك بعدما توشحت أخلاقهم بالحلم والعفو، كما قال الله -عز وجل-(٢) : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فالله سبحانه وتعالى لايحب الجهر بالسوء وفضل العفو لما فيه من خير لجماعة المسلمين، فقال تعالى(٣) : ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ . وهؤلاء المسلمون المخلصون فيهم إباء وعفة، فهم

---

(١) سورة النساء، آية ٣٦.
(٢) سورة الفرقان، آية ٦٣ .
(٣) سورة النساء ،آية ١٤٩ .

يأبون العيوب ويترفعون عن الرذائل التى تزرى بهم، لقوله تعالى[1] : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .

فلم يكن الطمع والجشع من شيمهم؛ ولهذا أثنى عليهم الحق تبارك وتعالى فى كتابه الحكيم مسجلا لهم هذه المفخرة، فى قوله[2] : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ .

ثم يستمر الشاعر فى تفصيل هذه الفضائل فكم من صديق للمسلمين منعوه ومنحوه القوة والعزة والكرامة، وكم من عدو شاق على نفسه في عداوتهم فلم ينل سوى الضعف وألوان الذل والهوان؛ لأنهم أبطال شجعان لهم قيم يتمسكون بها فإذا ثاروا -بالرغم من حلمهم- أطاحوا بكل القوى أمامهم، فإذا أبوا أمرا فلا مجال لمحاولته، فلا يستطيع أحد أن ينال منهم شيئا إلا ماعفوا عنه وسمحوا به، فينبغى أن يتجنب عداوتهم؛ لأنهم إذا حاربوا جرعوا عدوهم كئوس الموت المليئة بالسم الممزوج بالصبر والمر، ثم إنهم لايفخرون إذا أصابوا عدوهم وانتصروا فى المعركة، ولايجزعون إذا نال منهم العدو؛ لأنهم مؤمنون بما قدر الله لهم فى جميع الأحوال، وحينما تراهم فى ساحة القتال عند احتدام المعركة وشبح الموت يحلق فوق الرؤوس ترى أسودا تزأر كأسود بيشة التى اعوجت مفاصلها بسبب قوة عضلاتها، فيقول[3] :

وَلايَضِنُّونَ عَنْ جَارٍ بِفَضْلِهِمُ ... وَلايُدَنِّسُهُم فِى مَطْمَعٍ طَبَعُ
لايَجْهَلُونَ وإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ ... فِى فَضْلِ أَحْلامِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرتْ فِى الْوَحىِ عِفَّتُهُمْ ... لايُطْبَعُونَ ولايُرْدِيهُمُ الطَّمَعُ

---

(١) سورة الأعراف ،آية ١٩٩ .

(٢) سورة البقرة، آية ٢٧٣ .

(٣) ديوانه ص٢٣٨ ومابعدها.

كَمْ مِنْ مُوَالٍ لَهُم نَالُوا كَرَامَتَهُ ... وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِ جَاهِد جَدَعُوا
خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَوا عَفْواً إِذَا غَضِبُوا ... وَلايَكُنْ هَمُّكَ الأَمْرَ الَّذِى مَنَعُوا
فَإِنَّ فِى حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَداوَتَهُمْ ... سُمّاً يُشَنُّ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلَعُ
لافَخْرَ إِنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمُ ... وَإِنْ أُصِيبُوا فَلا خُوْرٌ ولاجُزُعُ
كَأَنَّهُمْ فِى الْوَغَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبِيْشَةَ فِى أَرْسَاغِهَا فَدَعُ

وإلى جانب فخر حسان بن ثابت نجد كعب بن مالك يفتخر بقومه وبفضائلهم وشجاعتهم فى نصرة الرسول -ﷺ- وتتمثل الظواهر الإسلامية فى فخره حيث يوضح لنا هذه العداوة التى وقعت بين قومه والقبائل الأخرى من معد وكان سببها الرئيسى هذا الدين الجديد لأنهم عبدوا الله ولم يشركوا به أحدا يبغون الفوز بجناته؛ لأن الرسول -ﷺ- لما أتاهم ضمن لهم الجنة بالجهاد، قال تعالى[1]: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ من أجل ذلك ثارت ثائرة المشركين عليهم فالتقوا معهم وانقضوا عليهم لايعبأون بمثل هذا اللقاء فوطأوهم بالسيوف القاطعة لايفرقون بين من هو من صميمهم أو من هو حليف لهم، يقول[2]:

ألا هَلْ أَتَى غَسَّانَ فِى نَأْىْ دَارِهَا ... وَأَخْبَرُ شَىْءٍ بِالأُمُورِ عَلِيْمُهَا
بِأَنْ قَدْ رَمَتْنَا عَنْ قَسِىٍّ عَدَاوَةٍ ... مَعَدٌّ مَعًا جُهَّالُهَا وَحَلِيْمُهَا
لأَنَّا عَبَدْنَا اللَّهَ لَمْ نَرجِ غَيْرَهُ ... رَجَاءَ الْجِنَانِ إِذْ أَتَانَا زَعِيْمُهَا
نَبِىٌّ لَهُ فِى قَوْمِهِ إِرْثُ عِزَّةٍ ... وَأَعْرَاقُ صِدْقٍ هَذَّبَتْهَا أُرُومُهَا
فَسَارُوا وسِرْنَا فَالْتَقَيْنَا كَأَنَّنَا ... أُسُودُ لِقَاءٍ لايُرجَّى كَلِيْمُهَا
ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى هَوَى فِى مَكَرِّنَا ... لِمَنْخِرِ سَوْءٍ مِنْ لُؤَىٍّ عَظِيْمُهَا
فَوَلُّوا وَدُسْنَاهُم بِبِيضٍ صَوَارِمٍ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا حِلْفُهَا وَصَمِيمُهَا

(١) سورة المائدة، آية ٨٢.

(٢) ديوانه ص ٢٦٦ ومابعدها.

وقوم كعب- كذلك- هم أنصار الإسلام وحملة دعوته الأوائل الذين أكرمهم الله بالرسول -ﷺ- واختارهم من بين البرية ليقودوا نظامها بالحق، ويمسكوا زمامها بمنهج القرآن وأحكامه، فيقول[1]:

اللهُ أكرمَنَا بنصرِ نبيِّنا ... وبِنَا أقامَ دعائِمَ الإسْلامِ
وبِنَا أعزَّ نبيَّهُ وولِيَّهُ ... وأعزَّنا بالنَّصرِ والإقْدَامِ
فِي كُلِّ مُعتَرَكٍ تُطيرُ نُفُوسَنَا ... تلْكَ الجَمَاجِمَ عن فِرَاخِ الهَامِ
نحنُ الخِيَارُ مِنَ البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... ونِظَامُهَا وزِمَامُ كُلِّ زِمَامِ

. . .

يَنْتَابُنَا جبْرِيلُ فِي أبَائِنَا ... بفَرائِضِ الإسْلامِ والأحْكَامِ

والفخر بنصرة الإسلام أصبح دعوة ملحة فى نفوس الشعراء المخضرمين وخاصة شعراء الأنصار، فهم يفخرون بأنهم رحبوا برسول الله -ﷺ- وآووا المهاجرين من المسلمين وآثروهم على أنفسهم بأن قسموا معهم أموالهم وديارهم، ودفعوا عنهم أذى المشركين.

فنرى النعمان بن العجلان الأنصارى يتمثل كل هذه المعانى فى فخره بعد أن يعدد مآثر المسلمين فى فتح مكة وحنين وبدر وأحد، وانتصارهم على يهود بنى قريظة والنضير وأهل خيبر، ويشير كذلك إلى معركة مؤته، فيقول[2]:

فَقُلْ لِقُرَيْشٍ: نَحْنُ أَصحابُ مَكَّةَ ... وَيَوْمِ حُنَيْنٍ، وَالْفَوارِسُ فِى بَدْرِ
وَأَصْحَابُ أُحدٍ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ ... وَنَحْنُ رَجَعْنَا مِنْ قُرَيْظَةَ بِالذِّكْرِ
وَيَوْمٍ بِأَرضِ الشَّامِ إِذْ قِيلَ: جَعْفَرٌ ... وَزَيْدٌ، وَعَبْدُاللَّه، فِى عَلَقٍ يَجْرِى

(١) ديوانه ص٢٦٨ ومابعدها، وتنسب القصيدة أيضا لحسان بن ثابت مع اختلاف يسير فى بعض الفاظها راجع ديوانه ص١٤٣.

(٢) الاستيعاب جـ٤ ص١٥٠١ ومابعدها، وأسد الغابة جـ٥ ص٣٣٤.

نَصَرْنَا وآوَيْنَا الـــــنَّبِىَّ ولَمْ نَخَفْ ... صُرُوفَ اللَّيَالِى وَالْعَظِيمَ مِنَ الأَمْرِ
وَقُلْنَا لِقَوْمٍ هَاجَرُوا: مَرْحَبــاً بِكُمْ ... وأَهْلاً وَسَهْلاً، قَدْ أَمِنْتُمْ مِنَ الْفَقْرِ
نُقَاسِمُكُـــــمْ أَمْوالَنَا وَدِيَارَنَا ... كَقِسْمَةِ أَيْسَــارِ الجَزُورِ عَلَى الشَّطْرِ

ومن الغريب أننا نجد الشاعر فى هذه الأبيات يفتخر بغزوة أحد، وكذلك غزوة مؤتة، ولم يكن النصر فيهما حليفا للمسلمين، إلا أنه يقرر- كما سبق أن ذكرنا- حقائق صادقة، فهو لايبنى فخره على ادعاء كاذب، ثم إن هزيمة المسلمين فى أحد ومؤتة تعد مثارا للفخر أيضا؛ لأنهم يجاهدون فى سبيل الله لينالوا إحدى الحسنيين إما الظفر والظهور على أعدائهم المشركين، وإما الشهادة فى سبيل الله، والشهداء أرفع درجات عند الله، فيحق للمسلمين إذاً أن يفتخروا بذلك.

وكذلك نجد نافع بن الأسود التميمى يفخر بمناقب قومه فى الجاهلية ثم يشيد بعد ذلك ببلائهم فى الإسلام، فيصور ماقاموا به من فداء، ويزهو بما أبدوا من ضروب البسالة والتضحية، ثم يفتخر بطاعتهم لربهم، ومحاربتهم لأهل الشرك، فيقول[1]:

وَقَالَ العُصَاةُ مِنْ مَعَدٍّ وغَيْــرِهَا ... تَمِيـــمُكَ أَكْفَاءُ الْمُلُوكِ الأَعَاظِمِ
وَهُمْ أَهْلُ عِزٍّ ثَابِتٍ وَأُرُومَةٍ ... وَهُمْ مِنْ مَعَدٍّ فِي الـذُّرا والْغَلاصِمِ
وَهُمْ يَضْمَنُونَ الْمَالَ لِلْجَارِ مَا ثَوَى ... وَهُمْ يُطْعِمُونَ الـــدَّهْرَ ضَرْبَةَ لازِمِ
. . .
وَحِـــينَ أَتَى الإِسْلامُ كَانُوا أئمَّةً ... وَنَادُوا مَعَدًّا كُلَّهـــا بِالْجَرَائِمِ
إلــــى هِجْرَةٍ كَانَتْ سَنَاءً وَرِفْعَةً ... لِبَاقِيـــهِمْ فِيـــهَا وَخَيْــرُ مُرَاغِمِ
. . . . . .

(١) الإصابة جـ٦ ص٤٨٩ ومابعدها.

فَصَفَوْا لأَهْلِ الـشِّرْكِ ثُمَّ تَكَبْكَبُوا   وَطَارُوا عَلَيـهِم بِالسِّيــوفِ الصَّوَارِمِ
لَدَى غُدْوَةٍ حَتَّى تَوَلَّوا تَسُوقُهُمْ   سُيُوفُ تَمِيمٍ كَاللُّيوثِ الضَّرَاغِمِ

٢- الفخر بالولاء للرسول -ﷺ- والتفانى فى نصرته.

ومن السمات الإسلامية التى نلاحظها فى مضمون شعر الفخر عند المخضرمين الإشادة بولائهم للرسول -ﷺ- والانتماء لدين الإسلام والتفانى فى نصرته، فنرى حسان بن ثابت فى قصيدته العينية يفتخر بذلك، مستلهما معانيه من آى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى[1]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ وقوله أيضا[2]: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

فهم يستظلون تحت لوائه -ﷺ- حتى خضع لهم النصارى وانقاد لهم اليهود، فقد أمدهم الله بهذه القوة المعنوية والروحية بأن أكرمهم برسوله -ﷺ- ليكون قائما بينهم يناصرهم ويؤازرهم ويحدد لهم الهدف والغاية بينما الآخرون تفرقت أهواؤهم واتجاهاتهم، فيقول[3]:

أَعْطُوا نَبِيَّ الـهُدَى والـبِرِّ طَاعَتَهُمْ   فَمَـا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
إِن قَالَ سِيـرُوا أَجَدُّوا السَّيْرَ جُهْدَهُمُ   أَوْ قَالَ عُوجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا
مَا زَالَ سَيْرُهُم حـتَّى اسْتَـفَادَ لَهُمْ   أَهْلُ الصَّلِيْبِ ومَنْ كَـانت لَهُ البِيَعُ

. . .

أَكْرِمْ بِقَومٍ رَسُولُ الـلَّهِ قَائِدُهُمْ   إِذَا تَفَرَّقَت الأَهْوَاءُ والـشِّيَـعُ

---

(١) سورة الأنفال، آية ٢٠.
(٢) سورة النور، الآيتان ٥١، ٥٢.
(٣) ديوانه ص٢٣٩.

ونرى كعب بن مالك فى قصيدته العينية التى يرد بها على هبيرة بن أبى وهب المخزومى بعد غزوة أحد، والتى أمره الرسول -ﷺ- أن يدافع فيها عن دينه لا عن نسبه- فغير قوله: (مجالدنا عن جذمنا كل فخمة) وجعله (مجالدنا عن ديننا كل فخمة)- يبين لنا هذه الظواهر الإسلامية فى لوحة فنية فهو يفتخر بطاعتهم للرسول -ﷺ- الذى تنزل عليه الروح القدس من عند الله -عز وجل- بأمر السماء، فيتبعون أوامره، ولايعدلون عنها، وحالهم مع الرسول -ﷺ-أنهم يتشاورون معه فيما يريدون، فإذا ما أحكم الأمر، فغاية ما يصنعونه أن يذعنوا لأوامره بالسمع والطاعة كما قال الله -عز وجل-[1]: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾. وقوله أيضا[2]: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وقد أمرهم بالجهاد فى سبيل الله حينما ظهر لهم خصومهم فى قوله تعالى[3]: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وقد أمرهم أن يتوكلوا على الله الذى بيده الأمر كله فى قوله تعالى[4]: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحثهم على أن يشتروا الحياة الآخرة الخالدة بهذه الحياة الدنيا الفانية فى قوله تعالى[5]: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ

(١) سورة النور، الآيتان ٥١, ٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

(٥) سورة النساء، الآية٧٤.

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فما كان منهم إلا أن ساروا ملبين نداء الجهاد، منقضين على أعدائهم لايخشون بأسهم، فيقول[1]:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ نَتبَعُ أَمْرَهُ	إذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لا نَتطَلَّعُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ	يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيُرْفَعُ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا	إذَا مَا اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ وَنَسْمَعُ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا بَدُوا لَنَا	ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِى الْحَيَاةَ تَقَرُّبًا	إلَى اللَّهِ إنَّ الأَمْرَ لِلَّهِ أَجْمَعُ
فَسِرْنَا إلَيْهِمْ جَهْرَةً فِى رِحَالِهِمْ	ضُحَيًّا عَلَيْنَا الْبِيضُ لانَتَخَشَّعُ

وبعد أن يصف حال المسلمين مع المشركين فى هذه الحرب التى دارت رحاها، أكد أنهم لم يقصروا بل بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرة هذا الدين، وأن عدد المشركين كان عشرة أضعاف عددهم، إلا أنهم لم يخشعوا، بل كانوا مؤمنين برسالتهم وأن الله مؤازرهم بنصره. ثم يقرر بهذه الروح الإيمانية أن ماقدره الله لابد أن يحدث فإن كان النصر لم يحالفهم فجزاؤهم عند الله لايضيع، قال تعالى[2]: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فيقول [3]:

فَلَمَّا تَلاقَيْنَا وَدَارتْ بِنَا الرَّحَا	وَلَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمْ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ	كَأَنَّهُمُ بِالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ

---

(١) ديوانه صـ ٢٢٤ ما بعدها

(٢) سورة النساء ،الآية ٧٤.

(٣) المصدر نفسه ص٢٢٦ ومابعدها.

لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى اسْتَفَقْنَا عَشِيَّةً   كَأَنَّ ذَكَانَا حَرُّ نَارٍ تَلَفَّــــــعُ
وَرَاحُوا سِرَاعـــاً مُوجِفِينَ كَأَنَّهُم   جِهَـامٌ هَرَاقَتْ مَاءَهُ الـرِّيحُ مــقْلِعُ
وَرُحْنَا وَأُخْرَانَا بِطَـــــاءٌ كَأَنَّنَا   أَسُودٌ عَلَى لَحْمٍ بِبِـــيْشَةَ ظُلَّعُ
فَنِلـــنَا وَنَالَ الـــقَومُ مِنَّا وَرُبَّمَا   فَعَلْنَا وَلَكِنْ مَا لَـــدى اللهِ أَوْسَعُ

ونلاحظ أن كعبا لم يبن فخره على ادعاء كاذب، بل يقـرر الحقائق بكل وضوح وصراحة، فعندما نرى شعراء المشركين يفخرون بانتصارهم يوم أحد، يرد عليهم كعـب ولم ينكر ذلك، بل يذكرهم صراحة بيـوم بدر الذى انتصر فيه المسلمون، ويفخر بتأييد الله لهم حتى تحقق لهم النصر فى ذلك اليوم.

ونرى عبـد الله بن أنيس القضاعى يفـخر فى شعـره بشجاعـته وبلائه فى الإسلام، ونصرته للرسـول - ﷺ- حين بعثه لقتل خالد بن سفـيان الهذلى الذى جمع الناس ليغزو الرسول -ﷺ- فذهب عبد الله إليه بمفرده فقتله فى موطنه، ويصور لنا فى شـعره شجاعته، وكيف تمكن منه وكـيف أرداه قتيلا، وقـد شقت النوائح جـيوبـهن عليه ومع ذلك لم تـغب عنه تعاليم الإسـلام فنستطيع أن نلمس السمـات الإسلامية، والمعانى الدينية فى فـخره حين جعل طعنته لهذا الكافر طعنة رجل شريف، نزع عن الشرك إلى دين الإسلام، ثم إنه حريص على الدفاع عن هذا الدين الذى جاء به الرسول -ﷺ- فإذا همّ الرسول- ﷺ- للـنيل من أحد الكفـار كان ابن أنيس سـباقا إليـه، ينال منه بلسانه؛ لأن سـلاح اللسان أسبق من السيـف، ثم ينال منه بسيفه دفـاعا عن الرسول- ﷺ، والشاعر فى فخره يسـتلهم معانى آي الذكر الحكيم مثل قوله تعالى[1]: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.
وقوله تعالى [2]: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ويستـمدها أيضـا من تعاليم الرسول -ﷺ- فـقد مـر بنا قوله

(١) سورة الحج، الآيتان ٣٠، ٣١
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم، وهذه المعانى الجديدة صاغها ابن أنيس فى قوله [1]:

تَركْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كالْحُوَارِ وحَوْلَهُ ... نَوَائحُ تَفْرِى كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ
تناولْتُه والظُّعْنُ خلفى وَخَلْفَهُ ... بأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ مُهَنَّدِ
عَجُومٍ لِهَامِ الدَّارعِينَ كَأَنَّه ... شِهابُ غَضًا مِنْ مُلْهَبٍ مُتَوَقِّدِ
أَقُولُ لَهُ والسَّيْفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ ... أَنَا ابنُ أُنيس فَارِساً غَيْرَ قُعْدَدِ
أنا ابْنُ الَّذى لَمْ يُنْزِلِ الدَّهْرُ قِدْرَهُ ... رَحِيبُ فِناءِ الدَّارِ غَيْرُ مُزَنَّدِ
وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ ... حَنِيفٍ عَلَى دِينِ النَّبِىِّ مُحَمَّدِ
وكُنْتُ إِذَا هَمَّ النَّبِىُّ بِكَافِرٍ ... سَبَقْتُ إِلَيْهِ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

وتضح هذه المعانى أيضا عند كعب بن مالك عندما يفخر بالذود عن الرسول -ﷺ- وبالدفاع عنه باللسان والسنان، فهو لا يبخل ببذل نفسه فى سبيل نصرته، لأنه آمن بما جاء به من عقائد وشرائع، وآمن أيضا بالغيب، يريد أن ينال الفوز العظيم الذى وعده الله رجاله المؤمنين فى قوله تعالى[2]: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾**، فيقول[3]:

يَذُودُ وَيَحْمِى عَنْ ذِمَارِ مُحَمَّدٍ ... وَيَدْفَعُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
وَيَنْصُرُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَرِيبُهُ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ مُحَمَّدِ
يُصَدِّقُ بالأَنْبَاءِ بِالغَيْبِ مُخْلِصاً ... يُرِيدُ بِذَاكَ الْفَوْزَ والعِزَّ فى غَدِ

(١) السيرة جـ ٤ ص ٢٩٥ وما بعدها.
(٢) سورة الملك، الآية ١٢.
(٣) ديوانه ص ١٩٦ وما بعدها.

ويفخر كعب بن مالك بحب الرسول - ﷺ- للأنصار، فيقول [(١)]:

فَكَفَى بِنـا فَضْلاً عَلــى مَنْ غَيْرِنَا   حُبُّ الـــنَّبِـــيِّ مُحَمَّدٍ إيَّانَا

وذلك لقـوله- ﷺ- للأنصـار: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِه إنَّكُم أَحَبُّ النَّاسِ إلىَّ مرتين» [(٢)]، وقال أيضـا ﷺ فى حق الأنصار: (الأَنْصَارُ لا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ وَلا يُبْغِضُهُمُ إلا مُنَافِقٌ فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُم أَبْغَضَهُ اللهُ) [(٣)].

ويفخر ابن رواحة أيضا بتضحيته بنفسه وماله وأهله فى سبيل تأييد الرسول -ﷺ- الذى جاء بالحق ليخرجهم من الظـلمات إلى النور فأطاعوه واهتدوا بهديه، فيقول [(٤)]:

فَإنِّى وَإنْ عَنَّفْتُمُونى لـــــــقَائِلٌ   فِدًى لِرَسُولِ الله أَهْلِى وَمَالِيَـــا

أَطَعْنَاهُ لَمْ نَعْدِلـه فِينَا بِغَيْـــــرِهِ   شِهَابـاً لَنَا فِى ظُلْمَةِ الــلَّيـلِ هَادِيَا

٣- الفخر بتقوي الله والإشادة بنعمه.

ومن السمـات الإسلاميـة التى نلاحظها فى شعـر الفخر عند المخـضرمين حديثهم الدائم عن نعمة الله عليهم بالإسلام وتحولهم من الظلمات إلي النور حيث عاشـوا فى كنف الرسول -ﷺ- يهتدون بهديه ويتلون كـتاب الله ليلاً ونهـارا فأجلى صـدورهم وطهـرها من براثن الرذائل، واجـتنبوا الفـواحش والآثام طامعين فى ثوابه ورضوانه، راهبين عـذابه وسخطه، كل هذه المعانى اعتملت فى نفوس الشعراء فضـمَّنوها فخرهم وزهوهم، وكان القرآن معينهم الذى لا ينضب ومثلهم المشرق الذى لا يخبـو، فنرى النابغة الجعدى يضيف إلى قصيدتـه الرائية التى أنشدها بين يدى الرسول- ﷺ- أبياتا كثـيرة تصور

(١) ديوانه ص ٢٨٩

(٢) البخارى جـ ٢ ص ٣١٠

(٣) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

(٤) ديوانه ص ١٠٩

حياته فى الإسلام وابتغاء مرضاة الله، بجهاد، فى سبيله والعمل على تقواه، والحذر من عقابه، فيقول مفتخرا بذلك [1]:

أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ إذْ جَاءَ بـالْهُدى ... وَيَتْلُوَ كتَاباً كـالْمجَرَّةِ نَـيِّرا

وَجَاهَدْتُ حَتَّى مَا أُحِسُّ وَمَنْ مَعِي ... سُهَيْلاً إِذَا مَا لاَحَ ثَمَّتَ غُوَّرَا

أُقِيمُ عَلـىَ الـتَّقْوىَ وَأَرْضَى بِفِعْلِهَا ... وَكُنْتُ مِنَ الـنَّارِ الْمُخَوَّفَةِ أَحْذَرَا

فهذه المعانى الدينية الجديدة استمدها الشاعر من آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى [2]: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾. وقوله تعالى [3]: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

والشاعر فى البيت الأخير يبرز لنا معنى التقوى: فهو موق نفسه من المعاصى فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة؛ لأنه رضى بفعلها، وفعل التقوى هو فعل الخير والعمل الصالح الذى يعده للآخرة، كما قال الحق تبارك وتعالى [4]: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وإلي جانب تزود الشاعر بالتقوى وفعلها نراه يخشى عقابه، فقد قال الحق تبارك وتعالى [5]: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى مخوفا لا أمان لأحد منه فينبغى أن يحذر منه ويخاف [6].

(١) الخزانة جـ ٣ ص ١٦٩، والبيت الأول والثالث فى ديوانه ص ٧٣ ، ٧٤ وبين المصدرين بعض اختلاف في رواية الأبيات.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٣

(٣) سورة النحل، الآية ٨٩

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٧

(٥) سورة الإسراء، الآية ٥٧.

(٦) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٠٠٨

والنابغة الجعدى فى شعره الإسلامى دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام وتحوله من الظلمات إلى النور حيث عاش إلى أن جاء الرسول -ﷺ- بالهدى يتلو عليهم آيات الوعد والوعيد، حتى غمره الله بهداه وأصبح ينتمى لجماعة المسلمين، فيقول [(١)]:

وُعُمِرْتُ حَتَّى جَاءَ أَحْمَدُ بِالْهُدَى ... وَقَوَارِعٍ تُتْلَى مِنَ الْفُرْقَانِ
وَلَبِستُ م الإِسْلامِ ثَوْباً وَاسِعاً ... مِنْ سَيِّبٍ لا حَرِمٍ ولا مَنَّانِ

ونري أبا الأسود الدؤلى يفخر بإسلامه وإيمانه، ويبرز أثرهما فى ردعه عن الجهل وارتكاب المعاصى، فيقول[(٢)]:

إِنِّى لَيُثْنِينِى عَنِ الْجَهْلِ والْخَنَا ... وَعَنْ شَتْمِ ذِى الْقُرْبَى خَلائِقُ أَرْبَعُ
حَيَاءٌ وَإِسْلامٌ وَبُقْيَا، وَإِنَّنِى ... كَرِيمٌ، وَمِثْلِى قَدْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

ونري سويد بن أبى كاهل فى قصيدته العينية يفصح عن قيم الإسلام وتعاليمه، تلك القيم التى تمكنت من نفسه بعد أن عاش فى الإسلام مدة طويلة، فيفخر فخرا جديدا لا عهد لنا به، وبالرغم مما ذكره الرواة عن هذه القصيدة من أن العرب كانت تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، وكانت تسمى فى الجاهلية اليتيمة، إلا أننا نجد بعض الباحثين يشك فى ذلك، وأشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور/ محمد مصطفى هدارة فى كتابه دراسات ونصوص فى الأدب العربى، بقوله: (قد حفظ الرواة من قصيدة سويد اليتيمة نيفا ومائة بيت، نحس فيها اضطرابا واضحا فى تسلسلها، وتباعدا فى موضوعاتها وروحها العامة، مما يدفعنا إلى القول... بأن هذه اليتيمة تضم في الحقيقة قصيدتين: الأولى قيلت فى الجاهلية، وهى التى مطلعها:

---

(١) ديوانه ص ٢٠٧

(٢) ديوان أبى الأسود الدؤلى، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف بغداد (د/ت) ص ٥٦

بَسَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلَ لَنَا فَوَصلْنَا الحَبلَ مِنْهــا مـــا اتَّسَعْ

والثانية: قيلت فى الإسلام وهى التى نظن أن مطلعها:

أَرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدعْ مِن سُلَيْمَى فَفُؤادِى مُنْتَزَعْ

ويبـدو أن الرواة خلطوا بـين القـصـيدتـين، ومما يدل على ذلك: وجـود مقدمتين فى التشبيب إحداهما فى رابعة، والأخرى فى سلمى، ووجود البيت المصرع الذى نعتقـد أنه مطلع القصيدة الثانية. وإن كنا لا نعدم أمـثلة مشابهة فى الشعـر الجاهلى، ولكنـها قليلة جـدا، كذلك وجود لفظ (الـرحمن) فى النصف الثانى من القصيدة - وهو ما نظنه القسم الإسلامى - وعادة الشعراء الجاهليين أن يذكروا أحد لفظين الله أو المليك، يضـاف إلي ذلك وجود معان إسلامية واضحة فى قصيدته. . .

ولا ننسى طول المدة التى قضاها سويد فى الإسـلام، وكان خلالها مكثرا من الشعر - كما تنبئنا بذلك المصادر المخـتلفة، ويبدو لى أن الشاعر عز عليه بعد إسـلامه ألا يقول قصـيدة تذيع وتنشر كـعينيتـه التى قالها فى الجـاهلية، فكتب أخري علي مثـالها، فخلط الرواة بين القصيـدتين لاتحادهما فى الوزن والقافية[1]).

وهذه النتائج التـى توصل إليها الدكـتور/ هدارة لها أهمـيتهـا فى إثبات الاضطراب والتداخل فى موضوعات القصيـدة وروحها العامة، وهذا يجعلنا نرجح أن هذه القصـيدة قيلت فى الإسلام، فـإذا نظرنا إلي القسم الأول من

(١) دراسات ونصوص فى الأدب العربى ص ١٥١ وما بعدها.

القصيدة أو القصيدة الأولى التى ظن الباحثون أنها قيلت فى الجاهلية، نجد الشاعر يفخر فخرا جديدا تظهر فيه سمات إسلامية واضحة، أغلب ظنى أن الشاعر استمدها من معين القيم الإسلامية، فهو يفخر بقومه بني بكر بن وائل فيعدد مناقبهم، فيفخر بطيب خلقهم وكرمهم ووفائهم وقوة أحلامهم وجرأتهم، وشدة بأسهم وشجاعتهم، وهذه الفضائل تحدث عنها كثير من شعراء الجاهلية فى فخرهم، ولكن سويدا صاغها صياغة إسلامية جديدة، فعندما يفخر بطيب أخلاق قومه يأخذ معني قوله تعالى [1]: ﴿ **وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ** ﴾ فقومه لا يأتون الفواحش كما يفعل غيرهم ثم إنهم إذا استثارهم أحد لا يغضبون وإذا حلت بهم مصيبة لا يجزعون، فيقول [2]:

مِنْ أُنَاسٍ لَيْسَ مِنْ أَخْلاقِهِمْ ... عَاجِلُ الفُحْشِ ولا سُوءُ الجَزَعْ

ثم يفخر بمعرفة قومه للحق إذا اشتدت الأمور وتعقدت، فالعدل من شيمتهم وليس ذاك عن ضعف أو لين منهم، فيأخذ معنى قوله تعالى [3]: ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾؛ ليفتخر بذلك فيقول [4]:

عُرُفٌ لِلْحَقِّ مَا نَعْيَا بِهِ ... عِنْدَ مُرِّ الأَمْرِ، مَا فِينَا خَرَعْ

ثم يفخر بكرمهم وبذلهم، فهم يجودون بأطيب ما عندهم فى ساعة العسرة، وهذا المعنى افتخر به الشعراء قديما، ولكن سويدا ضمنه ألفاظ القرآن الكريم نفسه، مثل قوله تعالى [5]: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا**

---

(١) سورة الشورى، الآية ٣٧.

(٢) المفضليات ص ١٩٤

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨١.

(٤) المفضليات ص ١٩٤

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٦٧.

كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾، فيقول [1]:

وإذا هَبَّتْ شَمَالاً أَطْعَمُوا ... فى قُدُورٍ مُشْبَعَاتٍ لم تُجَعْ
وجفانٍ كالجَوَابِى مُلِئَتْ ... من سَمِينَاتِ الذُّرَى فيها تَرَعْ

فأخذ ألفاظ القرآن الكريم مثل قوله تعالى[2]: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾. ثم يفخر برجاحة عقولهم وقوة أحلامهم وعفوهم وشدتهم فى البأس، فيضع أمامه قوله تعالى [3]: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وقوله [4]: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ * وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ فيستعير هذه المعانى الإسلامية فيقول[5]:

حَسَنُو الأَوْجُهِ بِيضٌ سَادَةٌ ... وَمَرَاجِيحُ إِذَا جَدَّ الفَزَعْ
وُزُنُ الأَحْلاَمِ إِنْ هُمْ وَازَنُوا ... صَادِقُو البَأْسِ إِذَا البَأْسُ نَصَعْ
ولُيُوثٌ تُتَّقَى عَرَّتُهَا ... سَاكِنُو الرِّيحِ إِذَا طَارَ القَزَعْ

أما القسم الثانى- الذى رأى الباحثون أنه القسم الإسلامى- فهو لايختلف كثيرا فى معانيه عن القسم الأول فهو يفخر بهذه النعم التى أنعم الله بها عليهم، فقد منَّ الرحمن عليهم بمكارم الأخلاق ووهبهم رجاحة العقل

---

(1) المفضليات ص ١٩٤.
(2) سورة سبأ، الآية ١٣
(3) سورة الشوري، الآية ٣٧.
(4) سورة الشورى الآيات ٣٩: ٤١.
(5) المفضليات ص ١٩٤ وما بعدها.

والحكمة فى معالجة الأمور إذا اشتدت وتعقدت، ورفعهم عن الدنايا والرذائل، ورفعهم الله بفضله بأن بنى لهم صرحا شامخا من الأخلاق الحميدة، التى أتمها وأصلحها وأحسن صنعها فيهم، فيضع أمامه آى الذكرالحكيم ليقتبس منه هذه المعانى مثل قوله تعالى [١]: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، وقوله تعالى [٢]: ﴿وَهُوَ الَّذى جَعَلَكُمْ خَلَـٰئفَ الأَرضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعض دَرَجَـٰت لِّيَبْلُوَكُم فى مَا ءَاتَـٰكُمْ﴾ وقوله تعالى: [٣] ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فيقول مفتخرا بهذه النعم [٤]:

كَتَبَ الرَّحـمنُ، والحَمْدُ لَهُ ... سَعَةَ الأَخْلاقِ فِينَا والضَّلَعْ

وإبـاءً للدَّنِيَّات إذا ... أُعْطِيَ المَكْثُورُ ضَيْمـا فَكَنَعْ

وبِنـاءً للمَعَـالِي، إنَّمـا ... يَرْفَعُ اللهُ وَمَنْ شـاءَ وَضَعْ

نِعَـمٌ للهِ فِينَـا رَبَّهَـا ... وَصَنِيـعُ اللهِ، واللهُ صَنَعْ

وفى القسم نفسه من القصيدة يوضح لنا صورة أخري من صور الفخر الإسلامى، فيؤكد علي الحلم الذى أنعم الله به عليه وجعله من الفضائل التى يتحلى بها، فيعرض لنا صورة رائعة للعداوة القاتلة، فيتحدث عن خصم دنىء النفس كان يغتابه، فيصفه وصفا بارعا مستلهما قوله تعالى [٥]: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وقوله

---

(١) سورة الرحمن، الآيات ١: ٤

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٦٥

(٣) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٤) المفضليات، ص ١٩٧

(٥) سورة الحجرات، الآية ١٢

تعالى[1]: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. وقوله تعالى[2]: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ فيقول مفتخرا بحلمه وقوة إيمانه واعتماده على الله [3]:

رُبَّ مَن أَنْضَجْتُ غَيْظاً قَلْبَهُ ... قَدْ تَمَنَّى لِيَ مَوْتاً لَمْ يُطَعْ

وَيَرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ ... عَسِراً مَخْرَجُهُ مَا يُنْتَزَعْ

مُزْبِدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرَنِي ... فَإِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمَعْ

قَد كَفَانِي اللهُ مَا فِي نفسِهِ ... ومَتَى مَا يَكْفِ شَيْئاً لا يُضَعْ

بِئْسَ مَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابَنِي ... مَطْعَمٌ، وَخَمٌ، وداءٌ يُدَّرَعْ

لَمْ يَضِرْنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسُدَنِي ... فَهْوَ يَزْقُو مِثْلَ مَا يَزْقُو الضُّوَعْ

ويُحَيِّيني إِذَا لاقَيْتُهُ ... وإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

وكذلك كان الحصين بن الحمام المرى رجلا شريفا فى الجاهلية عرف في تاريخ العرب بأنه مانع الضيم لشجاعته وثباته فى الحق وتضحياته من أجل الفضائل والمثل العليا التى تعارف عليها العرب، وذكر الرواة أنه أسلم فى سن متأخرة وحسن إسلامه، وكانت له صحبة [4]. وروى له صاحب الأغانى قصيدة لامية، تؤكد إسلام الحصين بل حسن إسلامه، يصف فيها حياته بكل

(١) سورة آل عمران، الآيتان ١١٩، ١٢٠

(٢) سورة النساء، الآية ٨١.

(٣) المفضليات ص ١٩٨.

(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٥.

مفاخرها ومباذلها [1]، فيفخر فخرا إسلاميا جديدا حين يشيد بتزوده بالتقوي والأعمال الصالحة، فيقينه بأنه سيأتى يوم يغادر فيه هذه الحياة الدنيا، ويحاسب على أعماله فيها فلا ينفع حينئذ مال ولا بنون، فلم يصحبه شيء من الدنيا إلا عمله، وهو يفخر لأنه استعد لهذا اليوم الذى قدره الله فى ميقات لا يعلمه إلا هو، ويستمد الشاعر هذه المعانى من آي الذكر الحكيم مثل قوله تعالى [2]: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾. وقوله تعالى[3]: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾وقوله تعالى[4]: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقوله تعالى [5]: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ فيصوغها نظما فى قوله [6]:

إذَا الْمَوْتُ كَانَ شَجًى بِالْحَلُوقِ ... وَبَادَرت النَّفْسُ أَشْغَالَهَا
وَيوم تُسَعَّر فِيهِ الْحُرُوبُ ... لَبِسْتُ إلى الرُّوعِ سِرْبَالَهَا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَاكَ إلا التُّقَى ... وَنَفْسٌ تُعَالِجُ آجَالَهَا
أُمُورٌ مِنَ اللهِ فَوْقَ السَّمَاء ... مَقَادِيرُ تَنْزِلُ أَنْزَالَهَا

(١) دراسات ونصوص فى الأدب العربى ص ١٤٦
(٢) سورة ق، الآيات ١٩: ٢١
(٣) سورة الواقعة، الآية ٦٠
(٤) سورةالبقرة، الآية ٤٨
(٥) سورة الشمس، الآيات ٧: ١٠
(٦) الأغانى نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب جـ ١٤ ص ٤٨٩١.

ويتأمل الشـاعر بعـد ذلك الآيات البينات التى تتـضمن الوعد والوعـيد، فيـستـعيـذ بالله من هذا اليوم عند كـشف الأمور المخـزية يوم تعرض علـيه الأعمـال، ويوم تخف الموازين بالكافرين، ويوم تزلـزل الأرض ويبعث من فى القبور،ويوم تحمى نار جهنم للكافـرين، وهذه المعانى وردت فى كثير من آي الذكر الحكيم، واقتبسهاالشاعر فى فخره، فقال [1]:

أَعُوذُ بربِّى مِن الْمُخْزِيــــــــا	ت يَوْمَ تَرَىَ الــــــنَّفْسُ أَعْمَالَهَا
وَخَفَّ الْمَوازِيــنُ بـــالْكَافِرِيــنَ	وزُلْزِلـــــــتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا
وَنَادَى مُنَادِ بِأَهْلِ الْقُبُورِ	فَهَبُّوا لـــــــــتُبْرِز أَثْقَالَهَا
وَسُعِّرَت الـنَّارُ فِيـــــهَا الْعَذَابُ	وَكَان الــــــسَّلاسِلُ أَغْلالَهَا

فخوف الشاعـر وخشيته من الآخرة، بهذه الصـورة يدل دلالة قاطعة على تأثره الواضح بآيات القرآن الكريم وتفـهمه الواعى لمعانيـها فقد اقـتبس قوله تعالى [2]: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ وقوله [3]: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾وقوله [4]: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾وقوله [5]: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ وقولـه [6]: ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ وقوله [7]: ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ وقوله [8]: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا﴾ .

---

(١) الأغانى جـ١٤ ص٤٨٩١

(٢) سورة الزلزلة، الآية ٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان ١و ٢.

(٥) سورة القارعة، الآيات ٦: ٩

(٦) سورة الانفطار، الآيتان ٤ و ٥

(٧) سورة التكوير، الآية ١٢.

(٨) سورة الإنسان، الآية ٤

٤ - الفخر بذود المشركين عن الكفر.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة فى شعر الفخر، فخر شعراء المسلمين بذود المشركين عن الكفر، إيمانا منهم بقوله تعالى [(١)]: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾. فيضمِّن كعب بن مالك فخره هذا المعنى عندما يصور لنا صد المشركين عن دين الله وذودهم للمسلمين ومنعهم من الدخول فى الإسلام، ثم يفخر بذود المسلمين لهم عن الكفر؛ لأن الله مؤيدهم بنصره يعينهم على غيظ المشركين وحقدهم، فالله يحفظهم؛ لأنه -جل شأنه- اختار لهم دين الحق وهداهم إليه، فيقول [(٢)]:

يَذُودُونَنَا عَنْ دِينِنَا وَنَذُودُهُمْ ... عَنِ الْكُفْرِ وَالرَّحْمنُ رَاءٍ وَسَامِعُ

إِذَا غَايَظُونَا فِى مَقَامٍ أَعَانَنَا ... عَلَى غَيْظِهِمِ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَاسِعُ

وَذَلِك حِفْظُ الله فِينَا وَفَضْلُهُ ... عَلَيْنَا وَمَنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ

هَدَانَا لِدِينِ الْحَقِّ وَاخْتَارَهُ لَنَا ... ولله فَوْقَ الصَّانِعِينَ صَنَائِعُ

ويضمِّن حسان بن ثابت فخره هذا المعنى الدينى الجديد فيفخر بأنه لن يدع قريشا إلا إذا أسلموا وأنابوا إلى الله ويتركوا أصنامهم ويؤمنوا بأن الله لا إله إلا هو الفرد الصمد ويسجدوا له ويشهدوا أن محمدا رسول الله جاء بالحق من عند الله ويخلصوا فى نصرته ويوفوا بعهده، فيقول [(٣)]:

أَمَّا قُرِيشٌ فَإِنِّى غَيْرُ تَارِكِهُمْ ... حَتَّى يُنِيبُوا مِن الغَيَّاتِ بِالرَّشَدِ

وَيَتْرُكُوا اللاَّتَ والعُزَّى بِمَعْزِلَةٍ ... وَيَسْجُدُوا كُلُّهم لِلخَالِقِ الصَّمَدِ

وَيَشْهَدُوا أَنَّ مَا قَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ ... حَقٌّ وَيُوفُوا بِعَهْدِ الوَاحِدِ الأَحَدِ

---

(١) سورة النساء، الآية ٧٦.

(٢) ديوانه ص ٢٣٠

(٣) ديوانه ص ١٦١

٥- الفخر بتأييد الملائكة وانتصار جند الله.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى فخر بها الشعراء المخضرمون تأييد الله وملائكته لهم فى قتالهم مع المشركين.

فنجد كعب بن مالك يفخر بالنصر يوم بدر برغم قلة عددهم؛ لأن الله أمدهم فيه بالملائكة، فيقول [(١)]:

أَبْلِغْ قُرَيْشًا وَخَيْرُ القَولِ أَصْدَقُهُ ... وَالصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِى الأَلْبَابِ مَقْبُولُ
أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ ... أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يَكْثُرُ الْقِيلُ؟
وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ... فِيهِ مَعَ النَّصْرِ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ

وفى ذلك يقول حسان [(٢)]:

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ ... فَيَرفَعُ النصْرَ مِيكَالٌ وجِبرِيلُ

ويفخر فى قصيدة أخري بتأييد الملائكة لرجال المؤمنين الذين صدقوا فى طاعتهم لله ورسوله، فيقول [(٣)]:

بِرِجَالٍ لَسْتُمْ أَمْثَالَهُمْ ... أَيَّدُوا جِبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلْ
وَعَلَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالتُّقَى ... طَاعَةَ اللهِ وتصديقَ الرُّسلْ

ويفخر فى قصيدة أخرى بخيل الله التى أردت المشركين يوم بدر، فيقول[(٤)]:

هَلَّا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللهِ إذْ لَقِيَتْ ... أَهْلَ القَلِيبِ ومن أَرْدَيْنَهُ فِيهَا

(١) ديوانه ص ٢٥٥

(٢) ديوانه ص ٣٩٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٤، وما بعدها

(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥.

والشعراء فى هذا الفخر يقررون حقيقة واقعة من معجزات السماء، ذكرها الله فى محكم كتابه فى قوله تعالى [(١)]: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

كما تأثروا بقوله تعالى [(٢)]: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾

ونرى كعبا فى قصيدة أخري يوضح هذه المعانى عندما يفخر بتأييد الله والملائكة وقيادة الرسول -ﷺ- التى هى من أمر الله، فى يوم بدر، ليتحقق النصر للمسلمين، فيقول [(٣)]:

وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللهِ يَجْلُو	دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا وَالْغِطَاءِ
رَسُولُ اللَّهِ يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ	من أَمْرِ اللَّهِ أحْكِمَ بِالْقَضَاءِ
فَمَا ظَفِرتْ فَوَارِسُكُمْ بِبدْرٍ	وَمَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
فَلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَان وَارْقُبْ	جِيَادَ الْخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ
بِنَصْرِ اللَّهِ رُوحُ الْقُدْسِ فِيهَا	وَمِيكَالٌ فَيَاطِيبَ الْمَلاءِ

ويفخر حسان بن ثابت بنصر المسلمين على الأحزاب الذين أرادوا غزو الرسول -ﷺ- فى المدينة، يطمعون فى قتله والعودة بالمغانم، فردهم الله بغيظهم على أعقابهم وأرسل عليهم ريحا وجنوداً عصفت بهم وكفى المؤمنين

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٢٣: ١٢٦

(٢) سورة البقرة، الآية ٩٨

(٣) ديوانه ص ١٦٩.

شر قتالهم، وفرج عنهم الكرب فبشرهم بالنصر بعد قنوطهم فقرت أعينهم وأذل الله الكفار، وهذه المعانى الدينية تدل على تأثر الشاعر بآى الذكر الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى تأييده بجنوده للمؤمنين فى هذه الغزوة وتنكيله بالكفار، فقال تعالى[1]: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾. وقوله[2]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقوله[3]: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

فيضمن حسان فخره هذه المعانى، فيقول[4]:

أَمُّوا بِغَزْوِهِمِ الرَّسُولَ وَأَلَّبُوا ... أَهْلَ الْقُرَى وَبَوَادِىَ الأَعْرَابِ

. . .

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وارْتَجَوْا ... قَتْلَ النَّبِىِّ وَمَغْنَمَ الأَسْلابِ

وغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بِغَيْظِهِم عَلَى الأَعْقَابِ

بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وَجُنُودِ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية٢٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآيات ٩:١٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢٢.

(٤) ديوانه ص١٢٠.

وكَفَى الإلـــــهُ المُؤمنينَ قِتَالَهُمْ   وأثـــابَهُمْ فِى الأجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ
من بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّجَ عَنْهُمُ   تَنْزِيْلُ نَصٍّ مَلِيـكِنَا الـــوَهَّابِ
وأقَـــرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحـــابِهِ   وأذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَابِ
مُسْتَشْعِرٍ لِلْكُفـــرِ دُونَ ثِيَابِـهِ   والــــكُفْرُ لَيْسَ بِطَاهِرِ الأثْوَابِ

٦- الفخر بنيل الشهادة فى سبيل الله.

ويفخر الشعراء المخضرمون بأنهم أقوام لايرون فى القتل عيبا يشينهم، ولافى الفرار صوابا ينجيهم، فهم يطلبون الموت دفاعا عن حماهم، ويكرهون الفرار، وإن كانت حياتهم فيه؛ لأنهم أبناء الحرب الذين تمرسوا بها. وهذه المعانى مما كان يفخر به الجاهليون أيضا، ولكن الجديد الذى نراه فى هذا المعنى، هو ذلك الفخر الإسلامى بنيل الشهادة فى سبيل الله. فالاستشهاد فى الحرب أمام أعداء الإسلام غاية ما يتمناه كعب بن مالك؛ لأنه القتل الذى يفضل الله به عباده المؤمنين، وهذا المعنى جديد على الفخر لم يسبق إليه الشعراء الجاهليون، لأن شاعرنا استمده من معين الإسلام، فقد ورد فى قوله تعالى[1]: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٦٩ : ١٧٤.

فيقول مفتخرا بذلك[1]:

إنْ تَقْتلُونَا فَدِيْنُ الحَقِّ فِطْرتُنَا   وَالْقَتْلُ فِى الْحَقِّ عِنْدَ اللهِ تَفْضِيْلُ

ويقول فى قصيدة أخرى[2]:

يَرَى الـقَتْلَ مَدْحًا إنْ أَصَابَ شَهَادَةً   مِنَ الله يَرْجُوهَا وَفَوزًا بـــــأَحْمَدِ

أما حسان بن ثابت فـيفخر بأن الشهادة فى سـبيل الله راحة ورضوان من الله الغفـور الرحيم، وعدَّ ذلك مغـفرة لحمـزة بن عبدالمطلب حينمـا جاءت أمامة ابنته تسأل عن مصرع أبيها، فيجيبها حسان بقوله[3]:

فَقُلْتُ لَهَا إنَّ الـشَّهــــــادَةَ رَاحَةٌ   وَرِضْوانُ رَبٍّ يا أُمَامَ غَفُـــــورِ

وعلى هذا النحو تأثر الشـعراء المخضرمون بآيات القـرآن الكريم وتعاليم الإسـلام، فظهرت فى فـخرهم سـمات إسـلاميـة جديدة فـفخـروا بدينهم ورسولهم، وأشادوا بإيمانهم وتقواهم وطاعتهم للرسول -ﷺ- وتفانيهم فى نصرته بما قـدموا من أمـوال وأرواح فى سبيل نصـرة هذا الدين، واستـمدوا -كذلك- مـادة فخـرهم من انتصـارهم على المشركين وذودهم عن الـكفر، وفخروا بتأييد الملائكة وجنود الله لهم ثم فخروا بشهدائهم وما تحقق لهم من مكانة رفيـعة عند الله، وهم فى فخرهم لايغـالون فى تعبيراتهم -كـما رأينا عند الجاهليين- وإنما كانت الواقعية والصـــدق فى التعبـير هى السمـة الغالبة على فخرهم؛ لأنهم يلتزمون بتعاليم الإسلام التى تحض على الصدق فى كل شىء.

* * *

(١) ديوانه ص ٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه ص١٩٦.

(٣) ديوانه ص ٢١٩.

رابعا: الحماســة.

الشعــر الحماسى مــن الأغراض الشعــرية التقليدية التــى طرقها الشــعراء المخضرمــون فى ظل الإسلام وقد سبق أن تحدثنا فى البــاب الأول عن فلسفة الجــهاد، وبينا أن القــرآن لم يأمــر المسلمين بالقــتال من أجل غــزو أو توسع استعمارى، بل حدد لهم الهــدف والغاية التى من أجلها يكون القتال، وكان الهدف الأسمى للقتال هو نشر الإســلام وإعلاء كلمة لا إله إلا الله كما قال الله -عز وجل- [1]: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انـتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وبهــذا الأمر الإلهى أصــبح الجهــاد فرض كــفاية على المسلمين، وقــد بين الرسول -ﷺ- فضل الجهاد وعدَّه من أفــضل العبادات التى تقرب العبد إلى ربه؛ لأنه سبحانه توكل للمجاهد فــى سبيله إن توفاه أن يجزيه أعظم الثواب بأن يدخله الجنة، وإن رجع ســالما إلى أهله، رجع بأجر وغنيمــة، وقد حث الله المؤمنين على ذلك فى قوله[2]: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيـلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي الـتَّوْرَاةِ وَالإِنجِيـلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقد أثمــرت هذه التعاليم ثمــرتها فى نفوس الشــعراء المخضــرمين فتغــير مفهوم الحــماسة إلى الجهاد ونشر دين الإسلام، كــما صبغت هذا اللون من الشعر صبــغة إسلامية جديدة فتطورت موضــوعاته تطورا ملحوظا، وتأثرت معانيه بالمعــانى الإسلامية المرتبطة بفكرة الجهاد فى سبــيل الله، فأشادوا ببلاء

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٩.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.

الجماعة الإسلامية وببسالتها وتضحيتها فى سبيل نشر هذا الدين، وصوروا إقدام كتائب جنود المسلمين فى المعارك، وضراوة القتال بينهم وبين العدو، وقوة هذه المعارك، وماكان يحدث فيها من إقدام وإحجام، وصوروا شدة اللقاء وصبر المجاهدين المخلصين وبذل أرواحهم رخيصة فى سبيل تحقيق النصر، وقد يكون فى كل هذا إشادة بالنفس أو بالغير. وكذلك أشادوا بهذه القوة المعنوية التى زودهم بها الرسول -ﷺ- مما جعلهم يستهينون بالحياة ويتمنون الشهادة فى سبيل الله. فانطلقوا -متغنين بما وعدوا من جنات ونعيم تحت ظلال السيوف -يطيرون إليها وكأنهم يرونها رأى العين، فهاجروا فى سبيل الله وقاتلوا وقتلوا من أجل نشر هذا الدين الجديد، وانطلقوا خارج بلادهم يحملون لواءه مستبشرين بإحدى الحسنيين. إما النصر وإما الشهادة، موقنين بأن لكل أجل كتابا، فحرصوا على الموت أكثر من حرصهم على الحياة. اعتملت كل هذه المعانى فى نفوس الشعراء المجاهدين الذين اجتذبهم نداء الجهاد، فصم آذانهم عن كل نداء إلا نداء الله، وتداولوها فى أشعارهم الحماسية ليصوروا لنا ما يمكن أن نسميه مجازا «ملحمة تاريخ العقيدة الدينية».

السمات الإسلامية فى موضوعات الشعر الحماسى:

١- الهجرة إلى الله ورسوله.

وتبدأ مسيرة الجهاد مع هؤلاء المهاجرين الذين لبوا نداء النبى -ﷺ- إلى الهجرة، فتركوا بيوتهم وأموالهم وأرحامهم، بل الدنيا بزينتها خلف ظهورهم ورغبوا فى رضوان الله ورسوله، فهاجروا فى سبيله. والهجرة لاتقل منزلة

فى الإسلام عن الجهاد فى سبيل الله، فقد قرنها الحق تبارك وتعالى فى محكم كتابه بالجهاد، فقال تعالى[1]: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ .

فنرى أبا أحمد بن جحش - وهو من المهاجرين الأوائل -يطمع فى هذه الدرجة العظيمة، فيصف حاله مع زوجته حينما عزم الهجرة إلى الله ورسوله يبتغى رضوان الله ويخشاه بالغيب ويرهب عذابه،كما قال الحق - جل شأنه[2]: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ . وقوله[3]: ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ .

فزوجته تلومه على ترك داره وأهله ولاترغب فى الهجرة إلى يثرب، فيجيبها بروح إيمانية صادقة أن الله قدَّر لهم هذا ولابد لمشيئته أن تنفذ، وأنه أقام وجهه لله ورسوله، ومن أقام وجهه لله ولرسوله لابد أن يربح فى الدنيا وينصف فى الآخرة، ويستمد هذه المعانى من قوله تعالى[4]: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ثم يفخر بطاعتهم للرسول -ﷺ- ويشيد بمعاملة الأنصار للمهاجرين الذين جمعتهم صلة الرحم الإسلامية، وهى أقرب من أى رحم أخرى، فيقول[5]:

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية٣٩.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٤٩.

(٤) سورة النساء، الآية ١٠٠.

(٥) السيرة جـ٢ ص٨٢ ومابعدها.

لَمَّا رَأَتْنِى أُمُّ أَحْمَدَ غَادِيًا ... بِذِمَّةِ مَنْ أَخْشَــى بِغَيْبٍ وأَرهَبُ

تَقُولُ: فَإِمَّا كُنْتَ لابُدَّ فَاعِلاً ... فَيَمِّم بِـنَا الْبُلْــدَانَ ولَــتَنْأ يَثْرِبُ

فَقُلْـتُ لَهَا: بَلْ يثْرِبُ الْيَوْمُ وَجْهُنَا ... وَمَـا يَشَـاءِ الرَّحْمَـنُ فَالْعَبْدُ يَرْكَبُ

إِلىَ اللهِ وَجْهِـي وَالرَّسُولِ وَمَنْ يُقِمْ ... إِلَــى اللهِ يَوْمًا وَجْهَهُ لايُخَيَّبُ

فَكَمْ قَدْ تَرَكْنَا مِنْ حَمِيــمٍ مُنَاصِحٍ ... وَنَاصِحَةٍ تَبْكِي بِدَمْعٍ وَتَنْدُبُ

. . .

وَرُعْنَا إِلَــى قَوْلِ الــنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... فَطَابَ وُلاةُ الْحَقِّ مِنَّا وَطَــيَّبُوا

نَمُتُّ بِأَرحَامٍ إِلَـيْهِمْ قَرِيبَــــةٍ ... وَلا قُرْبَ بِالأَرْحَامِ إِذْ لاتُقَرَّبُ

٢- تخليص المستضعفين من أيدى الكفرة.

ومن المعانى الإسلامية التى طرقها المخضرمون فى شعرهم الحماسى تخليص المستضعفين من المسلمين من أيدى الكفرة المشركين؛ لأن الله -عز وجل- أمر المسلمين المخلصين بذلك فى قوله تعالى[1]: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .

ففى الآية الأولى حض على الجهاد يتضمن تخليص المستضعفين من أيدى الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب الله تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من

(١) سورة النساء، الآيتان٧٥,٧٦.

عباده، ويعنى بالمستضعفين: من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال وكفر قريش وأذاهم[1]:

وهؤلاء المستضعفون لم يستسلموا لتعذيب المشركين لهم وحبسهم فانطلقوا ناحية ذى المروة، وأخذوا يجاهدون فى سبيل الله، فضيقوا الخناق على مشركى قريش، فكانوا لايظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولاتمر بهم عير إلا اقتطعوها، وكان أبو جندل بن سهيل ممن انضم إليهم، فأشاد بهؤلاء المستضعفين الذين أبوا أن يبقوا فى مكة حتى لايفتنوا فى دينهم بعد إسلامهم، وقد وعدهم الله أن يجعل لهم مخرجا فى قوله تعالى[2]: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴾ فخرجوا يجاهدونهم حتى ينتصر الحق على الباطل ويظهر الله دينه أو يقتلوا فى سبيله، فيقول[3]:

أَبْلِغْ قُرَيْشًا عَنْ أَبِى جَنْدَلٍ ... أَنَّا بِذِى الْمَرْوَةِ فَالسَّاحِلِ
فِى مَعْشَرٍ تَخْفُقُ أَيْمَانُهُمْ ... بِالْبِيضِ فِيهَا وَالْقَنَا الذَّابِلِ
يَأْبَوْنَ أَنْ تَبْقَى لَهُمْ رُفْقَةٌ ... مِنْ بَعْدِ إِسْلامِهِمِ الْوَاصِلِ
أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُمْ مَخْرَجاً ... وَالْحَقُّ لايُغْلَبُ بِالْبَاطِلِ
فَيَسْلَمُ الْمَرءُ بِإِسْلامِهِ ... أَوْ يُقْتَلَ الْمَرءُ وَلَمْ يَأْتَلِ

٣- الإيمان بفكرة الجهاد فى سبيل الله.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى طرقها المخضرمون فى أشعارهم إيمانهم العميق بفرضية الجهاد فى سبيل الله، فهم رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه، يؤمنون بجزيل ثوابه ونصره لهم فضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل نشر دينه ورد المشركين عن غيهم وضلالهم.

(١) تفسير القرطبى جـ٢ ص١٩٤١ ومابعدها.
(٢) سورة الطلاق، الآية ٢.
(٣) الروض الأنف جـ٦ ص٤٩٩.

فنرى ضرار بن الأزور يترك الحياة الدنيا بزينتها فترك محبوبته وكئوس الخمر وعزف القيان ومجالس الغناء والشـراب، وأخذ يصلى ويتجه بدعائه إلى الله -عز وجل-، ثم نراه يهب نفسه لقتـال المشركين على فرسه المحبر، وهو مع ذلك يدعو ربه أن يجعل بيعه غير مـغبون؛ لأنه باع نفسه وماله لله، وقد ربح البيع مصداقا لقوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

فيضمِّن ضرار شعره هذه المعانى وينشد الرسول -ﷺ- قوله[2]:

تَقُولُ جَمِيلَةُ فَرَّقْتَنَا	وَصَرَّعْتَ أَهْلَكَ شَتَّى شِلالا
تَرَكْتُ الْقِدَاحَ وَعَزْفَ الْقِيَان	وَالْخَمْرَ تَصْلِيَةً وابْتِهَالا
وَكَرَّ الْمُحَبَّرِ فِى غَمْرَةٍ	وَشَدِّى عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقِتَالا
فَيَارَبِّ لا أُغْبَنَنَّ بَيْعَتِى	فَقَدْ بِعْتُ أَهْلِى وَمَالِى بِدَالا

فكل هذه المعانى الدينية السـابقة كان لها آثار واضحة فى نـفوس الشعراء المجاهدين الذين خرجوا يلبون نداء الجهاد الذى فرضه الله عليهم، وتركوا من ورائهم الدنيا بزينتهـا. فنرى امرأة النابغة الجعدى تجـزع عندما علمت بذهابه إلى الجهـاد فى بلاد الفرس فناشـدته بالله أن يبقى رغـبة منهـا فى سلامـته، ولكن كيف له أن يتقاعد عن الجهـاد وليس له عذر يمنعه، فينشد هذه الأبيات التى تتضمن تلك المعانى الإسلامية إلى جانب اقتباسه معنى الحكم الفقهى فى الجهاد من قـوله تعالى[3]: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى

---

(١)سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢) مجالس ثعلب جـ٢ ص٤٢٣، وأسد الغابة جـ٣ ص٥٣ ،والخزانة جـ٣ ص ٣٢٥ ومابعدها.

(٣) سورة الفتح، الآية ١٧.

الْمَرِيــضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ الــلَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فيقول(١):

بَاتَتْ تُذَكِّرُنِى بِالـــــلَّهِ قَاعِدَةً	وَالدَّمْعُ يَنْهَـلُّ مِنْ شَأْنَيْهِمـــا سَبَلا
يَاابـــنَةَ عَمِّى كِتَابُ اللهِ أَخْرَجَنِى	كَرْهـــاً وَهَلْ أَمْنــعَنَّ اللهَ مَا فَعَلا
فَإِنْ رَجَعْتُ فَرَبُّ الــنَّاسِ يُرْجِعُنِى	وَإِنْ لَحــــقْتُ بِرَبِّى فَابْتَغِـى بَدَلا
مَاكُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعْذِرُنِى	أَوْ ضَارِعاً مِنْ ضَنىً لَمْ يَسْتَطِعْ حِوَلا

فالشاعر لايستطيع أن يتقاعد عن الجهـاد، فبالرغم من علمه بأن فيه مشقة كـثيـرة إلا أنه يلبـى النداء ليطيع الله ورسـولـه، فـقـد قـال الحق تبـارك وتعالى(٢): **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾** فيذعن الشاعـر لأوامره سبحانه ابتغاء رضوانه.

ونرى أبا سـفيان بن الحـارث بعد إسـلامة يجـاهد مع المسلمين يوم حنين ويثبت مع الرسـول -ﷺ- يرجو بذلك ثواب الله الواسع الـذى إليه ترجع الأمور، فيقول(٣):

لَقَدْ عَلِمَتْ أَفْنَاءُ كَعْبٍ وَعَامِرٍ	غَدَاةَ حُنَيْنٍ حِينَ عَمَّ الــــتَّضَعْضُعُ
بِأَنِّى أَخُو الْهَيْجَاءِ أَرْكَبُ حَدَّهَا	أَمَامَ رَسُولِ الــــلَّهِ لا أَتـــتَعْتَعُ
رَجَاءَ ثَوَابَ الــلــهِ والــلَّهُ وَاسِعُ	إِلَيْهِ تَعَالَى كُلُّ أَمْرٍ سَيَرْجِعُ

(١) ديوانه ص١٩٣، والشعر والشعراء جـ١ ص٢٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٦.
(٣) طبقات ابن سعد جـ٤ ق٢ ص٣٦.

وهدف المسلمين أيضا من جهادهم واضح فى أشعارهم، فهم لايريدون جاها أو مالا أو سلطانا، بل يبغون ثواب الله الواسع بنشر دينه ونصرة رسوله، وليصبح الدين كله لله. ويطهروا الأرض من براثن الشرك، وتعلو كلمة لا إله إلا الله، فيقول كعب بن مالك[1]:

قَذَفْنَا فِى السَّوابِغِ كُلَّ صَقْرٍ ... كَرِيمٍ غَيْرِ مُعْتَلِثِ الزِّنَادِ
أَشَمَّ كَأَنَّهُ أَسَدٌ عَبُوسٌ ... غَدَاةَ نَدىَ بِبَطْنِ الجِزْعِ غَادِ
يُغَشِّى هَامَةَ الْبَطَلِ المُذَكِّى ... صَبِىَّ السَّيْفِ مُسْتَرْخِى النِّجَادِ
لِتُظْهِرَ دِينَكَ، اللَّهُمَّ إِنَّا ... بِكَفِّكَ فَاهْدِنَا سُبُلَ الرَّشَادِ

ويؤكد فى قصيدة أخرى هذا المعنى، فيصور خروج كتائب المسلمين فى الأوقات المختلفة فوارس شجعان يقبلون على عدوهم لينصروا الله ورسوله، ويكونوا صادقين مخلصين له، وهدفهم من ذلك إخضاع المشركين من قريش وغيرها ليؤمنوا بأن لا إله إلا الله هو مولى كل المؤمنين، فيقول[2]:

فَوَارِسُنَا إِذَا بَكَرُوا وَرَاحُوا ... عَلَى الأعْدَاءِ شُوساً مُعْلَمِينَا
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا واللَّهَ حَتَّى ... نكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا
وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا ... وأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا
بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَا

(١) ديوانه ص١٩٥.
(٢) المصدر نفسه ص٢٨٠.

وكـذلك نجد حسـان بن ثابت فى فـخره وحـمـاسـتـه يؤكـد هذا المعنى الإسلامى- وقد عرضنا له فى فخره -فيقول[1]:

أمَّا قـــريشٌ فـــإنِّى غَيْرُ تاركهُمْ ... حتَّى يُنيــبُوا من الغَيَّات لـلرَّشَدِ

ويَتْرُكـــوا الـلاَّتَ والعزَّى بمَعْزِلَة ... ويَسْجُدَوا كـلُّهـم للْخَالق الـصَّمَد

ويَشْهَدُوا أنَّ مَا قَالَ الـرَّسُولُ لَهُمْ ... حَقٌّ ويُوفـــوا بعَهْد الوَاحد الأَحَد

وهذه المعانى لم يبتـدعها الشعراء بل استمدوا مضامـينها من آيات الذكر الحكيم التى حرَّضت المؤمنين على الجهـاد فى سبيل الله ليكون الدين كله لله ويظهر أمر الرسـول -ﷺ- ورسخت هذه الأوامر الإلهية فى نفـوسهم وكان لها صدى قوى فى أشعارهم الحماسية نلمسه فى صبرهم وثباتهم فى القتال.

٤- الصبر فى القتال والثبات فى المعارك.

ومن المعانى الإسلامية التى طرقها المخضرمون فى شعرهم الحماسى الصبر فى القتال والثبات فى المعارك أمام المشركين، فقد أمر الله تعالى النبى -ﷺ- أن يحرض المؤمنين على القتال، ويأمرهم بالصبر والثبات أمام المشركين؛ لأن الله معهم كفـيل بنصرهم فى قوله تعالى[2]: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾.

فنرى حـمـزة بن عبـدالمطلب -رضى الـله عنه- يذكـر لقـاءه أبا جـهل وأصـحـابه، ويوضح لنا هـذه المعـانى الإسـلامـيـة، فـهم صـابرون لأنهم

(١) ديوان حسان ص١٦١.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ٦٥، ٦٦.

مستمسكون بحبل الإله؛ ولذلك يؤمنون بنصره لهم، أما المشركون فهم مستمسكون بالضلالة؛ ولذلك يرد الله كيدهم خائبا بالرغم من كثرة عددهم وقلة عدد المسلمين، فيقول[1]:

عَشِيَّةَ صَارُوا حَاشِدِينَ وَكُلُّنَا ... مَرَاجِلُهُ مِنْ غَيْظِ أَصْحَابِهِ تَغْلِى
فَلَمَّا تَرَاءَيْنَا أَنَاخُوا فَعَقَّلُوا ... مَطَايَا وَعَقَّلْنَا مَدَى غَرَضِ النَّبْلِ
وَقُلْنَا لَهُمْ: حَبْلُ الإلَهِ نَصِيرُنَا ... وَمَالَكُمْ إلا الضَّلالَةَ مِنْ حَبْلِ
فَثَارَ أَبُو جَهْلٍ هُنَالِكَ بَاغِياً ... فَخَابَ وَرَدَّ اللهُ كَيْدَ أَبِى جَهْلِ
وَمَا نَحْنُ إلا فِى ثَلاثِينَ رَاكِباً ... وَهُم مِائَتَانِ بَعْدَ وَاحِدَةٍ فَضْلِ

ويضمِّن كعب بن مالك شعره هذه المعانى الدينية حينما صور لقاء المسلمين مع المشركين يوم بدر، فقد واجهوا جيشا ضخما يشبه موج البحر يتكون من أحابيش قريش خرجوا للقتال مابين حاسر عن وجهه ومقنَّع ثم يذكر عدد المقاتلين من المشركين، فهم ثلاثة آلاف محارب، أما المسلمون فهم قلة من خيار العرب وأشرافهم يتراوح عددهم مابين الثلاثمائة والأربعمائة. ومع ذلك التقى الفريقان واشتعلت نار الحرب ودارت رحاها وقد قدر الله هذا اللقاء للمؤمنين، ولا راد لقضائه، فهنالك صبر المسلمون وضربوا رؤوس خيارهم وأشرافهم حتى طرحوا على الأرض كأنهم خشب مصرعة، فيقول[2]:

فَجِئْنَا إلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسْطَهُ ... أَحَابِيشُ مِنْهُمْ حَاسِرٌ وَمُقَنَّعُ
ثَلاثَةُ آلافٍ وَنَحْنُ نَصِيَّةٌ ... ثَلاثُ مِئِينَ إنْ كَثُرْنَا وَأَرْبَعُ
نُغَاوِرُهُمْ تَجْرِى الْمَنِيَّةُ بَيْنَنَا ... نُشَارِعُهُمْ حَوْضَ الْمَنَايَا وَنَشْرَعُ

...

(1) العمدة جـ١ ص٣٦.
(2) ديوانه ص ٢٢٥ ومابعدها.

فَلَــمَّا تَلاَقَيْنَا وَدَارَتْ بِنَا الــرَّحَى وَلَيْسَ لأَمْرِ حَمَّهُ الــــــلَّهُ مَدْفَعُ
ضَرَبْنَاهُمُ حَتَّى تَرَكْنَا سَرَاتَهُمْ كَأَنَّهُمُ بِــــــالْقَاعِ خُشْبٌ مُصَرَّعُ

ومن المعـانى الإسلامـية التى توضح فـضيلة الصـبر عند المسلمين، قـوله تعالى[1] ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنــتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

فيصور كعب بن مالك هذا المعنى تصويرا بارعا،فنراه في غزوة أحد يصور صبر جنود المسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه،على حين كانت رايات المنية تخفق فوق رؤوسهم؛ لأن الصبـر والثبات من سجايا المسلمين المخلصين الذين يقودهم النبي-ﷺ-أما الفرار والذعر فهو من شيم اللئام،فيقول[2]:

أَلا أَبْلِغَا فِهْراً عَلَى نَأْيِ دَارِهَا وَعِنْدَهُمُ مِنْ عِلْمِنَا الْيَوْمَ مَصْدَقُ
بِــأَنَّا غَدَاةَ الــسَّفْحِ مِنْ بَطْنِ يَثْرِبٍ صَبَرْنَا وَرَايَاتُ الْمَنِيَّةِ تَخْفِقُ
صَبَرْنَا لَهُمْ وَالــــصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةٌ إِذَا طَــــارَتِ الأَبْرَامُ نَسْمُو وَنَرْتُقُ
عَلَى عَادَةٍ تِلْكُم جَرَيْنَا بِصَبْرِنَا وَقِدْمــاً لَدَى الْغَايَاتِ نَجْرِى فَنَسْبِقُ
لَنَا حَوْمَــــــةٌ لا تُسْتَطَاعُ يَقُودُهَا نَبِيٌّ أَتَى بِالْحَقِّ عَفٌّ مُصَدَّقُ

وفي قصيدة أخرى يوضح كعب هذه المعاني الإسـلامية،فيصور صبر جنود المسلمين الذين تـوكلوا على الله فـخـرجوا يجـاهدون في سـبـيله لإثبـات وحدانيته،والنبي-ﷺ- مؤازرهـم،حتى أحـسوا أنهم أفضل البرية خلقا؛لأنهم يقـاتلون هؤلاء الكفـرة الذين ظلمـوا وطغوا وامـتـلأت صدورهم بالعـداوة

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٤١-١٤٣.
(٢) ديوانه ص ٢٤٢. .

للمسلمين، فيقول[1] :

وَسَائِلَـــــةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيـــــنَا ... وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَا صَابِرِيــــــــنَا
صَبَرْنَا لانرَى لِـــــــلّه عِدْلاً ... عَلَى مَا نَابَنَــــــا مُتَوَكِّلِيْنَـــــــا
وَكَانَ لَنَا الـــنَّبِيُّ وَزِيـــــرَ صِدْقٍ ... بِه نَعْلُـــــــو الْبَرِيَّةَ أَجْمَعِيـــــنَا
نُقَاتِـــــلُ مَعْشَراً ظَلَمُــــــوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بِالْعَــــــدَاوَةِ مُرْصِدِيــــنَا

والصبـر والثبات فـي المعارك ظاهرة واضحـة يحض عليهـا المجاهدون في أراجيزهم، فنرى عـبد الله بن رواحة في غزوة مـؤتة يجمع جنود المسلمين- بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعـفر بن أبى طالب- ويتقدم بهم نحو صفوف العدو، ويخاطب نفسه مرتجزا ومحمسا جنوده بقوله[2] :

يَانَفْسُ إلا تُقْتَلِى تَمُوتِــــــــــــــــى
هَــــــــــــــــذَا حِمَامُ الْمَــوتِ قَدْ صَلَيْتِ
وَمَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْـــــــــــــــــتِ
إنْ تَفْعَلِــــــى فِعْلَهُمَــــــا هُدِيْــــــتِ
إنْ تَسْلَمِى الْيَـــــــوْمَ فَلَنْ تَفُوتِــــــى
أَو تُبْتَلى فَطَالَمــــــــــــــــا عُوفِيْتِ
وَإنْ تَأَخَّـــــــرْتِ فَقَدْ شَقَيْــــــــتِ

ونرى في يوم عماس قبل ليلة القادسية عشرة إخوة من بني كاهل بن أسد يقدمون أرواحــهم رخيصة في سـبيل الله، ويرتجز أحدهم مفـتخرا بشجـاعته

(١) ديوانه ص ٢٧٩.
(٢) ديوانه ص ٨٧.

محمسا أخاه(عفاق)على الصبر في المعركة، فيقول[1]:

أَنَا ابْنُ حَرْبٍ وَمَعِـــــــــــــي مِخْرَاقِي
أَضْرِبـــــــــــــــــهُمْ بِصَارِمٍ رَقْرَاقِ
إِذْ كَرِه الْمَوتَ أَبُو إِسْحَـــــــــــــاقِ
وَجَاشَتِ النَّفْسُ عَلَـــــــى الـــــــتَرَاقِي
صَــبْـــــراً عِفَــاقُ إِنَّـــــهُ الفِـــــرَاقُ

٥-استشعار الوحدة الإسلامية.

ولم تتوقف حماسة المجاهدين المخلصين عند الصبر في القتال والثبات في المعارك بل نراهم يستشعرون وحدة الجماعة الإسلامية بقيادة الرسول-ﷺ-والصحابة الراشدين في لقائهم مع أعدائهم، وقد شارك الشعر الحماسي في استشعار هذه الوحدة، فلم يقل أثر الشاعر في الحرب عن أثر الفارس المقاتل؛ لأن الشاعر يدافع عن دينه بلسانه يهاجم المشركين ويهجو ساداتهم ويسخر بهم، ويقوم بدوره في التحميس والتعبئة الروحية للجنود، فيحث المجاهدين على الاستماتة فى القتال، ويبعث فيهم بروح إيمانية الشهامة والإقدام على الشهادة حتى النصر. والفارس يدافع بسيفه وكلاهما ذاب عن دينه في النهاية، بل تأثير الشاعر أكبر من تأثير الفارس لما يتركه الشعر من أثر دائم فى النفوس يبقى محفوظا تتداوله الأجيال بينما يذهب أثر الفارس بذهاب فعله في المعركة. وقد تركت انتصارات المسلمين في المعارك المختلفة آثارا واضحة في نفوس الشعراء المخضرمين، فنرى كعب بن مالك يشيد بانتصار المسلمين يوم بدر فيذكر المشركين به، ويطالبهم أن يسألوا من حضره منهم ليخبرهم عن جيش المسلمين الذي أبى زعماؤه إلا التصدي

(١)الطبري جـ٣ص ٥٥٨.

للمشركين حينما نزل جيش أبى سفـيان بالعرض أجمعوا رأيهم على التصدي لهم وإجلائهم وإلا فـلا داعى لإقامتـهم واستقـرارهم في المدينة، وكيف ذلك ورســول الله-ﷺ-بينـهم يزودهم بالقـوة الروحـيـة ويـقـودهم إلى أفـضل السبل، فهم يتبـعون أوامره؛ لأنه مؤيد من السماء، فجبـريل عليه السلام يهبط من السمـاء ليمـده بتأييـد من ربه ولذلك إذا دعاهم إلى أي أمـر من الأمور استجابوا دون تردد. وهم مع ذلك يلجأون إليـه يطلبون منه المشورة، وحسبهم إذا أراد أمرا أن يجـيبوا بالسمع والطاعـة، وهنا تظهر الوحدة الإسلامـية بكل معـانيهـا. ثم يبين بعد ذلك الدور القـيادي للرسـول-ﷺ-في تعبـئة الروح المعنوية للمجـاهدين فأمرهم بعدم خـشية أعدائهم وزودهم بتـقوى الله حين أمرهم أن يبيعوا الحياة الدنيـا ويشتروا الآخرة التي تقربهم إلى الله الذي وعد الشهداء منهم بالجنة، فهم أحياء عند ربهم يرزقون، فيقول[1]:

وَلَكِنْ بِبَدْرٍ سَائِلـوا مَنْ لَقِيــتُمُ ... مِنَ الـنَّاسِ وَالأَنْبَاءُ بِالْغَيْبِ تَنْفَعُ

. . .

ولمـا ابـتَنُوا بـالـعِرْضِ قَال سَرَاتُنَا ... عَلامَ إذا لَمْ نَمْنَع الـعِرضَ نَزْرَعُ؟

وَفِيــنَا رَسُولُ الــلّه نَتْبَعُ أَمْرَهُ ... إذَا قَالَ فِيــنَا الْقَوْلَ لا نَتَطــلَّعُ

تَدَلَّى عَلَيــه الرُّوحُ مِنْ عِنْد رَبِّه ... يُنـزَّلُ مِنْ جــوِّ الـسَّمَاءِ وَيُرْفَعُ

نُشَاوِرُهُ فِيــمَا نُرِيـدُ وَقَصْرُنَا ... إذا مَا اشْتَهَى أَنَّا نُطِيــعُ وَنَسْمَعُ

وَقَالَ رَسُــولُ الله لَمَّا بَدُوا ... ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا

لَنَاوكُونُوا كَمَنْ يَشْرِى الحَيَاةَ تَقَرُّبـاً ... إلـى مَلِكٍ يُحْيَا إليــهِ وَيُرْجَعُ

---

(١)ديوانه ص ٢٢٣ وما بعدها.

وقد أوضح الرواة الدور القيادي للرسـول-ﷺ-حين كان يحرِّض أصحابه يوم بدر على القتال ويحفِّزهم علي الإقدام والتضحية بأرواحهم في سبيل الله فـقال: «والَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيَده لا يُقَاتلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَل صَابراً مُحْتَسِبـا مُقْبلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ إلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». وإذا بالصحـابة يستهـينون بالموت فنجد عمير بن الحمام أخا بني سلمة وفى يده تمرات يأكلهن، يقول: بَخٍ بَخٍ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقـتلني هؤلاء، ثم قـذف التـمرات من يده، وأخـذ سيفه، فقاتل المشركين وهو يرتجز بقوله[1]:

رَكْضـاً إِلـى الـلَّهِ بِغَيْرِ زَادِ

إِلا الـتُّقَى وَعَمَلَ الْمَعَادِ

وَالـصَّبْرَ فـي الـلَّهِ عَلَى الْجِهَادِ

وَكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ الـنَّفَادِ

غَيْر الـتُّقَى وَالْبِرِّ وَالـرَّشَادِ

فـالتقـوى والصبـر على الجهـاد في سـبيل الله خـير زاد يتـزود به المؤمن لآخرته، ونرى كعب بن مـالك في قصيدة أخرى يستشعر الوحدة الإسـلامية لجماعة المسلمين، فيقول[2].

فِى عُصْبَةٍ نَصَرَ الإِلهُ نبيَّهُ بِهِمُ وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ

ويصف فى القصيدة نفسهـا أسلحة المسلمين، وما أعدوه لعدوهم من دروع محكمة وسيوف صـارمة وخيول ضامرة، ثم يضيف إليهـا سلاحا جديدا هو سلاح التقوى الذى يتزود به المسلمون فى كل وقت، فيقول[3]:

---

(١) السيرة جـ٢ص ٢٦٧ ومـا بعدها ، والأغاني جـ٤ص١٩٢ وما بعدها ، وراجع الاستـيعاب جـ٣ص١٢١٤ وأسد الغابة جـ٤ص٢٩٠وما بعدها.

(٢) ديوانه ص ٢٤٤.

(٣) ديوانه ص ٢٤٥.

تِلْكُمْ مَعَ الـــتَّقْوَى تَكُونُ لِبَاسَنَا يَوْمَ الْهِيَاجِ وَكُلَّ سَاعَةِ مَصْدَقِ

وهذا المعنى الجديد في الاستعداد للقتال بأخذه الشاعر من مضمون الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى[1]: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أو قوله تعالى[2]: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ . وهذه العدة أعدها المسلمون لأعداء الله وأعدائهم فقد أمرهم الله بذلك في قوله تعالى[3]: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فيأخذ هذا المعنى فيقول[4]:

أَمَرَ الإِلَـــهُ بِـرَبْطِهَا لِعَدُوِّهِ فِي الْحَرْبِ إِنَّ الـــلَّهَ خَيْرُ مُوَفِّقِ
لِتَكُونَ غَيْـــظًا لِلْعَدُوِّ وَحُيَّطًـــا لِلـــدَّارِ إِنْ دَلَفَتْ خُيُولُ الـــنُّزَّقِ

وبالرغم من أن هؤلاء المسلمين أذعنوا لكل الأوامر الإلهية في استعدادهم لعدوهم إلاأنهم لم يختالوا بقوتهم أو تعجبهم أنفسهم ويغرهم كبرياؤهم، بل نراهم يرجعون عوامل النصر إلى ثلاثة أمور أساسية غير هذه العدة، أولها: إعانة الله لهم فما النصر إلا من عنده فهو العزيز لجيوش المسلمين، وثانيها: الصبر والصدق ساعة لقائهم مع عدوهم، وثالثها: طاعتهم للرسول -ﷺ- فهذه الأمور مجتمعة هي أسباب انتصار جماعة المسلمين، فيقول[5]:

(١)سورة الأعراف، الآية ٢٦.
(٢)سورة البقرة، الآية ١٩٧.
(٣)سورة الأنفال، الآية ٦٠
(٤)ديوانه ص ٢٤٧.
(٥)المصدر نفسه ٢٤٧.

وَيُعِينُنَا اللَّهُ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ ... مِنْهُ وَصِدْقِ الصَّبْرِ سَاعَةَ نَلْتَقِي
وَنُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّنَا وَنُجِيبُهُ ... وإِذَا دَعَا لِكَرِيهَةٍ لَمْ نُسْبَقِ
وَمَتَى يُنَادِ إِلَى الشَّدَائِدِ نَأْتِهَا ... وَمَتَى نَرَ الْحَوْمَاتِ فِيهَا نُعْنِقِ
مَنْ يَتَّبِعْ قَوْلَ النَّبِيِّ فَإِنَّهُ ... فِينَا مُطَاعُ الأَمْرِ حَقٌّ مُصَدَّقِ
فَبِذَاكَ يَنْصُرُنَا وَيُظْهِرُ عِزَّنَا ... وَيُصِيبُنَا مِنْ نَيْلِ ذَاكَ بِمِرْفَقِ

وكذلك نجد حسان بن ثابت في قصيدة له يشيد بانتصار المسلمين يوم بدر، فيخبر بكل صدق عما صنعه الله تعالى بالمشركين حين اصطف المسلمون وحدة واحدة كالأسود يقودهم الرسول-ﷺ-مستبشرا بنصر الله ويأمرهم بأوامره لينالوا من هؤلاء الكفرة الذين تكبروا على الله ورسوله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وطرحوا قتلى المشركين في قليب بدر، ووقف عليها-ﷺ- فناداهم: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، أما أنا فقد وجدت ما وعدني ربي حقا، ولكنهم لا يجيبون، ولو أجابوا لقالوا له صدقت، فيقول[1]:

فَدَعْ عَنْكَ التَّذَكُّرَ كُلَّ يَوْمٍ ... وَرُدَّ حَرَارَةَ الصَّدْرِ الكَئِيبِ
وخَبِّرْ بالَّذِي لا عَيْبَ فِيهِ ... بِصِدْقٍ غَيْرَ إِخْبَارِ الكَذُوبِ
بِمَا صَنَعَ المَلِيكُ غَدَاةَ بَدْرٍ ... لَنَا فِي المُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ
غَدَاةَ كَأَنَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءٌ ... بَدَتْ أَرْكَانُهُ جُنْحَ الغُرُوبِ
فَلاقَيْنَاهُمُ مِنَّا بِجَمْعٍ ... كَأُسْدِ الغَابِ مِنْ مُرْدٍ وشِيبِ
أَمَامَ مُحَمَّدٍ قَدْ آزَرُوهُ ... عَلَى الأَعْدَاءِ فِي وَهَجِ الحُرُوبِ

(١)ديوانه ص ١٣٤ وما بعدها.

بِأَيْدِيــهِمْ صَــــوارِمُ مُرْهَفَــاتٌ وكُلُّ مُجَرَّبٍ خَاظِي الــــكُعُوبِ
بَنُو الأوسِ الـــــغَطَارِف آزرتْهَا بَنُو الـنَّجَّارِ فـي الدِّيـنِ الـصَّلِيـبِ
فَغَادَرْنَا أَبا جـــــهلٍ صَرِيـعــــا وَعُتْبَةَ قَدَ تـركْنَا بـالجَبــــــوبِ
وشَيْبَة قَدْ تَركْنَا فــــــي رِجَالٍ ذَوِي حَسَبٍ إِذا انْتَسَبُوا حَسِيـــبِ
يُنَادِيــــهـــم رَسُولُ الـــلّه لَمَّا قَذَفْنَاهــم كَبَاكِبَ فـي الـقَلِيـبِ
أَلم تَجــــدُوا حَدِيثـي كَانَ حَقّاً وأَمْرُ الــلّه يــأَخُذُ بـــالــقُلُوبِ
فــمـــا نَطَقُوا ولَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صَدَقْتَ وكُنْتَ ذَا رأْيٍ مُصِيـــبِ

وكـذلك نرى العبـاس بن مـرداس السلمى يشـيد بالرسـول-ﷺ-وجنود المسلمين يوم حنين من بني سليم وقائدهـم الضحاك بن سفيـان، فهم وفوا بما عاهدوا عليه الرسول-ﷺ-وقامـوا لنصرة هذا الدين يجاهدون في سبيل الله يضربون رؤوس أهل الشـرك لا يفرقون بين قـريب وغريب ماداموا مـشركين يبغون بذلك رضا الله ورسوله، يقول[1]:

يَاخَاتِمَ الـنُّبــــــآءِ إِنَّك مُرْسَـلٌ بِالحَقِّ كُلُّ هُدَى الـسَّبِيــلِ هُدَاكَا
إِنَّ الإِلَـــــهَ بَنَى عَلَيْـكَ مَحَبَّـةً فِي خَلْقِــــه وَمُحَمَّــــداً سَمَّاكَا
ثُمَّ الَّذِيـــنَ وَفَوْا بِمَا عَاهَدْتَهُــمْ جُنْدٌ بَعَثْتَ عَلَيْهِم الـــــضَحَّاكَا
رَجُلاً بِهِ ذَرَبُ الـــسِّلاحِ كَأَنَّهُ لَمَّــــــا تكَنَّفُه الْعَدُوُّ يَرَاكَا
يَغْشَى ذَوِي الـنَّسَبِ الْقَرِيـبِ وإِنَّمَا يـبْغِي رِضَا الـرَّحْمَـنِ ثُمَّ رِضَاكَا
أُنْبِيكَ أَنِّــــــي قَدْ رَأَيْتُ مَكَرَّهُ تَحــتَ الْعَجَاجَة يَدْفَعُ الإِشْرَاكَا
طَوْراً يُعَانِقُ بَالْيَدَيْنِ وَتـــــارَةً يَفْرِى الجَمَاجِمَ صَارِمــــاً بَتَّاكَا

(١) السيرة جـ٤ص٩٥وما بعدها ،ونسب قـريش للمصعب الزبيري تحقيق:ا.ليفي بروفنيسـال،الطبعة الثالثة بدار المعارف ص٢٣٢ .

يَغْشَى بِهِ هَامَ الْكُمـــاةِ ولَوْ تَرَى ... منـــهُ الَّذي عَايَنْتُ كَانَ شفَاكَا

وَبَنُو سُلَيْمٍ مُعْنقُونَ أَمَامَهُ ... ضَرْبـاً وَطَعْنـاً فِي الْعَدُوِّ دِرَاكَا

يَمْشُونَ تَحْتَ لِوَائِه وكَأَنَّهُـم ... أُسْدُ الْعَرِيـنِ أرَدْنَ ثَمَّ عِرَاكَا

مَا يَرْتَجُونَ مِنَ الْقَرِيـبِ قَرَابَةً ... إلا لطَاعَةِ رَبِّهِمْ وَهَـوَاكَا

هَـذي مَشَاهِدُنَا الَّتِي كَانَتْ لَنَا ... مَعْرُوفَةٌ وَوَلِيُّنَـا مَوْلاكَا

ويعدد كعب بن مالك فضائل المجاهدين فيذكر قوتهم الجسدية وجرأتهم علي الأعداء، وكرمهم في أيام الحاجة الشديدة، وقوة طعنهم وضربهم فهم لا يخافون الموت بل يرجون من الله الشهادة حتي يفوزوا برضا الرسول-ﷺ-وبدرجات الشهداء في الجنة، فيجودوا بأنفسهم لنصرة نبيهم-ﷺ-مصدقين مخلصين له يريدون الفوز بالآخرة، يقول[1]:

وَنَحْـنُ وَرَدْنَا خَيْبَراً وَفُرُوضَهُ ... بِكُلِّ فَتًى عَارِى الأشـاجِعِ مِذْوَدِ

جَوَادٍ لَدَى الْغَايَاتِ لا وَاهِنِ الْقُوَى ... جَرِيءٍ عَلَى الأعْداءِ فِى كُلِّ مَشْهَدِ

عَظِيـمِ رَمَادِ الْقِدْرِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ ... ضَرُوبٍ بِـنَصْلِ الْمَشْرفِيِّ الْمُهَنَّدِ

يَرَى الْقَتْلَ مَدْحًا إِنْ أَصَابَ شَهَادَةً ... مِنَ الـلَّهِ يَرْجُوهَا وَفَوزاً بِـأَحْمَدِ

يَذُودُ وَيَحـمِى عن ذِمَارِ مُحَمَّدٍ ... وَيَدْفَـعُ عَنْـهُ بِـالـلِّسَانِ وَبِالْيَدِ

وَيَنْصُرُهُ مِـنْ كُلِّ أَمْرٍ يَرِيبُهُ ... يَجُودُ بِنَفْسٍ دُونَ نَفْسِ مُحَمَّدِ

يُصَدِّقُ بِالأنْبـاءِ بِالْغَيْبِ مُخْلِصـاً ... يُرِيـدُ بِذَاكَ الْفَوْزَ وَالْعِزَّ فِى غَدِ

٦-إخلاص النية في الجهاد من أجل تحقيق النصر أو الشهادة.

ولم تتوقف حماسة المجاهدين عند نصرة النبي-ﷺ- ومحاربة المشركين

(١)ديوانه ص ١٩٦ وما بعدها.

واليهـود في مكة وخيبـر والمدينة، بل انطلقوا عبـر حدودهم في عهـد الخلفاء الراشدين يدفعـهم الإيمان الصادق بالعقيـدة السليمة والقوة المعنويـة التي بثها الإسلام في نفوسهم إلى بلاد الفـرس الروم وملء ذاكرتهم تجارب هائلة من غزوات الرسول-ﷺ-كان النصر فيها حليفهم، جعلتهم يشعرون بمسئولية تبليغ الرسالـة التي أضحـوا قوامين عليـها، إلى جـانب الإحساس بـالقوة والثـقة بالنفس، فلم يجـزعوا من الموت ولم يرهبـوا عدوا مـهما بلغت قـوته، لأنهم مؤمنون بنصر الله لهم ماداموا مخلصين له.

فنراهم كما وصفهم أحد قادة جـيوش الروم لهرقل عندما سأله عن سبب هزيمة الروم برغم كثـرة عددهم وقلة عدد المـسلمين، فأجابه بقـوله: (هم بشر مثلنا ولكن إذا حملنـا عليهم صبروا وإذا حملوا علينا صـدقوا. . . لأنهم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يظلمون أحدا ويتناصحون فيما بينهم)[1].

وانطلقت هذه المعاني على ألسنة القادة والمجـاهدين المسلمين، فعندما أرسل رستـم قائد الفـرس إلى سعـد بن أبي وقاص قـبل القادسـية ليـتصـالح مع المسلمين، يشير سعد على أصحابه فـيرى ربعي بن عامر أن يبعث إليهم رجلا واحدا لا يـزيد عليه حـتى لا يظنوا أن العرب احـتفلت بهـم، وأجمع سـعد وأصحـابه على ربعي ليكون رسـولا للمسلمين عند رسـتم، وتعمـد ربعي أن يدخل على قائد الفـرس وهو يسير على فرس له قـصيرة كثـيفة الشعـر ومعه سيف مـجلو جعل غمـده من ثوب خلق وحزم مقـبضه بعنق بعـيره، ولايزال راكبا حتى داس على البسط والنمارق التى فرشها أهل فارس ليتباهوا بها، وقد فطن ربعي لما أرادوا فنزل عن فـرسـه وشق وسادتين وأدخل فـيـهمـا حبـلا فربطهما، وأمره العسكر أن يضع سـلاحه حتى يدخل على رستم فرد عليهم بقوله: (إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت)، ثم أقبل على رستم وعليه سلاحه ودرعه يتوكأ على رمحه

(١)عيون الأخبار جـ١ ص ١٢٦ وما بعدها.

ويزج به النمارق والبسط فما ترك لهم شيئا إلا أفسده، ثم جلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا له: ما حملك على هذا؟ فيرد عليهم بقوله: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، ثم يسأله: ما جاء بك؟ فيرد مدويا مجيبا: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)[1].

وينطلق هذا المعنى مدويا على لسان المغيرة بن شعبة وأصحابه عندما بعث إليهم رستم ليتفاوض معهم، فلما لم تثمر المفاوضات قال لهم: إذن تموتون أو تقتلون، فيرد عليه المغيرة بهذه القوة الإيمانية والعقيدة التي لا تهتز بقوله: إذن يدخل من قتل منا الجنة ويدخل من قتل منكم النار[2].

فهؤلاء هم جيوش المسلمين الذين وصفهم خالد بن الوليد في تحذيره لأهل الحيرة عندما خرجوا إليه فيقول لهم: «إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته، وإلى الإسلام فإن قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر[3]».

وفي كتابه الذي أرسله إلى قادة الفرس، يقول: «. . . أما بعد، فإذا جاءكم كتابي فابعثوا إلى بالرهن، واعتقدوا مني الذمة، وإلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة»[4] .

كل هذه المعاني كان لها صدى في نفوس المجاهدين وانعكست آثارها على الشعراء منهم، ففي ذلك يقول (كارلو نالينو): «لما فاضت الجيوش الإسلامية بأمواجها علي ما هو خارج أنحاء جزيرة العرب، وخفقت ألوية الجنود المظفرة في أطراف النواحى الأعجمية وأقاص الآفاق، أخذت الأعراب الكائنون في

---

(١) الطبري جـ٣ص٥١٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ص٥٢٥ .

(٣) المصدر نفسه جـ٣ص ٣٤٥.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٦.

جملة المجاهدين يقولون الشعر وينشدون القوافي وصفا لما قاسوا من المتاعب وما شهدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من البأس وثبات الجنان»[١].

فنراهم يشيدون بجماعة المسلمين الذين أخلصوا لله النية في الجهاد وهاجروا نحو ربهم ليقتلعوا جذور الشرك، فنرى عاصم بن عمرو التميمي يشيد ببلاء جيش المسلمين بقيادة أبي عبيد بن مسعود حينما استباحوا السواد، وأمرهم أبو عبيد أن يتبعوا جنود الفرس حتى يدخلهم عسكر نرسي أو يبيدهم فيما بين النمارق إلى بارق إلى درتا، فيقول[٢]:

لَعَمْرِى وَمَاعُمرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ ... لَقَد صُبِّحَتْ بالْخزى أهْلُ النَّمارِقِ
بَأَيْدِى رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْو ربِّهِمْ ... يَجُوسُونَهُمْ مَابَيْنَ دُرْتَا وبَارِقِ
قَتَلْنَاهُم مَابَيْنَ مَرْجِ مُسَلَّحٍ ... وبَيْنَ الهَوَافِى مِنْ طَرِيقِ البَذَارِقِ

ومن هؤلاء المخضرمين الذين شهدوا الفتوح الإسلامية أبو محجن الثقفى ذلك الفارس الذى برز بين فرسان العرب وشجعانهم، إلا أن عجزه عن مقاومة إدمان الخمر جعل سعد بن أبى وقاص يحبسه بالقادسية، وأحس وهو فى حبسه أن المسلمين يوم أغواث بالقادسية فى موقف صعب يحتاجون فيه إلى مثله من الفرسان أولى البأس والنجدة، فاستعطف زوجة سعد أن تطلقه من حبسه- حتى يشارك المسلمين القتال- بشعر يكشف لنا عن شدة شغفه بالحرب وبلائه فيها، فيقول[٣]:

حَبِيسًا عن الحَرْب العَوانِ وَقَدْ بَدَتْ ... وإعْمَالُ غَيْرِي يَوْمَ ذَاكَ العَوَالِيَا
وللهِ عَهْدٌ لا أَخِيسُ بِعَهْدِهِ ... لَئِنْ فُرِجتَ ألا أزُورَ الحَوانِيَا

---

(١) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أميه كارلو نالينو-الطبعة الثانية بدار المعارف ١٩٧٠م ص١١٥
(٢) الطبري جـ٣ ص ٤٥٠ وما بعدها، ومعجم البلدان جـ٥ص ١٢٩.
(٣) الأغانى جـ١٩ ص٥.

وما إن فكت قيوده حتي امتطى فرس سعد بن أبي وقاص وسلاحه واندفع في صفوف الأعداء كالعاصفة يقصف قصفا،وجعل سعد يقول:لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن،وكان خروجه من أسباب نصر المسلمين تلك الليلة. ويذكر الرواة أنه لماعاد إلي محبسه ليضع رجليه في القيد-كما تعهد لزوجة سعد حينما أطلقته-قابلته امرأة في الطريق،فظنته منهزما لشدة سرعته،فأنشأت تعيره بفراره[1]:

مَنْ فـارِسٌ كَرِه الطِّعَان يُعِيُرني   رُمْحـاً إذا نَزَلُوا بِمَرْجِ الصُّفَّرِ

فيجيبها أبو محجن بقوله،لما تحقق النصر للمسلمين:

إن الكِرامَ علـى الجيـاد مَبِيـتُهم   فَدَعِي الرِّمَاحَ لأهْلِهـا وتَعطَّرِي

فلما عاد إلي محبسه وأعاد رجليه في القيد،رفع عقيرته وأخذ يقول[2]:

لَقَدْ عَلِمَتْ ثَقِيـفٌ غَيْرَ فَخْرٍ   بِأنَّا نَحْنُ أَكْرَمُهُمْ سُيُوفَا
وأَكْـثَرُهُم دُرُوعـاً سَابِغَاتٍ   وأَصْبَرُهُـم إذَا كَـرِهُوا الْوُقُـوفَا
وأَنَّا رِفْدُهُمْ فِى كُلِّ يَوْمٍ   فَـإِنْ جَـحَـدواُ فَسَلْ بِهِمُ عَرِيفَا
ولَيْلَةَ قَادِسٍ لَمْ يَشْعُـرُوا بِي   ولَمْ أكْرَهْ بِمَخْرَجِيَ الزُّحُوفَا
فَإِنْ أُحْبَسْ فَقَدْ عَرَفُوا بَلائِى   وَإِنْ أُطْلَقْ أُجَرِّعْهُمْ حُتُوفا

(1) الأغانى جـ١٩ ص٨وما بعدها.
(2) المصدر نفسه جـ١٩ ص٦ وراجع أيضا الطبري جـ٣ ص ٥٤٩.

وفي يوم أرماث دارت رحي الحرب علي بني أسد إذ حملت الفرس عليهم بالفيلة، فثبتوا وكانوا ردءا للمسلمين حتى أصيب منهم تلك الليلة خمسمائة رجل إلى أن جاء عاصم بن عمرو ببني تميم فقطعوا وضن الفيلة ثم دفعوها عن المسلمين ونفسوا عن بني أسد، فافتخر عمرو بن شأس الأسدي بثبات قومه وشدة بلائهم حتى تحقق النصر بالمسلمين وولت جموع الفرس، فيقول[1]:

جَلَبْنَا الْخَيْلَ مِنْ أَكْنَافِ نِيقٍ ... إِلَى كِسْرَى فَوَافَقَهَا رِعَالا

تَرَكْنَ لَهُمْ عَلَى الأَقْسَامِ شَجْواً ... وَبِالْحَقَوَيْنِ أَيَّاماً طِوَالا

وَدَاعِيَةٍ بِفَارِسَ قَدْ تَرَكْنَا ... تُبَكِّي كُلَّمَا رَأَتِ الْهِلالا

قَتَلْنَا رَسْتُماً وَبَنِيهِ قَسْراً ... تُثِيرُ الْخَيْلُ فَوقَهمُ الهَيَالا

تَرَكْنَا مِنْهُمُ حَيْثُ الْتَقَيْنَا ... فِئَاماً مَا يُرِيدُونَ ارْتِحَالا

وَفَرَّ الْبَيْرُزَانُ وَلَمْ يُحَامِي ... وَكَانَ عَلَى كَتِيبَتِهِ وَبَالا

وَنَجَّى الْهُرْمُزَانَ حِذَارُ نَفْسٍ ... وَرَكْضُ الْخَيْلِ مَوْصِلَةً عِجَالا

ونرى عروة بن زيد الخيل يذكر أيام المسلمين مع الفرس، ويوضح لنا الهدف الأسمى لهذه الفتوح، وهو الجهاد والتضحية في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية، والذود عن المسلمين، ثم يشيد بنفسه مفتخرا بشجاعته ونفسه وشدته في القتال على أعدائه وتفريج كرب المسلمين، فهو لا يريد تحقيق جاه أو ثروة في الدنيا بل كل ما يبغيه إما تحقيق النصر للمسلمين، وإما الموت لينال الأجر العظيم الذي وعده الله شهداءه حتى يفوز بجنته هو وأمثاله من المجاهدين، فيقول[2] :

---

(١) الطبري جـ٣ص ٥٤٠ وما بعدها.

(٢) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري، تحقيق: عبد المنعم عامر، الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠م ص١٣٨

أَلا طَرَقَتْ رَحْلِي وَقَدْ نَـامَ صُحْبَتِي ... بِإِيـوَانِ سيريـنَ الْمُـزَخْرَفِ خُلَّـتِي

وَلَوْ شَهِدَتْ يَوْمَيْ جَـلُولاءَ حَرْبَنَا ... وَيَوْمَ نَـهَاوَنْـدَ الْمَـهُولَ اسْـتَهَـلَّتِ

إِذًا لَرَأَتْ ضَـرْبَ امْرِئٍ غَيرِ خَـامِلٍ ... مُجِيـدٍ بِطَعْنِ الرُّمْحِ أَرْوَعَ مِـصْلَتِ

وَلَمَّـا دَعَوْا يـاعُرْوَةَ بْـنَ مُهَـلْهَـلٍ ... ضَرَبْتُ جُمُوعَ الْفُـرْسِ حَتَّى تَوَلَّتِ

دَفَعْـتُ عَلَيْهِـمْ رَحْلَتِي وَفَـوارِسِي ... وَجَرَّدْتُ سَـيْفِـي فِيـهِمُ ثُـمَّ أَلَّتِـي

وَكَـمْ مِنْ عَـدُوٍّ أَشْوَسٍ مُـتَـمَـرِّدٍ ... عَلَـيهِ بِـخَيْلِـي فِى الهِـيَاجِ أَظَـلَّتِ

وَكَـمْ كَـرْبَـةٍ فَرَّجْـتُـهَا وَكَـرِيهَـةٍ ... شَدَدْتُ لَـهَا أَزْرِي إِلَى أَنْ تَجَـلَّتِ

وَقَدْ أَضْـحَتِ الـدُّنْيَا لَـدَيَّ ذَمِيـمَةً ... وَسَلَّيْتُ عَـنْهَا النَّفْسَ حَتَّـى تَسَلَّتِ

وَأَصْبَحَ هَـمِّي فِي الْجِـهَادِ وَنِيَّـتِي ... فَـلِلَّـهِ نَفْـسٌ أَدْبَـرَتْ وَتَـوَلَّـتِ

فَلا ثَـرْوَةَ الدُّنْـيَا نُرِيـدُ اكْتِـسَابَـهَا ... أَلا إِنَّـهَا عَـنْ وَفْرِهـا قَدْ تَـحَلَّـتِ

وَمَاذَا أُرَجِّـى مِنْ كُـنُوزٍ جَمَـعْتُـهَا ... وَهَـذِي الْمَنَايَـا شُرَّعاً قَدْ أَظَـلَّتِ

ولم يتوقف تصوير الشعراء للمعارك على الإشادة ببلائـهم وشجاعتهم أو الفخر بثبات أقوامهم واستبسالهم فـي مواجهة العدو، بل يعمد بعض الشعراء إلي وصف بلاء قائدهم وشجاعته وحكمتـه البالغة وقدرته البارعة في سياسة جنده وتشجيعهم علي الفتك بأعدائهـم، فيشيد أحد المجاهدين المسلمين بالمثنى ابن حارثة قائد جيوش المسلمين يوم سوق الأنبار، فيقول[1]:

وَلِـلْـمُثَـنَّـى بِـالْعَـــالِ مَـعْــرَكَـةٌ ... شَـاهَـدَهَـــا مِـنْ قَبِـيْـلِـهِ بَـشَـرُ

كَـتِـيْـبَةٌ أَفْـــزَعَـتْ بِـوَقْـعَتِـهَـــا ... كِـسْرَى وَكَـادَ الإِيْـوَانُ يَـنْفَـطِـرُ

وَشُجِّـــعَ الْمُــسْلِـمُـوْنَ إِذْ حَـــذِرُوا ... وَفِـى صُرُوفِ الـتَّـجَـارِبِ الْعِـبَـرُ

(١) فتوح البلدان لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف-بيروت-١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. ص ٣٤٩.

سَهَّلَ نَهجَ السَّبِيْلِ فَاقْتَفَرُوا آثَارَهُ والأُمُوْرُ تُقْتَفَرُ

٧- التطلع إلى نعيم الجنة.

لقد وجد المجاهدون فى سبيل الله فرصة سانحة لترك زينة الحياة الدنيا ومتاعها واستقبال حياة أخرى قوامها بذل الروح رخيصة فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، فتطلعوا فى أشعارهم إلى هذه الحياة الخالدة ونعيمها الذى لايزول، فنجد ناجية بن جندب الأسلمى يوم خيبر يرتجز بقوله[1]:

يَالَعِبَادِ اللَّهِ فِيْمَ يُرْغَبُ
مَا هُوَ إلا مَأْكَلٌ وَمَشْرَبُ
وَجَنَّةٌ فِيْهَا نَعِيْمٌ مُعْجِبُ

ويشم جعفر بن أبى طالب ريح الجنة -فى قتاله للروم- وكأنه يراها رأى العين، ويرى الروم قد حان عذابها، فيستبسل فى القتال حاملا راية الرسول -ﷺ- باذلا روحه فى سبيل الله، فيقول[2]:

يَاحَبَّذَا الْجَنَّةُ وَاقْتِرَابُهَا
طَيِّبَةٌ وَبَارِدٌ شَرَابُهَا
وَالرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا
عَلَىَّ إِذْ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

ويطمع ابن رواحة بنفس مؤمنة مطمئنة فى لقاء ربه حين وجد ريح الجنة يقترب منه، فيستنزل نفسه ويقسم عليها محرضا ومرغبا أن تدخل فى قلب

(١) السيرة جـ٣ ص٤٠٢.
(٢) العمدة جـ١ ص٣٧.

المعركة؛ لأنه لاحاجز بينها وبين الجنة إلا بضع خطوات، ثم يؤنب نفسه على إلفها لنعيم الدنيا، وقد حانت الفرصة لتظهر إخلاصها لله وإعراضها عن هذا النعيم وسعادتها بلقاء الله لتعيش فى هذا النعيم الأزلى، فيقول[1]:

أَقْسَمْتُ يَانَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ
لَتَنْزِلِنَّ أوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إنْ أجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّنَّهْ
مَا لِى أرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّهْ
قَدْ طَالَمَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ
هَلْ أنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِى شَنَّهْ

وهذه الأبيات ذات الصبغة الإسلامية تذكرنا بقوله تعالى[2]:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي *﴾.

فكانت أشعارهم -على هذا النحو- صرخات مدوية تدفعهم دفعا إلى الاستبسال واقتحام الأهوال، وتحمس إخوانهم المجاهدين على التضحية بأرواحهم فى سبيل النصر؛ ولذلك اختلفت حماستهم عن الحماسة الجاهلية؛ لأن فكرة الجهاد التى وهبها الشاعر نفسه -حيث جعل همه فى الدفاع عن الإسلام ونشر دعوته كما أمره الله بذلك- جعلت حماسته تختلف تماما عن الفخر بالثأر والانتقام للقبيلة كما كان فى الجاهلية، فالشاعر فى الإسلام أصبح يؤمن بقضية الجهاد نفسها إذ من خلالها يستطيع أن يفرج كرب المسلمين

(١) ديوانه ص١٠٨ ومابعدها.
(٢) سورة الفجر، الآيات ٢٧- ٣٠.

ويدفع عنهم المخـاطر والأهوال، كما أن دافعه إلى الجهاد لـم يكن رغبة فى الحياة الدنيا وزينتـها ليحقق جاها أو ثروة، ولكنه باع نفـسه لله يريد أن ينال عظيـم ثوابه، وإلى جانب ذلـك نرى الشاعر يـصدر فى شعره عن عـاطفة جماعية يستشعر فيها الوحدة الإسلاميـة لجماعة المسلمين، سواء أتغنى بفرديته بوصفه عضوا فى إطار هذه الجماعة أم تغنى بالجماعة نفسها.

وفى كل ذلك شاعت المعـانى الإسلامية التى تمثلت فى الفـداء والتضحية وبذل الأرواح، وإخلاص النيـة فى الجهاد، ورفضهم عرض الدنـيا، وإيمانهم بنصر الله لهم، فكانوا كما قال الله تبارك وتعالى[1]:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾.

* * *

خامسا: الرثــاء.

الرثاء من الأغراض الشعرية القديمة ويقصد به تأبين الميت بمثل ماكان يمدح به فـى حياته، وعـادة ما يسـلك الشـعراء فى رثائـهم إحدى ثـلاث طرق: الندب، أو التأبين، أو التعزية.

وقد سلك المخضرمون فى رثائهـم كل هذه الطرق التى وجه الإسلام إلى بعضها وحث على الالتزام بها وسلوكها وهذب من بعضها الآخر؛ لأن الحياة فى نظر الإسلام ظل زائل ونعيم فان. وعلى المؤمن أن يتقبلها كما هى وينظر إليها على أنها دار فـناء ومرحلة انتقال يتحدد بعدها المـصير الأبدى إما شقاء وإما نعيم، وأن ينظر إلى البشر على أنهم ودائع لله فى هذه الدنيا، ومتى أراد الله رد ودائعـه فلا راد لقضائه ولامـبدل لمشيئتـه، ولذلك جبل المؤمـن على التسليم بقضـائه وقدره والتماسك أمام النوازل بالصبر والاحـتساب طمعا فى عظيم الأجر والثواب.

---

(١) سورة المائدة، الآية٥٤.

وقد تغيرت بعد الإسلام مناقب التأبين، وتبدلت الشمائل التى يعددها الشعراء فى مراثيهم، إذ أخضعوها للمقاييس الإسلامية الجديدة، فتحدثوا بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية[1]، فتحدثوا عن مآثر إسلامية خالصة وشمائل تختص بالدين لابالدنيا ومجدوا بطولات الذين استشهدوا وأشادوا بمواقفهم فى نصرة هذا الدين.

وفى ذلك تقول إحدى الباحثات: «لأن الوازع الدينى قد رقق من مشاعرهم وجعلهم يحسون بجليل مصيبتهم حين يسقط شهيد ممن يحملون لواء الدعوة، فلا تكاد تمر معركة إلا وتخلف وراءها عديدا من قصائد الرثاء الموجع، والرثاء سجل حافل لأحاسيس الشعراء تجاه القتلى يسجلون انفعالاتهم الصادقة فى ساعات الحزن والألم، وغالبا ماكان يجمع شعراء صدر الإسلام بين الرثاء والهجاء على غير عادة الجاهليين فى إفراد الرثاء، ولم لا وأغلب من رثوهم استشهدوا فى سبيل إعلاء كلمة الله وفى سبيل العقيدة، فما المانع إذن من أن يتعرضوا لمقاتليهم بالهجاء، ومن ثم نرى هذا اللون من الشعر يقترن بالوعيد والتهديد للأعداء، وتعييرهم بالهزائم التى ألحقت بهم[2]».

فإذا كان المخضرمون قد مزجوا رثاءهم بالهجاء فى كثير من الأحيان وبيان سوء المنقلب والمصير الذى يصير إليه قتلى المشركين فإنهم كانوا يريدون توضيح هذا الفارق الهام بين مصير شهداء المؤمنين ومصير قتلى المشركين، وهذه الفكرة ألح عليها الشعراء فى كثير من أشعارهم.

وإن كان الرثاء عند المخضرمين يتفق مع الرثاء الجاهلى فيما يشيع فيه من نفحات الأسى والحزن والإحساس بالألم والفجعية واستشعار الأسف والجزع على الفقيد، إلا أنه يختلف عنه فى شيوع المعانى الإسلامية التى استنبطها الشعراء من روح الإسلام وتعاليمه، كالإيمان والتقوى، والهداية والرحمة،

(١) الإسلام والشعر ص١٦١.

(٢) شعر يثرب فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام، (رسالة دكتوراه غير منشورة) إعداد: ورد مكاوى ص٣٣٦.

والبر والوفاء والامتثال لإرادة الله وقضائه، وحسن تقبلها والتماسك أمامها بالصبر، وبيان مصير الشهداء الذين قدموا أرواحهم فى سبيل نصرة هذا الدين، وما أعده الله لهم من عظيم الثواب. كل هذه المعانى جعلت الشعراء ينفذون من حديثهم عن الميت إلى فلسفة الموت وإلى سنة الله فى الكون، والتأمل فى الحياة بكل مافيها حتى يصلوا إلى جوهرها، ويدركوا أنها ظل زائل لايدوم، وأنها طريق مؤد إلى الآخرة، فتطمئن قلوبهم، ويسلمون بقضاء الله وقدره.

وفى ذلك يقول أحد الباحثين: «لم يكن شعر الرثاء إلا صورة من صور الدعاية للدين، وبث الأفكار الإسلامية؛ لأن شعراء المسلمين كانوا يمزجون رثاءهم لقتلاهم بثواب الآخرة، والنعيم بجنان الخلد، والاستشهاد فى سبيل الدين هو الغاية السامية التى يسعى إليها المسلم، فالناحية المعنوية لدى المسلمين قوية ظاهرة، ولم تتح هذه الناحية للمشركين، فلم يجدوا التبرير المقنع لقتل أصحابهم ولم يكن أمامهم الهدف السامى البعيد الذى ترتبط به نفوسهم»[1].

كل هذه المعانى اعتملت فى نفوس الشعراء وكان لها صدى فى شعرهم فصدروا فى رثائهم عن هذه الروح الإسلامية ووضحت فيه سمات إسلامية جديدة يمكن تفصيلها فيما يلى:

١ - انقطاع الوحى عن المسلمين بموت الرسول -ﷺ.

كان موت الرسول -ﷺ- خطبا جللا ومصيبة فادحة فجع بها المسلمون جميعا، واهتزت مشاعرهم لتنزع منزعا جديدا فى الرثاء، فتحدثوا عن مآثره الإسلامية، وفضائله الدينية إلى جانب لوعة الفراق وُشدة الأسى والحزن التى أصابتهم، فنرى حسان بن ثابت يتمثل هذه المعانى الإسلامية حين فجع بموت

---

(١) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه د/ يحيى وهيب الجبورى، منشورات مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م ص١١٩.

الرسول -ﷺ-، فقد انقطع نزول وحى السماء إلى الأرض بموته وانقطعت سبل الهداية بعد أن كان قائما بينهم يهديهم إلى الرحمن وينقذهم من عذابه بأن يدلهم ويرشدهم إلى طريق الحق، فقد عاش حياته يجاهد فى سبيل الحق، فيقول: سعدنا بطاعتنا له، وكان بيننا خير إمام يعفو عن زلاتنا ويقبل عذرنا وييسر علينا ما اشتد من الأمور، ولكن قدر الله أن يختاره لجواره فباتت بلاد الحرم كالقفار؛ لانقطاع الوحى عنها، يقول[1]:

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْماً رَزِيَّةُ هَالِك ... رَزِيَّةُ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

تَقَطَّع فِيهِ مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمُ ... وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ ويُنْجِدُ

يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِى بِهِ ... وَيِنْقذُ مِنْ هَولِ الخَزايا وَيَرْشُدُ

إِمَامٌ لهم يَهْدِيهِمْ الحَقَّ جَاهِدًا ... مُعَلِّمُ صدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْعَدُوا

وإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْلِهِ ... فَمَنْ عِنْدَهُ تَيْسِيرُ ما يَتَشَدَّدُ

. . .

فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلى اللهِ رَاجِعاً ... يُبَكِّيهِ حَقُّ المُرْسَلاتِ ويَحْمَدُ

وأَمْسَتْ بِلادُ الحَرْمِ وَحْشاً بِقَاعُهَا ... لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَدُ

وكذلك فجع به أبو سفيان بن الحارث فطال ليله لشدة وقع الحادثة على نفسه، ورأى فى البكاء عزاء لنفسه وللمسلمين جميعا، واهتزت الأرض والجبال لفقده فكادت تميل جوانبها؛ لأنها فقدت خير البرية، ولأنهم فقدوا الوحى الذى كان يهبط به الروح الأمين جبريل -عليه السلام- على الرسول -ﷺ- وهذا جدير بأن تبكى عليه النفوس ولاتمل؛ لأنه كان يجلو الشك عنهم ويهديهم إلى الحق ويجنبهم الضلال بما يوحى إليه من عند ربه، فيقول[2] :

(١) ديوانه ص٣٧٨ ومابعدها.

(٢) الاستيعاب جـ٤ ص١٦٧٥ ومابعدها، وأسد الغابة جـ٦ ص١٤٧.

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لايَزُولُ	ولَيْلُ أخي المُصِيْبَةِ مِنْهُ طُولُ
وأَسْعَدَنِي البُكَاءُ، وَذَاكَ فِيْمَا	أُصِيْبَ المُسْلِمُونَ بِهِ قَلِيلُ
فَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيْبَتُه وَجَلَّتْ	عَشِيَّةَ قِيْلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
وتُصْبِحُ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا	تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيْلُ
فَقَدْنَا الوَحْيَ وَالتَّنْزِيلَ فِيْنَا	يَرُوحُ بِهِ وَيَغْدُو جَبْرَئِيْلُ
وَذاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ	نُفُوسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيْلُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا	بِمَا يُوحَى إِلَيهِ وَمَا يَقُولُ
وَيَهْدِيْنَا فَلا نَخْشَى ضَلالاً	عَلَيْنَا، وَالرَّسُولُ لَنَا دَلِيْلُ

وهذه المعانى الدينية الجديدة يستمدها أبو سفيان وغيره من الشعراء من آيات الذكر الحكيم مثل قوله تعالى[1] : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ويظهر كعب بن مالك أثر فقد الرسول -ﷺ- فى الناس والمجتمع، فلم يكتف بنعيه إلى أصحابه أو إلى البشر فقط بل أشرك الجن فى هذا النعى فيشير إلى قوله تعالى[2] : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ ففجيعة الأنس والجن بالرسول -ﷺ- ليست بالأمر الهين؛ لأن ذلك معناه انقطاع الوحى الذى كان يهبط

---

(١) سورة الشورى، آية ٥٢.

(٢) سورة الأحقاف، آية ٢٩.

عليـه فى حياته، ومعـناه أيضا فقـدان النور والرحمـة التى كانت تهـديهم، فيقول[1]:

أَلا انْـعِى الـنَّبِـىَّ إِلَى الْـعَـالَمِـينَـا ... جَـمِيْـعًـا لاسِيَّـمَا الْـمُـسْلِـمِينَـا
أَلا انْـعـى النَّـبـىَّ إِلَـى أَصْحَـابِـهِ ... وأَصْـحَاب أَصْـحَابه الـتَّابِـعِينَـا
أَلا انْـعِى الـنَّـبىَّ إِلى مَـنْ هَـدَى ... مِـنَ الْجِـنِّ لَـيْلَـةَ إِذْ تَسْـمَـعُونَـا
لِـفَـقْـدِ الـنَّـبِىِّ إِمَـامِ الْـهُـدى ... وَفَـقْـدِ الْمَـلائِـكَـةِ الْـمُـنْزَلِـينَـا

وهذه المعـانى تطرد فـى شعر كثيـر من الشعـراء المخضرمين الـذين رثوا الرسـول -ﷺ- ففكرة انـقطاع الوحـى وعدم هبـوط الملائكة تـلح عليـهم فأفصحوا عنها فى رثائهم بصور مختلفة تمتزج -فى الغالب- ببعض الفضائل الإسلامية الأخـرى، فنرى عاتكة بنت عـبدالمطلب تذرف الدموع عـلى خير البرية ونـور البلاد الموفق إلى الحـقيقة، المرشد إلـى الحق والفضيلـة، النقى المبارك، المـفرج كرب المكروبـين، كل هذه المعانى فـقدت بفقده إلـى جانب فقدهم الوحى الذى كـان ينزل عليه فى الصباح والمساء، وكـانوا يعيشون فى كنفه ويهتدون بهديه، فتقول [2]:

ياعَـينِ جُودى، مـا بقيـت، بعَـبْرَةٍ ... سَـحًّا عـلى خَـيْرِ الـبَرِيَّـة أَحْمَـد
ياعَينِ فاحْـتَفِلى وَسُحِّى وَاسْـجُمي ... وَابْكِـى عَلَـى نُور البـلاد مُحَـمَّدِ!
أَنَّى -لَـكِ الوَيْـلاتُ! مِثْـلُ مُحَـمَّدٍ ... فِـى كُلِّ نَـائِبَـةٍ تَـنُوبُ وَمَـشْهَـدِ؟
مَـنْ ذَا يَـفُكُّ عَـنِ الْمُـغَـلَّلِ غُـلَّـهُ ... بَعْدَ الْمُغَـيَّبِ فِى الضَّرِيحِ المـلحَدِ؟

. . .

---

(1) ديوانه ص٣٨١.

(2) طبقات ابن سعد جـ٢ ق٢ ص٩٤.

أَمْ مَـنْ لوَحْـى الـلَّه يُـتْرَكُ بَـيْـنَنَـا | فِى كُـلِّ مُمْسى لَـيْلَة أَوْ فِـى غَدِ؟
فَـعَلَـيْـكَ رَحْمَـةُ رَبِّـنَـا وَسَلامُـهُ، | يَاذَا الـفَوَاضِلِ وَالـنَّدَى والـسُّؤْدَدِ؟

وتركز هند بنـت أُثاثة فى رثائها للرسول -ﷺ- على هـذه الفكرة، فقد كان بينهـم نورا يضىء لهم السبل بالـكتب التى تنزل عليه مـن عند صاحب العـزة جل علاه، وكان جـبريل -علـيه السلام- يـهبط علـيه بآيات الـقرآن المحكمات فغاب عنهم كل ذلك بغيابه -ﷺ- فتقول[1]:

إِنَّـا فَقَـدْنَاكَ فَـقْدَ الأَرْضِ وَابِـلَهَـا! | فَاحْتَلْ لقَوْمِـكَ وَاشْهَدهمْ وَلاتَغب
قَدْ كُـنْتَ بَدْرًا ونُورًا يُـسْتَضَـاءُ بِه، | عَلَيْـكَ تُنْزَلُ مِنْ ذِى العِزَّة الـكُتُبُ
وكَانَ جِـبْرِيـلُ بالآيـاتِ يحْـضُرُنَـا | فَغَابَ عَـنَّا وَكُلُّ الغَـيْبِ مُحْتَـجِبُ

والآيات الـقرآنية الـتى استمـد الشعراء مـنها هـذه المعانى كـثيرة كقـوله تعالى[2]: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

٢- غياب النور الذى يهدي البشر.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى طرقـها الشعراء المخضرمون فى رثائهم للرسول -ﷺ- غياب النور الذى كان يهديهم وينجيهم من الظلمات؛ لأنهم أحسوا أنهم فى نعـمة من الله أنعم بها عليهم والرسـول -ﷺ- بينهم يضع لهم المنهج ويوضح لهم طريق الحق، ويـحرص على هداهم ويعطف عليهم ويرأف بحالهم، فكـانوا يتمتعون فى كنف هذا النـور الذى أنقذهم من هول

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ٢ ص ٩٧.
(٢) سورة النحل، الآية ١٠٢

الخزى فى الحياة الدنـيا وفى الآخرة، فعندما فقد الـرسول -ﷺ- فقدوا هذا النور الذى أصابـه سهم الموت فحـمله إلى الله تعالى لينزل منـزله فى المقام المحمود الذى أعده الله له، فيقول حسان[1]:

فَبَيْنَا هُمُ فِى نِعْمَةِ الـــــلّهِ بَيْنَهُمْ ... دَلِيلٌ بِهِ نَهْجِ الـــطَّرِيـــقَةِ يُقْصَدُ
عَزِيـزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عَنِ الـهُدَى ... حَرِيـصٌ أَنْ يَسْتَقِيــــمُوا وَيَهْتَدُوا
فَبَيْـنَا هُمُ فــى ذَلِكَ الـنُّورِ إِذْ غَدَا ... إِلى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصَدُ
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إلى الـلَّهِ رَاجِعـــاً ... يُبَكِّيــــهِ حَقُّ المُرْسَلاتِ وَيَحْمَدُ

والشاعر يستمد بعض مـعانى هذه الأبيات من قوله تعالى[2]: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويستـمـد كـعب بن مـالك مـعـانى رثـائه للرسـول -ﷺ- من قـوله تعالى[3]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيـراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ فهـذه المعانى تسـيطر على مشاعـر كعب وأحـاسيسـه فى رثائه وتمثله لفضائله -ﷺ- فهو يلح على عينيه أن تبكيا الرسول خير البرية الذى اصطفاه الله من بين خلقه وجعله سراجا منيرا يهديهم من الظلمات إلى النور وبشرهم برضوان ربهـم وأنذرهم من عقابـه وعذابه فأنقـذهم الله بهذا النـور ونجاهم برحمـته، وبفقـدهم للرسول -ﷺ- فقـدوا كل هذه الفضـائل وغاب عنهم النور الذى كان يهديهم، فيقول[4]:

(١) ديوانه ص ٣٧٩.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٨ .
(٣) سورة الأحزاب، الآيتان ٤٥، ٤٦ .
(٤) ديوانه ص١٧٣ .

يَـاعَـيْنُ فَـابْـكِـى بِدَمْـعٍ ذَرَى | لِـخَـيْـرِ الـبَـرِيَّةِ وَالْـمُـصْـطَـفَـى
...
عَـلَى خَـيـرِ مَـنْ حَمَـلَـتْ نَاقَـةٌ | وَأَتْـقَـى الْـبَـرِيَّـةِ عِـنْـدَ الـتُّـقَـى
...
نَـخُصُ بِـمَـا كَـانَ مِـنْ فَـضْلِـه | وَكَـانَ سِرَاجًـا لَـنَا فِـى الـدُّجَـا
وَكَـانَ بَـشِـيْـراً لَـنَـا مُـنْـذِراً | وَنُـوراً لَنَـا ضَـوْءُه قَـدْ أَضَـا
فَـأَنْـقَـذَنَـا اللهُ فِـى نُـورِه | وَنَـجَّـى بِـرَحْـمَـتِـهِ مِـنْ لَـظَـا

٣- العدل والتقوى.

وفى رثاء الشعراء المخضرمين للصحابة الراشدين نجدهم يتحدثون عن سيرتهم الإسلامية ويعددون مناقبهم وفضائلهم فى الإسلام إلى جانب آثار الفجعية بهم على نفوسهم. فانتقل الخلفاء الراشدون الواحد منهم إثر الآخر إلى جوار ربه، ورثاهم الشعراء بكثير من الشعر الذى يحمل هذه السمات الإسلامية. فعندما توفى أبو بكر -رضى الله عنه- بكاه الشعراء بما جادت به قرائحهم، فنرى حسان بن ثابت يذكر تقواه وعدله ووفاءه لحمل الرسالة بعد النبى -ﷺ- ، وأنه أول من صدق رسول الله -ﷺ-، واتبع هواه، وعاش حياته فى طاعة الله ورسوله ماحاد عن ذلك، يقول[1]:

إِذَا تَذَكَّـرْتَ شَجْـوًا مِنْ أَخِـى ثِقَـةٍ | فَاذْكُـرْ أَخَاكَ أَبَـا بَكْـرٍ بِمَـا فَعَـلا
خَـيْرَ الـبَـرِيَّـةِ أَتْقَـاهَـا وَأَعْـدَلَهَـا | بَـعْدَ الـنَّبِّـى وأَوْفَاهَـا بِمـا حَمَـلا

---

(١) ديوانه ص٢١١ ومابعدها، وراجع عيون الأخبار جـ٢ ص١٥١، والطبرى جـ٢ ص٣١٤، والروض جـ٣ ص٢١ وقد سجلنا بيتين فى شعر المديح نظن أنهما من القصيدة نفسها ،ولكن من روايتهما يتضح أنهما قيلا فى حياة الرسول فى مدح أبى بكر وليس فى رثائه. راجع ديوانه ص٣٩٥.

والثَّـانِى الـصَّادِقَ المحْمُـودَ مَشْـهَدُه وَأَوَّلَ النَّـاسِ مِنْهُـمْ صَدَّقَ الـرُّسُلا
عَـاشَ حَـمِيْـداً لأَمْـرِ اللهِ مُـتَّبِـعًـا بِهَـدْيِ صَاحِبِهِ المَـاضِى وَمَا انْتَـقَلا

وهذه الفـضائل الإسلاميـة التى تميز بهـا أبو بكر ذكرهـا الرسول -ﷺ- لأصحابه فى قـوله: (إِنَّ اللهَ بَعَثَنِى إِلَيْكُـم فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُـو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِى بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِى صَاحِبِى مَرَّتَيْنِ فَمَا أُوذِى بَعْدَهَا)[1]:

ونرى الشـعراء فى رثائهـم لعمر بن الخطـاب -رضى الله عنـه- يعددون مناقبه وفضائله فى الإسلام، فلم تغب عنهم نصرته للإسلام فى بداية الدعوة وحرصه على رفعـة هذا الدين فى عهد الرسول -ﷺ- وحرصـه على جمع كلمة المسلمين فى حياة أبى بكر -رضـى الله عنه، وحرصه على تحقيق الخير والعدل وانـتشار الإسلام فى كـل بقاع الأرض، فلـم نر أحدا من المسـلمين يجاريه فى عدله وورعه وتقواه، وفى ذلك يقول جزء بن ضرار الذبيانى[2]:

جزَىَ اللهُ خَـيْراً مِنْ أَمـيرٍ وَبَـارَكَتْ يَـدُ اللهِ فـى ذَاكَ الأَدِيمِ الْمُـمَـزَّقِ
فَمَنْ يَسْـعَ أَوْ يَرْكَبْ جَنَاحَىْ نَـعَامَةٍ لِيُـدْرِكَ مَا قَـدَّمْتَ بِالأَمْـسِ يُسْـبَقِ
قَضَـيْتَ أُمُـوراً ثُمَّ غَـادَرْتَ بَعْـدَهَا بَـوائِجَ فِـى أَكْـمَامِـهَا لَـمْ تُـفَتَّـقِ
أَبَعْـدَ قَتِـيلٍ فِى الْـمَدِيْنَـةِ أَظْلَـمَتْ لَهُ الأَرْضُ تَـهْتَزُّ الـعِضَاهُ بِـأَسْوُقِ
تَظَلُّ الْـحَصَانُ الْبِكْرِ يُـلْقَى جَنِيْـنُهَا نَـثَـا خَبَـرٍ فَـوْقَ المَـطِىِّ مُعَـلَّـقِ
وَمَا كُنْـتُ أَخْشَى أَنْ تَكُـونَ وَفَاتُهُ بِكَفَّـىْ سَبَنْتَـى أَزْرَقِ العَيْنِ مُـطْرِقِ

---

(١) البخارى جـ٢ ص٢٨٩ ومابعدها.
(٢) راجع طبـقات ابن سلام جـ١ ص١٣٣، والأغانى جـ٩ ص١٥٩، والحماسة بشـرح المرزوقى ص ١٠٩٠ ومابعدها (وقد نسبها أبو تمام للشماخ).

ورثاه حسان بن ثابت بـأبيات تظهر فيها هذه المعانـى الإسلامية بوضوح، حيث يبين لنـا فجيعة المسلمين بقـتله -رضى الله عنه؛ لأنه كان يـعكف على تلاوة القرآن الكريم، رءوفا بالمؤمنين، غليـظا على المشركين، وهو أهل لثقة المسلمين به؛ لأنه صادق القول والعمل، مسرع إلى الخيرات مطيع لأوامر الله -عز وجل- لايخـشى فى الحق لومة لائـم فهو لايفرق بين قـريب وغريب، يقول[1]:

وفَـجَّـعَـنَـا فَـيـرُوزُ لادَرَّ دَرُّهُ ... بِأَبْـيَضَ يَـتْلُو المُـحْكَمَـاتِ مُنِيبِ

رَؤُوفٍ عَلَى الأدْنَى غَلِيْظٍ عَلَى الْعِدَا ... أَخِـى ثِقَـةٍ فِي الـنَّائِبَاتِ نَـجِيْـبِ

مَتَى مـا يَقُلْ لايَكْـذِبُ القَوْلَ فِعْـلُهُ ... سَرِيـعٍ إِلَى الْخَيْـرَاتِ غَيْرِ قَـطُوبِ

مُـطِيْـعٍ لأَمْـرِ اللهِ بِـالْحَـقِّ عَـارِفٍ ... بَـعَـيْـدُ الأَنَـامِ عِـنْـدَهُ كَـقَـرِيْـبِ

وهذه المعانى الدينية استمدها الشعراء من آى الذكر الحكيم وتأثروا بها فى رثائهم كقوله تعالى[2]: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

---

(١) ديوانه ص٢١٢، وزهر الآداب جـ٢ ص٧٤، والمردفـات من قريش لأبى الحسن على بن مـحمد المدائنى، ضمن مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبدالسلام هـارون الطبعة الثانية مصطفى البابى الحلبى ١٣٧٢ هـ-١٩٧٢م جـ١ ص٦٣. (ونسب الحصرى والمدائـنى الأبيات لعاتكة بنت زيد بن عمرو بـن نفيل زوجة عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه-).

(٢) سورة المائدة ،الآية ٥٤.

(٣) سورة المائدة، الآيات ٧:٩.

ويأخذون أيضا معنى العدل والوفاء من قوله تعالى[1]: ﴿وَإِذَا قلتُم فَاعدلُوا وَلَو كَانَ ذَا قُربَى وَبِعَهـد الله أَوفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَذكَّرُونَ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿لَن تَنفعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وهذه المعانى تطرد أيضـا فى رثاء الشعراء لعـثمان بن عـفان -رضى الله عنه- فنرى كـعب بن مالك يعدد خـصاله ويسـجل مناقبه الدينـية فهـو إمام المسلمين الذكى الطيب الـذى من خلائقـه الصلاح والنقـاء والحلم والتقـوى والوفاء، وبهذه الفضائل ساس المسلمين فى خلافته، فيقول[3]:

يـــــا قَاتَلَ اللهُ قَوْمًا كَانَ أَمْرَهُمُ ... قَتْلُ الإِمَامِ الـذَّكِىِّ الـطَّيِّبِ الـرُّدُنِ

...

قـــــــد قَتَلُوهُ نَقِيًّا غَيْرَ ذِى ابْنِ ... صَلَّى الإلـــهُ عَلَى وَجْهٍ لَهُ حـسنِ

قَدْ جَمَّعَ الْحِلْمَ وَالتَّقْوَى لِمَعْصـمةٍ ... مَعَ الْخِلافَةِ أَمـــــراً كَانَ لَمْ يَشِنِ

وقد ورد فى فضائل عثـمان -رضى الله عنه - ماروى عن أبى موسى «أن النبى -ﷺ- دخل حائطا وأمرنى بحفظ باب الحائط فـجاء رجل يستأذن فقال ائذَنْ له وبَشِّرْه بالجنَّة فإذا أبو بكر. ثم جاء آخر يستأذن. فقال ائذَنْ لهُ وَبشِّرْهُ بالجنَّة فـإذا عمـر. ثم جاء آخـر يستـأذن، فسكت هُنَيْهَةَ، ثم قـال: ائذن له وبشِّرهُ بالجنَّة عَلَى بَلْوى سَتُصِيبُهُ فإذا عثمان بن عفان»[4].

فلما انقض الثائرون عـلى عثمان وقتلوه رثاه الشـعراء بشعر كثـير اختلفت مضـامينه وتعـددت اتجاهاته، فمنهـم من مدحه وبكاه ومنهم مـن سُرَّ بقتله،

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ٣.

(٣) ديوانه ص٢٨٢ ومابعدها.

(٤) البخارى جـ٢ ص٢٩٦.

وأخذ الشعر يعبر عن الانقسام السياسى الذى شهدته الجماعة الإسلامية وكأن مقتل عثمان كان ذروة خلاف قديم بين الأمويين والهاشميين فأظهر كل فريق عداوة للآخر وكلاهما يعتقد أنه على حق، فنرى حميد بن ثور الهلالى يعبر عن خطورة هذا الحدث على المسلمين فيراه انتهاكا لشخص الخليفة وانتهاكا لحرمة الخلافة دون أن يغفل هذه المعانى الإسلامية التى تتضح من قوله(١):

إنِّى وربِّ الهَدَايَا فى مَشاعِرها ... وحيثُ يُقْضَى نُذورُ النَّاسِ والنُّسُكُ

وربِّ كلِّ مُنيبٍ باتَ مُبْتهِلاً ... يَتْلُو الكتَابَ اجْتهَادًا لَيْسَ يَتَّرِكُ

لا أُنْكرنَّ الَّذِى أَوْلَيتنِى أبدًا ... حَتَّى أُعَدَّ مع الهَلْكَى إذَا هَلَكُوا

إنَّ الخِلافَةَ لما أَظْعنَتْ ظَعَنَتْ ... عن أَهلِ يَثْربَ إذْ غيرَ الهُدَى سَلَكُوا

صارَتْ إلى أَهْلِها منهم ووَارِثها ... لَمَّا رأَى الله فى عُثْمانَ ما انْتهَكُوا

السَّافِكى دَمه ظُلْمًا ومَعْصِيةً ... أىَّ دَمٍ -لاهُدُوا- من غَيِّهم سَفَكُوا

والْهَاتكى سِتْرِ ذى حَقٍّ ومَحْرَمَةٍ ... فأَىَّ سِتْرٍ على أَشْياعِهم هَتَكُوا

والفَاتِحى بَابِ قُفْلٍ لايَزالُ بِه ... قَتْلٌ بِقَتْلٍ إلى دَهْرٍ، ومُعْتَرَكُ

ونرى الشعراء فى رثائهم لعلى بن أبى طالب -كرم الله وجهه- يعددون مناقبه وفضائله الدينية فهو حب رسول الله -ﷺ- بقوله له «أَمَا تَرضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» (٢).

وروى البخارى أنه -ﷺ- قال: «لأُعْطينَّ الرَّايةَ أو ليأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسولُهُ، أوْ قالَ يُحبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَفْتَحُ اللهُ عليه فإذَا نَحْنُ بعَلِىّ وَمَا نَرْجُوهُ فقالُوا هذَا عَلِىٌّ فَأعطاهُ رسول الله -ﷺ- الرَّايَةَ يَفْتَحُ اللهُ

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالى، بتحقيق عبدالعزيز الميمنى -طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ- ١٩٥١م ص١١٤.

(٢) البخارى جـ٢ ص٣٠٠.

عليه»[1]. وقد كان أحب الأسماء إليه ماسماه به الرسول -ﷺ- حين قال له اجلس أبا تراب أو قم أبا تراب[2].

فقد أدرك الشعراء فضائله وخصاله الإسلامية كتلاوته للقرآن وحب الرسول -ﷺ- له وقرابته للرسول وتصديقه له وهو غلام، وإقامته للعدل والحق وتسويته بين الناس وأشادوا بعلمه وخلقه وتواضعه وحسن سيرته، فنرى أبا الأسود الدؤلى يرثيه- كرم الله وجهه- بهذه الفضائل، ويضمن رثاءه بعض معانى آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى[3]: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ وقوله تعالى[4]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، فيقول[5]:

ألا يــــاعَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدِينَا ... ألا تَبْكى أَميرَ المُؤمنينَا

تُبَكِّى أُم كُلثُومٍ عليه ... بعَبْرتها فَقَدْ رأَت اليَقِينَا

ألا قُلْ للخوارج حيثُ كانوا ... فلا قَرَّت عيونُ الشَّامتينَا

أَفى شَهْرِ الصِّيامِ فجَعْتُمونَا ... بخَيرِ النَّاسِ طُرّاً أجْمَعِينا

قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكبَ المطَايَا ... وذَلَّلها ومَنْ رَكبَ السَّفِينَا

ومَنْ لَبِسَ النِّعَال ومَنْ حَذَاهَا ... وَمَنْ قَرأ المثَانِىَ والْمُبِينَا

وكلُّ مناقِب الخَيرات فيه ... وَحبُّ رَسُول ربِّ العَالَمِينَا

لقد علمَتْ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ ... بأَنَّكَ خَيْرُهُمْ حَسَباً ودِينَا

إذَا استقبلتَ وَجْهَ أَبى تُراب ... رأَيتَ البَدْرَ فَوْقَ النَّاظِرينَا

(١) البخارى جـ٢ ص ٣٠٠.
(٢) المصدر نفسه والصحيفة نفسها، ومسلم جـ١٥ ص١٨٢.
(٣) سورة الحجر، الآية١.
(٤) السور نفسها، الآية ٨٧.
(٥) نهاية الأرب للنويرى جـ٢٠ ص٢١٦ ومابعدها، وديوانه ص٢١٣..

وَكُنَّا قَبْلَ مقتَلِه بخَيْرٍ ... تَرى مَولَى رَسُولِ اللَّهِ فينا
يَقيمُ الحَقَّ لايَرتابُ فيهِ ... ويَعْدلُ فى الْعدا والأقْرَبينا
ولَيْسَ بِكَاتمٍ عِلْمًا لدَيْهِ ... ولَمْ يُخْلَقْ منَ الْمُتجَبِّرينا

ويذكر حسان بن ثابت فى رثائه لسعد بن معاذ بعض مناقبه الإسلامية، فعند موته قال رسول الله ـ ﷺ ـ «اهْتَزَّ الْعَرْشُ لمَوْت سَعْد بْنِ مُعاذ»(١) وقد سبق أن بيَّنا فى شعر المديح أنه حكم بحكم الله فى بنى قريظة. فيأخذ حسان هذه المعانى الدينية ويضمنها رثاءه، فيقول(٢):

فإنْ تَكُ قَدْ ودعتنا عن مودَّةٍ ... وأمْسَيْتَ فى غَبْراءَ مُظْلمَةِ اللَّحْد
فأنْتَ الَّذى يَاسَعْدُ أُبْتَ بمَشْهَدٍ ... كَريمٍ وأثْوابِ المكارِمِ والحَمْد
بحكْمكَ فى حَيَّىْ قُرَيظَةَ بالَّذي ... قضى اللهُ فيهمْ ماقضيتَ على عَمْد
فَوَافَقَ حُكْمَ اللهِ حُكْمُكَ فيهمُ ... ولَمْ تَعْفُ إذ ذُكِّرتَ ماكانَ منْ عَهْد

وتمتزج الفضائل الإسلامية فى الرثاء ـ أحيانا ـ بالإنذار والتهديد والوعيد، فعندما استشهد طلحة والزبير فى موقعة الجمل واستشهد فيها كثير من المسلمين وكان من بينهم عبد الله بن حكيم بن حزام، وكان الزبير خاله، فقالت أمه ترثيه وترثى أخاها الزبير، وتذكر هذه الفضائل الإسلامية، وتبشر القتلة بالجحيم الذى سينتظرهم؛ لأنهم قتلوا حواري النبى ـ ﷺ ـ وصهره، كما تتهمهم أيضا بقتل عثمان وضياع هذا الدين على أيديهم، فقتل هؤلاء معناه ضياع الدين وفرائض الإسلام كالصلاة والصوم، فتقول(٣):

(١) البخارى جـ٢ ص ٣١٣.
(٢) ديوانه ص ١١٤.
(٣) نسب قريش للمصعب ص ٢٣٢، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار تحقيق محمود شاكر، نشر مكتبة العروبة القاهرة ١٣٨١هـ ١٩٦١م جـ١ ص٣٧٩ وما بعدها، وأسد الغابة جـ٧ ص١٣٣.

أَعَيْنَيَّ جُودَا بـالـدُّمُوع فَـأَفْرِغـا عَـلَى رَجُـلٍ طَلْـق اليَـدَيْنِ كَـرِيمِ
زُبَـيْـراً وعَـبْدَ الله نَـدْعُـو لحـارث وَذِى خَـلَّـة مِـنَّـا وحمْـلِ يَـتِـيْـم
قَـتَلْـتُـمْ حَوَارِيَّ الـنَّـبـيِّ وصِهـرَهُ وصـاحِبَـهُ فَاسْـتَبْـشِـرُوا بجَـحِيـم
وَقَدْ هَـدَّنى قَـتْلُ ابْـنُ عَفَّـانَ قَبْـلَهُ وَجَـادَتْ عَلَـيْه عَـبْـرَتى بِـسَجُـوم
وأَيـقَنْـتُ أَنَّ الدِّيــنَ أَصبَـحَ مُدْبـراً فكَـيفَ نُـصَلِّـى بَعْــدَهُ ونَـصُــومُ
وكيْفَ بِـنا أَمْ كَيْفَ بِـالدِّينِ بَعْـدَمَا أُصِيـبَ ابْنُ أَرْوَىٰ وابْنُ أُمِّ حكِـيمِ

٤ ـ نصرة الإسلام وجهاد الكفار.

وتظهـر هذه المعانـى عند الشـعراء المخضرمين عـندما يتـوجهون برثـائهم لشهداء المسلمين، فـهم يعددون مناقبهم ويتحدثون عن شجـاعتهم ونصرتهم للإسلام وجهادهم للكفار وإقدامهم على الموت إلى جانب إحساسهم بالأسى والحزن على فقدهم.

فانطلق الشعراء فى رثائهم لشهداء المسلمين يعبرون عن هذه المعانى فعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ـ ﷺ ـ وقد مثَّل به المشركون يوم أحد، فجع به المسلـمون جميعا، ولم ير الرسول ـ ﷺ ـ منظـرا أوجع لقلبه منه، وأشفق عـلى صفية بنت عبـد المطلب ـ وكان أخاها لأمهـا وأبيها ـ من رؤيته بعـد أن مثل به، فأمر ابـنها الزبير بـن العوام أن يصرفهـا حتى لاترى حمزة فى هذه الصورة، فإذا بها تقول[1]: «ولم وقد بلغنـى أن قد مثل بأخى وذلك فى الله؟ فـما أرضانا بمـا كان فى ذلك، لأحـتسبن ولأصبـرن إن شاء الله». فأذن لـها الرسول ـ ﷺ ـ فـى رؤيته، فـما زادت حين رأته عـلى أن صلت عليه واستـرجعت واستغفرت له. وفى رثائها إياه تبـرز لنا هذه المعانى فهو أسد الله الذى كـان يذود عن الإسلام ويجاهد الكفار بـكل ما أوتى من

(١) السيرة جـ٣ ص٤٨.

قوة، فتقول[1]:

فَوَ الله لا أَنْسَاكَ مَا هَبَّت الــصَّبَا ... بُكَاءً وحُزْناً مَحْضَرِى ومَسِيــــرِي
عَلـــى أَسَدِ الله الَّذى كَانَ مِدْرَهًا ... يَذودُ عَنِ الإسْلامِ كُلَّ كَفُورِ

ونرى حسان بن ثابت يرثيه بقصيدة يستهلها بمقدمة طللية تستغرق أبياتا ثلاثة ليمهد لهذه الصدمة العنيفة التى اهتزت لها نفوس المسلمين؛ لأن حمزة كان درعا واقيا لهم يدفع عنهم المصائب ويحميهم من الأمور النوازل، فجهاده فى سبيل الإسلام أمر واضح بيِّن فلم يتوان ولم يتخاذل فى نصرته، فيقول[2]:

كُنَّا نَرى حَمْزَةَ حِرْزًا لَنَا ... مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَابَنَا نَازِلِ
وكَانَ فى الإسْلامِ ذَا تُدْرإٍ ... لَمْ يَكُ بالوَانى ولا الخَاذِلِ

فكان لمركز حمزة لدى المسلمين وحزن الرسول - ﷺ - عليه وتأثره العميق لاستشهاده وصدمة المسلمين بذلك أثر واضح فى نفوس كثير من الشعراء. فنرى رثاء كعب بن مالك له يفيض بالعواطف المتأججة والأحاسيس الصادقة فيصور شدة وقع الصدمة على نفسه بقوله[3]:

ولَقَدْ هُددْتَ لفقْدِ حَمْزَةَ هَدَّةً ... ظَلَّتْ بَنَاتُ الْجَوفِ مِنْهَا تُرْعَدُ
ولَوْ أنَّهُ فُجِعَتْ حِرَاءُ بِمِثْلِهِ ... لَرَأَيْتَ راسِيَ صَخْرِهَا يَتَبَدَّدُ

ثم يذكر بعد ذلك مناقبه الإسلامية وجهاده للكفار ومنزلته عند الرسول - ﷺ - فيقول[4]:

---

(١) السيره جـ٣ ص١٥٧، وفى ديوان حسان ص٢١٩ أبيات مماثلة لهذين البيتين مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

(٢) ديوان حسان ص٢٢١.

(٣) ديوان كعب ص١٨٩.

(٤) المصدر نفسه ص١٩٠.

قرمٌ تمكّنَ في ذُؤابةِ هاشمٍ حيثُ النُّبوّةُ والنَّدى والسُّؤددُ

والعاقرُ الكُومِ الجلادِ إذا غدتْ ريحٌ يكادُ الماءُ منها يجمُدُ

والتّاركُ القِرْنَ الكَميَّ مُجدّلاً يومَ الكريهةِ والقَنا يتقصّدُ

وتراهُ يرفُلُ في الحديدِ كأنّهُ ذو لِبْدةٍ شَثْنُ البراثنِ أربدُ

عمُّ النّبيِّ مُحمّدٍ وصفيُّه وردَ الحِمامَ فطابَ ذاكَ المَوردُ

وأتى المنيّةَ مُعْلَماً في أُسرةٍ نصرُوا النّبيَّ ومنهُمُ المُستشهَدُ

ونراه في قصيدة أخرى يطالب صفية أخته أن تبكيه وتطيل البكاء على أسد الله حمزة بن عبد المطلب الذي كان عزا للمسلمين وخاصة أيتامهم وليثًا في المعارك عند احتدام القتال؛ لأنه طالما جاهد الكفار ونصر المسلمين يريد أن يفوز برضا الرسول - ﷺ - ورضوان الله -عز وجل- صاحب العرش والعزة، فيقول[1]:

صفيّةُ قُومي ولا تعْجَزي وبكّي النِّساءَ على حمزةِ

ولا تسأمي أنْ تُطيلي البُكا على أسدِ الله في الهزّةِ

فقدْ كانَ عزّاً لأيتامنا وليْثَ المَلاحمِ في البزّةِ

يُريدُ بذاكَ رضَا أحمدٍ ورضْوانَ ذي العرْشِ والعزّةِ

والشاعر في هذه الأبيات يستوحى معنى قوله تعالى[2]: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

ونرى حسان بن ثابت في قصيدة أخرى يرثي شهداء المسلمين فيصور ما به من أسى وحزن لفقد هؤلاء الرجال الذين وفوا يوم بدر للرسول - ﷺ -

(١) ديوان كعب ص ٢١٦.

(٢) سورة الحشر، الآية ٨.

والمنايا تحلّق فوق رؤوسهم فلم يخذلوه بل أجابوا دعوته وأطاعوه ونصروه، وقدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله؛ لأنهم يرجون شفاعة نبيهم - ﷺ - يوم لاتنفع شفاعة الشافعين، فيقول[1]:

وَفوْا يَوْمَ بَدْرٍ للرَّسُولِ وفَوْقَهُم ... ظلالُ المَنَايَا والسُّيُوفُ اللَّوَامِعُ
دَعَا فأَجَابُوهُ بحَقٍّ وكُلُّهُم ... مُطِيعٌ لَهُ فى كُلِّ أَمْرٍ وسَامِعُ
فَمَا بدَّلُوا حَتَّى تَوَافَوا جَمَاعَةً ... ولا يَقْطَعُ الآجَالَ إلا المَصَارِعُ
لأَنَّهُمُ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً ... إذَا لَمْ يَكُنْ إلا النَّبِيِّينَ شَافِعُ

وفى رثائه لشهداء مؤتة يتمثل هذه المعانى الدينية فيذكر زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبدالله بن رواحة هؤلاء القادة الذين غدوا بخيار رجال المؤمنين إلى مؤتة لينالوا الشهادة جميعا لأمر الرسول - ﷺ - ثم يخص بالذكر جعفر بن أبى طالب الذى جاهد أعداء الإسلام حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وفاء لأمر الرسول -ﷺ - ثم ينسبه لبنى هاشم ويعدد رجالا منهم، فهم دعائم العز وجبل الإسلام الذى يلتف الناس حوله ويقهرون أعداءهم ويرفعون البلاء عن المسلمين فى المآزق الشديدة؛ لأنهم أولياء الله خصهم بحكمه وكتابه المطهر، فيقول[2]:

رأيتُ خِيارَ المُؤْمِنينَ تَوَارَدُوا ... شَعُوبَ وقد خُلِّفْتُ فِيمَنْ يُؤَخَّرُ
فلايُبْعِدَنَّ اللّهُ قَتْلى تَتَابَعُوا ... بِمُؤْتَةَ مِنْهُمْ ذُو الجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وزيدٌ وعبدُ الله حِينَ تَتَابَعُوا ... جَمِيعًا وأَسْبَابُ المَنِيَّةِ تَخْطِرُ
غَدَاةَ غَدَوْا بالمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ ... إلى المَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ
فَطَاعَنَ حَتَّى مَاتَ غَيْرَ مُوَسَّدٍ ... بِمُعْتَرَكٍ فيه قَناً مُتَكَسِّرُ

...

(1) ديوان حسان ص ٢٤١.
(2) المصدر نفسه ص ٢٢٣.

وكُنَّا نَرَى فى جَعْفَرٍ من مُحَمَّدٍ ... وَفَاءً وأَمْرًا حَازِمًا حين يَأْمُرُ

ومازال فى الإِسْلامِ مِن آل هَاشِمٍ ... دَعَائِمُ عِزٍّ لا تَزُولُ ومَفْخَرُ

هُمُ جَبَلُ الإِسْلامِ والنَّاسُ حَوْلَهُمْ ... رِضَامٌ إِلى طَوْدٍ يَرُوقُ ويَقْهَرُ

. . .

بهِمْ تُكْشَفُ اللأْوَاءُ فِي كُلِّ مأزقٍ ... عُمَاسٍ إِذَا مَا ضَاقَ بالقَوْمِ مَصْدَرُ

هُمُ أولياءُ اللهِ نَزَّلَ حُكْمَهُ ... عَلَيهِمْ وفيهم ذَا الكِتَابُ المُطَهَّرُ

فمن تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن؛ لأن هؤلاء القوم لهم البشرى كما وعدهم الله بذلك فى قوله تعالى[1] : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

ويصور كعب بن مالك فى رثائه لشهداء المسلمين شجاعتهم وجهادهم للكفار والذود عن الإسلام والمسلمين وطاعتهم للرسول-ﷺ- وصبرهم تحت لوائه حتى قدَّموا أرواحهم فى سبيل الله يبغون بذلك الجنة التى وعد بها عباده المخلصين الذى اختبر إيمانهم فكانوا على ملة الله لم يأثموا. والشاعر فى هذه الأبيات يستمد معانيها من آى الذكر الحكيم فيأخذ معنى قوله تعالى[2] : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فيقول[3]:

(١) سورة يونس، الآيات ٦٢: ٦٤.

(٢) سورة محمد، الآية ٣١.

(٣) ديوان كعب ص ١٨٧ وما بعدها.

نَشَجْتَ وَهَلْ لَكَ مِنْ مَنْشَجِ	وكُنْتَ مَتَى تَذَّكَرْ تَلْجَجِ
تَذَكُّرَ قَوْمٍ أتَانِى لَهُمْ	أحَادِيثُ فِى الزَّمَنِ الأَعْوَجِ

...

بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاءِ	لِوَاءِ الرَّسُولِ بِذِى الأَضْوُجِ
غَدَاةَ أَجَابَتْ بِأَسْيَافِهَا	جَمِيْعًا بَنُو الأَوْسِ والْخَزْرَجِ
وأَشْيَاعُ أَحْمَدَ إذْ شَايَعُوا	عَلَى الْحَقِّ ذِى النُّورِ والمَنْهَجِ
فَمَا بَرِحُوا يَضْرِبُونَ الكُمَاةَ	ويَمْضُونَ فى الْقَسْطَلِ الْمُرْهِجِ
كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكٌ	إلَى جَنَّةِ دَوْحَةِ الْمَوْلِجِ
فَكُلُّهُمُ مَاتَ حُرَّ الْبَلاءِ	عَلَى مِلَّةِ اللهِ لَمْ يَحْرَجِ

وتظهر المعانى الإسلامية بوضوح فى رثاء كعب بن مالك لشهداء مؤتة الذين قدموا أرواحهم فى سبيل الله، نراه يذكر مناقبهم فهم خرجوا لنصرة الإسلام وجهاد أعدائه وصبروا أمامهم، لم يرهبوهم لإيمانهم بما كلفوا به، ولذلك فالله تعالى يصلى عليهم، ويغمرهم بفضله ورحمته، وهذه المعانى الدينية يستمدها الشاعر من معانى القرآن الكريم فيتمثل قوله تعالى(١):

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

فهذه المعانى يضمِّنها الشاعر رثاءه لشهداء مؤتة فيقول(٢):

---

(١) سورة البقرة،الآيات ١٥٤: ١٥٧.

(٢) ديوان كعب ص٢٦٠وما بعدها.

وَاعْتَــــــادَنِى حُزْنٌ فَبِتُّ كَأَنَّنِى ... بِـــبَنَاتِ نَعْشٍ وَالـــسِّمَاكِ مُوَكَّلُ

وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْجـــوانحِ وَالْحـــشَا ... ممَّا تَأَوَّبَنِى شـــــــهَابٌ مُدْخَلُ

وَجْدًا عَلَى الـــنَّفَرِ الَّذِيـــنَ تَتَابَعُوا ... يَوْمًا بِمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا

صَلَّى الإِلـــــــهُ عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ ... وَسَقَى عِظَامَهُمُ الْغَمَامُ الْمُسْبِلُ

صَبَرُوا بِمُؤْتَةَ لِلإِلـــــهِ نُفُوسَهُمْ ... حَذَرَ الرَّدَى وَمَـــــخَافَةً أَنْ يَنْكُلُوا

فَمَضَوْا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ ... فُنُقٌ عَلَيْهِنَّ الحَـــدِيْدُ الْمُـــرْفَلُ

٥ - ذكر الجنة وما أعده الله للشهداء.

ومن المعانى الإسلامية الجديدة التى عبر عنها الشعراء المخضرمون فى رثائهم للمسلمين ذكر هذه المنزلة التى أعدها الله لهؤلاء الرجال الذين بذلوا أرواحهم فى سبيل الله لينالوا أعظم درجة أعدها لهم سبحانه فى قوله تعالى[(١)]: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** .

فهؤلاء الرجال آمنوا بربهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقال الحق فى شأنهم[(٢)]: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾** وقال تعالى[(٣)]: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ**

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٦٩ : ١٧١ .

(٢) السورة نفسها، الآية ١٩٥ .

(٣) سورة التوبة، الآيات ٢٠ : ٢٢.

دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

فانطلق الشعراء فى رثائهم يعبرون عن هذه المعانى، وكانت منزلة الرسول-ﷺ- عند الله هى أعظم منزلة، فهو صاحب المقام المحمود يوم القيامة، سابق هذه الأمة وقائدهم إلى الجنة. فكان لهذه المنزلة أثرها فى نفوس الشعراء الذين رثوا الرسول-ﷺ- فنرى حسان بن ثابت يذكر ذلك النور الذى أحل على البرية كلها ليهديها إلى الله -عز وجل- ثم يتوجه بدعائه إلى الله أن يجمعهم مع نبيهم فى جنة الفردوس التى تسر الناظرين وتخزى الحاسدين، ثم يضيف إلى هذا الدعاء صورة أخرى، فالله سبحانه وتعالى وملائكته والذين آمنوا يصلون على النبى-ﷺ- وهو يستمد هذا المعنى من قوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فيقول[2]:

يَا بِكْرَ آمِنَةَ الْمُبَارَكَ ذِكْرُهُ ... وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعُدِ
نُورٌ أَضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... مَنْ يُهْدَ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِ
يَارَبِّ فَاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيَّنَا ... فِى جَنَّةٍ تَثْنِى عُيُونَ الحُسَّدِ
فِى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ وَاكْتُبْهَا لَنَا ... يَاذَا الجَلَالِ وَذَا العُلَا وَالسُّؤْدُدِ

. . .

صَلَّى الإِلَهُ وَمَنْ يُطِيفُ بِعَرْشِهِ ... وَالطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحْمَدِ

وفى رثاء أروى بنت عبد المطلب للرسول-ﷺ- تتمثل هذه المعانى الدينية

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.
(٢) ديوان حسان ص٢٠٩.

الجديدة، فالرسول-ﷺ- بلَّغ رسالته كما أمره الله وأقام دعائم هذا الدين، وكانت تتمنى أن يبقى بينهم لتستمر سعادتهم به، ولكن أمر الله نفذ وأمره لايرد، فطاب مقامه عند الله عليه منه سلام وتحية ورضوان فى جنات عدن، فتقول[1]:

فدَاَ لرَسُول الله أُمِّى وخَالَتـى ... وَعَمِّى ونَفْسى قُصْرَةً ثـم خَاليـا
صَبَرْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادقـاً ... وقُمْتَ صَليبَ الدين أبْلجَ صَافيـا!
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبـقَاكَ بَيْنَنَا ... سَعدْنَا، ولكنْ أَمرُنا كـان مَاضيـا!
عَلَيْكَ منَ اللهِ السَّلامُ تَحيَّةً، ... وأُدخلْتَ جَنَّاتٍ منَ العَدنِ رَاضيـا!

وتتمثل صفية بنت عبد المطلب فى رثائها للرسول-ﷺ- هذه المعانى، فلقد قدَّر الله فى كتابه المجيد أن ينتقل الرسول-ﷺ-إلى جواره بعد أن هداهم وأرشدهم إلى طريق النجاة وكان بهم رءوفا رحيما، فرضى الله عنه فى حياته، وأنعم عليه وجزاه رضوانه وجناته فى الآخرة، فتقول[2]:

كدْتُ أَقْضِى الحَيَـاةَ لـمَّا أَتَاهُ ... قَدَرٌ خُطَّ فى كِتَابٍ مَجيـد
فَلَقَدْ كَـانَ بـالعِبَـاد رَءُوفًا ... ولَهُم رَحْمَةً وَخَيْـرَ رَشيـد
رَضِىَ اللهُ عَنْهُ حَيّاً وَمَيْتـاً ... وَجَزَاهُ الجِنَانَ يَوْمَ الخُلُود!

وتتطرد هذا المعانى نفسها فى قصيدة أخرى لصفية بنت عبد المطلب، فتقول[3]:

وَاعْتَرَتْنِى الهُمُومُ جِـدا بـوَهْنٍ ... لأُمُورٍ، نَزَلْنَ حَقّاً، شِدَادِ

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٢ ق٢ ص٩٣.
(٢) المصدر نفسه ص٩٦.
(٣) المصدر نفسه ص٩٦.

رَحْمَةً كَانَ لِلْبَرِيَّةِ طُراً، فَهَدَى مَنْ أَطَاعَهُ لِلسَّدَادِ

...

عَاشَ مَا عَاشَ فِى الْبَرِيَّةِ بَرّاً وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ الْمُرْتَادِ
ثُمَّ وَلَّى عَنَّا فَقِيداً حَمِيداً، فَجَزَاهُ الجِنَانَ رَبُّ الْعِبَادِ

وفى رثاء الشعراء المخضرمين لشهداء المسلمين نجد ذكر الجنة من المعانى التى يحاول الشعراء إبرازها فى رثائهم. فعندما استشهد حمزة بن عبد المطلب ألحت هذه الفكرة على صفية بنت عبد المطلب فى رثائها له فتستلهم أبيات حسان بن ثابت التى أجاب بها على أمامة بنت حمزة عندما سألت عن مصرعه، فأجابها أنه وزير رسول الله ورفيقه دعاه صاحب العرش إلى الجنة حيث النعيم المقيم والسرور الدائم، وهذا خير جزاء وأفضل مصير نرجوه له يوم القيامة، فتقول(١):

أَسَائِلَةٌ أَصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً بَنَاتُ أَبِى مِنْ أَعْجَمٍ وَخَبِيرِ
فَقَالَ الخَبِيرُ إِنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى وزَيرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيرِ
دَعَاهُ إِلهُ الْحَقِّ ذو الْعَرْشِ دَعْوَةً إِلَى جَنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُورِ
فَذلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّى وَنَرْتَجِى لِحَمْزَةَ يَوْمَ الْحَشْرِ خَيْرَ مَصِيرِ

ويوضح حسان فى رثائه لحمزة هذه المنزلة التى أعدها الله للشهداء، فقد بات حمزة شهيدا مكرما فى جنة عالية بعد أن عزَّ الإسلام ونصره فاستحق هذه الدرجة الرفيعة ليصبح جبريل -عليه السلام- وزيرا له عند رب السماوات والأرض، فيقول(٢):

(١) السيرة جـ٣ ص١٥٦ وما بعدها، واعتقد أن قول الخبير تقصد به قول حسان بن ثابت؛ لأن الكلام بعد القول ورد فى قصيدة لحسان أجاب بها أمامة بنت حمزة ، راجع ديوانه ص٢١٩.
(٢) ديوان حسان ص ٢٢٠ وما بعدها

دعْ عَـنْكَ دَاراً قَـدْ عَفَـا رسْـمُهَـا وابْـكِ عَلَـى حَـمْـزَةَ ذى النَّـائِـلِ

...

أَظْلَـمَـت الأَرْضُ لـفـقْـدَانـه وَاسْـودَّ نُـورُ الـقَـمَـرِ الـنَّـاصِـلِ

صَـلَّـى عـلَـيْـكَ اللهُ فِـى جَـنَّـةٍ عَـالِـيَـةٍ مُـكْـرَمَـةِ الـدَّاخِـلِ

...

غَـداَة جِـبْـريـلٌ وزيـرٌ لَـهُ نِـعْـمَ وَزِيـرُ الـفَـارِسِ الحَـامِـلِ

وهذه المعانى الدينية استقاها الشعراء من معين القرآن الكريم من مثل قوله تعالى[١] : ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾، وقوله تعالى[٢] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

وكذلك نجد أحد المخضرمين يصور مصاب المسلمين بحمزة وحال الرسول ـ ﷺ ـ وشدة الحزن التـى خيمت عليهم، ثـم يقرر أن البكاء لايغنـى شيئا،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٧ . .

(٢) سورة الأنبياء، الآيات ١٠١ : ١٠٣

(٣) سورة الرعد، الآيات ٢٢ : ٢٤

فهذا الشهيد سينعم بجنات الله ونعيمه الذى لايزول، فيقول[1]:

بَكَتْ عَيْنِي وَحُقَّ لَهَا بُكَاهَا ... وَمَا يُغْنِى البُكَاءُ وَلا العَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الإلهِ غَدَاةَ قَالُوا ... أَحَمْزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ القَتِيلُ
أُصِيبَ المُسْلِمونَ بِهِ جَمِيْعاً ... هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ به الرَّسُولُ
أبَا يَعْلى لَكَ الأرْكَانُ هُدَّتْ ... وَأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ
عَلَيكَ سَلامُ ربِّك فى جِنَانٍ ... مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لا يَزُولُ

ونرى حسان بن ثابت فى رثائه لسعد بن معاذ يتمثل هذه المعانى، فهو ورث الجنة مع الشهداء ؛ لأنه على ملة الرحمن بذل روحه رخيصة فى سبيل الله يبتغى مرضاته فاشترى هذه الدنيا بجنة الخلد التى وعد الله بها عباده الصادقين فى قوله تعالى[2] : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ فيقول[3]:

لقد سَفَحَتْ من دَمْعِ عَينكَ عَبْرةٌ ... وحُقَّ لعينى أنْ تَفيضَ عَلى سَعْدِ
قتيلٌ ثَوى فى مَعْرَكٍ فُجِعَتْ بهِ ... عيونٌ ذَوارى الدَّمْعِ دائمةِ الوَجْدِ

---

(١) تنسب الأبيات لكعب بن مالك - راجع ديوانه ص ٢٥٢ ، وتنسب أيضا لعبدالله بن رواحة راجع ديوانه ص ٩٨.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١١

(٣) ديوان حسان ص ١١٤.

عـــلـى مـــلَّةِ الـــرَّحْمَنِ وارثِ جَنَّةٍ مع الـشُّهَدَاءِ وفـــدُهـا أَكْرمَ الوَفْدِ

. . .

فـإن كـان ريبُ الدَّهْرِ أَمْضَاكَ فى الأُلَى شَرُوْا هذه الـدُّنْيـــا بجـنَّاته الخُلْدِ

فَنِعْمَ مـــصـــيـــرُ الصَّادقين إذَا دَعَوْا إلى الـلّهِ يَوْمـــاً للوجَاهـةِ والقَصْدِ

ونرى حسان بن ثابت فى قصيدة أخـرى - قالها يوم الخندق يرثى سعد بن معـاذ ورجالا من شهداء المسلمين - يـصور مابه من أسى وحزن لفـقد هؤلاء الرجال الذين أقفـرت منازلهم وأوحشت بفقدهم؛ لأنهـم أضحوا فى جنات النعيم التى أعدها الله لهم، يقول[1]:

ألا يـالقَوْمِ هَلْ لِمـــا حُمَّ دَافعُ وهل مـــا مَضى مِنْ صَالِح العَيْشِ رَاجعُ

تَذَكَّرْتُ عَصْراً مـــضى فَتـهـــافَتَتْ بَنَاتُ الحَشَا وانْهَلَّ مِنِّى المَدامعُ

صَبَابَةَ وَجْدٍ ذَكَّرَتْنِـــــــى أَحِبَّةً وقَتْلَى مَضَوْا فـيـــهم نُفَيعٌ ورَافِعُ

وَسَعْدٌ فَأَضْحَوا فى الجِنَانِ وأَوْحَشَتْ مَنَازِلُهُمْ والأَرْضُ مِنْهُم بَلاقِعُ

وفى رثائه لجعـفـر بن أبى طالـب يذكـر مصيـــره مع هؤلاء الشهـداء الذين توافدوا إلى الجنان حيث النعيم المقيم، فيقول[2]:

فَصَارَ مـــع المُسْتَشْهِديـــنَ ثَوابُه جِنَانٌ ومُلْتَفُّ الحَدَائِقِ أَخْضَرُ

---

(١) ديوان حسان ص ٢٤١

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٤

وفى رثاء كعب لشـهداء المسلمين الذين صبـروا تحت ظل لواء الرسول - ﷺ - يتمثل هذه المعانى فهم فى جنات النعيم فازوا بهذه المنزلة الكريمة لحسن بلائهم فى الإسلام، فيقول [1]:

فَقَلْبُكَ مِنْ ذِكْرِهِمْ خَافِقٌ ... مِنَ الـــشَّوْقِ والْحَزَنِ الْمُنْضَجِ
وَقَتْلاهُمُ فـــى جِنَانِ الـــنَّعِيـــم ... كِرامُ المــــداَخِلِ وَالمخْرَجِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ الـــلِّوَاءِ ... لِوَاءِ الـــرَّسُولِ بـــذِى الأَضْوُجِ

ويرثى النابغة الجعدى قومه بأبيات يعدد فـيها فضائلهم فى الجهاد فى سبيل الله؛ لأنهم سادة كرام لايرهبون الأعداء، وهاجروا يطلبون ماوعدهم الله به، فباتوا فى ظلال الفردوس ناعمين فيها، يقول[2]:

دارُ حَيٍّ كَانَتْ لَهـــمُ زَمَنَ الـــتَّوْ ... بَةِ لا عُزَّلٍ وَلا أَكْفَـــــــال
لا أرَى مِثْلَهُم ولَوْ قَذَفَ الأعْـــــ ... ـــداءُ فـــيـــهم هَواجِرَ الأَقْوالِ
مِنْ كُهـــولٍ غُلْبٍ مَلاويثَ قطَّـــا ... عِينَ قَدَّ الأَسِيـــــرِ ذِي الأَغْلالِ

. . .

هَاجَرُوا يَطْلُبُونَ مَا وَعَد الـــلَّـــــ ... ـــهُ فَبَانُوا وَجَارُهُم غَيْرُ قَالِ
فَسَلامُ الإلــــــهِ يَغْدُو عَلَيْهِمْ ... وَفُيُوءُ الْفِرْدَوْسِ ذَاتُ الـــظِّلالِ

وعلى هذا النحـو أثرت تعاليم الإسـلام فى نفوس الشـعراء فـتيـقنوا أن فقيدهم طالما أخلص لله سبحانه وتعالى وبذل روحه فى الجهاد فى سبيله فلن

(1) ديوان كعب ص ١٨٧

(2) ديوان النابغة الجعدى ص ٢٢٩ وما بعدها، والمنازل والديار لأسامة بن منقذ الكنانى، نشر المكتب الإسلامى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م جـ ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها .

يبخس الله أجره، ولذلك لم يجزعوا أو يشقوا الجيوب أو يضربوا الخدود أو يفعلوا عادات أهل الجاهلية؛ لأنهم مؤمنون بثواب الله الذى وعد عباده المخلصين أعظم درجات فى جنات النعيم، ثم إنهم صبروا واحتسبوا فقيدهم عند الله، وامتثلوا لقضائه وقدره.

٦ ـ التماسك والصبر والامتثال لإرادة الله وقضائه.

ومن الظواهر الإسلامية الجديدة التى نلاحظها فى شعر الرثاء عند المخضرمين ظاهرة التمسك والصبر والامتثال لإرادة الله وقضائه وقدره، والنظر فى فلسفة الموت لمحاولة الوصول إلى جوهر الحياة وتيقنهم أنها ظل زائل لاينبغى للإنسان أن يخدع به من خلال هذه العقيدة الثابتة التى تؤمن بقوله تعالى[١] : ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

وانطلق الشعراء فى رثائهم يعبرون عن هذه المعانى فنرى أبا سفيان بن الحارث فى رثائه للرسول ـ ﷺ ـ يخاطب فاطمة بنت الرسول ـ ﷺ ـ ويلتمس لها العذر إن جزعت على فقده، وإن صبرت واحتسبت عند الله فهذا هو سبيل المؤمن الذى يؤمن بقضاء الله وقدره، فيقول[٣]:

أَفَاطِمُ إنْ جَزَعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِى فَهُو السَّبِيلُ
فَعُودِى بِالْعَزَاءِ فَإِنَّ فِيهِ ... ثَوَابَ اللَّهِ وَالْفَضْلُ الجَزِيلُ

وتطاول ليل عبدالله بن أنيس القضاعى، وتجمعت لديه الخطوب الفادحة

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

(٢) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٣) الاستيعاب جـ ٤ ص ١٦٧٦ ، وأسد الغابة جـ ٦ ص ١٤٧.

والبلايا كلهـا عندما نعى إليه الرسـول - ﷺ - وكان يتمنى أن يفديه بنفسه، ولكننا نراه يؤمن بقضـاء الله وقدره، وينظر فى فلسفـة الموت فى محـاولة الوصول إلى جوهر الحياة، فأخـذ على نفسه ألا يبكى أحدا من الناس مابقى ثبير وفارع؛ لأنه لم ير شيئـا بإمكانه دفع الموت، ومع إيمانه بهذه الحقيقة نراه يحـزن على الرسـول - ﷺ - ولم يكن حزنه سـوى ظلال باهتـة فى هذه العقيدة الثابتة التـى تؤمن بقول الحق تبارك وتعالى فى الآيات التى ذكرناها، فكل شىء هالك إلا وجهـه وقد قبض النبيون من قـبل، وهلكت عاد وتبع، وتتابعت عـليها الرزايا، فـلا خلود لأحد، وهذه الفلسـفة نراها واضـحة فى قوله[1]:

تَطَاوَلَ لَيـلى واعتَرَتْنى الـقَوارِعُ   وَخَطْبٌ جَليـلٌ للبَلِيَّةِ جَامِعُ!

غَدَاةَ نَعَى الـنَّاعى إلَيْنَا مُحَمَّداً   وَتِلْكَ التى تَسْتَكُّ مِنهـا المَسامِعُ

فَلَوْ رَدَّ مَيْتـاً قَتْلُ نَفْسي قَتَلْتُهـا!   وَلَكِنَّهُ لا يَدْفَعُ المَوتَ دَافِعُ

فَآلَيْتُ لا أُثْنِي عَلَـى هُلْك هَالك   مِنَ النَّاسِ، مـا أوْفَى ثُبَيْرٌ وفـارِعُ

ولَكِنَّنِـي بَاكٍ عَلَـيْهِ ومُتْبِعٌ   مُصِيـبَتَهُ. إنِّي إلـى اللَّهِ رَاجِعُ!

وَقَدْ قَبَضَ الـلَّهُ الـنَّبِيِّينَ قَبْلَهُ   وَعَادٌ أُصِيبَت بـالـرُّزَى وَالـتَّبَابِعُ

وكذلك أثمرت تعاليم الإسلام ثمـرتها فى نفس أبي ذؤيب الهذلى فنجده يرثى أبناءه الخمسـة عندما أصابهم الطاعون فـهلكوا جميعـا فى عام واحد - وكانوا هاجروا إلى مصر -[2] بقصيدة تعد من أجود شعر الرثاء جعل صدرها حديثا بين امرأة تسأله عن شحوبه وأرقه، فيـروى لها حزنه وحسرته وفجيعته بأبنائه، ثم نراه يتحـدث عن هلك الحمار الوحـشى ويصفه وصفـا بارعا ثم

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ٢ ص ٩٠

(٢) أسد الغابة جـ ٦ ص ١٠٤ وخزانة الأدب جـ ١ ص ٤٢٢

يتحدث فى موضع ثان عن هلك الثور، ويتحدث فى موضع ثالث عن مصرع بطل شجاع يتصارع مع بطل آخر بالسلاح فإذا به يخر صريعا، وهذه الأنماط الثلاثة المتمثلة فى الحمار الوحشى والثور والبطل هى أقوى مظاهر القوى فى الحياة البشرية، اتخذ منهم عزاء لنفسه وتسلية لهمومه وأحزانه حتى يستلهم الصبر؛ لأن هذه الأنماط جعلته ينظر فى فلسفة الحياة والموت، فلم يجد شيئا يقهر الموت، فلابد أن يستسلم لقضاء الله وقدره، والقصيدة طويلة نكتفى بذكر هذه النماذج منها لتتضح لنا هذه الفلسفة، يقول[1]:

أَوْدَى بَنِىَّ وأَعْقَبُونِى غُصَّةً ... بَعْدَ الرُّقَادِ وَعَبْرَةً لا تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوِىَّ وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهُمُ ... فَتُخُرِّمُوا، وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ ... وَأَخَالُ أَنِّى لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أُدافِعَ عَنْهُمُ ... فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

. . .

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

. . .

كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَئِمِ القُوَىٰ ... كَانُوا بِعَيْشٍ قَبْلَنَا فَتَصَدَّعُوا
والدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ... جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ

. . .

والدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ ... شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكِلابُ مُرَوَّعُ

---

(١) المفضليات ص ٤٢١ وما بعدها.

. . .

فَصَرَعْتَهُ تَحْتَ الـــــغُبَارِ وَجَنْبُهُ مُتَتَرِّبٌ، ولِكُلِّ جَنْــــبٍ مَصْرَعُ

. . .

والـــــدَّهْرُ لا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الْحَدِيــــدِ مُقَــــنَّعُ

٧ـ التأمل الذاتى ورثاء الشعراء لأنفسهم.

ومن السمات الإسلامية الجديدة فى شعر الرثاء ما نراه عند بعض الشعراء حين يتوجه برثائه إلى نفسه بروح مؤمنة بقضاء الله وقدره، فيصارع أهواءه ويحاول التغلب عليها حين ينتصر الإيمان العميق على الجزع والرهبة، فنرى كُثير بن الغريزة النهشلى التميمى يرثى شهداء المسلمين فى جيش الأقرع بن حابس التميمى -الذين أصيبوا فى معارك الطالقان وجوزجان فى عهد عمر ابن الخطاب -رضى الله عنه- بهذه القصيدة التى يضمِّنها الشاعر رثاء لنفسه عندما جزع على هؤلاء المجاهدين الذين استشهدوا فى هذه المناطق النائية عن موطنهم ويزداد جزعه ويتضاعف حزنه عندما يتذكر أقرانه الذين تركهم بالعراق، ويشعر أنه لن يلقاهم مرة أخرى عندما يوازن بين ماحدث لهؤلاء الشهداء وما يمكن أن يحدث له، فهذا الشهيد الذى يبكيه اليوم لو نعى إليه لبكاه، وهذا الشهيد قد استنجد به فى المعركة، فلم يخذله ولم يتقاعس عن الدفاع عنه وقدَّم له كل مايستطيع، وحاول أن يدفع عنه الموت، ولكن إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون فعلام الجزع من الموت وهو الفارس الشجاع الذى لايجبن عن ملاقاة الأقرانُ فى المعارك الضارية، ويستمر الشاعر فى قصيدته ليكمل هذا الاستبطان والتأمل الذاتى ليفلسف موقفه من الحياة ومن الموت ليصل فى النهاية إلى هذه الظاهرة الإسلامية، وهى الإيمان العميق والاستسلام لقضاء الله وقدره، يقول[١]:

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٤٠٦٤ وما بعدها.

سَقَى مُزْنُ السَّحَابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ مَصَارِعَ فِتْيَةٍ بِالْجُوزَجَانِ
إِلى الْقَصْرَيْنِ مِنْ رُسْتَاقِ خُوطٍ أَبَادَهُمُ هُنَاكَ الأَقْرَعَانِ
وَمَا بِي أَنْ أَكُونَ جَزِعْتُ إِلا حَنِيْنَ القَلْبِ لِلبَرقِ اليَمَانِي
وَمَحْبُورٍ بِرُؤْيَتِنَا يُرَجِّي الْـ ـلِقَاءَ وَلَنْ أَرَاهُ وَلَنْ يَرَانِي
وَرُبَّ أَخٍ أَصَابَ المَوْتُ قَبْلِي بَكَيْتُ وَلَوْ نُعِيتُ لَهُ بَكَانِي
دَعَانِي دَعْوَةً والخَيْلُ تَرْدِي فَمَا أَدْرِي أَبَاسْمِي أَمْ كَنَانِي
فَكَانَ إِجَابَتِي إِيَّاهُ أَنِّي عَطَفْتُ عَلَيْهِ خَوَّارَ الْعِنَانِ

...

وَأَيَّ فَتَىً إِذَا مَامَتْ تَدْعُو يُطَرِّفُ عَنْكَ غَاشِيَةَ السِّنَانِ
فَإِنْ أَهْلِكْ فَلَمْ أَكُ ذَا صُرُفٍ عَنِ الأَقْرَانِ فِي الحَرْبِ العَوَانِ
فَلاَ تَسْتَبْعِدَا يَومِي فَإِنِّي سَأُوشِكُ مَرَّةً أَنْ تَفْقِدَانِي

...

فَرُدَّا الْمَوْتَ عَنِّي إِنْ أَتَانِي وَلَا وَأَبِيكُمَا لا تَفْعَلانِ

٨ ـ رثاء الشعراء لأعضائهم التى فقدوها فى سبيل الله:

كان نتيجة للتعاليم الدينية التى حضت المسلمين على الجهاد فى سبيل الله وبذل أموالهم وأرواحهم رخيصة فى سبيله أن استهان المسلمون المجاهدون بأرواحهم فخاضوا الغزوات والمعارك المختلفة التى دارت رحاها بين جماعة المسلمين وأهل الشرك، وافتخروا بشجاعتهم واستبسالهم واستهانوا بالموت، وبكى الأحياء منهم الشهداء فى رثاء إسلامى جديد تشيع فيه روح الإسلام وتعاليمه. واستجد عند المخضرمين لون آخر من الرثاء لم يعرفه الشعر العربى من قبل، ونقصد به رثاء الأعضاء والأشلاء التى فقدها المجاهدون فى

هذه المعارك، إذ أخذ المجاهدون يصورون فى شعرهم هذه القوة الإيمانية التى دفعتهم إلى بذل أعضائهم فى سبيل الله واستهانوا بفقدها ؛لأنهم احتسبوها عند الله بقلوب مطمئنة ونفوس راضية، أظهرت مدى قدرتهم على احتمال الأذى والبأس كما أظهرت نوعا فريدا من البسالة والشجاعة حين يوازن المجاهد المسلم بين أعضائه المفقودة وبين مافعلته هذه الأعضاء فى أعدائه، وهذه الموازنة تتضمن المعانى الإسلامية حيث يشير إلى الثواب والأجر الذى وعد الله أنصاره المجاهدين.

فنرى عثمان بن مظعون يصف ما أصاب عينه على يد أحد المشركين الذى ضلّ طريق الهداية، محتسبا ذلك عند الله يريد أن ينال عظيم ثوابه ورضاه، وبالرغم مما قاله المشركون من أنه سفيه قد ضلّ وغوى واتبع محمدا-ﷺ- وبالرغم مما يناله من الأذى، فهو يؤمن أنه يتبع دين الحق يريد بذلك وجه الله، فيقول[1]:

فَإِنْ تَكُ عَيْنِى فِى رِضَى الرَّبِّ نَالَهَا ... يَدَا مُلْحِدٍ فِى الدِّينِ لَيْسَ بِمُهْتَدِ
فَقَدْ عَوَّضَ الرَّحْمَنُ مِنْهَا ثَوَابَهُ ... وَمَنْ يَرْضِهِ الرَّحْمَنُ يَاقَوْمُ مُسْعَدِ
فَإِنِّى وإِنْ قُلْتُمُ غَوِىٌّ مُضَلَّلٌ ... سَفِيهٌ عَلَى دِينِ الرَّسُولِ مُحَمَّدِ
أُرِيْدُ بِذَاكَ اللهَ والحَقَّ دِينَنَا ... عَلَى رَغْمِ مَنْ يَبْغِى عَلَيْنَا وَيَعْتَدِى

ونرى أيضا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يرثى رجله التى قطعها عتبة ابن ربيعه يوم بدر، فيحتسبها عند الله؛ لأنه رجل مسلم يبتغى بها عيشا طيبا راضيا فى جنته العلياء مع الحور العين، بعد أن باع حياته الكدرة وعادى قومه من المشركين، فقد أكرمه الله بنعمة الإسلام ليمحو له عيوبه وخطاياه، فيقول[2]:

---

(١) حياة الصحابة جـ١ ص٢٨٢.

(٢) السيرة جـ٢ ص٣٩٢وما بعدها.

فَإِنْ تَـقْطَعُـوا رِجْلِى فَـإِنِّى مُسْـلِمٌ أُرَجِّـى بِهَـا عَـيْشًـا مِـنَ الله دَانِيَـا
مَعَ الحُورِ أمْثَالَ التَمَـاثِيلِ أُخْلِصت مَعَ الْـجَنَّةِ الْعُـلْيَا لِـمَنْ كانَ عَالِـيَا
وَبِـعْـتُ بِهَا عَيْـشًا تَعَرَّقْـتُ صَفْوَهُ وَعَـالجْتُـهُ حَتَّـى فَـقَـدتُ الأدَانِيَـا
فَأَكْرَمَـنِى الرَّحْمَـنُ مِنْ فَضْـلٍ مَنِّه بِثَوْبٍ مِـنَ الإسْلامِ غَطَّى المَسَاوِيَا

وكذلك نرى عبد الله بن سبرة الحرشى يرثى يده التى قطعها أرطبون الروم حين التقى معه يوم فلطاس عند فتح المسلمين لبيت المقدس، فيصور يده اليمنى حين قطعت وكأنها إنسان عزيز فارقه، وتمنى أن ينال الشهادة ليلحق بها، وسعى إلى ذلك وكان حريصا على أن يصاحبها دون جبن منه أو تخاذل، فلم يكن مثل هؤلاء الذين جبنوا ونصحوه بألا يتعرض لهذا الرومى- عدو الله- حتى لايلقى حتفه، وكيف يتركه وهو الرجل المجاهد فى سبيل الله وقد رآه بارزا أمامه يسعى إليه بسيفه؟ وكيف يعجز أمامه وهو البطل المقدام الذى تمرس بالحروب؟ فلم يفزع، ولم يكن ذلك من خلقه إذ رآه يقدم إلى الموت بنفسه، فأمكنا سيفيهما، وأخذ البطل المجاهد يجرعه كأس الموت عن آخره بثبات وعزم، ومع ذلك لم يستكن هذا الرومى ولم يجزع لما يلاقى، بل نال من يد البطل المجاهد بعد أن قطعت أوصاله. وبهذه الروح الإيمانية نجده يحمد الله لأن خصمه لم يفسد يده كلها، فبفضل الله ترك له ما ينتفع به، فأبقى له بنانتين وجرموزا يستطيع بهما أن يدافع عن المسلمين إذا ما حل بهم الفزع، يقول[1]:

وَيْلُ أمِّ جَـارٍ غَدَاةَ الـرَّوعِ فَارقَـنِى أَهْـونْ عَلـىَّ به إذْ بَـانَ فَـانْقَـطَعَـا
يُـمْنَـى يَدىَّ غَـدَتْ مِـنِّى مُـفَارِقَـةً لَمْ أَستَـطعْ يَوْمَ فِلْـطَاسٍ لهَا تَـبَعَا

---

(١) الأمالى للقالى جـ١ ص ٤٧ وما بعدها، وراجع أيضا: الإصابة جـ٥ صـ١١، ٨٩، والطبرى جـ٣ ص٦١٢ وقد ذكر الأبيات الثلاثة الأخيرة ونسبها لضريس القيسى، وذكر النويرى البيتين الأخيرين ونسبهما لرجل قرشى جـ١٩ ص١٧٣ وفيها اختلاف.

وَمَا ضَنَنْتُ عَلَيْهَا أَنْ أُصَاحِبَهَا لَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى أَنْ نَسْتَرِيحَ مَعَا
وَقَائِلٍ غَابَ عَنْ شَأْنِي وَقَائِلَةٍ هَلا اجْتَنَبْتَ عَدوَّ الله إِذْ صَرَعَا
وَكَيْفَ أَرْكَبُهُ يَسْعَى بِمُنْصُلِهِ نَحْوِي وَأَعْجز عَنْهُ بَعْدَ مَا وَقَعَا
مَاكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الرَّوْعِ مِنْ خُلُقِي وَلَو تَقَارَبَ مِنِّي الْمَوتُ فَاكْتَنِفَا

. . .

يَمْشِي إِلى مُسْتَمِيتٍ مِثْلِهِ بَطَلٍ حَتَّى إِذَا أَمْكَنَا سَيْفَيْهِمَا امْتَصَعَا

. . .

حَاسَيْتُه الْمَوْتَ حَتَّى اشْتَفَّ آخِرَه فَمَا اسْتَكَانَ لِمَا لاقَى وَلا جَزِعَا

. . .

فَإِنْ يَكُنْ أَرْطَبونُ الرُّومِ قَطَّعَها فَقَدْ تَرَكتُ بِها أوصَالَهُ قِطعَا
وإِنْ يَكُنْ أَرْطَبونُ الرُّومِ قَطَّعَهَا فَإِنّ فِيهَا بِحَمْدِ الله مُنْتَفَعَا
بَنانتَين وجُرْمُوزا أقِيمُ بِهَا صَدْرَ القَنَاةِ إِذ مَا آنَسُوا فَزَعَا

ففى هذه الصورة الرائعة التى قدمها الشاعر تتضح الظواهر الإسلامية إذ نراه يحتسب يده عند الله ويفتخر بما فعلته فى عدو الله ويتمنى الشهادة لينال عظيم ثوابه، ويحمد الله لأنه ترك بها بقية تمكنه من الحفاظ على المسلمين.

وتتطرد هذه الصورة الإسلامية فى رثاء الأعضاء عند علباء بن جحش العجلى عندما بارز رجلا فارسيا فأصاب رئته، وعالجه الفارسى بطعنة مماثلة فى أمعائه، ثم مات لساعته، ولم يستطع علباء القيام بعد ما انتثرت أمعاؤه فلم يجزع لما حدث له، بل أخذ يعالجها، وحاول إدخالها إلى بطنه بمساعدة رجل من المسلمين، وهو يرتجز بقوله:

أَرْجُو بِهَا مِنْ رَبِّنَا ثَوَابَـــــــا قَدْ كُنْتُ مِمَّنْ أَحْسَنَ الـــــضِّرَابَا

ونال الشهـادة كما أراد على رأس ثلاثين ذراعا من مـصرعه، وهو متـجه نحو صفوف الفرس[1].

وكذلك نرى حيـاض بن قيس بن الأعور القشيرى يفـقد رجله فى إحدى غزوات المسلمين، فيستهين بها ولم يتراجع عن القتال، فـأخذ يرتجز ويحمس فرسه على الإقدام، ويحتسب رجله عند الله فهو قشيرى من المهاجرين الذين بايعوا الرسـول-ﷺ- على الموت، وقد جاء ليـقتلع بسيفـه رؤوس الكفار، يقول[2]:

أَقْدِمْ حـــــذَامُ إِنَّهَا الأَسَاوِرَهْ وَلا تَغُرَّنَّكَ رِجْلٌ نـــــادِرَهْ
أَنَا الـــقُشَيْرِىُّ أَخُو الْمُهَاجِرَهْ أَضْرِبُ بـــالـسَّيْفِ رُؤوسَ الْكَافِرَهْ

وهكذا اختلـف هذا اللون من الرثاء اختلافـا بينا عن الرثاء التـقليدى فى شعـر الجاهـليين قبل الإسـلام؛ لأنهم تمثلوا فيـه روح الإسلام وتعـاليـمه، وشاعت فيه صور الإيمان بقضاء الله وقدره، واحتسبوا ما فقدوا عند خالقهم، وتمنوا أن يلحقوا بأعضائهم أو جـعلوها كفارة لذنوبهم. وإن كانت صور هذا اللون من الرثاء قليلة فى هذه الفـترة، فهى مع ذلك تـدلنا على أثر الإسلام فى هذا الفن الشعرى عند المخضرمين فى صدر الإسلام.

وعلى هذا النحـو الذى رأينا تطور شـعـر الرثاء عند المخـضـرمين تطورا ملحوظـا لاينبغى التهـوين به، فبـعد أن كان إشـادة بالفقـيد ومدحـه بالكرم والشـرف والشجـاعة، وبيـان الجزع والأسف على فـقده ظهـرت فى الرثاء المعانى الدينيـة الخالصة، ففى رثاء الرسـول-ﷺ- نجد انقطاع الوحى وكف الملائكة عن الهـبوط إلى الأرض وغيـاب النور الذى يهدى البـشر إلى الحق والخير والرشد بعدما كانوا فى كفر وضلال، ثم نجد الإيمان بالموت والإشادة

(١) الطبرى جـ٣ ص٥٤٦.
(٢) الإصابة جـ٢ ص١٨٧.

ببطولات الشهداء ومناقبهم وما قدموا من تضحيات فى سبيل الله واستشعار ما أعده الله للشهداء فى سبيله من أجر عظيم فى أعلى عليين، ثم الإيمان والتسليم والصبر على قضاء الله وقدره.

كذلك نجد هذا اللون الجديد من الرثاء، وهو رثاء الشعراء لأنفسهم ورثاء أعضائهم التى فقدوها فى سبيل الله، وأمكننا القول بأن هذا اللون من الرثاء فيه نوع من الاستبطان والتأمل الذاتى استطاع الشعراء من خلاله أن يفلسفوا لنا موقفهم من الحياة ومن الموت؛ لندرك أنهم وصلوا فى النهاية إلى هذه الظاهرة الإسلامية وهى الإيمان بقضاء الله وقدره واحتساب مافقدوا عند الله راغبين فى عظيم ثوابه، فلم يقولوا إلا ما يرضى الله[1]: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

* * *

سادسا: النسيب.

لاشك أن النسيب من أقدم الفنون الشعرية عند العرب وكان أكثر شيوعا فى الشعر الجاهلى؛ لأن العلاقة بين الرجل والمرأة من الغرائز الفطرية فى حياة الإنسان؛ لذا كان الشعراء الجاهليون مولعين بالحديث عن المرأة على سبيل النسيب أو التغزل أو التشبيب، ولم يشترط على الشاعر أن يجمع بين الصدق الفنى والصدق الواقعى فى تغزله؛ لأنه- فى الغالب- تقليد لنهج فنى تعارفه الشعراء فقلما نجد شاعرا يحيد عنه، وبعد ظهور الإسلام وتغير القيم الاجتماعية والأخلاقية عدل كثير من الشعراء موقفهم من التغزل والتشبيب بفضل المؤثرات الإسلامية والتعاليم الدينية. فبعد أن اشتدت المعارك اللسانية بين المسلمين والمشركين وظَّف الشعراء المسلمون فنَّهم لخدمة الدين ونشر الدعوة الجديدة والدفاع عنها. وكان لتوجيهات الرسول-ﷺ- ومواقف الصحابة الراشدين آثارها فى ردع الشعراء وتوجيههم الوجهة الإسلامية الصحيحة، فتعففوا فى شعرهم عن التشبيب الفاحش والتصريح بالفجور،

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

وإبراز مفاتن المرأة والتفاخر والإشادة بالفسق، وذلك بفضل تعاليم الإسلام التى زجرت المسلمين شعراء وغير شعراء عن الخطايا والآثام، وطهرت نفوسهم وزكت أخلاقهم ووضعت سدودا منيعة أمام أبواب الفتنة، وطهرت المجتمع من مجموعة الرذائل والفواحش التى كان يألفها فى الجاهلية. وفى ذلك يقول أحد الباحثين(1): «من المعروف أن الإسلام قد هذَّب كثيرا من مشاعر أتباعه، وصقل أحاسيسهم، وطهر نفوسهم من أدران المجون، ونزه ألسنتهم عن فحش القول، وبعدهم عن كل ما يشين سلوكهم وصنع جيلا من الشباب المؤمن الطاهر العفيف، والبعيد عن كل ألوان الفساد».

وكان هدف الإسلام من ذلك توجيه هذا الفن الشعرى بحيث لا يؤدى إلى الانحراف، سواء أكان انحرافا دينيا وهو ما يصاحبه عمل محرم أم كان انحرافا اجتماعيا وهو ما يخالف العرف ومشاعر المجتمع الإسلامى. فقد كان الرسول-ﷺ- وأصحابه ينكرون أى قول فيه انحراف فى السلوك أو ما يدل على انحراف صاحبه، أما إذا كان هذا القول تعبيرا شاعريا صادقا عن المشاعر والعواطف الذاتية تجاه المرأة لا يخرج عن إطار العفة والحصانة التى وضعها الإسلام، فلا تثريب على الشاعر أن يعبر عن عواطفه وأحاسيسه فى إطار المنظور الإسلامى.

ولهذا التقييد والتوجيه الذى وجهه الإسلام للشعراء نجد نماذج النسيب عند المخضرمين قليلة بالقياس إلى الأغراض الشعرية الأخرى، ومع ذلك لانعدم وجود بعض النصوص لشعراء ترك الإسلام أثرا واضحا فى مفاهيمهم وتصوراتهم، يمكن استخلاص السمات الإسلامية منها على النحو التالى:

١ - تقوى الله والرضا بقدره.

من المعانى الإسلامية الواضحة فى شعر النسيب عند المخضرمين تقوى الله

---

(1) الإسلام والشعر د/ سامى مكى العانى ص١١٨.

التى تتمثل فى طاعة الوالدين، والتماسك والصبر عند الشدائد فنرى أبا بكر الصديق-رضى الله عنه- يأمر عبد الله ابنه بطلاق زوجته عاتكه بنت زيد بن عمرو بن نفيل؛ لأنها شغلته عن دينه ومعيشته، وقد عرف الصديق بتقواه وعدله ورجاحة عقله، فهو لم يتجن على ابنه بل وضع أمامه قوله تعالى[1]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وطلقها عبد الله طاعة لأمر والده ومراعاة لحقه؛ لأن الإسلام زرع فى نفسه طاعة الوالدين وبرهما، فهو يعلم أن عقوقهما قرين الشرك بالله، فقد قال تعالى[2]: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وقوله تعالى[3]: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾.

فلم يطلقها عبد الله الا اتقاء لله فى حق والده وطاعة له؛ لأنه كان يحبها حبا شديدا فهى لم تذنب حتى تجازى بالطلاق ففيها سماحة الخلق ورجاحة العقل والجمال الذى يصاحبه الحياء والصدق ما جعل قلبه يتعلق بها، ولكنه يتماسك ويصبر صبر المؤمنين فينشدها أبياتا تعبر عن شدة حبه لها، وعواطفه تجاهها، وهى عواطف وأحاسيس ومشاعر ذاتية صادقة، يقول[4]:

وَلَمْ أَرَ مِثْلِى طَلَّقَ اليَوْمَ مِثْلَهَا ... وَلا مِثْلَهَا فِى غَيْرِ جُرْمٍ تُطَلَّقُ
لَهَا خُلُقٌ سَمْحٌ ورأىٌ وَمَنْصِبُ ... وَخَلْقٌ سُوىٌّ فِى الْحَيَاءِ وَمَصْدَقُ
أَعَاتِكُ لا أَنْسَاكِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا ... وَمَا نَاحَ قُمْرِىُّ الْحَمَامِ الْمُطَوَّقُ

(١) سورة التغابن، آية ١٤.
(٢) سورة النساء، آية ٣٦.
(٣) سورة الإسراء، آية ٢٣.
(٤) المردفات من قريش للمدائنى جـ١ من نوادر المخطوطات ص ٦١ وما بعدها، وراجع أيضا أسد الغابة جـ ٧ ص١٨٣ ونهاية الأرب للنويرى جـ١٩ ص١٣٧.

أَعَـاتكُ لا أَنْـسَاكِ مَـاجَحَّ رَاكِـبٌ ... وَمَا لاَحَ نَـجْمٌ فِى السَّـمَاء مُحَـلِّقُ
أَعَـاتكُ قَـلْـبى كُـلَّ يَـوْمٍ ولَـيْلَـةٍ ... إلَيْـك بِمَا تُـخْفى النُّـفُوسُ مُعَـلَّقُ
ولَـوْلا اتِّـقَاءُ اللهِ فِـى حَـقِّ وَالِـدٍ ... وَطَـاعَـتُهُ مَـا كَـانَ مِـنَّـا التَّـفَـرُّقُ

فالروح الإسـلامية نجدهـا واضحة فى هـذه الأبيات إلى جـانب العاطـفة الصادقة الـتى تظهر فى صـراعه مع نفسه، فـقلبه متعـلق بها لا يستـطيع أن ينساها، ويكرر اسمها فى ثلاثة أبيات متـتالية، فهى فى خاطره ماهبت الصبا وما ناح القمرى، ومـاحج الحجيج، وما ظهرت النجوم فى الـسماء، فهناك عاطفة قوية تربطه بها، ولكن ماذا يـصنع وهو رجل مسلم يتقى الله فى حق والده، وقد أمره الله سبحـانه وتعالى بطاعته فما عـليه إلا أن يذعن لأوامره، وما كان من والده حين بـلغه شعره إلا أن يرق له ويرحمه فيـأمره بإرجاعها. فراجعها وقد تاقت نفسه إليها، فينشدها أبياتا أخرى توضح مدى إيمانه بأن ما حدث إنمـا هو إرداة الله فقد قـدر وما شاء فـعل، وهنا يـتمثـل معنى قـوله تعالى[1] : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، وقوله تعالى[2] : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

ثم يصف لها مشاعره وأحاسيسه ويؤكد لها أن ما حدث كان برغمه ولعله اختبار أو ابـتلاء، ولكن الله سبحانه وتـعالى أراد أن تجمعهما الألـفة والمحبة بعد هذا الفراق الذى طار له قلبه، وسكن عـندما جمع الله بينهما ؛لأنها لم

(١) سورة الطلاق ،آية١.
(٢) سورة الأحزاب، آية٣٨.

تأت بفاحشة ولا بها سقطات تؤخذ عليها ولكنها جمعت كل الخصال الحميدة والفضائل الطيبة التى زينها الله بها، وإذا تكرَّم الله على الإنسان زينه بأحسن الفضائل وجنبه الرذائل التى تشينه، فيقول[1]:

أَعَاتِكُ قَدْ طُلِّقْتِ عَنِّى بِغُصَّةٍ ... وَرَاجَعْتِ للأَمْرِ الَّذِى هُوَ كَائِنُ
كَذَلِكَ أَمْرَ اللهِ غَادٍ وَرَائِحٌ ... عَلَى النَّاسِ فِيهِ أُلْفَةٌ وَتَبَايُنُ
وَقَدْ كَانَ قَلْبِى لِلتَّفَرُّقِ طَائِرًا ... وَقَلْبِى لما قَدْ قَرَّبَ اللهُ سَاكِنُ
أَعَاتِكُ إِنِّى لاَ أَرَى فِيكِ سَقْطَةً ... وإِنَّكِ قَدْ حَلَّتْ عَلَيْكِ الْمحَاسِنُ
وَإِنَّكِ مِمَّا زَيَّنَ اللهُ أَمْرَهُ ... وَلَيْسَ لِمَا قَدْ زَيَّنَ اللهُ شَائِنُ

٢ - البعد عن الوصف المباشر والاتجاه إلى الرمز.

كذلك نجد حرص الرسول -ﷺ- والصحابة الراشدين على توجيه الشعر والشعراء وتشددهم فى معاقبة المنحرفين، جعل بعض الشعراء يطورون فى أسلوب شعرهم فى التشبيب، فنرى حميد بن ثور الهلالى يسلك فى تشبيبه مسلكا جديدا بعد أن حظر عمر-رضى الله عنه- على الشعراء ذكر النساء، ولعل قصيدته الميمية خير دليل على ذلك إذ نجده يعتمد على الكناية والتعريض فى حديثه عن الحمامة التى هاجت شوقه عندما غنَّت أو ناحت لفقد وليدها الذى أكله الصقر بعد أن حنت عليه ورفقت به وبنت له بأعالى الشجر وأطعمته من فمها فلما اكتسى بريشه وبدأ يعتمد على نفسه فتك به هذا الصقر فلم يبق منه إلا عظاما رميما فما زالت تبكيه حياتها، يقول[2]:

وَمَا هَاجَ هَذَا الشَّوقَ إلا حَمَامَةٌ ... دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرنُّمَا

---

(١) المردفات للمدائنى جـ ١ص٦٢ ، وراجع أيضا النويرى جـ١٩ ص١٣٧ وما بعدها.

(٢) ديوان حميد بن ثور ص٢٤ وما بعدها، ودراسات ونصوص فى الأدب العربى د/ هدارة ص١٢٠.

مِن الْوُرْقِ حَمَّاءُ العِـلاطَيْنِ بَاكَرَتْ عَسِيبَ أَشَاءِ مَطْلَعَ الشَّمسِ أَسْحَمَا

إِذَا هَـزْهَزَتْـهُ الرِّيـحُ أَوْ لَعِبَتْ بِـهِ أَرَنَّـتْ عَـلَـيْـه مَـائِـلاً ومُـقـوَّمَـا

تُبَارِى حَـمَامَ الْجَلْـهتَيْنِ وتَـرْعَوى إِلَى ابْنِ ثَلاثٍ بَيْنَ عُـودَين أَعْجَمَا

تَطوَّقَ طَـوْقًا لَمْ يكُـنْ عَنْ تَمِيْـمَةٍ وَلا ضَرْبِ صَـوّاغٍ بِكَـفَّيْـه دِرْهَمَـا

بَنَـتْ بَيْـتَهُ الْـخَرْقَـاءُ وَهِى رَفِـيْقَـةٌ بِـه بَيْـنَ أَعْـوادٍ بِعَـلْـيَاءَ مُـعْـلَمَـا

تُـرَشَّحُ أَحْـوَى مُزْلَـغِبًـا تَرَى لَـهُ أَنَابِيْبَ مِنْ مُسْتَعْجِلِ الرِّيشِ حَمْحَما

كَـأَنَّ عَـلَـى أَشْدَاقِـهِ نَـوْرَ حَنْـوَةٍ إِذَا هُوَ مَـدَّ الْجِـيْدَ مِـنْهُ لِـيَطْـعَمَـا

فَلَمَّا اكْتَسَى رِيْشًا سُخَامًا وَلَمْ يَجِـدْ لَهُ مَـعَهَا فِـى بَاحَةِ الْعُـشِّ مَجْثَـمَا

أُتِيْـحَ لَهُ صَـقْرٌ مُـسِفٌّ فَـلَم يَـدَعْ لَـهَـا وَلَدًا إلا رَمِـيْـمـاً وَأَعْظُـمَـا

فَأَوْفَتْ عَلَى غُصْنٍ ضُـحَيًّا فَلَمْ تَدَعْ لِـباكِـيَـةٍ فِى شَـجْـوِهَا مُـتَـلَوَّمَـا

فلا شك أن حديث الشـاعر عن الحمامة كان رمزا اتخذه لـيبث خلجات نفسه ويـنفث انفعالاتـه الذاتية التى تـكشف عن شدة وجده، ومـن ثم نجده ببراعـة فائقة يخلـط مشاعره النـفسية بإحسـاس الحمامة حتـى يجعلنا نـشعر بالتقارب الوجدانى بينهما، فيقول:

مُـطَوَّقَـةٌ خَطْبَاءُ تَـصْـدَحُ كُـلَّمَـا دَنَا الصَّيْفُ وانْجَالَ الـرَّبِيْعُ فَأَنْجَمَا

إِذَا شِئْـتُ غَـنَّتْنِـى بِأَجْـزَاعِ بِيْـشَةٍ أَو النَّخْلِ مِـنْ تَثْلِيثُ أَوْ مِنْ يَبَـنْبَمَا

عـــــجِبْتُ لَهَا أَنَّى يكُونُ غِنَاؤُهَا فَصِيْحًا وَلَمْ تَفْغَرْ بِمَنْطِقهَا فَمَا
فَلَمْ أَرَ مَحْزُونًا لَهُ مِثْلُ صَوْتِهَا وَلا عَرَبِيّاً شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا
كَمِثْلِي إِذَا غَنَّتْ وَلَكِنَّ صَوْتَهَا لَهُ عَوْلَةٌ لَوْ يَفْهَمُ الْعَودُ أَرْزَمَا

ثم نراه فى قصيدة أخرى يرمز إلى محبوبته بهذه الشجرة التى تفوقت على كل الأشجـار بنداها وظلها وبهـائها، ثم نراه يكشف عن مكنون نفسه حين يريد أن يعلل نفسه بهـذه الشجرة ولكنه يجد الطريق مسـدودا أمامه؛ لأن لها محرما يحميها يخاف عليها ويرصد كل من يقترب إليها، فيقول[1]:

أَبَى اللهُ إلا أَنَّ سَرْحَةَ مَـــالك عَلَى كُلِّ أَفْنَانِ الــــعِضَاة تَرُوقُ
فَيَاطِيْبَ رَيَّاهَا وَيَابَرْدَ ظِلِّهَا إِذَا حَانَ مِنْ حَامِي النَّهـــارِ وِدُوقُ
وَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّلْتُ نَفْســـي بِسَرْحَة مِنَ الـــسَّرْحِ مَسْدُودٌ عَلَـــيَّ طَرِيْقُ
حَمَى ظِلَّهَا شكْسُ الْخَلِيْفَة خَائفٌ عَلَيْهَا غَرَامَ الـــطَّائفينَ شَفِيــــقُ
فَلا الظِّلَّ مِنْهَا بالضُّحَى تَسْتَطِيـعُـهُ وَلا الْفَيْءَ مِنْهَا بِالْعَشِيِّ تَذُوقُ

فكان لتوجيه عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أثره البالغ فى نفس حميد بن ثور فجـعله ينأى بتغـزله عن أسلوب الوصف المباشر، واتجـه إلى الكناية والرمز ومشاركة مظاهر الطبيعة فى التعبير عن مشاعره وانفعالاته الذاتية، فلم يصرِّح فى تشبيبه، ولم يفحش فى قوله؛ ولذلك لم ينكر الإسلام هذا الشعر وأضرابه مادام لايؤدى إلى انحراف فى السلوك.

---

(١) ديوانه ص ٤٠ وما بعدها، والعـمدة جـ١ ص ٣١١ وما بعدها، وراجع أيضـا الاستيـعاب جـ١ ص٣٧٨ وأسد الغابة جـ٢ص٦٠.

وإن كنا نلاحظ أن هذا الفن قد دخلته بعض المعانى الدينية بطريق مباشر أو غير مباشر إلا إنها قـليلة بالقياس إلى الأغراض التقليـدية الأخرى التى تجلى فيها أثر الإسلام واضحا مما جعلها تتطور تطورا ملحوظا لاينبغى التهوين من شأنه فقد طرأت على مـعانيها تعديلات كبيرة، ووضعت لهـا مقاييس جديدة تتفق وتعاليم الإسلام، وتلائم التطـور الحضارى الذى شهده المجتمع العربى آنذاك.

* * *

الفصل الثانى

الظواهر الإسلامية فى الموضوعات الجديدة

الشعـر فيض من الأحـاسيس المتـدفقة التـى تبعث بـها عواطف الإنـسان الثائـرة، فلا فنون تحـده، وليس مقصـوراً على أغراض بعـينها؛ لأن المـشاعر الإنسانيـة ليست محصورة فى أغـراض محددة كالمديح والهـجاء والرثاء، أو غير ذلك من الأغراض الـتى طرقها الشعراء، ورأى القدمـاء أن أغلب شعرنا العربى يدور حولها، فـقسموها فى أبواب معينة واختلفوا فـى حصرها، فمنهم من صنفـها فى سبعة أبـواب ومنهم من زاد على ذلـك، معتمدين عـلى مبدأ التغليب والكثرة.

وفـى الحقـيقـة إن موضـوع الشـعر أعـم وأشـمل مـن هذا الـتصـنيـف والتبويب، وقد أدرك القدماء هذه الحقيقة، لذلك نراهم ترددوا فى حصر أبوابه لإدراكهم أن الشاعر قـد يخوض فى موضوع من الموضوعات ويـطرق معانى جديدة تتجه عواطفـه نحوها اتجاهاً قوياً فتفيض شاعريتـه، فيبدع ويأتى بكل جديد مبتكر.

وكانت المـؤثرات الإسلامية-الـتى تحدثنا عـنها فى الـفصول السابـقة-من الأسباب والعـوامل التى غيرت اتجـاهات الشعراء المخضـرمين. فقد تغلـغلت تعاليم الإسلام فى نفوسهم وتشربها وجدانـهم فتدفقت على ألسنتهم المعانى الشعرية الجديدة التى تظهر فيها روح الإسلام وتعاليمه، بطريق مباشر أو غير مباشر، ومن ثم خاضوا فى موضوعات جديدة تتناسب مع التغيرات الأساسية التى أحدثها الإسلام، وتتمثل فيما يأتى:

أولاً: الشعر التعليمى الإسلامى.

فلا شك أن الـشعراء المخضـرمين بعد أن تمـكنت العـقيدة الإسلامـية من قلوبهم ومشاعرهم وتعلمـوا من القرآن الكريم والرسول-ﷺ- قيم الإسلام الجديدة وتعاليمه القويمة أوسعوا شعرهـم لهذه التعاليم ليمحوا بها ضلالات

الجاهلية، ويشاركوا الرسول -ﷺ- مسئولية تبليغ الرسالة من منطلق قوله تعالى:[1]: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ فانسابت على ألسنتهم القصائد التى تتضمن تعاليم الإسلام وقيمه وقضاياه كقضية التوحيد، والرسل، والوحى، وتحدثوا عن الموت والحياة، والبعث والنشور، والثواب والعقاب والجنة والنار، والحلال والحرام، وتحدثوا أيضاً عن الأوامر التى أمر بها الإسلام والنواهى التى نهى عنها، فتحدثوا عن صلة الرحم وطاعة الوالدين وبر الأقارب، وحسن معاملة اليتيم، والحث على التمسك بالجماعة، وعدم التنابز والتفرق، وغيرها من التعاليم الإسلامية.

ومن الطبعىّ أن يكون هذا الفن الشعرى جديدا، وهو يختلف عن شعر الحكمة الذى نجده فى الجاهلية، وتبدو فيه نظرات تأملية فى الكون والحياة، وهى نتيجة الظروف والمناسبات وليست نتيجة لبحث متعمد قصد به البحث فى الدين من أجل الدين، كما يختلف عن الأشعار التى تظهر فيها آثار النصرانية كحديثهم عن الله والبعث والحساب ويوم الدين، وهو شىء عام، يأتى بخاطر كل شاعر مثقف جاب الآفاق واختلط بثقافات متباينة واحتك بالنصارى أو بغيرهم، فهو لايصح أن يكون دليلاً علي عقيدة أو دين وفهم لذلك الدين، «فالتعرف على دين من الأديان ليس معناه الاعتراف بذلك الدين واعتناقه من قِبل من يعرفه. ومن ثم كان خطأ تاماً ما زعمه لويس شيخو، حيث ادعى أن جميع شعراء الجاهلية تقريباً من شعراء النصرانية»[2].

وقد كان أمية بن أبى الصلت كثير العجائب يذكر فى شعره خلق السماوات والأرض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك مالم يذكره أحد من الشعراء، وكان قد شام أهل الكتاب[3]. ولذلك علم بأن نبيّا سيبعث فى زمانه وأمل أن يكون ذلك النبى. ومن ثم لما بعث الرسول -ﷺ- لم يصدقه بل

---

(١) سورة النحل، آية ١٢٥.

(٢) بروكلمان جـ١ ص ١٢٧.

(٣) طبقات ابن سلام جـ١ ص٢٦٢ ومابعدها.

كفربه حسداً لـه. ولما أنشد الرسول - ﷺ - شعره، قال: آمن لـسانه وكفر قلبه[1].

ونخرج مـن ذلك بأن الشعـراء قبل الإسلام لـم يتخذوا من المـوضوعات الدينية غرضاً يقصد لذاته فى أشعارهم؛ لأن دياناتهم على تباينها لم تستوعب أن يتحـدثوا عنهـا بغرض شعرى خـاص، فلا نراهم يدعـون إلى دين بعـينه يظهـرون سخطهم عـليه أو ينكـرونه، وعلى العـكس من ذلك ما نجـده عند هؤلاء الشعراء المخضرمين بعد الإسلام، فحينما نطالع شعرهم نجد أنفسنا إزاء هذا اللون الجديد من الشـعر الذى يمكن عدّه مقدمة لظهور الشعـر التعليمى الذى كان استجابة للمؤثرات الأجنبية فى القرن الثانى الهجرى.

وتتجلى السمات الإسلامية فى هذا الفن الشعرى عند المخضرمين على هذا النحو:

١ - الإيمان بوحدانية الله.

عرض الشعـراء المخضرمون فى شعـرهم لقضية مـن أخطر القضايـا التى جادل فيـها المشركـون، وهى قضية الـتوحيد بالله الـذى له ملك الـسماوات والأرض المولج الـليل فى النهـار والنهار فى الـليل عالم أسرار هـذا الكون وخالق كل شـىء، فنزّل الأديان ليهـدى بها البشر فأنـزل اليهودية والنـصرانية ليدين له اليهـود والنصارى ويعبدوه حق عبادته، فنرى أبـا قيس صرمة بن أبى أنس الأنصـارى يستمد هـذه المعانى الدينـية من قوله تـعالى[2]: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص٤٥٩، والأغانى - دار الكتب- جـ٤ ص١٢٢، والخزانة جـ١ ص٢٤٩.

(٢) سورة طه، الآيات ٦:٨.

(٣) سورة التوبة، الآيتان ٣٠:٣١.

قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فيقول(١):

سَبِّحُوا اللهَ شَرْقَ كُلِّ صَبَاحٍ ... طَلَعَتْ شَمْسُهُ وَكُلِّ هِلاَلِ
عَالِم السِّرِّ والْبَيَان لَدَيْنَا ... لَيْسَ مَا قَالَ رَبُّنَا بِضَلاَلِ
ولَهُ الطَّيْرُ تَسْتَرِيدُ وَتَأْوِى ... فِى وُكُورٍ مِنْ آمِنَاتِ الْجِبَالِ
ولَهُ الْوَحْشُ بالْفَلاَة تَرَاهَا ... فِى حِقَافٍ وَفِى ظِلاَلِ الرِّمَالِ
ولَهُ هَوَّدَتْ يَهُودُ وَدَانَتْ ... كُلَّ دِينٍ إِذَا ذَكَرْتَ عُضَالِ
ولَهُ شَمَّسَ النَّصَارَى وَقَامُوا ... كُلَّ عِيدٍ لِرَبِّهِمْ وَاحْتِفَالِ
ولَهُ الرَّاهِبُ الْحَبِيسُ تَرَاه ... رَهْنَ بُؤْسٍ وَكَانَ نَاعِمَ بَالِ

ويخوض حسان بن ثابت فى موضوع آخر وكأنه يتمثل قول الله تعالى(٢): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ فيعرض لقضية إيمانية، حيث يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله -ﷺ-، ويدعو إلى الإيمان بالرسل الذين بعثوا قبل محمد -ﷺ- كزكريا ويحيى وعيسى بن مريم وهود عليهم السلام، وفى أثناء عرضه لهذه القضية نجده يفند آراء أصحاب المسيح الذين ادعوا أن عيسى -عليه السلام- هو الله أو هو ابن الله، كما ورد فى الآيات السابقة فيؤكد أنه رسول مبعوث من عند صاحب العرش سبحانه وتعالى، فيقول(٣):

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّداً ... رَسُولُ الَّذِى فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عَلُ

(١) السيرة جـ٢ ص١٣١ وما بعدها.

(٢)سورة النساء، آية ١٥٢.

(٣) ديوان حسان ص٣٠٥.

وأَنَّ أبا يَحْيى ويَحْيَى كِلاهُمَا   لَهُ عَمَلٌ فى دِينِه مُتَقَبَّلُ
وأَنَّ الَّتى بالسُّدِّ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ   وَمَنْ دَانَها فِلٌّ مِنَ الخَيْرِ مَعْزِلُ
وأَنَّ الَّذى عَادَى اليَهُودُ ابن مَرْيَمٍ   رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِى العَرْشِ مُرْسَلُ
وأَنَّ أَخَا الأَحْقَاف إذ يَعْذِلُونَهُ   يُجَاهِدُ فى ذَاتِ الإله ويَعْدِلُ

فعرض فى هذه الأبيات لعدد من الرسل، ولاشك أنه استقى أخبارهم وحديثهم من وحى القرآن الكريم الذى أخبر عن هؤلاء الرسل وموقف أقوامهم منهم.

ومن الشعراء المخضرمين الذين نظموا فى هذا الفن التعليمى النابغة الجعدى الذى هجر البادية وقدم على رسول الله -ﷺ- لينهل من معين الإسلام ويتلو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكما وضحت فى موضوعاته التقليدية الظواهر الإسلامية نجده أيضاً يبدع فى هذا اللون التعليمى مستلهماً آيات القرآن الكريم فى نظمه لتعاليم الإسلام وقضاياه، فنجده يثنى على الله -عز وجل- بما هو أهل له ويشغل نفسه بالقضية التى شغلت العرب آنذاك، وهى الإيمان بوحدانية الله وأنه لا شريك له، فمن لم يعترف بذلك فقد ظلم نفسه وأهلكها. وفى أثناء عرضه لهذه القضية نجده يأتى بأفكار ومعان جديدة لم يألفها الشعراء من قبل؛ لأنه استوحاها من آى الذكر الحكيم، فيدلل على وحدانية الله وقدرته فيتحدث عن نظام الكون فمن مولج الليل فى النهار؟ومن مولج النهار فى الليل؟ إنه الله الذى بسط الأرض ورفع السماء بغير عمد، ثم يتحدث عن خلق الإنسان ليبرهن على قدرة الله وعظيم خلقه مستلهماً أيضاً آى الذكر الحكيم كقوله تعالى[1]: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ

(١) سورة المؤمنون ،الآيات ١٢ : ١٤.

﴿خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فنراه يتمثل هذه الآيات البينات ليس بمعناها فقط بل بألفاظها. وبعد أن اكتملت هذه الصورة البديعة واستوى الماء خلقا يتحدث عن طرائق البشر المختلفة فى الأصوات واللغات والألوان والمعايش والأخلاق ليصل إلى قضية أخرى هى قضية البعث والنشور؛ لأن الله سبحانه وتعالى سيجمع هؤلاء جميعاً ليقيم ميزان العدالة فينبغى للإنسان أن يعمل لآخرته لينجو فى هذا اليوم الذى لا عاصم فيه من الله إلا من يتغمده الله برحمته، فيقول[1]:

الحَمْدُ لله لا شَـــريكَ لَهُ	مَنْ لَمْ يَقُـــلْهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَـا
الْمُولِجِ اللَّيْلَ فى النَّـــهَارِ	وَفِى اللَّيلِ نهاراً يُفَرِّجُ الظُّلُمَـا
الخافِضِ الرَافِعِ السَّمَاءَ عَلى الْـ	أَرْضِ ولَـم يَبْنِ تَحتَها دِعَمَـا
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ فى الْـ	أَرْحَـام مَاءً حَتَّى يَصِيرُ دَمَـا
مِنْ نُطْفَةٍ قَـدَّها مُـــقدِّرُهـا	يَخْلُقُ منهَا الأبْشَارَ والنَّسَمَـا
ثُمَّ عِـظَـاماً أقـامَها عَـصَبٌ	ثُمَّـتَ لَحْماً كَسَاهُ فـالْتَـأَمَا
ثُـمَّ كَسَا الرِيـشَ والعـقائـقَ	أبْـشَاراً وجِـلْدا تَـخَالُهُ أدَمَا
والصَّـوْتَ واللَّوْنَ والمَعَايِـشَ	والأخْلاقَ شَتَّـى وفَرَّقَ الكَلِـمَا
ثُـمَّتَ لابُـدَّ أن سيـجمَـعُكـم	والله، جَـهْراً، شـهادةً قَـسَمَـا
فائتَمِـروا الآنَ ما بدا لَــكُمُ	واعْتَصِـمُوا إنْ وَجَدْتُمُ عِـصَمَا
فى هـذه الأرْضِ والسَّـمَاءِ ولا	عِصَـمَةَ مِـنه إلا لِـمَن رَحِـمَا

---

(١) ديوان النابغة الجعدى ص١٣٢ وما بعدها.

ويستطرد فى حديثه مستلهماً من القرآن الكريم نفسه الحديث عن الأمم البائدة التى بغت وتكبرت وظلمت فأهلكها الله بظلمها وجعلها عبرة لمن يعتبر. والشاعر يريد أن يخرج من حديثه عن هذا العز الزائل إلى نتيجة حتمية أخرى، وهى أن الملك لله الواحد القهار وهذه النتيجة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية التوحيد التى عرض لها فى صدر قصيدته، فيستمد هذه المعانى من قوله تعالى[1]: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ثم يناجى ربه طامعاً فى عفوه ورحمته حتى ينجو من نار جهنم يوم يوفى الناس أجورهم بما عملوا، فالرغبة والرهبة هنا دليل آخر لإثبات وحدانية الله، فيستمد هذا المعنى من قوله تعالى[2]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وقوله تعالى[4]: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

---

(١) سورة سبأ، الآيات ١٥: ١٩.

(٢) سورة المؤمنين، الآيات ٥٧: ٦٠.

(٣) سورة النساء، آية ١٤٥.

(٤) سورة غافر، آية ٣.

والآيات القرآنية التى توضح هذه المعانى كثيرة، ولاشك أن الشاعر تأثر بها وبمعانيها فى قوله[1]:

يأيُّها النَّاسُ هل تَرَوْن إلى ... فارسَ بادَتْ وَخَدُّها رَغَمَا
أَمْسَوْا عبيداً يَرْعَوْنَ شاءَكُم ... كأنَّما كانَ مُلْكُهُمُ حُلُمَا
أو سَبَأَ الحاضرينَ مَأرِبَ إذ ... يَبْنُونَ من دُون سَيْلِه العَرِمَا
فَمُزِّقُوا فى البلاد واعترَفُوا الـ ... هونَ وذاقوا البَأساء والعَدَمَا
وبَدِّلُوا السِّدْرَ والأَرَاكَ به الـ ... خَمطَ وأَضْحَى البُنْيانُ مُنْهَدِمَا
يا مالكَ الأرْضِ والسَّماء ومن ... يَفْرَقْ منَ الله لا يَخَفْ أَثَمَا
إنى امرؤٌ قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسى ... وإلا تَعْفُ عنّى أُغلا دَماً كَثِمَا
أُطرَحُ بالكافرينَ فى الدَّرْكِ ... الأسفلِ ياربِّ اصطَلى الصَّرِمَا
يرفَعُ بالقارِ والحديدِ من الجَوْرِ ... طوالاً جُذوعُها عُمُمَا
نُودِىَ قُمْ واركَبَنْ بأهلك ... إنَّ الله مُوفٍ للنَّاسِ مَا زَعَمَا

٢ - تقوى الله وبر الوالدين.

ونجد شعراء آخرين يخوضون فى تفاصيل التعاليم الإسلامية التى توجه الإنسان فى حياته إلى طريق الفضيلة، فنرى عبدة بن الطبيب يجمع بنيه من حوله ويوصيهم وينصحهم بتقوى الله الذى بيده ملكوت السماوات والأرض، وببر الوالد وطاعة أوامره حتى لا يغضبوا الله عز وجل؛ لأنه أمر بذلك فى محكم كتابه فى قوله تعالى[2]: **﴿ قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبِالْوالِدَيْنِ إِحْسَناً ﴾** فيستلهم آيات الذكر الحكيم

---

(١) ديوان النابغة الجعدى ص١٣٤ وما بعدها.

(٢) سورة الأنعام، آية١٥١.

التى توضح هذا المعنى فيقول(١):

أَبَنِىَّ إنِّى قَدْ كَبِـــرْتُ ورابَنى بَصَرِى، وفِىَّ لِمُصْــلِحٍ مُسْتَمْتَعُ

ونَصِيحَةٌ فِى الصَّدْرِ صَادِرَةٌ لكم ما دُمْتُ أُبْصِرُ فى الرِّجالِ وأَسْمَعُ

أُوصِيكُمُ بتُقَـــى الإلـهِ فَإنَّهُ يُعْطِـــى الرَّغائِبَ مَنْ يَشَاءُ ويَمْنَعُ

وبِبِرِّ وَالِدِكُمْ وَطــــاعةِ أمرِه إنَّ الأَبَرَّ مِـــن البَنِينَ الأَطْوَعُ

وقد فسر الرسول -ﷺ- بـر الوالدين بقوله: «إن أبر البر صـلة الولد أهل ود أبيه»(٢).

وكذلك كـان لبيد بن ربـيعة من هؤلاء الشـعراء الذين تغـلغلت تعـاليم الإسلام فى نفوسهم، فإلى جانب تأثره بمـعانى الإسلام ومثاليته الروحية فى شعره التقليدى كرثائه لأخيه أربد أو نصحه لقومه وتذكيرهم بالبعث والحساب نجده يخـوض فى هذا اللون مـن الشعر التعـليمى. فهـو كثير التـحدث عن التقوى والأبرار والعـمل الصالح وأن الناس معروضون علـى الله يوم القيامة وقد أُحْصِـى كل شىء فى كتاب، وأن المـوت حق لا شك فيه، وأن عـلى كل إنسان أن يفكـر فى مصيره. ويمضى فى طائـفة غير قليلة من أشـعاره يعظ مَنْ حوله بما أهلـك الله من الأمم الخالية مخوِّفاً من الموت ويـوم الحساب وداعياً إلى التـقوى والعمل الصـالح، ومهوناً من الـدنيا ومتاعـها الزائل ونعيـمها الفانى(٣). ونعرض فى هذا الموضع لأبيات فى قصيدة له تشيع فيها هذه الروح الإيمانية التى تغلـغلت فى ضميره، فنراه يتجه إلى الله خاضعـاً منيباً إليه وجلاً من اليوم الذى تحصى فيه الأعمال وتكـشف فيه الأسرار، وهو يسلِّم بأن كل

---

(١) المفضليات ص١٤٥ وما بعدها.

(٢) مسلم جـ١٦ ص١٠٩.

(٣)تايخ الأدب العربى-العصر الإسلامى ،د/ شوقى ضيف، الطبعة التاسعة بدار المعارف ١٩٨١م ص٩٣.

شىء هالك إلا وجه الله الذى إليه ترجع الأمور، يقول[1]:

إِنَّمَا يَحْفَظُ التُّقَـــى الأَبْـــرَارُ ... وَإِلَى اللهِ يُسْــــتَقرُّ القَـــرَارُ
وَإِلى اللهِ تُرْجَعُونَ وَعِنْدَ اللــــ ... ـــه وِرْدُ الأُمُورِ وَالإِصْــدَارُ
كُلَّ شىءٍ أَحْصَى كِتَاباً وَعِلْــماً ... وَلَدَيْهِ تَجَلَّــــــت الأَسْــرَارُ
إِنْ يَكُنْ فِى الحَيَاةِ خَيرٌ فَقَــدْ أُنْـ ... ـظِرْتُ لَو كَانَ يَنْفَعُ الإِنْظَــارُ
عِشْتُ دَهْراً وَلا يَدُوْمُ عَلَى الأَيـَّـ ... ـامِ إلا يَــرَمْـــــرَمٌ وَتعَـارُ

ويطرد شعر لبيد الذى قاله فى الإسلام عـلى هذا النحو ليفند أقوال الرواة ومن تبعهم من الباحثين الذيـن ذكروا أنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً، واختلفوا فيه، أو أنه استبدل بالشعر تلاوة القرآن وحفظه. فإذا كان لبيد اشتهر قديماً بتلاوتـه للقرآن،فإننا لا ننكـر ذلك، بل نؤمن بأن القرآن تـرك فى نفسه آثاراً عميقة فاستـشعر معانيه ومواعظه التى تمكنـت من روحه وعواطفه فأخذ يصوغها نظماً دينياً على شاكلة قوله[2]:

إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَـــــا خَيْرُ نَفَـــلْ ... وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِى وَعَـــــــجَلْ
أَحْمَدُ اللهَ فَلا نِدَّ لَـــــــــهُ ... بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَـــــاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَــدَى ... نَاعِمَ البَالِ وَمَنْ شَـــاءَ أَضَلّ

. . .

وَاكذِبِ النَّفْسَ إِذَا حَــدَّثْتَهَـــا ... إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يُزْرِى بِالأَمَلْ
غَيْرَ أَنْ لاَ تُكْذِبَنْهَا فى التُّقَـــى ... وَأَخْزُهَا بِالْبِرِّ للهِ الأَجَـــــلْ

فيستمد معانيه فـى هذه الأبيات من قوله تعالى[3]: ﴿وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد

---

(١) ديوانه ص٤١ وما بعدها ، والحيوان جـ٧ص١٦٣

(٢)ديوانه ص١٧٤ وما بعدها.

(٣) سورة البقرة،آية ١٩٧.

التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقوله تعالى[1]: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وعلى هذا النحو يسير شعر لبيد الإسلامى مستلهماً آيات الذكر الحكيم بمعانيها وألفاظها ليذكر قومه بتقوى الله ويحذرهم من الدنيا الفانية ويرغبهم فى عظيم ثوابه فى الآخرة الباقية التى يتزود الإنسان لها بالتقوى، فيقول[3]:

للهِ نَافِلَةُ الأَجَلِّ الأَفْضَلِ	وَلَهُ العُلَى وَأَثِيثُ كُلِّ مُؤَثَّلِ
لا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ مَحْوَ كِتَابِهِ	أَنَّى وَلَيْسَ قَضَاؤُهُ بِمُبَدَّلِ
سَوَّى فَأَغْلَقَ دُونَ غُرَّةِ عَرْشِهِ	سَبْعاً طِبَاقاً فَوْقَ فَرْعِ الْمَنْقَلِ
وَالأَرْضَ تَحْتَهُمُ مِهَاداً رَاسِياً	ثَبَتَتْ خَوَالِقُهَا بِصُمِّ الْجَنْدَلِ
وَالْمَاءُ وَالنِّيرَانُ مِنْ آيَاتِهِ	فِيهِنَّ مَوْعِظَةٌ لِمَنْ لَمْ يَجْهَلِ
بَلْ كُلُّ سَعْيِكَ بَاطِلٌ إلا التُّقَى	فَإِذَا انْقَضَى شَىءٌ كَأَنْ لَمْ يُفْعَلِ

فهو فى هى هذه الأبيات يضع أمامه آيات بعينها من القرآن الكريم كقوله تعالى[4]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله تعالى[5]: ﴿الَّذِي خَلَقَ

---

(١) سورة البقرة ،الآيتان ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٨.

(٣)ديوانه ص٢٧١ وما بعدها.

(٤) سورة الحجر،آية ٩.

(٥)سورة الملك، آية ٣.

سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ وقوله تعالى(١) : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقوله تعالى (٢) : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ .

٣- الحض على التجمع والحذر من النَّمَّام.

ومن المعانى الدينية التى عرض لها الشعراء المخضرمون فى شعرهم التعليمي الحرص علي الجماعة كما في قوله تعالى(٣): ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ والحذر من هؤلاء الذين يمشون بين الناس بالنميمة ويحرشون بينهم ويفسدون بين الأحبة، وقد أمر الله -عز وجل- باجتنابهم وعدم طاعتهم في قوله تعالى (٤): ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۞ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ .

فنرى عبدة بن الطبيب في نصيحته لأبنائه يوصيهم بالاتحاد والتجمع وعدم الفرقة والتنابز والحذر من النمام والمنافق الذي يسعى بينهم بالنميمة ليفرقهم ويشتت أواصرهم، فيقول(٥):

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٣١.

(٢) سورة الرعد، آية ١٧ .

(٣) سورة آل عمران، آية ١٠٣ .

(٤) سورة القلم، الآيات ١٠: ١٢ .

(٥) المفضليات ص١٤٦ وما بعدها.

وَدَعُوا الضَّغِينَةَ لا تكُنْ من شأنكمْ ... إنَّ الضَّغائنَ للقَرابَة تُوضَعُ
وَاعْصُوا الَّذي يُزْجِي النَّمَائِمَ بَيْنَكم ... مُتَنَصِّحاً، ذَاكَ السِّمامُ المُنْقَعُ
يُزْجِي عَقَارِبَهُ لِيَبْعَثَ بينكم ... حَرْباً كما بَعَثَ العُرُوقَ الأَخْدَعُ

. . .

لا تَأْمَنُوا قَوْماً يَشِبُّ صَبِيُّهُمْ ... بَيْنَ القَوَابِل بالعَدَاوَة يُنْشَعُ

. . .

قَوْمٌ إذا دَمَسَ الظَّلامُ عَلَيْهِمُ ... حَدَجُوا قَنَافِذَ بالنَّمِيمَةِ تَمْزَعُ

ويطرق أبو قيس صرمة بن أبى أنس الأنصاري هذا المعنى فى شعره التعليمي فيوصى أبناءه، ألا ينفردوا بأرضهم ويقصروها علي أنفسهم؛ لأن الإسلام حض علي التعارف والتواد والتعاطف والتجمع والاختلاط بالغير، فإنهم لو انقطعوا فى أرضهم عن غيرهم لتعثروا عن بلوغ درجات المتقين، ثم يوصيهم بألا يركنوا إلي الأيام، فالأيام دول والحياة فيها زائلة، فينبغى أن يجمعوا أمرهم على البر وتقوى **الله**، ويعملوا بتعاليمه، فيحلوا ما أحله لهم، ويتركوا ما حرمه عليهم، فيقول[1]:

يَابَنِيَّ التُّخُومَ لا تَخزُلُوهَا ... إنَّ خَزْلَ التُّخُومِ ذُو عُقَّالِ
يَا بَنِيَّ الأَيَّامَ لا تَأْمَنُوهَا ... واحْذَرُوا مَكْرَهَا وَمَرَّ اللَّيَالِي
واعْلَمُوا أنَّ مَرَّهَا لِنَفَادِ الْخَلْـ ... ـقِ مَا كانَ مِنْ جَدِيدٍ وبَالِ
وَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْـ ... ـوَى وَتَرْكِ الْخَنَا وَأَخْذِ الْحَلالِ

٤ - الحض على صلة الرحم وحسن معاملة اليتيم.

ونرى أبا قيس فى القصيدة نفسها يوصى بصلة الرحم، فيفسر معنى

(١) السيرة جـ٢ ص١٣٣.

قـوله-ﷺ- «ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل الذى إذا قـطعت رحمـه وصلها»[1] فيقول: صلوا قصـر رحمكم من طولكم، فكونوا أنتم طوالاً بالبر والصلة إن قـصـرت هى، ثم يعـرض لقـضيـة أخـرى من أخطر القـضـايا الاجتـماعيـة التي عرض لها الإسـلام وأكدها القرآن الكريم، وهى مـعاملة اليتامى، فنراه يـدعو إلي تقوى الله في معاملة اليـتامى الذين لا ولى لهم إلا الله عالم الغـيب والشهادة، وينهى عن أكل أمـوالهم؛ لأن مال اليتـيم يرعاه الله، وهذه المعاني الدينية يستمدها الـشاعر من معين القرآن الكريم، من قوله تعالى[2]: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وقوله تعالى[4]: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى جانب العديد من الآيات التي عرضنا لها عند الحديث عن المؤثرات فى الباب الأول، وكان لها أثر واضح في نفس أبي قيس يتضح في قوله[5]:

يَا بَنِيَّ الأَرْحَـامَ لا تَقْطَعُوهَا ... وَصِلُوهَا قَصِيـرَةً مِنْ طِـوَالِ

واتَّقُوا اللهَ فِي ضِعَـافِ الْيَتَامَى ... رُبَّمَا يُسْتَحَلُّ غَيْرُ الْحَـلالِ

وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْيَتِيـمِ وَلِيًا ... عَالِمًا يَهْتَدِي بِغَيْرِ الـسُّؤَالِ

ثُمَّ مَالَ الْيَتِيـمِ لا تَأْكُلُوهُ ... إِنَّ مَالَ الـيَتِيْمِ يَرْعَاهُ وَالِـي

---

(١) البخاري جـ٤ ص٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٦

(٣) سورة الأنعام، آية ١٥٢.

(٤) سورة النساء، آية ٣٦

(٥) السيرة جـ٢ ص١٣٢.

٥ - مصاحبة العمل الصالح لصاحبه يوم القيامة.

ومن المعانى الدينية التى طرقها المخضرمون في شعرهم التعليمي الحض على العمل الصالح لأنه أفضل رفيق في الآخرة. فنجد عبدالله بن كرز الليثى يستمع إلى أحاديث الرسول -ﷺ- ليستقي منها معانيه. فقد روت عائشة رضى الله عنها عن النبى- ﷺ- أنه كان قاعداً وحوله نفر من المهاجرين والأنصار، فقال رسول الله -ﷺ-: «أيها الناس، إنما مثل أحدكم ومثل أهله وماله وعمله كمثل رجل له أخوة ثلاثة فقال لأخيه الذي هو ماله وقد نزل به الموت: ما عندك، فقد نزل بى ما ترى؟ فقال: ما لك عندي غنى ولا نفع إلا ما دمت حياً، فخذ منى الآن ما أردت، فإنى إذا فارقتك سيذهب بي إلي غير مذهبك، ويأخذنى غيرك. فالتفت النبي- ﷺ- وقال: هذا أخوه الذى هو ماله، فأى أخ ترونه؟ فقالوا: لا نسمع طائلاً يا رسول الله! ثم قال لأخيه الذي هو أهله: قد نزل بى الموت، وحضرني ما ترى فماذا عندك من الغناء؟ قال: عندي أن أمرضك وأقوم عليك وأعينك. فإذا مت غسلتك وكفنتك وحنطتك وحملتك فى الحاملين، وشيعتك، ثم أرجع وأثنى بخير عند من يسألني عنك. فقال رسول الله-ﷺ-: أى أخ ترونه؟ قالوا: لا نسمع طائلاً يا رسول الله! ثم قال لأخيه الذى هو عمله: ماذا عندك، وماذا لديك؟ قال أشيعك إلى قبرك فأونس وحشتك، وأذهب غمك وأجادل عنك، وأقعد فى كفنك، فأشول بخطاياك، فقال رسول الله-ﷺ-: فأي أخ ترون هذا الذى هو عمله؟ قالوا: خير أخ يا رسول الله. قال: فالأمر هكذا » قالت عائشة: فقام عبدالله بن كرز الليثى فقال: يا رسول الله أتأذن لى أن أقول في هذا الأمر شعراً؟ قال: نعم[1] فوقف بين يدى الرسول -ﷺ- واجتمع الناس حوله فأنشدهم قوله[2]:

فإنِّي وَأَهْلِي وَالَّذِي قَدَّمَتْ يَدِي ... كَدَاعٍ إِلَيْهِ صَحْبَهُ ثُمَّ قَائِلِ

---

(١) أسد الغابة جـ٣ ص٣٧١ وما بعدها ، وراجع أيضاً الإصابة جـ٤ ص٢١٧ وما بعدها.

(٢) حياة الصحابة جـ٣ ص٥٠٠ وما بعدها، وراجع الإصابة جـ٤ ص٢١٨ وذكر البيتين الأول والثاني.

لإِخْوتِهِ إِذْ هُم ثَلاثَةُ إِخْوَةٍ ... أَعِينُوا عَلى أَمْرٍ بِيَ الْيَوْمَ نَازِلِ

فِراقٌ طَوِيلٌ غَيرُ مُتَّثِقٍ بِهِ ... فَماذَا لَدَيْكُمْ فِي الَّذِي هُو غَائِلِ

فَقَالَ امْرُؤ فِيهُمُ أَنَا الصَّاحِبُ الَّذِي ... أُطِيعُكَ فِيما شِئتَ قَبْلَ النَّزَائِلِ

فَأَمَّا إِذَا جَدَّ الفِرَاقُ فإِنَّنِي ... لِمَا بَيْنَنَا مِنْ خِلَّةٍ غَيْرُ وَاصِلِ

فَخُذْ مَا أَرَدْتَ الآنَ مِنِّي فَإِنَّنِى ... سَيُسْلَكُ بِى فِى مَهِيلٍ مِن مَهائِلِ

فَإِنْ تَبْقِنِى لا تَبْقَ فَاسْتَنْفَدْتَنِى ... وَعَجِّل صَلاحاً قَبْلَ حَتْفٍ مُعَاجِلِ

وَقَالَ امْرؤٌ قَدْ كُنْتُ جِدًّا أُحِبُّهُ ... وَأُؤْثِرُهُ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي التَّفَاضُلِ

غِنَائِي إِنِّى جَاهِدٌ لَكَ نَاصِحٌ ... إِذَا جَدَّ جَدُّ الكَرْبِ غَيْرُ مُقَاتِلِ

وَلَكِنِّى بَاكٍ عَلَيْكَ وَمُعَوِّلٌ ... وَمُثْنٍ بِخَيْرٍ عِنْدَ مَنْ هُوَ سَائِلِ

وَمُتَّبِعُ الْمَاشِينَ أَمْشِى مُشَيِّعاً ... أعْينُ بِرفْقٍ قَبْةَ كُلِّ حَامِلِ

إِلَى بَيْتِ مَثْوَاكَ الَّذِي أَنْتَ مُدْخَلُ ... أُرَجَّعُ مَقْرُوناً بِمَا هُوَ شَاغِلِي

فَذَلِكَ أَهْلُ المَرءِ ذَاكَ غِنَاؤُهُم ... وَلَيْسَ وَإِنْ كَانُوا حِرَاصاً بِطَائِلِ

وَقَالَ امْرُؤٌ فِيهمْ أَنَا الأَخُ لا تَرَى ... أَخاً لَكَ مِثْلِي عِنْدَ كَرْبِ الزَّلازِلِ

لدَى القَبْرِ تَلْقَانِي هُنَالِكَ قَاعِداً ... أُجَادِلُ عَنْكَ الْقَوْلَ رَجْعَ التَّجادُلِ

وَأَقْعُدُ يَوْمَ الْوَزْنِ فِى الْكِفَّةِ الَّتِي ... تَكُونُ عَلَيْهَا جَاهِداً فِى التَثَاقُلِ

فَلا تَنْسَنِى وَاعْلَمْ مَكَانِى فَإِنَّنِي ... عَلَيكَ شَفِيقٌ نَاصِحٌ غَيْرُ خَاذِلِ

فَذَلِكَ مَا قَدَّمْتُ مِنْ كُلِّ صَالِحٍ ... تُلاقِيهِ إِنْ أَحْسَنْتَ يَوْمَ التَّواصُلِ

فبكـي الرسول - ﷺ - وبكي المسلمون عنـدما سمعوا قـوله، وكان عبدالله بن كرز لايمر بطائفة من المسلمين إلا دعوه واستنشدوه هذه الأبيات فإذا أنشدهم بكوا[1].

وهذه القصيـدة تدل دلالة واضحة على تأثير الإسـلام فى ظهور هذا الفن الـتعليـمى كما تـدل أيضاً على أن الـتعاليـم الإسلامية الـتى وجه الرسـول - ﷺ - إليهـا أصحـابه يمكـن أن تصاغ نـظمـاً مؤثراً يـجذب عواطفهم ويحرك مشاعرهم على هذا النحو.

٦ - القضاء والقدر.

القضاء والقدر من المعاني الإسلامية الهامة التي عرض لها المخضرمون في شعرهم التعليمى، فـنجد عبدة بن الطبيب فى قصيدته العينـية التى عرضنا لها من قبـل ينوه بحسـن رأيه في المعضـلات وغلبته فـي المفاخرة، ثم يـعرج فى القسم الأخير منها علي تصوير يومه الأخير بأن يقرر عدة حقائق لا سبيل إلى الخلاص منها، فنهايـة أمره هذه الحفرة الغبراء التى يحمل علـى محمل إليها يبـكيه مـن الحزن بنـاته وزوجتـه وأقاربـه حين يودعـونه، ثم يـتفرقـون إلي حالهم. فهو مؤمن بأن الحوادث لابد أن تـقطع ما هو موصول، وما الإنسان إلا وديعة فى أهله يسعى فى حياته يجمـع من الأموال والطعام فتأتيه منيته فلا يأكل ما جـمعه ولا يستطيع دفـع الموت لأنه قدر قدره الله فلا حيلـة للإنسان فيه، فيقول فى هذا القسم[2]:

وَلَقَدْ عَـلِمْتُ بأَنَّ قَصْـرِيَ حُفْرَةٌ ... غَبْـرَاءُ يَحْمِـلنى إلِـيها شَـرْجَعُ

فَبَكَى بَنَاتِـى شَجْوَهُنَّ وزَوْجَتِى ... والأَقْرَبُـونَ إلىَّ، ثُـمَّ تصَـدَّعُوا

. . .

إنَّ الحـوادثَ يَخْـتَرِمْـنَ، وإنَّمـا ... عُمْـرُ الفَتَـى فى أهـلِه مُسْـتَوْدَعُ

يَسْعَى ويَـجْمَعُ جَاهِداً مُسْـتَهتِراً ... جِداً، ولَـيس بِـآكِلِ مـا يَجْـمَعُ

(١) حياة الصحابة جـ٣ ص٥٠١، والإصابة جـ٢ ص٣٦٢.

(٢) المفضليات ص١٤٨ وما بعدها.

حتَّى إذا وَافَى الحِمَامُ لِوَقْتِهِ ... ولكُلِّ جَنْبٍ لا مَحَالَةَ مَصْرَعُ

والشاعر فى هذه الأبيات يتأثر بمعاني القرآن الكريم في قوله تعالى[1]: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أو قوله تعالى[2] : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وكذلك نجد عمرو بن أحمر الباهلى يتوجه إلى الله بدعائه أن يخفف عنه أو يقضى أمره، فهو يؤمن بأن لقاءه بربه خير من هذا التداوي المستمر الذى لا يجدى شيئاً ما دام الله قدر وقضى، فيقول[3]:

إِلَيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ أَرْفَعُ رَغْبَتِي ... عِيَاذاً وَخَوْفاً أَنْ تُطِيلَ ضَمَانِيَا

فإِنْ كَانَ بُرْءاً فَاجْعَلِ البُرْءَ نِعْمَةً ... وَإِنْ كَانَ فَيْضاً فَاقْضِ مَا أنتَ قَاضِياً

لِقَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ ضَمَانٍ وَفِتْنَةٍ ... وَقَدْ عِشْتُ أَيَّاماً وَعِشْتُ لَيَالِيَا

. . .

وَفِي كُلِّ عَامٍ تَدْعُوَانِ أَطِبَّةً ... إِليَّ، ومَا يُجْدُونَ إلا الهَوَاهِيَا

. . .

شَرِبْنَا وَدَاوَيْنَا وَمَا كَانَ ضَرَّنَا ... إِذَا اللهُ حَمَّ الْقَدْرَ إلا تُدَاوِيَا

٧ - الوصايا العامة.

وكذلك عرض الشعراء المخضرمون فى شعرهم كثيراً من الوصايا والتعاليم الإسلامية التى وردت فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول -ﷺ- فيأخذون معانيها ويضمنونها شعرهم، من مثل قوله تعالى[4] : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

---

(١) سورة الواقعة، آية ٦٠.

(٢) سورة المنافقون ،آية ١١.

(٣) الشعر والشعراء جـ١ ص٣٥٦ وما بعدها.

(٤) سورة الأنعام،الآيات ١٥١ :١٥٣.

نرزُقكُمْ وإيَّاهُمْ ولا تقربُوا الفوَاحش ما ظهرَ منهَا ومَا بطَنَ ولاتَقْتُلُوا النَفْسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحَق ذَلكم وصَّـكُم به لعَـلَّكُم تَعْقلُونَ * ولا تقربُوا مَالَ اليَتيـم إلا بالـتَّى هي أَحْسَنُ حتَّى يبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا الكَيْلَ والميزَانَ بالقسْط لا نُكلّفُ نفساً إلا وُسْعهَا وإذَا قُلْتُمْ فاعدلُوا ولَوْ كَان ذَا قُرْبَى وبعَهــد الله أَوْفُوا ذَلكُمْ وصَّـكُم به لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وأَنَّ هَذَا صراطي مُسْتَقيمًا فَاتَّبعُوه ولا تَتَّبعُوا السبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُمْ عَن سَبيله ذَلكُمْ وصَّـكُم به لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾

وفي قوله تعالى[1]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذيـنَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مّنْهُمْ وَلا نسَاءٌ مّن نّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مّنْهُنَّ وَلا تَلْمزُوا أَنـــــفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بالأَلْقَاب بئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَان وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُون * يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اجْتَنبُوا كَثيرًا مّنَ الظَّنّ إنَّ بَعْضَ الظَّنّ إثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيـه مَيْتًا فَكَرهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائلَ لتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾ .

ويأخذون من أحاديث الرسول -ﷺ- معنى قوله «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً»[2] وقوله - ﷺ - «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3].

فنرى حسان بن ثابت يوسع شعره لهذه التعاليم الدينية فهو ينصح الإنسان بأن يعرض عن الكلم القبيح وإذا سمعه يتجاهله كأنه لم يسمع شيئاً، ثم ينصحه بألا يتتبع عورات الناس فينبش في أمورهم ليستخرج زلاتهم، ويأمر بمجالسة أهل الفضل والكرم والتحلى بصفاتهم وأفعالهم، وينبغى للإنسان أن يتخير أقرانه ليكونوا على هذه الصفة، ثم ينصح الإنسان بأن يسلك سبل

(١) سورة الحجرات، الآيات ١٠: ١٣.
(٢) مسلم جـ١٦ ص١١٦.
(٣) المصدر نفسه جـ١٦ص١٧٦.

الرشد والهدى ويبتعد عن الضلال وغواية الشيطان الذى يجلب عليه الشر، وينبغى للإنسان أن يجود بما يستطيع إذا سئل قومه، فينبغى أن يساهم معهم ويشاركهم، وينبغى أيضًا أن يترك الإقبال علي الخمر وإدمانها حتى لا تذهب عقله وتفسد رأسه، وعليه أيضاً أن يجاهد نفسه وشهواته ويحافظ علي دينه ويدافع عنه، ويتزود بالتقوي، ويعد العدة للآخرة؛ لأن الإنسان ليس مخلداً فى هذه الحياة، فالموت لاحق به لا محالة، ولو كان فى بروج مشيدة، فلن يستطيع دفعه أو النجاة والهرب منه، فيقول[1] :

أَعْرِضْ عن العوراء أَنْ أُسْمِعْتَها ... واقْعُدْ كأَنَّكَ غَافِلٌ لا تَسْمَعُ
وَدَعِ السُّؤَالَ عن الأُمُورِ وَحَفْرِها ... فَلَرُبَّ حَافِرِ حُفْرَةٍ هُو يُصْرَعُ
والْزَمْ مُجَالَسَةَ الْكِرامِ وفِعْلَهُمْ ... وإذا اتَّبَعْتَ فأَبْصِرَنْ مَن تَتْبَعُ
لا تَتْبَعَنَّ غَوَايَةً لِصبابَةٍ ... إن الغَوَايَةَ كُلَّ شَرٍّ تَجْمَعُ
والقَوْمُ إن نَزَرُوا فَزِدْ فى نَزْرِهِمْ ... لا تَقْعُدَنَّ خِلالَهُم تَتَسَمَّعُ
والشُّرْبُ لا تُدْمِنْ وَخُذ مَعْرُوفَهُ ... تَخْرُجْ صَحِيحَ الرَّأسِ لا تَتَصَدَّعُ
واكْدَحْ لِنَفْسِكَ لا تُكَلِّف غَيْرَها ... فَبِدِينِها تُجْزَى وعنها تَدْفَعُ
والموتُ إِعْدَادُ النُّفُوسِ ولا أرى ... مِنْهُ لِذِى هَرَبٍ نَجَاةً تَنْفَعُ

وكذلك نجد أبا قيس صرمة بن أبى أنس الأنصاري من الشعراء المخضرمين الذين أوسعوا شعرهم لتعاليم الإسلام وظهر هذا الفن التعليمى عندهم بصورة واضحة فإيمانه بالله ورسوله دفعه إلى أن ينشر هذه التعاليم، فيوصى الناس بتقوى الله وبره بالأعمال الصالحة، ويجعل ذلك فى صدر وصيته، ثم

---

(١) ديوانه ص ٢٧٨ .

يوصيهم بحفظ أعراضهم وعدم التنابز والتحاسد حتى لا تكثر الضغائن والأحقاد، ويوصيهم بالعدل إن كانوا من ذوى السلطان، والتجمع والتضحية فى دفع الملمات عن الأهل إذا حلت بهم الخطوب، ويوصيهم بالتعفف وترك السؤال إذا حل بهم الفقر، وبالجود والتفضل إذا أوسع الله عليم، فيقول[1]:

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وأَصْبَحَ غَادِياً ... أَلامَا اسْتَطَعْتُم مِنْ وَصَاتِيَ فَافْعَلُوا

أُوَصِّيكُمُ بِاللهِ والبِرِّ والتُّقَى ... وأَعْرَاضُكُمْ وَالْبِرُّ بِاللهِ أَوَّلُ

وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلا تَحْسُدُنَّهُمْ ... وَإِنْ كُنْتُمُ أَهْلَ الرِّيَاسَةِ فَاعْدِلُوا

وإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ ... فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ العَشِيرَةِ، فَاجْعَلُوا

وَإِنْ نَابَ غُرْمٌ فَادِحٌ فَارفُقُوهُمُ ... وَمَا حَمَّلُوكُمْ فِى الْمُلِمَّاتِ فَاحْمِلُوا

وَإِنْ أَنْتُمُ أَمْعَرْتُمُ فَتَعَفَّفُوا ... وَإِنْ كَانَ فَضْلُ الْخَيْرِ فِيكُم فَأَفضِلُوا

وكذلك يعرض كعب بن مالك فى شعره لهذه المعانى الدينية التي يستمد مضامينها من الآيات السابقة، فيقول[2]:

واغضُوا عن الفحشاءِ لاتَعْرِضُوا لها ... ولا تَطْلُبوا حربَ العشيرة بالقَلْبِ

ولا تَقْضبُوا أعراضَهم فى وجوههم ... ولا تَلْمَسُوها في المجَالس والرَّكْبِ

ولا تأكلوا مالاً بِإِثْمٍ ولا يكُنْ ... معانِدُه بالتُّرَّهات وبالغَضَبِ

ويصوغ علي بن أبى طالب -كرم الله وجهه- فى شعره التعليمى بعض المعانى الدينية التي يستمدها من قوله تعالى[3]: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا

---

(١) السيرة جـ٢ ص١٣٠ وما بعدها، والاستيعاب جـ٤ ص١٧٣٥ وما بعدها، وأسد الغابة جـ٢ ص٢٥٦.

(٢) ديوان كعب بن مالك ص١٨٥.

(٣) سورة الشورى، آية٢٨.

قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وقوله تعالى[1]: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

فيصور رحمة الله الواسعة وفرجه القريب الذى ينزل كالغوث ليكشف الضر عن القلوب التى غمرها اليأس وتوطنت على المكاره بعد أن حلت بها الخطوب، فيقول[4]:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ	وَضَاقَ بِهَمِّهَا الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأُوْطِنَتُ الْمَكَارِهُ واطْمَأَنَّتْ	وَأَرْسَتْ فِى أَمَاكِنِهَا الخُطُوبُ
وَلَمْ يُرَ لانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهٌ	وَلا أَغْنَى بِحِيْلَتِه الأَرِيْبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنك غَوثٌ	يَجِيءُ بِه الْقَرِيْبُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلِّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ	فَمَوْصُولٌ بِهَا الفَرَجُ الْقَرِيْبُ

فالتوكل على الله والإنابة إليه من صفات المومنين المخلصين الذين يسارعون بالتوجه إليه في السراء والضراء يلتمسون الطمأنينة والراحة النفسية لعلمهم أن الله سبحانه وتعالي صاحب الفضل بيده الأمر كله، فيضمِّن أبو الأسود الدؤلى هذا المعنى الدينى فى شعره فيقول[5]:

(1) سورة يونس، آية ١٠٧.
(2) سوة الزمر، آية ٥٣.
(3) سورة البقرة، آية١٨٦.
(4) تاريخ الخلفاء ص٢٩٠ وما بعدها.
(5) ديوانه ١١٩.

إِذَا كُنْتَ مَعْنــيّا بِأَمْرٍ تُرِيــدُهُ   فـمـا للمـضـاء والتَّوكُّلِ من مِثْلِ
تَوَكَّلْ وَحَمِّلْ أَمرك اللهَ إنّمــا   تُرادُ بـه اتيـك فَاقْنَعْ بِذِى الْفَضْلِ
ولا تَحْسَبَنَّ الــسَّيْرَ أَقْرَبَ لِلرَّدَى   مِن الْخَفْضِ فِى دَارِ الْمُقَامَةِ والثَّمْلِ

وعلي هذا النحو يطرد هذا اللون التعليمي عند الشعراء المخضرمين وكأنهم يحملون علي عاتقهم مسئولية تبليغ هذه التعاليم الدينية إلى البشر ليمحوا بها ضلالات الجاهلية، ويبثوا في نفوسهم مكارم الأخلاق التي حض عليها الإسلام، ويكون شعرهم فى نشر هذه التعاليم نواة لهذا الفن التعليمى الذي تطور بعد ذلك تطوراً كبيراً فى شكله ومضمونه.

* * *

ثانيا: شعر التوبة.

ومن الفنون الشعرية الجديدة التي ظهرت بظهور الإسلام شعرالتوبة الذي أعلن فيه الشعراء توبتهم وإدراكهم حقيقة الإيمان الجديدة بإقرارهم بوحدانية الله والتعبير عن ذلك فى شعرهم ليرشدوا الناس إلي الحق وينهوهم عن آفات الجاهلية.

وهذا الفن الشعرى يطرد عند الشعراء المخضرمين الذين أسلموا وأعلنوا فى شعرهم توبتهم الصادقة إلى الله، فنرى عمرو بن الجموح-وكان سيداً من سادات بنى سلمة- يعبد الأصنام، ثم أدرك الضلال الذي كان يهيم فيه،فأسلم برحمة الله وأقر بوحدانيته واعترف بشكره ونعمائه ؛ لأنه أنقذه مما كان فيه من العمى والضلال، فيقول(1):

(1) الإصابة جـ٤ ص٦١٧، وحياة الصحابة جـ١ ص٢١٤.

أَتُوبُ إلـــــى اللهِ مِمَا مَضَي واســـتنقــذُ اللهَ مِن نَارِه

وأُثْني عـلـيـــه بِنَعْمَائه إلـــهُ الْحَرامِ وأسْتَارِه

فَسُبْحَانَه عَدَدَ الْخَاطِبـــين وَقَطْرَ الســمــاءِ ومدْرَارِه

هَدَانِي وَقَدْ كُنْتُ فــي ظُلْمَةٍ حَلــيــفَ مَنَاةٍ وأحْجَارِه

وأَنْقَذَنِي بَعْدَ شَيْــبِ الْقَذَالِ مِن شَيْنِ ذاك وَمِنْ عَـــارِه

فَقَدْ كِدْتُ أَهْلَكُ فـــى ظُلْمَةٍ تَدَارَكَ ذَاكَ بِمِقْـــدَارِه

فَحَمْدًا وشُكْرًا لَهُ مَابَقِيـــتُ إلـــهِ الأنَامِ وَجَبَّارِه

أُرِيـــدُ بِذلــك إذْ قُلْتُه مُجَاوِرَةَ اللهِ فـــى دَارِه

وتراه فى قصيدة أخرى يعلن ثورته على الأصنام ويوجه شكره لله العلي الواهب الرازق الذي هداه وأنقذه من الضلال بأن بعث الرسول -ﷺ- ليهديه قبل أن يكون فى ظلمة القبر، فيقول[1]:

وَاللهِ لَوْ كُنْتَ إلــهـًا لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسْطَ بِئْرٍ فِى قَرَنْ

أُفٍّ لِمَلْقَاكَ إلــهــاً مُسْتَدَنْ الآنَ فَتَّشْــنَاكَ عَنْ سُوءِ الــغَبَنْ

الحَمْدُ لله الــعَلِىِّ ذِي الْمِنَنْ الــوَاهِبِ الــرَّزَّاقِ دَيَّانِ الــدِّيَنْ

هـــو الَّذِي أَنْقَذَنِى مِنْ قَبْلِ أَنْ أَكُونَ فِى ظُلْمَةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ

بــأَحْمَدَ الْمَهْدِى الــنَّبِىِّ الْمُؤْتَمَنْ

ويعلن عمرو بن جبلة بن وائل بن الجلاح الكلبى إسلامه حين وفد على النبى- ﷺ- ثم يعلن إنكاره للأوثان وحياة الجاهلية بكل ما فيها من لهو وعبث ويعلن توبته إلى الله وخشيته منه بعد أن كان جاحداً به، فيقول[2]:

(١) السيرة جـ٢ ص٦٢ وما بعدها.

(٢) طبقات بن سعد جـ١ ق ٢ ص٦٨

أَجَبْتُ رَسُولَ الله إذْ جَاءَ بالْهُدَى ... وأصْبَحْتُ بَعْدَ الْجَحْدِ بالله أُوجَرا
وَوَدّعْتُ لَذّاتِ الْقِدَاحِ وَقَدْ أُرَى ... بِهَا سَدَكَا عمري ولِلهو أصْوَرا
وآمنت بالله الْعَلِي مَكَانُه ... وأصْبَحْتُ لِلأوْثَانِ مَا عِشْتُ مُنْكِرا

ونرى عمرو بن مرة الجهنى يثور على صنمه الذي كان يعظمه، ثم يخرج إلي النبي ، ليعلن إسلامه، ويشهد شهادة الحق، ويؤمن بما جاء به من حلال وحرام، ويتوب إلي الله من الغى وعبادة الأحجار، فيقول[1]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ الله حَقٌّ، وإنَّنِي ... لآلِهَةِ الأحْجَارِ أَوَّلُ تَارِكِ
وَشَمَّرْتُ عَنْ سَاقِي الإزَارَ مُهاجِراً ... إلَيْكَ أَجُوبُ الْوَعْثَ بَعْدَ الدَّكَادِكِ
لأَصْحَبَ خَيْرَ النَّاسِ نَفْساً وَوَالِداً ... رَسُولَ مَلِيْكِ النَّاسِ فَوقَ الحَبَائِكِ

ونرى العباس بن مرداس السلمى، وكان أبوه لما حضرته الوفاة أوصاه بصنم له يقال له: ضماد، فجعله فى بيته يأتيه كل يوم، فلما بعث الرسول-ﷺ- سار إليه وبايعه ثم انصرف إلي صنمه فأحرقه، ورجع ليكون مع الرسول-ﷺ- يعلن توبته، ويؤمن بوحدانية الله وبعبوديته، ولم يشرك به أحداً، يخالف بذلك سلفه الذين أرادوا به المهالك، فتوجه إلى مكة ليبايع النبي -ﷺ- الذي أتى بعد عيسى عليه السلام يجيب الملائكة، ويفرق بين الحق والباطل ويجمع الأمة على الإسلام، ويقيم لها شعائرها، فيقول[2]:

لَعَمْرِكَ إنِّي يَوْمَ أَجْعَلُ جَاهِلاً ... ضَمَاداً لِربِّ الْعَالَمِينَ مُشَارِكَا
وَتَركِي رَسُولَ الله والأوْسُ حَوْلَهُ ... أُولَئِكَ أَنْصَارٌ لَهُ مَا أُولائكَا
كَتَارِكِ سَهْلِ الأرْضِ والْحَزْنِ تَبْتَغِي ... لِيُسْلَكَ بِي فِي وَعْثِ الأُمُورِ

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ق٢ ص ٦٨.

(٢) البداية والنهاية لأبى الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف، بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨١م-١٤٠١هـ ج٢ ص٣٤٢، وحياة الصحابة جـ٣ ص٥٧٨ وما بعدها.

فَآمَنْتُ بِاللهِ الَّذِي أَنَاعَبْدُهُ	وَخَالَفْتُ مَنْ أَمْسَى يُرِيد الْمهَالكَا
وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِداً	أُبَايِعُ نَبِيَّ الأكْرَمِــــينَ الْمُبَارَكَا
نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ عِيــــسَى بِنَاطِقٍ	مِنْ الحَقِّ فِيــه الْفَصْلُ فِيه كَذَلكَا
أَمِينٌ عَلَى الْفُرْقَانِ أَوَّلُ شَافِعٍ	وَأَوَّلُ مَبْعُوث يُجِيــبُ الْمَلائكَا
تَلافَى عُرَى الإِسْلامِ بَعْدَ انْتِقَاضِهَا	فَأَحْكَمَهَا حَتَّى أَقَامَ الْمَنَاسِكَا

ونجد حمزة بن عبدالمطلب يصوغ توبته صيــاغة دينية يتأثر فيها بمعاني القرآن الكريم وكأنه يتمثل آياته المحكمات من مثل قوله تعالى[1]: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِيـنَ مِن قَبْلِكَ الـلَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيـمُ﴾ وقوله تعالى[3] ﴿الـلَّهُ لَطِيــفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فيقول[4]:

حَمِدْتُ اللهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي	إِلَى الإِســـلامِ والدِّيـنِ الْحَنِيفِ
لِدِيــــنٍ جَاءَ مِنْ رَبٍّ عَزِيــــزٍ	خَبِــيـــرٍ بِالْعِبَادِ بِهِم لَطِيفِ
إِذا تُلِيَتْ رَسَائِلُه عَلَيْنَا	تَحَدَّرَ دَمْعُ ذِي اللُّـــبِّ الْحَصِيفِ
رَسَائِلُ جَاءَ أَحْمَدُ مِنْ هُدَاهــــا	بِـــآيَــــاتٍ مُبَيَّنَةِ الْحُرُوفِ
وَأَحْمَدُ مُصْطَفَى فِـــــينا مُطَاعٌ	فَلا تَغْشَوْه بِـــالْقَوْلِ الْعَـــنِيــفِ

وقد وثب ذباب من بني أنس الله بن سـعد العشيـرة إلى صنم لهم يقال له فَرّاض فحطمه بعـد أن شد عليه شدة أخفت معالمه فـصار كأن لم يكن، ثم

(١) سورة هود، آية ١.

(٢) سورة الشورى، آية٣ .

(٣) سورة الشوري، آية١٩ .

(٤) الروض الأنف جـ٣ ص١٥١.

أعلن توبته إلى الله بأن أجاب رسوله الكريم -ﷺ- حين ظهر بدعوته، وأصبح مسلماً لله وجهه يذود عن دينه الجديد بكل ما يستطيع؛ لأنه اشترى الحياة الآخرة بهذه الدنيا الفانية، فيقول[1]:

تَبِعْتُ رَسُولَ الله إذْ جاءَ بالْهُدَى ... وَخَلَّفْتُ فَرَّاضًا بدارِ هَوَانِ

شَدَدْتُ عليه شَدَّةً فَتَرَكْتُه ... كَأَنْ لَمْ يَكُنْ والدَّهرُ ذو حَدَثَانِ

فَلَمّا رأيتُ الله أَظْهَر دِينَه ... أَجِبْتُ رسولَ الله حين دَعَاني

فَأَصْبَحْتُ للإسْلامِ ما عشْتُ ناصراً ... وأَلْقَيْتُ فيها كَلْكَلي وَجِرَاني

فَمَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ الْعَشِيرةِ أَنّني ... شَرَيْتُ الذى يَبْقَى بآخَر فَانِ؟

ويتبرأ نوفل بن الحارث بن هاشم من دين آبائه، ويتبرأ كذلك منهم؛ لأنهم في ضلال وكفر، ويعلن توبته إلي الله، وتمسكه بدينه القيم وعدم العودة إلي الكفر بعد أن شهد بأن محمدا رسول الله- ﷺ- أتي بالهدى من عنده ليدعو الناس إلى البر والتقوى، كما شهد بأنه ليس بشاعر كما ادعى قومه المشركون، ثم يؤكد توبته بأنه يموت ويحيا على كلمة لا إله إلا الله، فيقول[2]:

إليكم إليكم إنَّني لَسْتُ منْكُم ... تَبَرّأْتُ من دين الشُّيوخِ الأَكَابِرِ

لَعَمْرُكَ مَا دِيْنى بشَىء أَبيعُهُ ... وما أنا إذ أَسْلَمْتُ يَوْمًا بكَافِرِ

شَهِدْتُ على أَنّ النَّبىّ مُحَمَّدًا ... أَتَى بالْهُدَى من رَبِّه والْبَصَائِرِ

وأَنّ رَسُولَ الله يدعو إلى التُّقَى ... وأَنَّ رسولَ الله ليس بِشَاعِرِ

على ذاك أَحْيَا ثُمَ أُبْعَثُ مَوْقِنا ... وأُثْوى عليه مَيِّتاً فى الْمَقَابِرِ

وعلي هذ النحو أعلن الشعراء المخضرمون توبتهم، وصاغوا ذلك نظماً

(١) طبقات ابن سعد جـ١ق٢ص٧٤.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ق١ص٣٦.

دينياً يدل على تأثرهم بتعاليم الإسلام وإدراكهم لحقيقة الإيمان التي تشربتها عقولهم وجذبت وجدانهم فجاء شعرهم عذباً رقيقاً تسعد به القلوب المؤمنة وتطمئن إليه النفوس الحائرة.

* * *

ثالثا: شعر الاعتذار الإسلامي.

من الفنون الشعرية التي ازدهرت على أيدي المخضرمين فى عصر الرسول - ﷺ - فن الاعتذار عن الكفر ومعاداة المسلمين وتأكيد العزم والتوبة والندم على ما فرط الشعراء فى جنب الله ورسوله.

وقد تناول هذا الفن الشعري هؤلاء الشعراء الذين أسلموا وآمنوا بعد كفرهم فأقبلوا على الرسول - ﷺ - يمدحونه ويعتذرون إليه بعد ما وقفوا من الإسلام ورسوله وأصحابه موقفاً معادياً، ومن هؤلاء الشعراء كعب بن زهير، وعبدالله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث، وأنس بن زنيم، وأسيد ابن أبى إياس، وقيس بن الربيع وغيرهم كثيرون، ممن نظموا شعراً بعد إسلامهم اعترفوا فيه بذنبهم وندموا على معصيتهم.

فالاعتذار في الحقيقة نوع من دفع الأذى عن النفس، والأذى هنا نوعان: أذى آت إما عن خطأ ارتكبه الإنسان فهو أذى لكنه يؤرقه ويثقل ضميره، فهو محتاج أن يدفع هذا الأذى عن نفسه فيستريح، وذلك بالتماس الأعذار إلى نفسه وتهوين الأمر حتى يوحى إليها أنه قد حمل عنها العبء أوكاد، وأذى آخر آت من شعور الإنسان بنفور الغير منه وكراهيتهم له وإعراضهم عنه فهو أذى كذلك يؤرقه وهو محتاج كذلك أن يدفع هذا الأذى عن نفسه لكى يريح غيره فيلين له ويميل إليه ويصفح عنه، ويتخذ لنفسه الوسائل فى إبداء العذر والتماس السبيل التي تخلصه من الأذى.

فالاعتذار فيه ناحية أخلاقية تدعو الإنسان لتخليص نفسه من الأذى ومحاسبة نفسه عما تأتيه من أعمال ومحاولة التعاون مع الناس على أساس من الود

والتفاهم، وعلى أساس من إصلاح النفوس، فتبقى صافية تتجاذب وتتآلف[1].

وإن كنا نجد جذوراً لهذا الفن قبل الإسلام عند النابغة فى اعتذاره للنعمان ابن المنذر إلا أن هناك فرقاً شاسعاً بين اعتذار النابغة واعتذار المسلمين، فاعتذار النابغة كانت تدفعه إليه دوافع نفعية وأخرى إنسانية أما اعتذار المسلمين فكان الدافع الأساسى عندهم هو الدين، فلو سئل أحدهم أن يبذل نفسه وماله فى سبيل عقيدته ما تردد بل بذلها طائعاً راضياً.

فالشاعر المخضرم حين يعتذر عما سلف منه «يصدر عن عقيدة وإيمان، ويهون عليه فى سبيلهما أن يغضب عشيرته عند اختلاف الدين، لا التماساً لأجر مادي. . . بل ابتغاء مرضاة الله ورسوله»[2].

وتأتى فى مقدمة هذا الفن الاعتذاري الإسلامى قصيدة (بانت سعاد) لكعب ابن زهير، الذى استطاع أن ينال عفو الرسول - ﷺ - بعد أن أنشده اعتذاره فى هذه القصيدة، فقد سبق أن ذكرنا أن الرسول - ﷺ - أهدر دمه عندما بلغه هجاؤه، ومن ثم ضاقت به الأرض لعلمه أنه مقتول ولم يدر فيما النجاة، ولكنه عاد إلى رشده وعرف طريق النجاة فأقبل على الرسول - ﷺ - ليبايعه على الإسلام ويستجيره ويطلب منه العفو والمغفرة علي مافرط فى جنب الله ورسوله، ويقوله له: «بأبى أنت وأمي يا رسول الله هذا مقام العائذ بك» فما كان من الرسول - ﷺ - إلا أن يؤمنه لعلمه أنه جاء مسلماً فمد له يده وأجاره، ثم أنشده كعب قصيدته الشهيرة التى بدأها بمقدمة غزلية تقليدية ثم عرج على وصف الناقة ليستقصي أوصافها، ثم يتخلص من هذا الوصف تخلصاً بارعاً ليصور شدة خوفه وفزعه بعد أن كثر من حوله الوشاة المخوفون له، والمرجفون به، وتخلى عنه إخوانه موضع آماله ومحط رجائه فتبرأوا منه يأساً من سلامته، وقالوا له: اعمل لنفسك فإنا لا نغنى عنك شيئا.

(1) النابغة الذبيانى: د/ محمد زكى العشماوي الطبعة الثانية ١٩٦٨ بدار المعارف ص٨٨، وراجع أيضاً شعر المخضرمين لحامد متولي الخولى، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية دار العلوم ١٩٥٦م ص٢٣٧، ٢٤٣.

(2) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر. د/ عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ١٩٧٠ص٧٨

فانتهى به الخوف إلى اليأس، وضاقت به الأرض، وقد تيقن أن ما قدره الله لابد أن يحدث وأن الإنسان مهما طالت به الحياة فلابد أن يأتى يوماً ويودعها، فيقول[1]:

يَسْعَى الوُشَاةُ بجَنْبَيْهَا وقولُهمُ ... إنكَ يا ابنَ أبى سُلْمَى لمقتول
وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمُلُه ... لا أُلْفِينَّكَ إنِّى عنك مشغولُ
فقلتُ: خَلُّوا طَرِيقِي لا أبَا لكُم ... فكلُّ ما قَدَّرَ الرحمنُ مفعولُ
كلُّ ابنِ أُنثَى وإنْ طالت سَلامَتُه ... يومًا على آلةٍ حَدْباءَ محمولُ

ثم إنه لم يكد يذكر أن الذى يوعده ويتهدده هو رسول الله -ﷺ- حتى ثاب إلى رشده وانكشف غمه وانجلى عنه اليأس، فتجددت فى نفسه الآمال بعد أن ثبت له وتواتر عنده أن الرسول -ﷺ- يغفر الذنب ويعفو عن المسىء؛ لأن الله هداه إلي هذا الصفح، وزاد من هداه أنه أنزل عليه السكينة حين أنزل عليه القرآن.

ثم يبرئ نفسه من أقاويل الوشاة التي كثرت وبلغت الرسول -ﷺ- فيؤكد له أنه لم يخطئ في حقه فيقول [2]:

أُنبِئتُ أنَّ رَسُولَ الله أَوْعَدَنِي ... والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
مَهْلاً هَدَاكَ الذي أعطاكَ نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخُذَنِّى بأقوالِ الوُشاةِ ولم ... أُذْنِبْ ولو كثُرتْ عنِّى الأقاويلُ

ثم يستطرد بعد ذلك في استعطافه وتصوير خوفه وفزعه من بأس الرسول -ﷺ- وقوته وحزمه حتى إذا فرغ من ذلك انتهى إلي المديح ليختم به حديثه وقد أعجب الرسول-ﷺ- بحسن اعتذاره وازداد إعجاباً بمديحه حتى خلع عليه بردته.

---

(١) ديوانه ص١٩.

(٢) المصدر نفسه ص١٩ وما بعدها.

وفي اعتذار كعب للرسول -ﷺ- نلمس هذه الظاهرة الإسلامية إذا وازنا بين قوله:

أُنبئتُ أنَّ رَسُولَ الله أَوْعَدَني والعفوُ عند رسولِ الله مأمولُ

وبين قوله النابغة فى اعتذاره للنعمان[1]:

أُنبئتُ أن أبا قابُوسَ أَوْعَدَني وَلا قَرارَ على زَأْرٍ مِن الأَسَدِ

فسنجد هذا الفرق العظيم بين هذين الليثين اللذين يوعدان فيخاف وعيدهما فأما أحدهما، وهو النعمان فوعيده مخيف موئس وأما الآخر فوعيده مخيف، ولكن الأمل من ورائه، فتطمئن إليه نفسه لعلمه أن صاحبه هو النبي -ﷺ -الذي عرف بالعفو والحلم والرحمة وسعة الخلق[2].

وكذلك كان أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهو ابن عم الرسول -ﷺ- من أشد الناس عداوة للإسلام، وقد هداه الله للإسلام، فأسلم عام الفتح وشهد حنيناً مع الرسول -ﷺ- وأبلي فيها بلاء حسناً.

وقد ذكر الرواة أن أبا سفيان بن الحارث وعبدالله بن أمية بن المغيرة لقيا رسول الله-ﷺ -وهو فى طريقه إلي مكة- فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لاحاجة لى بهما، أما ابن عمي فهتك عرضى، وأما ابن عمتى وصهري فهو الذي قال لى بمكة ما قال. فلما أخبرا بذلك، قال أبو سفيان-وكان معه بني له-: والله ليأذنن لى أو لآخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك الرسول -ﷺ- رق لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه، فأسلما[3].

وأنشده أبو سفيان قصيدته التى يعتذر فيها عما كان مضى فيه ويلتمس العفو والمغفرة، فهو يوم يرفع راية الكفر ليناصر جيش المشركين على

---

(١) ديوان النابغة الذبياني بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٦.

(٢) حديث الأربعاء، طه حسين، الطبعة الثانية عشرة بدار المعارف ١٩٧٦ جـ١ ص١٢٤.

(٣) السيرة جـ٤ ص١٨، والاستيعاب جـ٤ ص١٦٧٣ وما بعدها، وأسد الغابة جـ٦ ص ١٤٥ وما بعدها.

المسلمين يكون قد ضل الطريق؛ لأنه يتخبط فى ظلمات الشرك، وقد حان الوقت ليندم علي ما فعل، وقد هداه الله، وقاده الرسول -ﷺ- إلي الطريق المستقيم، فيقول فيها[1]:

لعمرُكَ إنِّي يَوْمَ أحْمِلُ رَايَةً ... لتَغْلبَ خَيْلُ اللات خيلَ مُحَمَّد
لكَالْمُدْلجِ الْحَيْرانِ أظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهَذَا أَوَاني حين أهدى وأهتدى
هَدَانِى هَادٍ غَيْرُ نَفْسِى، وقادنى ... إلي الله مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّد

فقال له الرسول -ﷺ-: أنت طردتنى كل مطرد، كأنه ينكرها، ولكنه قبل اعتذاره وعفا عنه، وشهد له بالجنة، فقال له: أرجو أن تكون خلفاً من حمزة. وَعُدَّ أبو سفيان من فضلاء الصحابة، وروى أنه لما حضرته الوفاة قال: لاتبكوا على فإني لم أتنطف بخطيئة منذ أسلمت[2].

ومن الشعراء المخضرمين الذين أسلموا واعتذروا بشعرهم عن إيذائهم للمسلمين، عبدالله بن الزبعرى.

فنراه يعلن إسلامه وينشد الرسول -ﷺ- شعرا يعتذر فيه عما سلف منه من هجاء المسلمين، وهو يجاري الشيطان فى طريق الغى والضلال الذي يؤدي إلى الهلاك، فجاء ليعلن توبته، ويشهد أن الله لا إله غيره وأن محمداً -ﷺ- رسوله ونذيره، فيقول[3]:

يَا رَسُولَ الْمَلِيك، إنَّ لِسَانِي ... رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أَنَا بُورُ
إذْ أُبَارِى الشَّيْطَانَ فِى سَنَنِ الْـ ... ـغَيِّ ومَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ
آمَنَ اللَّحْمُ والْعِظَامُ بِمَا قُلْـ ... ـتَ فَنفسي الْفِدَى وَأَنْتَ النَّذِيرُ

---

(١) طبقات ابن سلام جـ١ ص٢٤٧، وراجع أيضاً المصادر السابقة.

(٢) أسد الغابة جـ٦ ص١٤٦، واتنطف: أراد لم يصب من الخطيئة شيئا.

(٣) طبقات ابن سلام جـ١ ص٢٤٢، وراجع أيضاً: السيرة جـ٤ ص٣٩، والطبرى جـ٣ص٦٤، والاستيعاب جـ٣ص٩٠٢..

ونجده في قصيدة أخرى تؤرقه ذكريات مسايرة قومه علي الكفر قبل أن يشرح الله صدره للإسلام، فيتوجه بشعره معتذراً للرسول -ﷺ- عما صنع أيام كفره،عندما كان يحرضه المشركون على هجاء النبى وأصحابه،ولكنه عاد منيباً إلى الله، فقد آمن برسوله وانقضت أسباب العداوة، فيقول[1]:

مَنَعَ الرُّقَادَ بَلابِلٌ وَهُمُومُ ... وَاللَّيْلُ مُعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بَهِيمُ
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لامَنِي ... فِيهِ فَبِتُّ كَأَنَّنِي مَحْمُومُ
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَي أَوْصَالِهَا ... عَيْرَانَةٌ سُرُحُ الْيَدَيْنِ غَشُومُ
إِنِّى لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي ... أَسْدَيْتُ، إِذْ أَنَا فِى الضَّلال أَهِيمُ
أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ ... سَهْمٌ وَتَأْمُرُنِى بِهَا مَخْزُومُ
وَأَمُدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى وَيَقُودُنِى ... أَمْرُ الغُوَاةِ وأَمْرُهُمْ مَشْؤُومُ
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... قَلْبِى وَمُخْطِئُ هَذِه مَحْرُومُ
مَضَتِ الْعَدَاوَةُ وانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ... وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ

ثم يستطرد بعد ذلك فى الاستعطاف المصاحب للمديح، وهو لا يستعطف ملكاً أو رجلاً ذا سلطان، بل يستعطف رسول الله -ﷺ -فلابد أن تظهر فى شعره الظواهر الإسلامية التي تجعلنا نشعر بأننا نقف أمام شاعر مسلم تمكنت تعاليم الإسلام من نفسه وملكت عليه ضميره، فنلاحظ هذا الاطمئنان النفسى يظهر بوضوح فى قوله:

فَاغْفِر فِدىً لَكَ وَالِدَاي كِلاهُمَا ... زَلَلِى فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِيكِ عَلامَةٌ ... نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ
أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ ... شَرَفاً وَبُرْهَانُ الإِلَهِ عَظِيمُ

(١) السيرة جـ٤ص٣٩ ومابعدها، وراجع أيضاً ابن سلام جـ١ص٢٤٢ وما بعدها، والاستيعاب جـ٣ ص٩٠٣ ومابعدها.

وَلَقَدْ شَـهِدتُ بِأَنَّ دِينَـكَ صَادِقٌ حَقٌّ وأَنَّـكَ فِي العِـبَادِ جَسِـيمُ
واللهُ يَشْهَـدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْـطَفَى مُسْـتَقْـبَلٌ فِي الـصَّالِحِـينَ كَرِيمُ

وكذلـك أهدر الرسـول -ﷺ- دم أنس بن زنيـم الديلـي؛ لأنه نال مـنه وحرض علـى المسلمين فى شـعره، فلما كـان عام الفتح أتي الـنبى -ﷺ- فجلس بين يديه وأسلم،فأمنه ومسح وجهه وصدره، ثم أنشده قصيدة من هذا الشعر الاعتذاري ينفى فيها ما قالـه وفد بنى عدي بن الدئل حين قدموا علي الرسول -ﷺ- وأبلغوه أنه هجاه، فيقول فيها[1]:

وَمَـاحَمَـلَتْ مِـنْ نَـاقَةٍ رَحْـلَهَـا أَبَـرَّ وَأَوْفَـى ذِمَّـةً مِنْ مُـحَـمَّـدِ
أَحَثَّ عَـلَي خَـيْرٍ وَأَسْـبَغَ نَـائِلاً إِذَا رَاحَ كَالسَّـيْفِ الصَّقِيلِ الْمُـهَنَّدِ
وأَكْسَى لِـبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْـتِذَالِه وَأَعْطَى لِـرَأْسِ السَّابِقِ الْمُـتَجَرِّدِ
تَعَـلَّمْ رَسُـولَ اللهِ أَنَّكَ مُـدْرِكِي وَأَنَّ وَعِـيداً مِنْكَ كَـالأَخْذِ بِالْـيَدِ
تَـعَـلَّمْ رَسُـولَ اللهِ أَنَّـكَ قَـادِرٌ عَلَى كُـلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِينَ وَمُـنْجِدِ
تَعَلَّمْ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبَ عُوَيْمِرٍ[2] هُمُ الْكَاذِبُونَ الْمُخْلِفُو كُلِّ مَوْعِدِ

ثم نراه بعد أن ينفي عن نفسه تهـمة هجائه للرسول -ﷺ- يلتزم بأخلاق الإسلام وتعـاليمه،فيـصارح الرسول الكريم -ﷺ- بـكل ما صنعـه قبل أن يسلم، فهو لم يقدح في أعراض المسلمين ولا استباح دمهم فى شعره، ولكن كل ما فعله أنه رثى قـتلى الكفار موجع القلب؛ لأن قاتليـهم لم يكونوا في

(١) السيرة جـ٤ ص٤٦ وما بعدها، وأنساب الأشـراف جـ١ ص٣٦٣، ونسبها ابن قـتيبة فى الشعـر والشعراء جـ٢ ص٧٣٧ لأبى أناس بـن زنيم والد أنس،وكذلك نـسبها ابن حزم في جمـهرة أنساب العرب بتـحقيق عبدالسلام هارون الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٧٧م ص١٨٤ ومـا بعدها،ونسبها ابن الأثير في أسد الغابة جـ١ص١٠٨ وما بعدها لأسيد بن أبي أناس بن زنيم.
(٢) هو عوير بن الأحزم أحد وفد بني عدي بن الدئل. راجع أسد الغابة جـ١ص١٠٨.

درجتهم الاجتماعية، وهذا أمر كان يعتد به فى الجاهلية[1]، فيقول مبيناً ذلك[2]:

وَنُبِّـي رَسُولَ الله أَنْ قَدْ هَجَـوْتُهُ ... فَلا رَفَـعْتَ سَوْطِي إِلـيَّ إذاً يَدِي

فَإِنِّـي لا عِرْضاً خَرَقْـتُ وَلا دَمَاً ... هَرَقْتُ فَذَكِّر عَالِـمَ الْحَقِّ واقصد

سِوَى أَنَّنـى قَد قُلْتُ يا ويح فـتْيَةٍ ... أصبوا بـنَحْسٍ يوم طلـق وَأَسْعُدِ

أَصَابَـهُمُ مَنْ لَمْ يَـكُنْ لِدِمَائِـهِمْ ... كَفِـيْئاً فَعَـزَّتْ غيْـرتِي وَتَـلَدُّدى

وكذلك أورد السهيلي أبياتاً لعمـر بن الخطاب -رضي الله عنه- يعلن فيها توبته وإيمـانه بالله ورسوله -ﷺ- عندمـا وقع الإسلام في قلبـه، وندم على ظلمه لفاطمة أخته حين أهانها هي وزوجـها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل لما عـلم بإسـلامهـما، فيـقول بعـد أن ثاب إلى رشـده وعاد مـنيبـاً إلى الله ورسوله[3]:

الحَمْدُ لله ذى الْمَـنِّ الَّذى وَجَبَتْ ... لَـهُ عَلَـيْنَـا أياد مـا لـها غِـيَـرُ

وقَـدْ بَدَأَنـا فكـذَّبنـا، فقَـالَ لنـا ... صدقَ الحديـث نبيٌّ عِنْدَهُ الْـخَبَرُ

وَقَدْ ظَلَمتُ ابنةَ الخطابِ ثُمَّ هدى ... ربِّى عَشِيَّةَ قالـوا : قد صَبَا عُمرُ

وقد نَدِمْـتُ على ماكـان من زلَلٍ ... بظلمـها حين تُتْلى عنـدها السُّورُ

لما دعت ربَّـها ذا العَرْشِ جَـاهِدَةً ... والدَّمعُ من عـينها عَجْلان يَـبْتَدِرُ

أيْقَـنْتُ أنَّ الَّذى تدعـوه خالقُـها ... فكـاد تَسْـبقـنى مِـنْ عبْـرةٍ دِرَرُ

فَـقُلْـتُ: أشْهَـدُ أَنَّ اللهَ خالـقُنـا ... وأنَّ أحْمَـدَ فيـنا الـيومَ مُـشْتَـهِرُ

نبـيٌّ صِدْقٍ أتـى بالحـقِّ مِنْ ثـقةٍ ... وافى الأمـانةِ ما فى عُـوده خَوَرُ

وقد اختـلف الرواة فى شاعـرية عمر بن الخـطاب-رضى الله عنه- فـنجد بعضهم ينسب إليه شعراً لم ينسبه أحد من الرواة لغيره، كما فعل السهيلي فى

(١) دراسات ونصوص فى الأدب العربى ٩٦.

(٢) الإصابة جـ١ص١٢٣، والسيرةجـ٤ص٤٧ وما بعدها، ورواية الأبيات فيها مختلفة.

(٣) الروض الأنف جـ٣ ص٢٧٧ وما بعدها.

هذه القصيدة وكذلك البلاذري نسب إليه أبياتاً فى رثاء الرسول -ﷺ-[1].

ونجد آخرين ينكرون عليه قول الشعر، فقد ذكر ابن قتيبة أنه استنشد متمم ابن نويرة ما قاله فى أخيه مالك، أراد بذلك أن يتعزى عن مقتل أخيه زيد بن الخطاب، فلما أنشده متمم شعره، قال له عمر: لو كنت أقول الشعر لسرني أن أقول فى زيد بن الخطاب مثل ما قلت فى أخيك[2].

والحقيقة التي نجد أنفسنا بإزائها أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- كانت له آراء نقدية فى تقويم الشعر والشعراء، فكان يعجب بالشعر ويتذوقه وينشده، فلا نستبعد إذا أن يقول أبياتاً يعبر بها عن حقيقة إيمانه بالله ورسوله-ﷺ- بعد أن كان أغلظ الناس وأشدهم عداوة للرسول -ﷺ- والمسلمين، أو يعبر بها عن حبه الشديد للرسول، وحزنه على فراقه، فأثر الإسلام في نفسه جعله يستشعر حلاوة الإيمان وينساب الشعر على لسانه.

وإذا تركنا الشعراء المخضرمين الذين أسلموا واعتذروا فى شعرهم عن كفرهم أو هجائهم للرسول- ﷺ- وأصحابه، أو موقفهم المعادى للإسلام، نجد أنفسنا أمام نوع آخر من الشعراء الذين أسلموا واتخذوا لأنفسهم من الإسلام رداء رقيقاً يشف عما تحته من حب الجاهلية وإيثارها، ولم يحمدوا الله على نعمة الإسلام فوجد الرسول -ﷺ- وأصحابه منهم وأعرضوا عنهم، ومن ثم شعروا بالندم وأسفوا على ما فرطوا. من هؤلاء الحطيئة الذي أرسل إلى عمر بن الخطاب-رضى الله عنه- أبياتاً يستعطفه فيها ويطلب عفوه، عندما حبسه فى الهجاء، فما كان من عمر إلا أن رق له وأطلقه.

ومنهم أيضاً قيس بن الربيع، وكان من حى ذوي الأضغان، وكان الرسول -ﷺ- قد أمر بشىء لهم ليقسم على فقرائهم، وأمر لقيس بشىء نزر، فغضب قيس، ثم هجا رسول الله -ﷺ- فلما بلغه أن قيسا هجاه، وجد من

---

(١) أنساب الأشراف جـ٢ص٥٩٢.

(٢) الشعر والشعراء جـ١ص٣٣٨.

ذلك. فلما علم قيس أن الرسول بلغه هجاؤه، رحل إلى المدينة وقصده، فسلم عليه، فأعرض عنه الرسول -ﷺ- فما كان من قيس إلا أن اعتذر وندم وبرأ نفسه مما نسب إليه، فأنشده قوله[1]:

حَيِّ ذَوِي الأَضغانِ تَسْبِ قُلُوبَهُمْ ... تَحِيَّتُكَ الحُسْنَى فَقَدْ يُدْبَغُ النَّغَلْ

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسِّلْمِ فَاجْنَحْ لِمِثْلِهَا ... وَإِنْ كَتَمُوا عَنْكَ الحَدِيثَ فَلا تَسَلْ

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ... وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلْ

فقد تأثر الشاعر فى اعتذاره بالمعاني الإسلامية مما جعل اعتذاره مقبولا، فطاب قلب النبى- ﷺ- لحسن اعتذاره، وقال:

«من لم يقبل من متنصل عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يرد على الحوض»[2].

فكان الشعر الاعتذارى الإسلامى-على هذا النحو الذي رأينا- يعبر في الغالب عن عاطفة صادقة وشعور بالإيمان العميق الذي تغلغل في نفوس المسلمين، حينما أحسوا بالذنب، وأخذت نفوسهم تتأذى من هذا الذنب، واتخذوا لأنفسهم الوسائل فاعتذروا بشعر يتفق ومبادئ الإسلام الأخلاقية والتمسوا لأنفسهم السبل فى التخلص من ذنوبهم، وهم على يقين أن الرسول -ﷺ- خير من يعفو ويصفح، وقد كان ﷺ يستغفر لهم ويدعو لهم-كما رأينا- حتى طابت نفوسهم، وأخلصوا في عقيدتهم، ولم يترددوا فى بذل أرواحهم وأموالهم فى سبيل نصرة الإسلام.

* * *

رابعاً: شعر العتاب الإسلامى.

كان للتعاليم التى بثها الإسلام فى نفوس أبنائه وتشربتها نفوسهم وملكت عليهم ضمائرهم آثارها فى سلوكهم مع الآخرين، وكان من بين هذه التعاليم

---

(١) أسد الغابة جـ٤ص٤٢١.

(٢) المصدر نفسه والصحيفة نفسها.

قول الحق تبارك وتعالى[1]: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ فهو يوجب الطاعة لأولى الأمر على أفراد الجماعة الإسلامية، ولا يجعل من النزاع معهم فى توجيه سياسة الحكم وتدبير الأمور مبرراً لعصيانهم بل جعل كتابه وسنة رسوله -ﷺ- الحكم الذى ترد إليه المنازعات.

وإذا كانت الطاعة واجبة على المؤمنين لأولى الأمر، فإن لهؤلاء الحق فى الطاعة عليهم، وهو حق مشروط بما ذكره الله تعالى في قوله ﴿إن الله يأمركم﴾ أي يأمر المؤمنين جميعاً: أولى الأمر ومن عداهم ﴿أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ والأمانات بهذا الجمع عديدة ومتنوعة: أمانة الحكم، وأمانة الشورى وأمانة الوفاء بالبيعة وأمانة العمل بكتاب الله وسنةرسوله-ﷺ- وأمانة أموال المسلمين وأمانة المحافظة على الحرمات ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ فطاعة الأفراد فى الأمة لأولى الأمر مشروطة بطاعة أولى الأمر لله، وطاعتهم لله تتمثل في أمرين رئيسين: في أداء الأمانات العديدة لأهلها وأصحابها وفى الحكم بين الناس بالعدل، فإذا قصر ولى الأمر أو خرج على هذه القاعدة الأساسية التى وضعها الإسلام فعلى الرعية إذا توجيهه ولفت نظره إلى ما بدر منه من تقصير أو خروج؛ لأن الإسلام لا يعرف الفروق بين مستويات أفراد الجماعة الإسلامية إلا بالإيمان والعمل الصالح.

وعندما نقف عند شعر المخضرمين الذين أسلموا وتمكنت العقيدة من نفوسهم نجد آثار هذه الديمقراطية الإسلامية تظهر في شعرهم،فطرقوا معاني

(١) سورة النساء: الآيتان ٥٨، ٥٩.

جـديدة لم يألفهـا الشعـر العـربى من قبل، فـأخذوا يعـاتبون ولاة الأمـور ويوجـهونهم ويعـنفونهم أحـيـاناً إذا احتـاج الأمر لذلـك، متـأثرين فى كل الأحوال بتعاليم الإسلام وملتزمين بقيمه وأخلاقه.

وقد يكون الشاعر واهماً فى تفسيره لقرار ولاة الأمر، كما حدث حين فرغ الرسول -ﷺ- من رد سبايا حنين إلى أهلها، فاعطى المؤلفة قلوبهم وكانوا أشرافـاً يتألفهم ويتألف بهـم قومهم، وكان من بين هؤلاء الأقـرع بن حابس وعيينة بن حـصن الفزاري وغيرهم، فأعطى كل واحد من هؤلاء مـائة بعير، وأعطى دون المائة رجـالا منهم: العـبـاس بن مـرداس السلمى وآخـرين من قريش. فسخط العباس بن مرداس عطاءه، وأخذ يعاتب النبي -ﷺ- في شعر له، وهو لايعلم الحكمة التى أرادها الرسول -ﷺ- من تقـسيمه الغنائم على هذا النحو، واعـتقد أن الرسول -ﷺ- فضل أولئك علـى هؤلاء، فقال من شعر له[1]:

فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعُبَيْـــــــــــدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

...

وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِـــــــرداسَ فِي الْمَجْمَعِ

وَمَا كُنْـــــــتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لا يُرْفَـــــــعِ

فنلاحظ أن الشاعـر رفض أن يفضَّل عليـه عيينة والأقـرع؛ لأنهمـا إن كانا أشرافاً فى أقوامهـما، فهو لا يقل عنهما شرفاً في قومـه، ثم إنه يخشى شيئاً آخر أهم من العطاء، وهو منزلته في الإسلام، فاعتقد أن الرسول -ﷺ- إذا وضع منزلته لا يستطيع أن يطير ويلحق بصفوة المسلمين. فعندما سمع الرسول -ﷺ- قـوله، قل: قم يا عـلىّ فـاقطع لسـانه، أرد بذلك أن يـعطيـه حـتى

(١) السـيرة جـ٤ ص١٤١ والمغازي جـ٣ ص٩٤٦ ومـا بعدها، والشعر والشـعراء جـ٢ ص٧٤٨، والطبري جـ٣ ص٩١، والأغاني دار الكتب جـ١٤ ص٣٠٨، والخزانة جـ١ ص١٥٣.

يرضى. فقـام عليّ ومضى به إلى حظائر إبل الصدقـة، وقال له اعتـد ما بين أربعين إلى مائة، فإن الرسول -ﷺ- أعطاك أربعين وجعلك من المهاجرين فإن شـئت فخـذها وإن شئت فـخذ مـائة وكن من المؤلفـة قلوبهم، فاسـتشـار عليـاً، فقـال له: إني آمـرك أن تأخذ مـا أعطاك، فـقال: بأبى أنت وأمى: مـا أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم[1].

وذكر ابن هشام أن الرسول - ﷺ- أعطى قبائل قريش وقبائل العرب من هذا العطاء ولم يعط الأنصار شيئاً، فعاتبه حسان بن ثابت فى ذلك بقصيدة يقول فيها[2]:

زَادَتْ هُمُومي فَمَاءُ العَيْنِ يَنْحَدِرُ ... سَحّاً إِذَا غــــرَّقَتْهُ عــــبْرَةٌ دِرَرُ

وأغلب الظن أن حسان لم يقل هذه القصيـدة في العطاء، فقد ذكر العدوي فى ديوانه أنه قـالها حين قـدَّم الرسول -ﷺ- خـالد بن الوليد فــى غزوة الفتح فى سليم وغيـرها وسار -ﷺ- في المهاجرين والأنصـار، فلما جعل -ﷺ- سليماً فى المقدمة كرهت ذلك الأنصار وقال حسان قصيدته.

وأيا كان سبب هذه الوجدة التي وجدها الأنصار على الرسول -ﷺ- في أنفسهم فإن الذي يهمنا شعر حسان في عتاب الرسول -ﷺ- وإن كان عتاباً هادئاً علي نحو قوله[3]:

وأْتِ الـــرَّسُولَ فَقُلْ يَا خَيْرَ مُؤْتَمنٍ ... لِـــلـمُؤْمنـــينَ إِذَا مَا عُدِّلَ الـــبَشَرُ

عَلامَ تُدْعَــــى سُلَيْمٌ وَهْىَ نَازِحَةٌ ... أَمَامَ قَوْمٍ هُمُ آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا

سَمَّاهــم اللهُ أَنْصَاراً لِنَصــــرِهم ... ديـنَ الـــهُدَى وَعَوَانُ الحَرْبِ تَسْتَعِرُ

وجَاهَدُوا في سَبَـــيلِ الله واعْتَرَفُوا ... للــنَّائبَات فَمَا خَامُوا ومَـــا ضَجِرُوا

(1) زهر الآداب جـ٤ص١٠٠٩وما بعدها.

(2) ديوانه ص٢٠٦ ، والسيرة جـ٤ص١٤٥ وفيها اختلاف.

(3) ديوانه ص٢٠٦، والسيرة جـ٤ ص١٤٥وما بعدها.

فلم يكن حسان ولا الأنصار باستطاعتهم أن يدركوا الهدف الذي قصد إليه الرسول -ﷺ- من هذه التفرقة أو ذاك التمييز وهو محاولة الرسول -ﷺ- إرضاء هذه الأقوام وتآلفها ليسلموا ويقبلوا علي الإسلام، أما الأنصار وكلها إلى إسلامها، فبعد أن أدركوا هذه الحقيقة التى كانت فى نفس الرسول -ﷺ- بكوا حتي اخضلت لحاهم[1]. وعلي هذا النحو الذي رأينا كانت الرعية من جماعة المسلمين فى عهد الرسول- ﷺ- يتنبهون لكل كبيرة وصغيرة تحدث في مجتمعهم وذلك لشدة ولائهم للإسلام وتمسكهم به وطاعتهم لرسوله -ﷺ- فكانوا يسرفون على أنفسهم ويتسرعون في إعلان غضبهم قبل أن يدركوا الأهداف السامية التى كان يقصد إليها الرسول -ﷺ-.

وإن كنا نلاحظ ذلك فى أيام الرسول -ﷺ- فما بالنا بما حدث بعد ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ومن تبعهم، وجماعة المسلمين هى التى نشأت فى مدرسة الرسول-ﷺ- وشبت على الفضائل، فكانت لا تخشى فى الحق لومة لائم.

فلما كانت حروب الردة وفتح خالد بن الوليد اليمامة بعدأن كثر عدد القتلى من المهاجرين والأنصار تزوج خالد بن الوليد ابنة مجاعة بن مرارة الحنفى وتنكر للأنصار غاية التنكر، فكتب حسان بن ثابت إلي أبى بكر الصديق خليفة المسلمين يخبره بما صنعه خالد بن الوليد من أمر زواجه باليمامة ودماء المسلمين لم تجف هناك فقد شغل بعروسه وترك رؤوس المسلمين وسواعدهم مطروحة في كل مكان، ويشكو له تنكره للأنصار ومحاباته لأهل عروسه، ثم يعنفه على هذا التزويج الذي تعيبه العرب؛ لأن العرب تكره النساء فى الحرب، فما كان يصح لخالد أن يصاهر أهل اليمامة لو قتلوا من المسلمين رجلاً واحداً، فكيف يصاهرهم وقد أصابوا منهم ألفاً؟. ثم نراه بعد أن وضّح للخليفة كل هذه الحقائق التي تؤذى المسلمين وتؤلمهم يناشده بأسلوب يلتزم فيه بأخلاق الإسلام وتعاليمه فهو ولي الأمر

---

(١) راجع السيرة جـ٤ ص١٤٧ وما بعدها.

الذي ينبغى أن يطاع مـن قبل المسلمين وقد عـرف بحكمته وعـدله وصواب رشده، فإن رضى هذا الأمر ورأى أنه صواب فهم ملتزمون به مطيعون له وإن رأى غير ذلك فعليه أن يعزله ويحوله عن موقعه، يقول[1]:

مَنْ مُبْلِغُ الصِّدِّيـقَ قَوْلاً كـــأَنَّهُ ... إذا قُصَّ بـــين المُسْلِمـــين المَبَارِدُ
أَتَرْضَى بـــأَنَّا لـــم تَجِف دِمَاؤُنَا ... وهـــذا عَرُوسٌ بـــالـــيَمَامَةِ خَالِدُ
يَبِيـــــتُ يُنَاغِي عُرْسَه ويَضُمُّهَا ... وهَامٌ لـــنـــا مَطْرُوحَةٌ وَسَوَاعِدُ
إذا نَحْنُ جِئْنَا صَدَّ عَنَّا بِوَجْهِه ... ويُلْقِى لأعْمَامِ العـــرُوسِ الوَسَائِدُ
وما كـان فى صِهْرِ اليَمَامِيِّ رَغْبَةٌ ... ولو لم تُصِبْ إلا مِن النَّاسِ واحِدُ
فكيف بألفٍ قـد أُصِيـبُوا كـأَنَّمَا ... دمـــاؤُهمُ بـين السُّيُوفِ المَجَاسِدُ
فإن تَرْضَ هذا فـالرِّضَا مَا رَضِيتَهُ ... وإلا فَغَيْرٌ إنَّ أَمْرَكَ رَاشِدُ

ثم أخذ عمـر بن الخطاب -رضى الله عنه- ما كتبـه حسان ودخل به على أبى بكر -رضي الله عنه-، فكتب إلى خالد كتاباً يقتر الدم: لعمرى يا بن أم خالد، إنك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد[2].

وكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ألح على أبى بكر فى عزل خالد ابن الوليـد منذ أمـر بقـتل مـالك بن نويرة فـيـمن قـتل من مـانعى الزكـاة والمرتدين، وتسرى بزوجته، وذلك فى وقعة البطاح فى السنة الحادية عشرة من الهجرة[3].

---

(١) ديوانه ص٣٨١ ومابعدها.

(٢) الطبرى جـ٣ ص٣٠٠، والنويرى جـ١٩ص٩٦.

(٣) الطبرى جـ٣ص٢٧٦ وما بعدها، والنويري جـ١٩ ص٨٢ وما بعدها.

فلما رأى أبو بكر -رضى الله عنه- من خالد بن الوليد ما رأى عزله عن اليمامة ثم ولاه الشام، فلما مات أبو بكر عزله عمر -رضى الله عنهما.

ونجد بعض الشعراء فى زمن عمر بن الخطاب يتوجهون إليه بشعرهم يشكون إليه ويعاتبونه، فقد ذكر الرواة أن عمر بن الخطاب كان يعس فى سكك المدينة ذات ليلة فسمع نشيد شعر من دار، فوقف يسمع فإذا بامرأة تقول:

أَلا سَبِيْلَ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبُهَا ... أَمْ لا سَبِيلَ إِلَى نَصْرِ بنِ حَجَّاجِ

وكانت هذه المرأة هويت نصر بن حجاج ولكنه زجرها، فلما سمع عمر شعرها قال: من هذه المتمنية؟وأمر بها فضربها بالدرة أو حبسها فأنفت على نفسها أن يعاقبها وكانت شاعرة، فكتبت إلى عمر أبياتاً تطالبه فيها بأن يتحقق من هذا الأمر وأنها لم تقصد بقولها ما اعتقده عمر فيها، فقالت[1]:

قُلْ لِلإِمَامِ الَّذِى تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... مَالى وَلِلْخَمْرِ أَوْ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ
إِنِّى عَنَيْتُ أَبَا حَفْصٍ بِغَيْرِهِمَا ... شُرْبَ الْحَلِيبِ وَطَرْفٍ قَاصِرٍ سَاجِي
لا تَجْعَلِ الظَّنَّ حَقّاً أو تَيَقَّنَه ... إِنَّ السَّبِيلَ سَبِيْلَ الخَائِفِ الرَّاجِى
إِنَّ الْهَوَىَ زَمَّهُ التَّقْوَىَ فَخَيَّسَهُ ... حَتَّى أَقَرَّ بِإِلْجَامٍ وَإِسْرَاجِ

فلما بلغ عمر قولها، سأل عنها، فلم يخبر عنها إلا بخير، فأرسل إليها قوله: إنه لم يبلغنا عنك إلا خير! . فلما كان الغد أرسل عمر إلى نصر بن حجاج فلما رآه بهره جماله، فقال له أنت تتمناك الغانيات فى خدورهن لا أم لك، أما والله لأزيلن عنك الجمال! ثم دعى بحجام فحلق جمته ثم تأمله، فقال: أنت محلوقاً أحسن، فقال: وأى ذنب لى فى ذلك؟ فقال: صدقت، الذنب لى إذا تركتك فى دار الهجرة. ثم أركبه جملاً وسيره إلى البصرة.

وبعد أن أقام نصر بالبصرة حولا كتب إلى عمر أبياتاً يعاتبه فيها ويبين له أنه لم يرتكب ذنباً ليبعده عن بلده سوى أنه ظن به بعض الظنون مع هذه

---
(١) الخزانة جـ٤ ص٨٤.

المرأة التى عرفت بصلاحها وتقواها، وهو أيضاً قد عرف بمثل ذلك، ثم سأل عمر -بطريقة أخلاقية نشعر فيها بالتزامه وطاعته لولى أمره- أن يرجعه إلى بلده بعد هذه المعاناة التى عاناها فى غربته، يقول[1]:

لَعَمْرِى لئِنْ سَيَّرتَنِى أَوْ حَرَمْتَنِى ... وَمَا نلْتُ ذَنْباً إنَّ ذَا لَحَرامُ
وَمَا لِى ذَنْبٌ غَيْر ظَنٍ ظَنَنْتَهُ ... وَفِى بَعْضِ تَصْدِيقِ الظَّنُونَ أثَامُ
أأن غَنَّتِ الْحَوْرَاءُ لَيْلاً بِمُنْيَةٍ ... وبَعْضُ أَمَانِّى النِّسَاء غَرامُ
ظَنَنْتَ بِى الْظَّنَّ الَّذى لَيْسَ بَعْدَهُ ... بَقَاءٌ وَمَا لِى فى النَّدِىِّ كَلامُ
وَأَصْبَحْتُ مَنْفِياً عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ ... وَقَدْ كَانَ لِى بِالمَكَّتَين مُقَامُ
وَيَمْنَعنِى مِمَّا تَظُنُّ تَكَرُّمِى ... وَآبَاءُ صِدْقٍ سَالِفُونَ كِرَامُ
وَيَمْنَعُهَا مِمَّا تَمَنَّتْ صَلاحُهَا ... وَطُولُ قِيامٍ لَيْلِهَا وَصِيَامُ
فَهَاتَان حَالانَا فَهَلْ أَنْتَ رَاجِعِى ... وَقَدْ جُبَّ مِنِّى كَاهِلٌ وَسَنَامُ

فرده عمر بعد هذه الأبيات لما وصف له من عفته، وذكر بعض الرواة أنه أرسل إلى أبى موسى الأشعرى ليخيره بين المقام بالبصرة أو الرجوع[2].

وإذ كنا وجدنا بعض الشعراء يشيد بحسن سياسة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وما عرف به من عدل وتقوى وحرص على المسلمين، كقول حميد ابن طاعة السكونى[3]:

مَا إنْ رَأَيْنَا مِثْلَكَ ابْنَ الخَطَّابْ ... أَبَرَّ بِالدِّينِ وَبِالأَحْسَابْ
بَعْدَ النَّبِىِّ صَاحِبِ الكِتَابْ

نجدهم أيضاً ينبهون عمر إلى هذه المسئولية التى حملها وهى ولايته أمر المسلمين، فنرى حميد بن طاعة السكونى نفسه يلتزم بتعاليم الإسلام فى

(١) الخزانة جـ٤ ص٨٧ وما بعدها.

(٢) راجع الخبر فى الخزانة جـ٤ ص٨٠ وما بعدها.

(٣) من نسب إلى أمه من الشعراء الجزء الأول من نوادر المخطوطات ص ٨٨.

تنبيهه لعمر فيتمثل قول الرسول -ﷺ- (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذى على الناس راع وهومسئول عن رعيته . . .)[1] فيقول مخاطباً عمر -رضى الله عنه-[2]:

إِنَكَ مُسْتَرعىً وإنَّا رَعيَّةٌ   وَإنَّكَ مَدْعُوٌّ بِسِيمَاكَ يَاعُمَرْ
لَدَى يَوْمِ شرٍ شَرُّهُ لِشَرارِهِ   وَخَيْرٌ لِمَنْ كَانَتْ مَعَائِشُهُ الخَيْرْ

وكذلك نجد يزيد بن قيس بن الصعق يوجه أبياتاً إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقر فيها هذا المبدأ الإسلامى وهو وجوب طاعة الرعية لولى الأمر ما دام أميناً لرب العرش يعمل بكتابه ويعدل بين الناس ويحافظ على الحرمات، ثم يغريه ببعض الولاة الذين لم يراعوا الله فى أموال المسلمين فاستغلوا مناصبهم وأخذوا ينهبونها ويضيعونها فى غير صالح الأمة، فهو يطالب الخليفة بألا يدعهم هكذا بل ينبغى أن يرسل إليهم ويحاسبهم على هذا الإسراف والنهب ويقاسمهم هذه الأموال، فيقول[3]:

أبْلِغْ أَمِيْرَ الْمُؤمِنيْنَ رِسَالَةً   فَأَنْتَ أَمِينُ الله فِى النَّهْىِ وَالأَمْرِ
وأَنْتَ أَمِينُ الله فِينَا وَمَنْ يَكُنْ   أَميناً لِرَبِّ الْعَرْشِ يُسْلِمْ لَهُ صَدْرِي
فَلاَ تَدَعَنْ أَهْلَ الرَّسَاتِيقِ وَالْقُرَى   يُسِيغُونَ مَالَ الله فِى الأُدمِ الوَفْرِ
فَأَرْسِلْ إلَى الحَجَّاجِ فَاعْرِفْ حِسَابَهُ   وَأَرْسِلْ إلى جَزْءٍ وأَرْسِلْ إلىَ بِشْرِ[4]
وَلا تَنْسَيَنَّ النَّافِعَيْنِ كِلَيْهِمَا   وَلا ابْنَ غَلابِ مِنْ سَرَاةِ بَنِى نَصْرِ[5]

---

(١) البخارى جـ٤ ص٢٣٣.

(٢) من نسب إلى أمه من الشعراء الجزء الأول من نوادر المخطوطات ص٨٨.

(٣)فتوح البلدان ص٥٤١ وما بعدها ، والإصابة جـ٦ص٧٠٣ وما بعدها.

(٤) الحجاج بن قتيل الثقفى وكان على الفرات، وجزء بن معاوية عم الأحنف كان على سرق، وبشر بن المحتضر كان على جند يسابور.

(٥) النافعان: نفيع أبو بكرة ونافع بن الحارث بن كلدة أخوه، وابن غلاب : خالد بن الحارث من بنى دهمان كان على بيت المال بأصبهان.

وَمَا عَاصِمٌ مِنْهَا بَصِـــــغْرِ عِيَابُه   وَذَاكَ الَّذِى فِى السُّوقِ مَوْلَى بَنِى بَدْرِ[1]

وَأَرْسِلْ إِلَـى النُّعْمَانِ وَاعْرِفْ حِسَابَهُ   وَصِهْرِ بَنِى غَزْوَانَ إِنِّى لَذُو خَبْرِ[2]

وَشِبْلاً فَسَلْهُ المَالَ وَابْنَ مُحَرِّشٍ   فَقَدْ كَانَ فِى أَهْلِ الرَّسَاتِيقِ ذَا ذِكْرِ[3]

فَقَاسِمْهُمُ أَهْلِـى فِـدَاؤُكَ أَنَّـهُـمْ   سَيَرْضَوْنَ إِنْ قَاسَمْتَهُمْ مِنك بِالشَّطْرِ

فما كان من عمر -رضى الله عنه- إلا أن قاسم هؤلاء شطر أموالهم.

وبعد عهد الرسول -ﷺ- وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما -نجد عتاب الخلفاء وشكوى الأمراء يظهران بصورة أوضح فى شعر المخضرمين، فقد تجرأ الشعراء عليهم وعلا صوت شعرهم وقد يرجع ذلك إلى ضعف سلطة الخليفة واضطراب أمر الحكومة بالإضافة إلى افتقاد الجماعة الإسلامية للولاة أمثال الرسول -ﷺ- وأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فكان الشعراء دائما يوازنون بينهم وبين من أتى بعدهم فى حسن سياستهم للرعية ومحاسبتهم للعمال والأمراء وعدلهم وتقواهم وحرصهم على صلاح الأمة.

فنجد عبد الرحمن بن حنبل الجمحى يتأثر بمبادئ الديمقراطية التى زرعها الإسلام فى نفوس أبنائه فيناقش الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه- فى عدة أمور، مبينا له قلة رشده فى سياسته للمسلمين حينما بدأت الفتنة تظهر بينهم بسبب مخالفته لما سنه الرسول -ﷺ- وخلفاؤه الراشدون الذين جاءوا من بعده فى نهجهم القويم الذى سلكوه حين أدنى إليه الحكم بن أبى العاص وكان قد سيره الرسول -ﷺ- ولم يدنه أبو بكر ولا عمر وولى أقاربه الأعمال التى تختص بأمر المسلمين، كما يتهمه بتبديد أموال المسلمين وتوزيعها بين أهله وخاصته عندما أعطى لمروان خمس غنائم إفريقيا ثم يبين له

(١) عاصم بنى قيس بن الصلت السلمى كان على مناذر، والذى فى السوق سمرة بن جندب كان على سوق الأهواز.

(٢) النعمان بن عدى بن نضلة الذى ذكر عند الحديث عن التغزل ،وصهر بنى غزوان: مجاشع بن مسعود السلمى كانت عنده بنت عتبة بن غزوان وكان على أرض البصرة وصدقاتها.

(٣) وشبل بن معبد البجلى ثم الأحمسى كان على قبض المغانم ،وابن محرش أبو مريم الحنفى كان على رامهرمز ،(راجع فتوح البلدان ص ٢٤٥ وما بعدها)

أن أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما- قد سارا على طريق الهدى الذى رسمه المصطفى -ﷺ- فلم يكتنزا أموالا لأنفسهما ولم يسرفا فى أموال المسلمين ولم يقسما درهما واحدا فى ضلال أو منافع شخصية، فيقول [1]:

وَأَحْلِفُ بِاللهِ جَهْدَ الْيَمِينِ	مَا تَرَكَ اللهُ أَمْرًا سُدَى
وَلَكِنْ خُلِفْتَ لَنَا فِتْنَةً	لِكَي نَبْتَلِى بِكَ أَوْ تُبْتَلَى
دَعَوْتَ الطَّرِيدَ فَأَدْنَيْتَهُ	خلافاً لِمَا سَنَّهُ الْمُصْطَفَى
وَوَلَّيْتَ قُرْبَاكَ أَمْرَ الْعِبَادِ	خلافاً لِسُنَّةِ مَنْ قَدْ مَضَى
وَأَعْطَيْتَ مَرْوَانَ خُمْسَ الْغَنِيـ	ـمَةِ آثَرْتَهُ وحَمَيْتَ الحِمى
وَمَالاً أَتَاكَ بِهِ الأشْعَرِى	مِنَ الْفَيْءِ أَعْطَيْتَه مَنْ دَنَا
فَإِنَّ الأمِينَيْنِ قَدْ بَيَّنَا	مَنَارَ الطَّرِيقِ عَلَيْهِ الْهُدى
فَمَا أَخَذَا دِرْهَمًا غِيلَةً	وَلاقَسَّمَا دِرْهَماً فِى هَوى

وبرغم حرص الشاعر على مصلحة المسلمين وتذمره مما فعل عثمان -رضى الله عنه- إلا أنه لم يخرج عن تقاليد الإسلام وتعاليمه، فإن كنا نراه يميل إلى أسلوب العتاب القاسى فى تعنيف الخليفة نراه فى البيتين الأخيرين يبين لنا مغزى هذا العتاب، فهو يريد من الخليفة أن يصلح نفسه ويسير على طريق الهدى الذى رسمه سابقوه.

وكذلك نجد عقيبة بن هبيرة الأسدى أشد سفورا فى عتابه وهجومه على معاوية، فنراه يعلن سخطه على أسلوبه فى الحكم ويندد بجور أتباعه وأقاربه الذين نهبوا أموال المسلمين واحتكروا كل شىء لأنفسهم وكأنهم أرادوا الخلود هم وخليفتهم فى اصطناعهم لأسوأ الأمراء وأراذلهم، ثم يدعوهم أولا أن يستقيموا فى هذا الأمر، ويؤدوا الأمانات إلى أهلها وإلا فالثورة التى تأتى بجنود

(١) الاستيعاب جـ ٢ ص ٨٢٨ وما بعدها، والمعارف ص ١٩٥ ،وأسد الغابة جـ ٣ ص ٤٣٩، ورواية الأبيات فيها اضطراب.

تتبعها جنود لتقويم هذا الخليفة وأمرائه، فأرسل إلى معاوية يقول[1]:

مَـعَاوِىَ، إِنَّـنَا بَـشَرٌ فَـأسجـح ... فَلَـسْنَـا بالْـجبَـالِ وَلا الْحَـدِيدِ
فَـهَـبْنَـا أُمَّـةً ذَهَـبَـتْ ضَيَـاعـا ... يَـزِيـدُ أَمِـيُـرهَــا وَأَبُـو يَـزِيـدِ
أَكَـلْتُـمْ أَرْضَنَـا فَـجَرَدْتُـمُوهـا ... فَهَـل مِنْ قَائِـمٍ أَوْ مِنْ حَصِـيدِ؟
أَتَطـمعُ فى الْخُـلود إِذَا هَلَكْـنَا ... وَلَيْـسَ لَنَا وَلا لَـكَ مِنْ خُـلُودِ
ذَرُوا خَوْنَ الخلافَة، وَاسْتَـقِيمُوا ... وتَـأْمِـيـرَ الأَراذل وَالْــعَـبِـيـدِ
وَأَعْـطُونَـا الـسَّـوِيَّةَ لاتـزَرْكُـم ... جُـنُــودٌ مُـرْدِفَــاتٌ بِـالجُـنُــودِ

وكذلك نجد النابغة الجعدى ينضم إلى صفوف على - كرم الله وجهه- فى صفين، فأدرك معاوية الخطر الذى سيلحق به عندما ينضم هذا الشاعر إلى صفوف خصمه، وقد عرف النابغة بين العرب والمسلمين بأنه أنشد النبى -ﷺ- فدعا له بألا يفضض الله فاه، والشعر فى مثل هذه الحروب من أقوى وسائل الدعاية والإعلام، فأراد معاوية إبعاد هذا الشاعر عن صفوف على لعلمه بمكانته وسط الجماعة الإسلامية، فكتب إلى مروان فأخذ أهل النابغة وماله، فدخل النابغة على معاوية وعنده عبد الله بن عامر ومروان فأنشده شعرا يعاتبه فيه على ما فعل ثم يتهدده ويتوعده بالشر؛ لأنه لا يهاب حربا لإلفه لها وتمرسه بها، ثم يذكره بعثمان - رضى الله عنه- الذى أصابه الظلم والعدوان على شرفه ومنزلته، فلم يبق لذوى الشرف والحسب نجاة من نزول الظلم بهم، ولو تركوا الحمية لأحسابهم، ففى عثمان أسوة للمؤتسى، يقول[2]:

فَمنْ راكبٌ يأتى ابنَ هندَ بحاجتى ... على النأى والأنباءُ تَنْمى وتُجْلَبُ
ويُخْـبرُ عـنى ما أقـولُ ابنَ عـامرٍ ... ونعم الـفتى يأوى إليه المـعُصَّبُ
فإِنْ تَـأْخُذُوا أَهْـلِى وَمَالِـى بِظِـنَّةٍ ... فـإِنِّى لجـرَّابُ الرِّجَـالِ مُجَـرَّبُ

(١) الخزانة جـ ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها.

(٢) ديوانه ص ٧ وما بعدها، وطبقات ابن سلام جـ ١ ص ١٣٠، وما بعدها، والخزانة جـ ٣ ص ١٧١ وما بعدها.

صَبــورٌ عــلى مـــا يـكرهُ المرءُ كُلَّه   سوى الظلم إنِّى إنْ ظُلمْتُ سَأَغْضَبُ
أُصـيبَ ابنُ عَـفَّان الإمـامُ فَلَمْ يكُنْ   لِذِى حَسَبٍ بَعْدَ ابـــنِ عَفَّانَ مَغْضَبُ

وكذلك نرى أنــس بن زنيم يوجه شعـره إلى عبـد الله بن الزبير ناصـحا ومعاتبا له لتركه مصعب بن الزبير يمهر عائشة بنت طلحة ألف ألف درهم فى زواجه بهـا، وهو أمير المـؤمنين الذى ينبغى أن يمنع مـثل هذا الإسراف الذى يحدث فى بيت ولى الأمر، بينما هناك جنود المسلمين تبـيت جياعا، فلو كان أمير المؤمنين عمـر بن الخطاب حيا وسمع ما يقصه الشـاعر من خبر هؤلاء القوم لارتاع مما يحدث، فيقول [1]:

أَبْلِغْ أمـيـــــرَ المُؤمنينَ رِسـالَةً   مِنْ نَاصِحٍ لَكَ لا يُريــدُ خداعَا
بُضْعُ الْفَتَاة بِأَلْفِ أَلْفٍ كَامِلٍ   وَتَبِـــيتُ سَادَاتُ الجُنُود جِيَاعَا
لَوْ لأَبِى حَفْصٍ أَقُولُ مَقَالَتِى   وَأَقُصُّ شَأْنَ حَدِيـــثِكُم لارْتَاعَا

فنلاحظ أن عتـاب الشاعر ينبع أسـاساً من الخوف على مـصالح المسلمين وهو فى عـتابه يعـترف بعـدل عمـر بن الخطاب -رضى الله عنه- وحكمـته وحرصه على مصالح الأمة، وهذه عادة الشـعراء فى العتاب فى هذه الفترة، فكانوا دائما يوازنون بين الأمراء فيهم وبين الرسول -ﷺ- وأبى بكر وعمر- رضى الله عنهما-، ويوازنون بين عدلهم وحسن سياستهم للجماعة الإسلامية وبين مـا يجدون من أمـرائهم الذين تخلوا عن سننـهم فضلوا طريق الهـدى والرشاد، فنرى النابغة الجـعدى يعيب على أبى موسى الأشعرى سـياسته فى إمارة المسلمين، ويستغـيث بقبر النبى -ﷺ- وصاحبيه ويناشـدهم أن يسمعوا صرخـته لو سمـعوا، ويتـرحم عليهم، ويدعو الله ألا يرحـم أمراءهم الذين تحكموا فيهم وخالفوا سنة سابقيهم، يقول [2]:

رأيتَ الـبـكْرَ بـكْـرَ بنــى ثمـــودٍ   وأنْـتَ أراكَ بــكـرَ الأشْـعــــريـنا
فـــإن يَـكُنِ ابـن عَـفَّانٍ أمــينـاً   فلــم يَـبْعَثْ بِـكَ البَـرُّ الأمــينـا

(1) الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٣٧   (2) ديوانه ص ٢١٠

فَيَاقَبْرَ الـــــــنَّبِيِّ وصَاحِبَيْهِ ألا يـــاغَوْثَنَــا لـــو تَسْمَعُونَا
الاصَلَّى إلـــهُكُمُ عَلَـيـــكُمْ ولا صَلَّى علـى الأمـــرَاءِ فِينَا

وكـذلك نرى شكوى الشعـراء من اتخـاذ الولاة حجـابا يمنعون دخـول المسلمين عليهم فنجد عـبد الله بن الحر الفاتك يرسل شعـره إلى عبد الله بن الزبير، فينـصحه فيصـدقه القول كما أمـر الإسلام، فيشكو إليـه مصعب بن الزبير وحجابه حينما خرجوا عن قـيم الإسلام وتعاليمه فى معاملة المسلمين، فـعاملـوهم بجفـاء وغلظة ومنعـوهم من الدخـول على الوالى الذى خـدع المسلمين وغشهم، يقول[1]:

أَبْلِغْ أَمِيـــــرَ المـؤْمنِينَ نَصِيحَتِى فَلَسْتُ عَلَى رأىٍ قَبِيحٍ أُوَارِبُـــــهْ
أَفِى الحَقِّ أنْ أُجْفَى ويَجْعَلَ مُصْعَبٌ وزِيرَيه مَنْ قَدْ كُنْتُ فــيـــه أُحَارِبُهْ
وَمَا لامْرِئٍ إلا الَّذى اللهُ سَائِقٌ إليـــه وَمَا قَدْ خَطَّ فِى الزُّبْرِ كـــاتِبُهْ
إذا مـــــا أَتَيْتُ البَابَ يُدْخَل مُسْلِمٌ ويَمْنَعْنِى أنْ أَدْخُلَ الـــبَابَ حَاجِبُهْ
لَقَدْ رَابَنِى مِنْ مُصْعَبٍ أنْ مُصْعَبـــاً لَدَى كُلِّ ذِى غِشٍّ لـنـا هُوَ صَاحِبُهْ

فكان الشعـراء المخضرمون - على هذا النحـو الذى رأينا- يريدون صلاح الجمـاعة الإسلاميـة بصلاح ولاتها فتـوجهوا بأشعـارهم إلى الولاة والأمراء يعاتبونهم ويرفـعون إليهم شكواهم وأحيانا يتوعدونهم لخـروجهم عن تعاليم الإسلام وسنن الولاة الصالحين الذين سبقوهم، فجاء شعرهم معبرا عن روح الجماعة الإسلامية آنذاك ملتزمـا بأخلاق الإسلام فى مخاطبة ولى الأمر، فلم يفحشـوا فى قولهم بل التزموا فى خطابهم - فى الـغالب - بهذا الأسلوب الديمقراطى الذى يتضمـن المعانى الإسلامية، وضمنوا شعـرهم معانى جديدة كانت وليـدة المواقف التى عاش فـيهـا الشعراء، وهى مـواقف - أعتـقد أن العرب لم يألفوها من قـبل - جدّت فى المجتمع الإسلامى بعد اتـساع رقعة الدولة الإسلامية.

* * *

(١) رسائل الجاحظ، من كتاب الحجاب جـ٢ ص ٧٩

خامساً: النقائض الإسلامية.

مما لا شك فيه أن الحركة الفكرية والصحوة العقلية واحتدام المعارك الكلامية التى صاحبت الإسلام منذ ظهوره كان لها أثرها الكبير فى المجتمع العربى آنذاك وقد ترك هذا الأثر بصماته على شعر المخضرمين فى ذلك الوقت، فنتيجة لمعارك الهجاء الضارية التى توهجت وعلا أوارها وتراشق شعراء المسلمين وغير المسلمين بالقصائد ازدهر فن النقائض ازدهارا كبيرا آنذاك وإن كنا نجد له جذورا قديمة بين شعراء الأوس والخزرج أو شعراء هذيل أو غيرهم من شعراء الجاهلية إلا أنه لم يتطور أو يزدهر هذا الازدهار الذى شهده فى الإسلام حتى لتعد هذه النقائض التى خلَّفتها الحرب اللسانية بين شعراء المسلمين وغيرهم الأساس الأول الذى بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق والأخطل فى العصر الأموى[1].

فقد اختلفت دوافع العداء الذى نشب بين المسلمين والمشركين واليهود فأصبح يقوم على أسس دينية لا على عصبية قبلية كعهد العرب فى جاهليتهم وبخاصة عند شعراء المسلمين، أما عند غيرهم من خصومهم فلم يكن الدين لذاته غرضا واضحا فى شعرهم؛ لأنه لم يكن لديهم دين حقيقى يدعون إليه أو يدافعون عنه، وإنما كانوا يدافعون عن كيانهم وتقاليدهم ومكانتهم أعنى أنهم لم يتحدثوا فى نقائضهم عن آلهتهم أو عقيدتهم.

لذلك عندما احتدم العداء بين الفريقين وخاصة بعد انتصار المسلمين، فى غزوة بدر انبرى شعراء المشركين ليثأروا وينتقموا لقتلاهم وأعدوا لهذه المعركة كل ما يستطيعون وكان على رأسهم عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب الفهرى، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى وتصدى لهم من شعراء المسلمين حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم، واعتمدوا فى دفاعهم على نقض المعانى التى عبر عنها المشركون فى قصائدهم عن طريق التكذيب والمقابلة والقلب والتوجيه والوعد والوعيد والسخرية والشماتة وتفنيد مزاعمهم وحججهم وفضح تآمرهم ومكرهم وكشف بواطن نفوسهم فى محاولة لإظهار كلمة الحق ونصرة هذا

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول ص ٨٠

الدين الذى تغلغل فى نفوسهم وملك علـيهم ضمائرهم فانبروا يدافعون ويزجرون عنه كل باطل، وأثـبتوا فى ذلك تفوقا فنيـا إذ كانوا يعتمدون فى مقابـلة قصائدهم بقصائد من نفس الـبحر والقافية والروى، بالإضافة إلى هذه المعـانى المتطورة التى استقـاها المسلمون مـن تعاليم الإسلام فـى الغالب، فعرضـوا لموضوعات مختـلفة كالإيمان والكفر والجنة والنار ونزول الملائكة التى تؤيد المسلمين بنصر الله، والإيمان بقضـاء الله وقدره وطاعتهـم للرسول -ﷺ- وغيـرها وأحيانـا نجد بعضهـم يطرق المعانى الجاهلية كتعبيرهم بالمآثر والأحساب والأنساب والمثالب والأيام وغيرها.

ونستنتج من ذلك، أن فترة الصراع العربى بين المسلمين والمشركين هى الفترة التى ازدهر فيها فن النقائض الشعرية، ولولا شكوك ابن هشام فى نسبة معظم النقائض التى وردت فى السيرة لقطعنا بأن فن النقائض ينبغى أن يتصدر شعرنا العربى، ومع ذلك سنعرض فى هذا الموضوع لبعض النقائض التى نطمئن إلى صحة نسبتها لنؤكد أن فنا شعريا جديـدا وجد منذ عصر الرسول -ﷺ- متأثرا بتعـاليم الإسلام وقيمه ومبادئه، ووضحت فيه الظواهر الإسلامية على هذا النحو:

١ - الإيمان بالله والجهاد فى سبيله.

فمن النقائض التى خلَّفتها غزوة بدر قـصيدة لضرار بن الخطاب الفهرى يتعجب فيها من فخر الأنصار بانتصارهم يوم بدر ويتوعدهم بأن الدوائر ستدور ويأتى اليوم الذى يثأرون فـيه لقتلاهم ويـشدون عليهم شدة تـصرعهم ليكـونوا مطعما لـلطير ويجافى النوم عيون نسائهم من شدة البكاء عليهم، فيقول فيها [(١)]:

عَجِبْـتُ لفَخْرِ الأَوْسِ وَالحَـينُ دَائِرُ ... عَلَـيْهِـمْ غَداً وَالدَّهْـرُ فِيـه بَصَـائِرُ

وَفَخْـرِ بَنِى النَّـجَارِ أَنْ كانَ مَعْـشَرٌ ... أُصِـيبُـوا بِـبَدرٍ كُـلُّهُـمْ ثَـمَّ صَابِـرُ

فإنْ تَكُ قَـتْلَى غُودِرَتْ مِنْ رِجَـالِنَا ... فـإنَّـا رِجَـالاً بَـعْدَهُـمْ سَـنُـغَـادِرُ

وَتَرْدِى بِنا الجُرْدُ الْعَنَاجِيجُ وَسْطَكُمْ ... بَنِى الأَوْسِ حَتَّى يَشْفِـى النَّفْسَ ثَائِرُ

(١) السيرة جـ ٢ ص ٣٧٧.

وَوسْطَ بَنِى الـــنَّجَّارِ سَوْفَ نَكُرُّهَا لَهَا بِالْقَنَا وَالـــــدَّارِعِينَ زَوَافِرُ
فَنَتْرُكَ صَرْعَى تَعْصِبُ الطَّيرُ حَوْلَهُم ولَيْسَ لَهُمْ إلا الأَمَــــانِىَّ نَاصِرُ
وتَبْكِيــــهِمُ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ نِسْوَةٌ لَهُنَّ بِهَا لَيْلٌ عَنِ الـــنَّوْمِ سَاهِرُ

فنلاحظ ظهور العصبـية القبلية بوضوح فى هذه القصيدة فـهو يخاطب الأنصار من المسلمين دون المهاجـرين، ثم نراه بعد ذلك يرجع الفضل فى انتـصار المسلمين -ويقصد بهم الأنصار كما هو واضح فى صدر القصيدة- إلى وجود الرسول ومن معه من قريش فلولاهم ما انتصر الانصار على المشركين، فيقول [1]:

فَـــإِنْ تَظْفَرواْ فِى يَوْمِ بَدْرٍ فَـــإِنَّمَا بِـأَحْمَدَ أَمْسَـــى جَدُّكُمْ وَهْوَ ظَاهِرُ
وَبِالـنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَــــاؤُهُ يُحَامُونَ فِى الـلأْوَاءِ وَالْمَوتُ حَاضِرُ

فيجيبــه كعب بن مالك بقصيدة تظهر فيهـا المعانى الدينية التى غلبت على معظم نقائض المسلمين، فهو لا يتعجب من تهديد ضرار لهم بل يتعجب من أمر الذى إذا قضى أمـرا أن يقول له كن فيكون لقـوله تعالى[2]: ﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔـا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ وقد قـضى أن يلتقى المسلـمون يوم بدر بهؤلاء الـذين بغوا واستكبروا وجمعوا جموعهم يريدون أن ينالوا من المسلمين الذين التفوا حول لواء الرســول -ﷺ- ومنعوه ونصـروه، فـهؤلاء هم الأنصـار الذين شـهدوا يوم لقـاء المشركين بأن الله لا إله غـيره، وفى ذلك إقرار بوحدانيـته فهو وحـده الذى ينصر رسوله الذى تمسك بالحق، وينصر أنصاره من المؤمنـين، فقد قال تعالى [3]: ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيـــلِ الـــلَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَالـلَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ فيُضمِّن الشاعر قصيدته هذه المعانى، فيقول[4]:

---

(١) السيرة جـ ٢ ص ٣٧٧ وما بعدها.
(٢) سورة يس، آية ٨٢
(٣) سورة آل عمران، آية ١٣.
(٤) ديوان كعب ص ٢٠٠.

عَجِبْتُ لأَمْرِ اللهِ واللهُ قـــادرٌ — عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ للهِ قَاهِرُ
قَضـى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلاقِىَ مَعْشَراً — بَغَوْا وَسَبِيلُ الْبَغْىِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
وَقَد حَشَدُوا واسْتَنْفَرُوا مَنْ يَلِيهِم — مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمْعُهُمْ مُتَكَـاثِرُ
وَسَارَتْ إِلَيْنَا لا تُحَـــاوِلُ غَيْرَنَا — بِأَجْمَعِهَا كَعْبٌ جَمِيعـاً وَعَامِرُ
وَفِينَا رَسُولُ اللهِ والأَوْسُ حَوْلَهُ — لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيـــزٌ وَنَاصِرُ
وَجَمْعُ بَنِى الـنَّجَارِ تَحْتَ لِوائِه — يَمِيسُونَ فِى الْمَاذِىِّ وَالـنَّقْعُ ثَائِرُ
فَلَمَّا لَقَيْنَاهُمْ وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ — لأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَابِرُ
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَيْرُهُ — وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ بِـــالْحَقِّ ظَاهِرُ

وكما عدد ضرار فى قصيدته مجموعة من المهاجرين الذين كان لهم الفضل فى انتصار المسلمين نرى كعبا يعدد مجموعة من المشركين الكفرة الذين صرعوا فى ذلك اليوم، ثم يعود مرة أخرى ليبين بهذه الروح الإسلامية المطمئنة مصير هؤلاء القتلة الكفرة، فيؤكد أنهم أمسوا وقوداً لنار جهنم مثوى الكافرين، فلم يجدوا فيها سوى قطع الحديد الملتهبة والحجارة الموقدة التى تلتهب عليهم، فيستمد هذا المعنى من قوله تعالى [(١)]: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ثم يبين موقف الإسلام من هؤلاء المشركين، فقد دعاهم الرسول -ﷺ- ليهتدوا بهدى الإسلام ولكنهم جحدوا دعواته واتهموه بالسحر. والشاعر فى هذا الموقف لا يغفل إرادة الله الذى قدر لهؤلاء المشركين أن يهلكوا على كفرهم وما كانوا بمسلمين، فقد قال تعالى [(٢)]:

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقوله تعالى[(٣)]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فيقول[(٤)]:

---

(١) سورة آل عمران ،آية ١٠
(٢) سورة ص ،آية ٤٠
(٣) سورة محمد ،آية ٣٤
(٤) ديوان كعب ص٢٠١.

فَأَمْسُوا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا ... وَكُلُّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ
تَلَظَّى عَلَيْهِمْ وَهْيَ قَدْ شَبَّ حَمْيُهَا ... بِزُبْرِ الحَدِيدِ والحِجَارَةِ سَاجِرُ
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا ... فَوَلَّوْا، وقَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ
لأَمْرٍ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ ... ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّهُ اللَّهُ زَاجِرُ

٢ - تقوى الله ونصرة الرسول ـ ﷺ .

وقد خلفت غزوة أحد العديد من النقائض التى لم يشك الرواة فى صحة نسبتها، منها هذه اللامية المقيدة لعبد الله بن الزبعرى التى مطلعها[١].

يَا غُرَابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فَقُلْ ... إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئاً قَدْ فُعِلْ

وفيها يخاطب حسان يريد أن يشتفى منه فيذكره بانتصار المشركين فى يوم أحد حين تركوا بجبلها رءوس المسلمين وبتروا أكفهم وأرجلهم وجردوا فرسانهم الشجعان من سرابيلهم وقتلوا منهم كل شجاع مقدام ، فليت من قتلوا من المشركين يوم بدر شهدوا هذا اليوم الذى جزع فيه الأنصار من شدة وقع السيوف حين قتل المشركون منهم ضعف ما قتلوه يوم بدر، فيقول فيها:

أَبْلِغَا حَسَّانَ عَنِّي آيَةً ... فَقَرِيضُ الشِّعْرِ يُشْفِي ذَا الغُلَلْ
كَمْ تَرَى بِالْجَرِّ مِنْ جُمْجُمَةٍ ... وأَكُفٍّ قَدْ أُتِرَّتْ وَرِجِلْ[٢]
وَسَرَابِيلَ حِسَانٍ سُرِيَتْ ... عَنْ كُمَاةٍ أُهْلِكُوا فِي المُنْتَزَلْ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ ... مَاجِدِ الجَدَّيْنِ مِقْدَامٍ بَطَلْ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ
فَقَتَلْنَا النِّصْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ... وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلْ

---

(١) السيرة جـ ٣ ص ٩٦ ما بعدها.

(٢) الجر: الوحدة من الأرض والمقصود به أسفل الجبل (لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف ج١ص٥٩٥).

فيجيبه حسان بن ثابت بنقيضة تماثل نقيضته مقيدة اللام أيضا ويقابل فيها المعانى نفسها التى طرقها ابن الزبعرى مبطلا مزاعمه وحججه عن طريق المقابلة فكما افتخر ابن الزبعرى بانتصار المشركين يوم أحد وما صنعوه بالمسلمين، يذكره حسان بما صنعه المسلمون فيهم يوم بدر ويؤكد له أن الحرب سجال ودول وأن المسلمين أصبر منهم فى البأس، فيقول[1] :

ذَهبتْ بابنِ الزِّبَعْرَى وَقْعَةٌ ... كَانَ منَّا الفضْلُ فيها لو عَدَلْ
ولقد نِلْتُمْ ونلنا منْكُمُ ... وكذاك الحَرْبُ أَحياناً دُوَلْ
إذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادقَةً ... فَأجَانَاكُمْ إلى سفْحِ الجَبَلْ
إذْ تُوَلُّونَ على أَعْقَابِكُمْ ... هَرَباً فى الشِّعْبِ أَشْبَاهَ النَّمَلْ
نَضَعُ الخَطِّيَّ فى أَكْتَافِكُم ... حَيْثُ نَهْوَى عَلَلاً بَعْدَ نَهَلْ
نحنُ لا أنتم بنى وُلْد اسْتِهَا ... نحنُ فى البَاسِ إذَا البَاسُ نَزَلْ

ونلاحظ أن حسان لم ينكر ما ادعاه ابن الزبعرى ولكنه يصف له ما حدث ببدر حيث استعر القتل والأسر فى المشركين حتى تولوا على أعقابهم، ثم يصف له جنود المسلمين الذين فعلوا بهم ذلك، فهم رجال ليسوا أشباه المشركين بل هم نصروا الله فأنزل عليهم الملائكة لتؤيدهم بنصره يوم بدر؛ لأنهم اتقوا الله وأطاعوه وصدقوا رسله، فتركوا فى قريش عارا يضرب به المثل، فكان النصر كما وعدهم الله -عز وجل- فى قوله تعالى: [2]﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا

(١) ديوانه ص٩٣ وما بعدها.
(٢) سورة آل عمران ، الآيات ١٢٣: ١٢٦.

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

فيقول:[1].

ضَاقَ عَنَّا الشِّعْبُ إِذْ نَجْزَعُهُ ... وَمَلأْنَا الفُرْطَ مِنْهُمْ والرِّجَلْ

بِرِجَالٍ لَسْتُمُ أَمْثَالَهُمْ ... أَيَّدُوا جِبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلْ

وَعَلَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالتُّقَى ... طَاعَةَ اللَّهِ وَتَصْدِيقَ الرُّسُلْ

وَتَرَكْنَا فِى قُرَيْشٍ عَوْرَةً ... يَوْمَ بَدْرٍ وأَحَادِيثَ مَثَلْ

فبالرغم من أثر هزيمة المسلمين يوم أحد فى نفس حسان إلا أننا نجده فى محاجاته لشاعر المشركين لم يفحش فى قوله أو يدعى أقوالا كاذبة ، بل تغلب عليه المعانى الإسلامية حين يسترجع ذاكرته ليشتفى من المشركين ويذكرهم بالعار الذى لحق بهم يوم بدر يوم أيد الله بنصره المسلمين وهم قلة.

٣ - ذكر الجنة والنار.

ومن الظواهر الإسلامية التى تظهر فى نقائض حسان للمشركين ذكر الجنة والنار، ونرى ذلك بوضوح فى نقيضته العينية التى يرد بها على قصيدة ابن الزبعرى التى مطلعها[2].

ألا ذَرَفَتْ مِنْ مُقْلَتَيكَ دُمُوعُ ... وَقَدْ بَانَ مِنْ حَبْلِ الشَّبَابِ قُطُوعُ

وهى تسير على نمط القصيدة السابقة، ويجيبه حسان بنقيضة مماثلة مطلعها[3] :

أشَاقَك مِنْ أُمِّ الوليدِ ربوعُ ... بلاقعُ مِنْ أهلِهِنَّ جَمِيعُ

لم يذكر فيها انتصار المسلمين يوم بدر بل يتحدث عن يوم أحد الذى

(١) ديوانه ص٩٤ ومابعدها. (٢) السيرة جـ٣ ص١٠٤. (٣) ديوانه ص ٩٧.

افتخر بـه ابن الزبعرى فى قـصيدته؛ ليبـين أن الأنصار ثبتوا مـع رسول الله -ﷺ- يوم لقاء المشركين ولم يجزعوا أو يخذلوا رسولهم بل آمنوا به ووفوا إذ كفرت قريش، ثم تغلب عليه هذه الـروح الإسلامية فيتساءل: هل يستوى العبد العاصى بالعبد المطيع لله ولرسوله؟ وهو يريد أن يصل إلى الحقيقة التى ذكرها ابن الزبعرى حـيث افتخر بقتل حمزة وأصحابه، فـيتساءل حسان هذا السؤال ليجيبهم بأن حمزة أطاع الله فثوى هو وأصحاب فى جوار الله لينالوا هذه المنزلة التى وعـد الله بها الشهداء وهى جنات الخلـد، أما الذين عصوا ربهم من قتلى المشريكن فهم فى نار جهنـم خالدين فيها أفضل ما ينالون فيها هذا الحميم الذى يصب عليهم فيستمد معانيه من قوله تعالى [1]:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

فيقول فى هذه النقيضة[2]:

وقُـلْ إنْ يَكُـنْ يَوْمٌ بـأُحـُـد يَعُــدُّهُ ... سَـفـيـهٌ فـإنَّ الحـقَّ سَـوْفَ يَـشِـيْـعُ
فقد ضَاربتْ فيـه بنُو الأَوْسِ كلُّهم ... وكـان لــهـا ذكْـرٌ هــنـاكَ رفــيـعُ
وحامَـى بنُو النَّـجارِ فيه وضَـاربُوا ... ومـا كَانَ مـنْهُـم فـى اللِّـقَاء جَـزُوعُ
أمَـامَ رَسُول الـلّـه لايَـخْذلُـونَـهُ ... لَـهُـمْ نَـاصـرٌ منْ ربِّـهـمْ وشَـفـيـعُ
وَفَوْا إذْ كَـفَرْتُـم ياسَخـينَ بِربِّـكُم ... ولا يَـسْـتَـوى عَـبْدٌ عَـصَـى وَمُـطِـيعُ

. . .

فإنْ تـذكروا قَتْـلى وحـمزةُ منْـهُمُ ... قَـتـيـلٌ ثـوى لـلِّــه وهـو مُـطـيـعُ
فـإنّ جـنَانَ الخُـلْـد مَـنْـزلُه بـهَـا ... وأَمْـرُ الَّذى يَـقْـضـى الأُمُورَ سَـرِيـعُ
وَقَتْـلاكُم فى النَّـارِ أَفْضَلُ رِزقـهِمْ ... حَـمِيـمٌ مـعًا فـى جوفـهَـا وضَرِيـعُ

(١) سورة السجدة، الآيات ١٨ : ٢٠ .

(٢) ديوانه ص ٩٨، ومابعدها، والسيرة جـ٣ ص١٠٨ ومابعدها.

وتتطرد هذه المعانى نفسها عند كعب بن مالك فى نقيضته التى يرد بها على ضرار بن الخطاب بعد غزوة الخندق، فنراه يؤكد على حقيقة هامة وهى الجهاد فى سبيل الله، فإن المجاهدين المسلمين أعزاء على أعدائهم رحماء بينهم خرجوا مخلصين صادقين لاطمعا فى الدنيا ومتاعها بل لنصر الله ورسوله وليعلموا هؤلاء الخصوم الكفار بأن الله لا إله غيره هو القادر على كل شىء وهو مولى المؤمنين الذى وعد عباده المخلصين الذين استشهدوا فى سبيله بأن لهم جنات طيبات تكون مقاما لهم فى الآخرة، يقول[1]:

فَوَارِسُنَا إذَا بَكَرُوا وَرَاحُوا ... عَلَى الأعْدَاء شُوساً مُعْلِمِينَا

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللَّهَ حَتَّى ... نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

وَيَعْلَمَ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا ... وَأَحْزَابٌ أَتَوْا مُتَحَزِّبِينَا

بِأَنّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ ... وَأَنَّ اللهَ مَوْلَى المُؤْمِنِينَا

فَإِمَّا تَقْتُلُوا سَعْداً سَفَاهاً ... فَإِنّ اللهَ خَيْرُ القَادِرينَا[2]

سَيُدْخِلُهُ جِنَاناً طَيِّبَاتٍ ... تَكُونُ مُقَامَةً لِلصَّالِحِينَا

٤ - هبوط الوحى على الرسول -ﷺ- وطاعة المسلمين له.

وتشيع المعانى الإسلامية المختلفة فى قصيدة أخرى لكعب بن مالك مطلعها[3]:

أَلا هَلْ أَتَى غسانَ عَنَّا ودُونَهمْ ... من الأَرضِ خَرْقٌ سيْرُه مُتَتَعْتِعُ

يرد بها على قصيدة هبيرة بن أبى وهب المخزومى التى مطلعها [4]:

مَابَالُ هَمٍّ عَمِيدٍ بَاتَ يَطْرُقُنِى ... بالْوُدِّ مِنْ هِنْدَ إذْ تَعْدُو عَوَادِيهَا

---

(١) ديوان كعب ص ٢٧٩ ومابعدها.

(٢) هو سعد بن معاذ، رُمِىَ بسهم يوم الخندق فقطع منه الأكحل فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر به جرحه فمات شهيدا. (السيرة جـ٣ ص٢٤٤-٢٧١).

(٣) ديوانه ص٢٢٢.

(٤) السيرة جـ٣ ص٨٣.

وإن كانت قصيدة كعب بن مالك تختلف فى الوزن والقافية عن قصيدة هبيرة إلا أنها تتفق فى المعانى التى تقابل مازعمه هبيرة فى قصيدته بالإضافة إلى تشبع أبياته بالروح الإسلامية فقد تأثر بقوله تعالى (١): ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ . وقوله تعالى(٢): ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، فقد بعث الموقف فى هذه القصيدة نبضات روحية قوية أكسبت الأسلوب حيوية وقوة فجاءت قصيدته متماسكة مع سهولة واضحة، فيقول فيها(٣) :

وَفِينَا رَسُولُ الله نَتْبَعُ أَمْرَهُ	إذَ قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لا نَتطَلَّعُ
تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْد رَبِّهِ	يُنَزَّلُ مِنْ جَوِ السَّمَاء ويرفَعُ
نُشَاوِرُهُ فِيمَا نُرِيدُ وَقَصْرُنَا	إذَا مَا اشْتَهَى أَنَّا نُطِيعُ ونَسْمَعُ
وَقَالَ رَسُولُ اللَّه لَمَّا بَدَوْا لَنَا	ذَرُوا عَنْكُمْ هَوْلَ الْمَنيَّات واطْمَعُوا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِى الْحَيَاةَ تَقَرُّباً	إلى مَلك يَحْيَا لَدَيْه ويَرْجَعُ
وَلَكِنْ خُذُوا أَسْيَافَكُم وَتَوَكَّلُوا	عَلَى الله إنَّ الأَمْرَ لله أَجْمَعُ
فَسِرْنَا إِلَيْهِمْ جَهْرَةً فِى رِحَالِهِمْ	ضُحَيًا عَلَيْنَا الْبِيضُ لا تَتَخَشَّعُ

دور النقائض فى الصراع بين المسلمين واليهود.

ولم يقتصر الصراع بين المسلمين فى المدينة والمشركين فى مكة بل شارك فيه اليهود أيضا عندما أراد بنو النضير الغدر بالرسول -ﷺ- فأجلاهم إلى خيبر والشام، وكان -ﷺ- أمر قبل ذلك بقتل كعب بن الأشرف، فنرى كعب بن مالك يذكر حادثة الجلاء هذه ويذكر أيضا مقتل ابن الأشرف فى قصيدة تشيع فيها هذه البساطة إلى جانب المعانى الإسلامية التى توضح موقف الرسول

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٩٢ : ١٩٤. (٢) سورة التوبة، آية ١١١. (٣) ديوانه ص ٢٢٤ ومابعدها.

-ﷺ- من هؤلاء اليهود، فقد تأثر الشاعر بقوله تعالى[1] : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ، فقال[2] :

لَقَدْ خَزِيَتْ بِغَدْرَتِهَا الْحُبُورُ ... كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ

وذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبٍّ ... عَزِيزٍ أَمْرُه أَمْرٌ كَبِيرُ

وَقَدْ أوتُوا مَعًا فَهْمًا وَعِلْمًا ... وَجَاءَهُم مِنَ اللهِ النَّذِيرُ

نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى كِتَابًا ... وَآيَاتٍ مُبَيَّنَةً تُنِيرُ

فَقَالُوا: مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صِدْقٍ ... وَأَنْتَ بِمُنْكَرٍ مِنَّا جَدِيرُ

فَلَمَّا أُشْرِبُوا غَدْرًا وَكُفْرًا ... وَجَدَّ بِهِمْ عَنِ الحَقِّ النُّفُورُ

أَرَى اللَّهُ النَّبِيَّ بِرَأيِ صِدْقٍ ... وَكَانَ اللهُ يَحْكُمُ لا يَجُورُ

فَأَيَّدَهُ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ ... وَكَانَ نَصِيرُهُ، نِعْمَ النَّصِيرُ

فَغُودِرَ مِنهُم كَعْبٌ صَرِيعًا ... فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيرُ

. . .

فَتِلْكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ ... أَبَارَهُمُ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمُبِيرُ

. . .

فَذَاقُوا غَبَّ أَمْرِهِمُ وَبَالاً ... لِكُلِّ ثَلاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ

وَأُجْلُوا عَامِدِينَ لِقَيْنُقَاعٍ ... وَغُودِرَ مِنْهُمُ نَخْلٌ وَدُورُ

وكذلك عندما ارتجزت هند بنت عتبة حين مثلت بحمزة -رضى الله عنه- فى يوم أحد وخرجت لتصرخ بأعلى صوتها من فوق صخرة مشرفة تريد أن تشتفى من المسلمين فأنشدت قولها[3] :

(١) سورة المائدة ٨٢ (٢) ديوان كعب بن مالك ص ٢٠٣ ومابعدها. (٣) السيرة جـ٣ ص٤١ ومابعدها.

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرِ ... وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ
مَاكَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِى مِنْ صَبْرِ ... وَلَا أَخِى وَعَمِّهِ وبَكْرِى
شَفَيْتُ نَفْسِى وَقَضَيْتُ نَذْرِى ... شَفَيْتَ وَحْشِىُّ غَلِيلَ صَدْرِى
فَشُكْرُ وَحْشِىَّ عَلَىَّ عُمْرِى ... حَتَّى تَرِمَّ اعْظُمِى فِى قَبْرِى

أجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب بقول يطابق قولها تظهر فيه هذه الروح الحماسية التى زرعها الإسلام فى نفوس أبنائه، فتقول(1):

خَزِيتِ فِى بَدْرٍ وبَعْدَ بَدْرِ ... يَا بِنْتَ وَقَّاعٍ عَظِيمِ الْكُفْرِ
صَبَّحَكِ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ ... مِلْهَاشِمِيِّينَ الطِّوَالِ الزُّهْرِ
بِكُلِّ قَطَّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِى ... حَمْزَةُ لَيْثِى وَعَلِىٌّ صَقْرِى
إِذْ رَامَ شَيْبُ وأَبُوكِ غَدْرِى ... فَخَضَّبَا مِنْهُ ضَوَاحِى النَّحْرِ

وَنَذْرُكِ السَّوْءَ فَشَرُّ نَذْرِ

ولم يقتصر فن النقائض عند المخضرمين على تصوير مراحل الصراع المختلفة بين المسلمين وأهل الشرك واليهود لرد عاديتهم أو تفنيد حججهم ومزاعمهم، بل لعب دورا خطيرا فى الدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم اتخذوا الشعر سلاحا من أهم أسلحة الدعوة الإسلامية فى صدر الإسلام، فقد جند الشعراء أنفسهم لخدمة العقيدة والدعوة الإسلامية، فأبرزوا للناس أهم مميزاتها، وأعلنوا على الملأ أرقى التعاليم الإنسانية التى تسعى إلى سعادة البشرية، ودحضوا افتراء المشركين على الإسلام والمسلمين، وفندوا حججهم، ووقفوا فى ساحة المساجلات الشعرية يردون عليهم مزاعمهم، ويبرزون الحقائق الجلية للعيان (2).

فنجد أصيد بن سلمة السلمى أخذ أسيرا للمسلمين، فيرق له الرسول

(1) السيرة جـ ٣ ص ٤٢ ومابعدها.

(2) رسالة الشعر فى خدمة الدعوة وحركات الإصلاح قديما وحديثا. د/ عبدالرحيم محمود زلط، طبعة دار الفكر العربى، ١٩٨٣، ص٤٢.

-ﷺ- ويعرض عليه الإسلام، فيسلم، فيبلغ ذلك أباه فى بنى سليم، وكان شيخا كبيرا فكتب إليه يلومه على عقوقه وتركه شيخا ليصاحب محمدا -ﷺ- ويتبع دينه ويترك دين آبائه، ويصف له حاله بعد فراقه، ويطلب منه أن يكتب إليه يخبره بأمر هذا الدين الجديد ويستعطفه ألا يتركه وحيدا، فيقول[1]:

مَنْ رَاكِبٌ نَحْــوَ الْمَدِيــنة سَالِمًا ... حَتَّى يُبَلِّغُ مَـــا أَقُولُ الأَصْيَدَا

إنَّ الْبَنِينَ شرارُهُم أَمْثَالُهُمْ ... مَنْ عَقَّ والِـــــدَهُ وبَرَّ الأبْعَدَا

أَتَرَكْتَ دِيــنَ أَبِيــكَ والـشُّمَّ الْعُلَى ... أوْدُوا وتَابَعْتَ الْغَدَاةَ مُحَــمَّدَا

فَلأَىِّ أَمْرٍ يَابُنَىَّ عَقَقْتَنِى ... وتَرَكْتَنِى شَيْخًا كَبِيرًا مُفْنَدَا[2]

أَمَّا النَّهَـــارُ فَدَمْعُ عَيْنِى سَاكِبٌ ... وأَبِيتُ لَيْلِى كَــالسَّلِيمِ مُسَهَّدَا

فَلَعَلَّ رَبًّا قَدْ هَدَاكَ لدِيــنِهِ ... فَاشْكُر أيَادِيــهِ عَسَى أَنْ تُرْشَدَا

واكْتُبْ إلىَّ بِمَا أَصَبْتَ مِنَ الْـهُدَى ... وَبِديـنِهِ لا تَتْرُكَنِّى مُـــوحَـــدَا

وَاعْلَمْ بِأنَّكَ إنْ قَطَعْتَ قَرَابَتِى ... وعَــقَـــقْــتَــنِي لَم أَلْفَ إلا لِلْعِدَى

فلما قرأ أصيد بن سلمة كتاب أبيه أشفق عليه واستأذن الرسول -ﷺ- فى جوابه فأذن له، فأجابه بقصيدة من نفس البحر ونفس القافية والروى، يبين له أن الله لا إله غيره هو الذى رفع السماء بقدرته وأرسل رسوله -ﷺ- ليدعو الناس إلى رحمته، متأثرًا بقوله تعالى[3]: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ وكذلك قوله تعالى[4]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ فقام عليه الصلاة والسلام بما تميز به- من مكارم الأخلاق والفضائل الحميدة- يدعو العباد لدينه وهداه فأقبلوا عليه طوعا وكرها وتخوفوا هذه النار التى أعدت للأشقياء، ثم يذكره بأنه ميت لا محالة وسيأتى يوم يحاسب فيه على أعماله، ويناشده أن يسرع

---

(١) أسد الغابة جـ١ ص١٢٠ ومابعدها.

(٢) المفند: الخرف وإنكار العقل من الهرم أو المرض وأصله فى الكبر (اللسان جـ٥ ص ٣٤٧٢.).

(٣) سورة النازعات، آية ٢٨.　　(٤) سورة الجمعة، آية ٢.

ويقبل على رسول الله -ﷺ- ويترك مافيه من شرك وضلال، فيقول[1] :

إنَّ الَّذى سَمَكَ السَّمَاءَ بِقُدْرَةٍ	حَتَّى عَلا فى مُلْكِه فَتَوحَّدَا
بَعَثَ الَّذى لامِثْلَهُ فِيمَا مَضَى	يَدْعُو لِرَحْمَتِه النَّبِىَّ مُحَمَّدَا
ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ كالغَزَالَة وَجْهُهُ	قَرنَاً تَزرَّرَ بالمكارِمِ وَارتَدى
فَدَعَا الْعِبَادَ لِدِينِه فَتَتَابَعُوا	طَوْعاً وكَرْهاً مُقْبلِينَ عَلَى الْهُدَى
وَتَخَوَّفُوا النَّارَ الَّتِى مِنْ أَجْلِهَا	كَانَ الشَّقِىَّ الخَاسِرَ الْمُتَلَدَّدَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَيِّتٌ وَمُحَاسَبٌ	فَإلىَ مَتَى هَذِى الضَّلالَةُ والرَّدَى

فلما قرأ كتاب ابنه تأثر بهذه الدعوة، فأقبل مسرعا إلى النبى -ﷺ- ليعلن إسلامه.

وكذلك يمكننا أن نجعل قصيدة حسان بن ثابت العينية التى مطلعها[2]:

إنَّ الذَّوائِبَ مِنْ فِهْرٍ وإِخْوتَهُمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

وقد ناقض بها عينية الزبرقان بن بدر أحد وفد بنى تميم- وقد عرضنا لها من قبل -وهى من القصائد التى ساهمت فى الدعوة إلى الإسلام كما أنها تدل دلالة قاطعة على شاعرية حسان القوية فى الإسلام، إذ التزم بنفس البحر والروى الذى أنشد عليه الزبرقان قصيدته، وأجابه على البديهة بهذه الأبيات القوية الصادقة التى عرضنا لها فى شعر الفخر وبيَّنَّا ما فيها من سمات إسلامية جديدة، فحسان لم يقم مفاخرته على تكذيب لشاعر تميم فيما ادعاه لقومه، أو نفى للمحامد والمكارم التى وصفهم بها، فهو لايناقض عدوا وإنما يناقض راغبا فى الإسلام مقبلا عليه هو وقومه، فالموقف حساس للغاية وكل كلمة لها وزنها وحسابها، وحسان كان يعى هذه الحقيقة تماما؛

(١) أسد الغابة جـ١ ص١٢١.

(٢) ديوانه ص ٢٣٨.

للغاية وكل كلمة لها وزنها وحسابها، وحسان كان يعى هذه الحقيقة تماما؛ ولذا انتهج نهج الموازنة فى مفاخرته[1]، فهو لايريد أن يظهر عليهم، بل ذكر الفضائل التى تعارف عليها العرب وضمَّنها تعاليم الإسلام وقيمه كولائهم للرسول -ﷺ- وطاعتهم له وتفانيهم فى نصرته وتمسكهم بهذه الوحدة الإسلامية التى يقود لواءها الرسول -ﷺ- وهو فى ذلك كله يريد أن يحبب الإسلام إلى نفوس هؤلاء القوم.

وهكذا يتضح لنا مما عرضنا من نقائض تمثل فترة الصراع الأولى بين المسلمين والمشركين ومن أيَّدهم، أن فنا شعريا جديدا أخذ طريقه إلى أدبنا العربى نهض به الشعراء المخضرمون وانطبعت عليه صور الأحداث المواكبة لهذا الصراع، ووضحت فيه المؤثرات والظواهر الإسلامية التى تمثلت فى وجود دين جديد له اتباع يؤمنون به ويبذلون فى سبيل نشره أرواحهم وأموالهم، فتصدوا لأهل الشرك بألسنتهم إلى جانب سيوفهم، وحملوا على عاتقهم مسئولية تبليغ الرسالة، فكانوا دعاة مسالمين قبل أن يكونوا فرسانا محاربين، متأثرين فى ذلك بقيم الإسلام وتعاليمه ومبادئه.

* * *

سادساً: شعر الصراع الدينى والسياسى.

كان من بين الموضوعات الجديدة التى طرحها الشعراء المخضرمون والتى تمثل تطورا جديدا فى حياة الشعر العربى بعد الإسلام فى عصر الرسول -ﷺ- وخلفائه الراشدين التعبير عن الأحداث الدينية والسياسية وما أعقبها من نزاعات وصراعات تتمثل فى التعددية السياسية والمذهبية داخل إطار الوحدة الدينية وانقسام الجماعة الإسلامية إلى أحزاب سياسية تتصارع فيما بينها على خلافة المسلمين، وكان من بين أهم هذه الأحداث حركة الردة ثم انقسام الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان ثم مقتل على بن أبى طالب -رضى الله عنهما-.

---

(١) شعر النقائض فى السيرة النبوية، د/ شوقى رياض أحمد، الطبعة الأولى مطابع الفرزدق التجارية بالرياض ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، ص٢٤.

أولاً: حركة الردة وآثارها.

ظهر فى حياة المسلمين قبيل وفاة الرسول -ﷺ- وفى بداية عهد أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- فئة المتمردين الذين أرادوا التحلل من شعائر الدين، وتقاليد الحكومة الإسلامية الجديدة التى أرسى قواعدها ووضع نظامها الدينى والسياسى الرسول -ﷺ- كما- سبق أن بينا- فارتدوا إلى القيم الجاهلية التى لم تخضعهم لسلطان ولم تقيد حريتهم بقيود معينة.

وهؤلاء فى الغالب كانوا من القبائل المتناثرة فى أنحاء الجزيرة العربية التى يغلب عليها طابع البداوة، وخرجوا على هذا النظام الدينى والسياسى وكانت لهم وسائل متعددة فى ذلك، فخانوا العهود، ومنعوا الزكاة، وادعى بعضهم النبوة، وقاموا بانتفاضات وثورات وطردوا الولاة الذين عينوا من قبل خليفة المسلمين، وهاجموا قصر الخلافة نفسه.

وكانت حركة هؤلاء الخارجين أو المرتدين نوعا من الانتكاس الدينى والسياسى داخل الحكومة الإسلامية، وبدأ الشعر يعبر عن هذه الحركة منذ بدايتها سواء أكانت فردية أم جماعية، فنجد رجلا من الأنصار يقتل هاشم ابن صبابة الكنانى خطأ فى غزوة من غزوات الرسول -ﷺ- يحسبه مشركا، وكان أخوه مقيس بن صبابة الكنانى مشركا، فقدم على رسول الله -ﷺ- ليعلن إسلامه، ويطالب بدية أخيه، فأمر له الرسول -ﷺ- بدية أخيه، فأخذها وأسلم، وأقام عند الرسول -ﷺ- فترة قليلة، ثم عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله وهرب مرتدا عن الإسلام، فقال فى ذلك:

شَفَى النَّفْسَ أَنْ قَد بَاتَ بِالْقَاعِ مُسْنَداً ... تُضَرِّجُ ثَوْبَيْهِ دِمَاءُ الأَخَادِعِ

وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ قَبْلِ قَتْلِه ... تُلِمُّ فَتَحْمِينِى وِطَاءَ المَضَاجِعِ

حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِى وَأَدْرَكْتُ ثُؤْرَتِى ... وَكُنْتُ إِلى الأوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ

ثَأَرْتُ بِهِ فِهْراً وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ ... سَرَاةَ بَنِى النَّجَّارِ أَرْبَابَ فَارِعِ

فأهدر الرسول -ﷺ- دمه وأمر المسلمين بقتله، فقتله نميلة بن عبدالله الكنانى حين فتح المسلمون مكة[1].

وكذلك نجد بعض أفراد ادعوا النبوة منهم : مسيلمة بن حبيب الكذاب باليمامة، ادعى النبوة فى عهد الرسول -ﷺ- فكتب كتابا وبعث به إلى الرسول -ﷺ- يقول فيه: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإنا لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشا قوم يعتدون. فبعد أن قرأ الرسول -ﷺ- كتابه سأل الرسولين اللذين قدما بالكتاب، فقال لهما: ماتقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال لهما: أما والله لولا أن الرسل لاتقتل لضربت أعناقكما، ورد على كتابه بقوله: بسم الله الرحمن، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

وكذلك ظهر فى عهد النبى -ﷺ- الأسود بن كعب العنسى من صنعاء فى بلاد اليمن، ووثب طلحة بن خويلد الأسدى فى بلاد بنى أسد[2].

وكذلك نجد سجاح بنت عقفان التميمية تدَّعى النبوة، وانضمت وطائفة من بنى قومها لحزب مسيلمة الكذاب بعد وفاة الرسول -ﷺ- فقال شاعر بنى تميم يسخر بهما[3] :

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى نُطِيفُ بِهَا ... وَأَصْبَحَت أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا

يَا لَعْنَةَ اللَّهِ وَالأَقْوَامِ كُلِّهُمُ ... عَلَى سَجَاحٍ وَمَنْ بِالإِفْكِ أَغْرَانَا

أَعْنِى مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابَ لاسَقِيَتْ ... أَصْدَاؤُهُ مَاءَ مُزْنٍ حَيْثُمَا كَانَا

---

(1) السيرة جـ٣ ص٣٣٧ ومابعدها، جـ٤ ص٢٩، الطبرى جـ٢ ص٦٠٩، وأنساب الأشراف جـ١ ص ٣٥٨ ومابعدها.

(2) راجع السيرة جـ٤ ص٢٧٠ ومابعدها، والطبرى جـ٣ ص١٤٦ ومابعدها ،وثمار القلوب ص ١٤٨.

(3) المعارف لابن قتيبة ص٤٠٥، الطبرى جـ٣ ص٢٧٤ ونسبا البيت الأول لعطارد بن حاجب بن زرارة، وثمار القلوب ص ٣١٥ ونسب الأبيات لقيس بن عاصم.

وأسهم الأغلب العجلى برجزه أيضا فى هجاء سجاح هجاء مقذعا، ولكنه كان يريد به التنفير من سجاح وفض بنى تميم من حولها[١] .

فكان الهدف من خروج هؤلاء المتنبئين كما هو واضح من كتاب مسيلمة الكذاب لرسول الله -ﷺ- السعى لتقلد رياسة القبائل وتحقيق المنافع المادية ومناهضة النظام الذى وضعه الرسول -ﷺ.

وإذا كانت أمثلة هذه الردة الفردية قليلة أو لم تشكل خطرا جسيما فى عهد الرسول -ﷺ- إلا أننا نجد أمر هؤلاء المرتدين يستفحل بعد وفاة الرسول -ﷺ- وبداية عهد أبى بكر -رضى الله عنه- فما كاد يفرغ من مسألة الخلافة حتى واجه مشكلات هؤلاء الخارجين الذين حاولوا استرداد سلطة القبيلة المسلوبة والتخلى عن فكرة الوحدة الدينية.

فاجتمعت أسد وغطفان وطئ إلا نفرا قليلا منهم على طليحة الأسدى، وانضم إليهم بنو مرة وبنو عبس، وبعثوا وفودا إلى المدينة يسألون أبا بكر أن يعفيهم من الزكاة، فأبى أبو بكر وقال: لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه.

ويعبر الحطيئة فى شعره عن هذا الرد ويسوؤه انتقال الخلافة إلى أبى بكر ويستنفر العزائم ليصد الناس عن ذكر الله فيقول[٢]:

فدىً لِبَنى ذُبْيَانَ أُمِّى وَخَالَتِى ... عَشِيَّةَ يُحْدَى بالرِّمَاحِ أَبُو بَكْرِ

أَبَوْا غيرَ ضَرْبٍ يُحْطَمُ الْهَامُ وَسْطَهُ ... وَطَعْنٍ كَأَفْوَاهِ الْمُرَقَّعَةِ الْحُمْرِ

فَقُومُوا وَلاتُعْطُوا اللِّئَامَ مَقَادَةً ... وَقُومُوا وإنْ كَانَ الْقِيَامُ عَلَى الْجَمْرِ

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّه إذ كَانَ صَادقاً ... فَيَا عَجَباً مَا بَالُ دين أبى بكرِ

أَيُورِثُنَا بكْرًا إذا مَاتَ بَعْدَهُ ... فَتِلْكَ وَبَيْتِ اللَّه قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

وكانت بنو سليم بن منصور لحقت بأهل الردة، وكان معهم أبو شجرة بن عبدالعزى السليمى فقال حين ارتد[٣]:

---

(١) الأغانى جـ٢١ ص٣١ ومابعدها.

(٢) ديوان الحطيئة -نشر نعمان أمين طه، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة الطبعة الأولى ١٩٥٨م ص٣٢٩ ومابعدها.

(٣) الطبرى جـ٣ ص٢٦٦.

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ مَيّ هَوَاهُ وأَقْصَرَا ... وَطَاوَعَ فِيهَا الْعَاذِلَينَ فَأَبْصَرَا
وَأَصْبَحَ أَدْنَى رَائِدِ الْجَهْلِ والصِّبَا ... كَمَا وُدُّهَا عَنَّا كَذَاكَ تَغَيَّرَا
وأَصْبَحَ أَدْنَى رَائِدِ الْوَصْلِ مِنْهُمُ ... كَمَا حَبْلُهَا مِنْ حَبْلِنَا قَدْ تَبَتَّرَا
ألا أَيُّهَا الْمُدْلِي بِكَثْرَةِ قَوْمِهِ ... وَحَظُّكَ مِنْهُمْ أَنْ تُضَامَ وَتُقْهَرَا
سَلِ النَّاسَ عَنَّا كُلَّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... إِذَا مَا التَقَيْنَا: دَارِعِينَ وَحُسَّرَا
أَلَسْنَا نُعَاطِي ذَا الطِّمَاحِ لِجَامَهُ ... وَنَطْعَنُ فِي الْهَيْجَا إِذَا الْمَوْتُ أَقْفَرَا
وعَاضِرةٌ شَهْبَاءُ تُخْطِرُ بِالْقَنَا ... تَرَى الْبُلْقَ فِي حَافَاتِهَا والسَّنَوَّرَا
فَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ... وَإِنِّي لأَرْجُو بَعْدَهَا أَنْ أُعَمَّرَا

فخرج أبو بكر -رضى الله عنه- بالمسلمين لمناهضة وردع التمرد، واقتتلوا قتالا شديدا وانتصر المسلمون واتبعوهم حتى ولوهم الأدبار ورجع أبو بكر إلى المدينة، وفى ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمى [1]:

أَقَمْنَا لَهُمْ عُرْضَ الشِّمَالِ فَكَبْكَبُوا ... كَكَبْكَبَةِ الْغُزَّى أَنَاخُوا عَلَى الْوَفْرِ
فَمَا صَبَرُوا لِلْحَرْبِ عِنْدَ قِيَامِهَا ... صَبِيحَةَ يَسْمُو بِالرِّجَالِ أَبُو بَكْرِ
طَرَقْنَا بَنِي عَبْسٍ بِأَدْنَى نِبَاجِهَا ... وَذُبْيَانَ نَهْنَهْنَا بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ

فموقف أبى بكر -رضى الله عنه- من المرتدين واضح تماما، فقد أرسل رسله بكتاب إلى القبائل المرتدة يدعوهم للعودة إلى الإسلام ويحذرهم من قدوم جنوده لقتالهم تنفيذا لأوامر الله سبحانه وتعالى فى أمر هؤلاء المرتدين، كما أنه أوصى أمراء جنوده بتقوى الله وتنفيذ أوامره ولم يغب الشعر عن كل هذه الأحداث بل نجده يصور لنا بوضوح التخلى عن فكرة

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٧

الوحدة الدينية كما رأينا عند الحطيئة، وتوعد شعراء آخرين لهؤلاء المرتدين بهجائهم والسخرية من أفعالهم والتبرؤ مما يفعلون، فنجد من بنى سليم خفاف بن ندبة يثبت على إسلامه، ويسجل فى شعره خيانة رجل من قومه بنى سليم يقال له الفجاءة وهو إياس بن عبدالله بن عبد ياليل بن عميرة بن خفاف، كان قد اختدع أبا بكر رضى الله عنه وطلب منه ظهرا وسلاحا ليجاهد من ارتد من الكفار، فأعطاه أبو بكر، ولكنه لم يقاتل بهذا السلاح إلا المسلمين، فساء ذلك خفافا، فنراه، ينعى على قومه ذلك العار، ويعلن براءته من ردة من ارتد من قومه حيث يبين ثباته وتمسكه بدين الإسلام، فيقول[1] :

لِمَ تأْخُذُونَ سلاحَهُ لِقتَالِه ... ولَذَاكُمُ عِنْدَ الإلهِ إثَامُ
لا دِينَكُمْ دِينِى ولا أنَا كَافِرٌ ... حَتَّى يَزُولَ إلى صَرَاةَ شَمَامُ

وترتد بنو عامر فينهض عمرو بن قريط العامرى، يهجوهم ويبين لهم عصيانهم بعد أن ثقلت عليهم الصلاة وامتنعوا عن أداء الزكاة، فيقول[2]:

ثَقُلَتْ صَلاةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكُمُ ... بَنِى عَامِرٍ وَالْحَقُّ جِدُّ ثَقِيلِ
وأَتْبَعْتُمُوهَا بالزَّكَاة وَقُلْتُمُ ... ألا لاتفرُّوا مِنْهُمَا بِقَتِيلِ
فَلا يَبْعُد اللهُ الْمُهَيْمِنُ غَيْرَكُمْ ... سَبِيلَكُمْ فِى كُلِّ شَرٍّ سَبِيلِ

ثم نجد الحارث بن مرة النفيلى يعظهم وينصحهم حتى يعودوا إلى رشدهم ويتركوا ماهم فيه من غى وضلال، فيقول[3] :

---

(١) الأصمعيات ص ٣١ ، وراجع الطبرى جـ٣ ص ٢٦٥ وذكر الأبيات برواية مختلفة.
(٢) الإصابة جـ٥ ص١٤٠.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص١٦٠.

بَنِى عَامِــــرٍ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ تُنْصَرُوا وإِنْ تَنْصِبُوا لِــلَّهِ والــدِّيـنِ تُخْذَلُوا
وإِن تُهْزَمُوا لاينْجِكُمْ عَنْه مَهْرَبٌ وَإِنْ تَثْبتُوا لِلْقَوْمِ وَالـــــلَّهِ تُقْتَلُوا

ونجد حســان بن ثابت فى شعره يتــوعد بنى سليم وأحياء غـيرهم؛ لأنهم ارتدوا وقالوا لانطيع أبا الفصيل، يعنون أبا بكر، فقال[1] :

مَا الــبَكْرُ إلا كَالْفَصِيــلِ وَقَدْ تَرَى أَنَّ الـــفَصِيـــلَ عَلَيْهِ لَيْس بِعَارِ
إِنَّا وَمَا حَجَّ الْحَجِيجُ لِبَيْتِــــــهِ رُكْبَانَ مَكَّةَ مَعْشَرَ الأنْصَارِ
تَفْرِى جَمَاجِمكُمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ضَرْبَ الــــقُدَارِ مَبَادِىَ الأيْسَارِ
حَتَّى تُكَنُّوهُ بِفَحْــــــلِ هُنَيْدَةٍ يَحْمِى الـــــطَّرُوقَةَ بَازِلٍ هَدَّارِ

وكذلك نجد ضرار بن الأزور الأســدى يبلى بلاء حسنا فى حروب الردة، وقد بعثه خالد بن الوليد لبنى تميم، فـقاتل قتالا شديدا وقتل مالك بن نويرة فارس بنى يربوع، وقد ساءه ارتداد قومه بـنى أسد وكان قد حذرهم أن يمنعوا صدقاتهم، فيعلن ذلك فى شـعره ويعلن أيضا تمسكه وثباته على دين الإسلام وجهاده لهؤلاء المرتدين، فيقول[2]:

بَنِى أَسَد قَدْ سَاءَنِى مَا صَنَعْتُمُ وَلَيْسَ لِقَوْمٍ حَارَبُــوُا الــلَّهَ مَحْرَمُ
وَأَعْلَمُ حَقًّا أَنَّكُمْ قَدْ غَوَيْتُمُ بَنِى أَسَد، فَاسْتَأْخِرُوا أَوْ تَقَدَّمُوا
نَهَيْتُكُمُ أَنْ تَنْهَبُوا صَدَقَاتِكُمْ وَقُلْتُ لَكُمْ يا آلَ ثَعْلَبَـــــةَ اعْلَمُوا
عَصَيْتُمْ ذَوِى أَحْلامِكُمْ وَأَطَعْتُمُ ضَجِيمـاً، وأَمْرُ ابْنِ اللَّقِيطَةِ أَشْأَمُ[3]

---

(١) ديوان حسان ص ٢٤٧.

(٢) خزانة الأدب جـ٣ ص٣١٩.

(٣) ضجيم، وهو طليحة بن خويلد وكانت أمه حميرية أخيذة، راجع الخزانة جـ٣ ص٣٨٩.

وَقَـدْ بَعَـثُوا وَفْـدًا إِلـى أَهْلِ دُومَـة فَـقُـبِّحَ مِـنْ وَفْـدٍ وَمَـنْ يَـتَيَـمَّـمُ
وَلَو سَأَلَتْ عَـنَّا جَـنُـوبُ لَـخُبِّرَتْ عَشِـيَّةَ سَـالَتْ عَـقْرَبَـاءُ بِهَـا الدَّمُ
عَشِـيَّةَ لاتُـغْنـى الرِّمَـاحُ مَكَـانَهَـا وَلا النَّـبْلُ إلا المَـشْرَفِيُّ الْـمُصَـمِّمُ
فَإِنْ تَـبْتَـغِى الْـكُفَّـارُ غَيـرَ مُنِـيبـة جَنُوبُ، فَإِنِّى تَابِعُ الـدِّينَ فَاعْلمُوا
أُقَـاتِلُ إِذَا كَـانَ الْـقِتَـالُ غَنِـيْـمَـةً وَلِـلَّهُ بِـالْعَـبْدِ الْـمُجَـاهِدِ أَعْـلَـمُ

فنرى هـذه المعانى الإسـلامية تظـهر بوضوح فـى شعر هؤلاء المجـاهدين المسلمـين الذين ثبتوا عـلى دينهم ورأوا أن ينفِّـذوا ما أمرهم الله بـه فى قتال هؤلاء المرتديـن والتصدى لهم مؤمنـين بأن الله وحده عون لكل مـن يتوكل عليه يذلل الصعاب ويبدع المعجزات وينصر من ينصره.

فعندمـا انتصر الطاهـر بن أبى هالة علـى أخابث تهامة (عـك والأشعرون ومن انضم إليهم) كان انتـصاره فتحا عظيما للمسلمين، فنـراه يشيد بانتصاره على هؤلاء المرتدين ويـرجع الفضل كله لله الذى مكنـهم من هؤلاء ليعودوا بالصدقات التى منعوها، فيقول [1]:

ووالـلَّه لَـوْلا اللَّـهُ لاَ شَـيْءَ غَيْـرُهُ لَمَا فُـضَّ بالأَجْرَاعِ جَمْعُ العَـثَاعِثِ
فَـلَمْ تَـرَ عَـيْنِى مِثْـلَ يَـوْمٍ رَأَيْتُـهُ بِجَنْبِ صُحَارٍ فـى جُمُوعِ الأَخَابِثِ
قَـتَـلْنَـاهُـمُ مَـا بَـيْـنَ قُنَّـة خَـامِـرٍ إلى الـقيعَـة الحَمْـراء ذَات النَّبَـائث
وَفِـئْـنَا بِـأَمْـوَالِ الأَخَـابِثِ عَـنْـوَةً جِهَاراً ولَـمْ نَحْفَلْ بِـتِلْكَ الهُـثَاهِثِ

وكذلك نرى عـفيف بن منذر الـتميمى يصور لـنا فى شعره تعـقب جيش العلاء الحـضرمى لفلول بـنى بكر بن وائـل الذين عبروا إلى داريـن، فوقف الخليج حاجزا بينهم وبين المسلمين، فاستنهض العلاء جنوده ودعوا الله جميعا

(١) الطبرى جـ٣ ص٣٢١.

واقتحموا ساحل البحر واجتازوا الخليج بإذن الله وقاتلوهم قتالا شديدا حتى استأصلوهم عن آخرهم، يقول [1]:

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ اللَّهَ ذَلَّـلَ بَحْـــرَهُ ... وأَنْزَلَ بِالْكُفَّارِ إِحْدَى الْحَلائِلِ!
دَعَوْنَا الَّذِى شَقَّ الْبِحَارَ فَجَاءَنَا ... بِأَعْجَبِ مِنْ فَلْقِ الْبِحَارِ الأَوَائِلِ

وفى قتال المسلمين للمرتدين بالبحرين نجد عبدالله بن حذف أحد بنى بكر ابن كلاب يستنجد بأبى بكر والمسلمين بالمدينة وذلك لحصار قد حدث للمجاهدين المسلمين فى منطقة جؤاثى بالبحرين واشتد عليهم الحصار وكادوا أن يهلكوا، فيقول فى ذلك[2]:

أَلا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولاً ... وَفِتْيَــــــانَ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا
فَهَلْ لَكُم إِلَى قَوْمٍ كِرَامٍ ... قُعُود فِى جُؤَاثَى مُحْصَرِينَا!
كَأَنَّ دِمَاءَهُــــمْ فِى كُـــلِّ فَـــجٍّ ... شُعَاعُ الــشَّمْسِ يَـغْشَى الــنَّاظِرِينَا
تَوَكَّلْنَا عَلَى الـــــــرَّحْمَنِ إِنَّا ... وَجَدْنَا الــــــصَّبْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَا

ولولا حزم أبى بكر وقوة عزيمته فى مواجهة هؤلاء المرتدين وردعهم لتهدَّم كيان الدولة الإسلامية الذى شيده الرسول -ﷺ- فمنذ أن كسرت شوكة المرتدين أصبحت جيوش المسلمين مهيبة الجانب، وتوحدت صفوف الأمة الإسلامية وخضعت لخليفة المسلمين تحت لواء واحد ودين واحد ونظام واحد، ذلك النظام الذى هيأهم لتوسيع رقعة حكومتهم فأخذوا فى الفتوح لينشروا تعاليم الإسلام وشعائره مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

---

(١) الطبرى جـ٣ ص٣١١.

(٢) المصدر نفسه جـ٣ ص٣٠٤، وأسماء المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام، وأسماء من قتل من الشعراء لمحمد بن حبيب ضمن مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الأولى لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٤ جـ٢ ص١٥٣.

ثانيا: انقسام الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان.

تطورت الأحداث السياسية داخل الحكومة الإسلامية بعد أن رأى أبو بكر -رضى الله عنه- ببصيرته النافذة أن يدفع العرب خارج جزيرتهم ليشغلهم بالفتوح ونشر الإسلام فى آفاق الأرض، واستكمل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- مسيرة أبى بكر، وساير الشعر هذه المسيرة فخرج الشعراء مع القادة والمجاهدين يسجلون ملاحم الجهاد ويفخرون بها -كما رأينا من قبل- وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة اصطرع المسلمون فيما بينهم اصطراعا عنيفا، فتكونت الفرق الداخلية التى أخذت تتمارى وتعترك حول الملك الإسلامى، وبعثت العصبيات القبلية القديمة التى ردت المسلمين فى بعض البيئات إلى الحياة الجاهلية التى هدأ الإسلام من ثائرتها فى عهد الرسول -ﷺ- وأبى بكر وعمر- رضى الله عنهما-، فاشتعلت نار الثورة على عثمان حتى قتل، واتهم الأمويون عليا -كرم الله وجهه- بخذلان الخليفة وعدم مناصرته أو الدفاع عنه حتى تمكن منه الثائرون.

وبدأت العصبيات تتطور لتأخذ شكل الأحزاب السياسية، فاتجهت أنظار الثوار وأهل المدينة إلى علىّ فبايعوه على الخلافة وأعلن طلحة والزبير ومعهم السيدة عائشة سخطهم على هذه البيعة، فاتجهوا نحو البصرة ليستنفروا الناس ضده واتجه علىّ إلى الكوفة وسرعان مانشبت الحرب بين الفريقين التى خلفت موقعة الجمل المشهورة وقتل فيها طلحة والزبير وعادت السيدة عائشة إلى المدينة. وانتفض معاوية بن أبى سفيان أمير دمشق وزعيم البيت الأموى ليظفر بالملك الإسلامى ويستأثر بالسلطان متخذا من المطالبة بثأر عثمان ذريعة لما يبغى، وتحولت الثورة لتصبح بين علىّ ومعاوية وانقسم المسلمون فريقين بين علىّ ومعاوية وسار معاوية بجيوشه ليلتقى مع علىّ فى موقعة صفين وتحتدم بينهما معركة عنيفة كادت تنتهى بانتصار علىّ لولا دهاء عمرو بن العاص الذى أشار على معاوية بأن يجعل طائفة من جنوده يرفعون المصاحف على أسنة الرماح ويطالبون بوقف هذه الحرب والاحتكام للقرآن الكريم.

وقد فطن عليّ لهذه الحيلة إلا أنه اضطر أن يقبل التحكيم حقنا لدماء المسلمين، واتفق الطرفان على اختيار حكمين ليحكما بينهما فمثل عمرو بن العاص حزب معاوية ومثل أبو موسى الأشعرى حزب عليّ، وفى الوقت نفسه نجد طائفة من جيش عليّ تسرع فى الخروج عليه منذ قبوله التحكيم واتجهوا ليعسكروا بالقرب من الكوفة، وانضم اليهم عدد كبير من أتباع عليّ بعد ظهور نتيجة التحكيم، وانتهى هذا الصراع بانتصار السياسة الأموية على الشجاعة الهاشمية، وعني الشعر فى هذه الفترة بتسجيل الحروب الأهلية الداخلية وأصبح دعاية سياسية سافرة للحزب العلوى والحزب الأموى وحزب الخوارج، وقام الشعر بدور بارز فى احتدام هذه الحروب ومسايرة هذه الثورات منذ اندلاعها. فعندها ثار المسلمون على عثمان وحاصروه فى بيته، ورأت عائشة -رضى الله عنها- من أمرهم ما رأت، تجهزت خارجة إلى الحج هاربة، واستتبعت أخاها محمد بن أبى بكر فأبى، فجاءه حنظلة بن الربيع الأسيدى التميمى كاتب رسول الله -ﷺ- ينصحه ألا يتبع هؤلاء ويرحل مع أخته، فزجره محمد، فانصرف عنه حنظلة ثم اتجه إلي الكوفه وأنشد أبياتا يتعجب فيها من أمر هؤلاء المسلمين الذين ضلوا السبيل وأرادوا زوال الخلافة فيشبههم باليهود أو النصارى ويحذرهم من الذل الذى سيلحق بهم بعد ذلك، فيقول[1] :

عَجِبْتُ لِمَا يَخُوضُ النَّاسُ فِيهِ ... يَرُومُونَ الْخِلافَةَ أَنْ تَزُولا

وَلَو زَالَتْ لَزَالَ الْخَيْرُ عَنْهُمُ ... وَلاقَوْا بَعْدَهَا ذُلاً ذَلِيلا

وكَانُوا كَالْيَهُودِ أَو النَّصَارَى ... سَوَاءٌ كُلُّهُمْ ضَلُّوا السَّبِيلا

(١) الطبرى جـ٤ ص ٣٨٦، والنويرى جـ١٩ ص٤٩٣.

ويرى أيمن بن خريم أن مقتل عثمان عودة إلى الكفر والضلال، فقد فتح قاتلوه على خلفائهم باب شر لم يقفل، فيقول(١):

ضَحَّوا بِعُثْمانَ فِي الشَّهرِ الْحَرَامِ ضُحىً ... فَأَيَّ ذِبْحٍ حَرَامٍ وَيْلَهُمْ ذَبَحُوا
وَأَيَّ سُنَّةِ كُفْرٍ سَنَّ أَوَّلُهُمْ ... وَبَابَ شَرٍّ عَلَى سُلْطَانِهِمْ فَتَحُوا
فَإذَا أرادُوا أَضَلَّ اللَّه سَعْيَهُمُ ... بِسَفْكَ ذاك الدَّمِ الذَّاكِى الَّذِى سَفَحُوا

وكذلك نرى حسان بن ثابت يستنكر هذه الثورة التى أودت بحياة عثمان ويستنفر الحزب الأموى بزعامة معاوية وأصحابه من أهل الشام ليثأروا لعثمان، فيقول(٢):

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرْفاً لامِزاجَ لَهُ ... فَلْيَأتِ مَأسَدَةً فِى دَارِ عُثْمَانَا
مُسْتَحْقِبِى حَلَقِ الْمَاذِىِّ قَدْ سَفَعَتْ ... فَوْقَ الْمَخَاطِمِ بِيْضٌ زَانَ أَبدَانَا
شُدُّوا السُّيُوفَ بِثِنْىِ فِى مَنَاطِقِكُمْ ... حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِى الْمَوْت مَنْ حَانَا
لَعَلَّكُم إِنْ تَرَوا يَوْمًا بِمغْبَطَةٍ ... خَلِيفَةَ الله فِيكُمْ كَالَّذى كَانَا
وَقَدْ رَضَيْتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرةً ... وَبِالأَمِيرِ وَبِالإِخْوانِ إِخْوَانَا
إِنِّى لَمِنْهُمْ وإِنْ غَابُوا وإِنْ شَهِدُوا ... حَتَّى المَمَات وَمَا سُمِّيتُ حَسَّانَا
صَبْراً فِدَى لَكُمُ أُمِّى وَمَا وَلَدَتْ ... قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِى المَكْرُوه أَحْيَانَا
يَالَيْتَ شِعْرِى ولَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُنِى ... مَاكَانَ شَأنُ عَلِىٍّ وَابْنِ عَفَّانَا
ضَحُوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُود بِه ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا
لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً فِى دِيارِهِمُ ... اللهُ أكْبَرُ يَا ثَارَات عُثْمَانَا

---

(١) الاستيعاب جـ٣ ص١٠٥١، الكامل للمبرد جـ٢ ص٣٩، النويرى جـ١٩ ص٥١٣ وفى الرواية اختلاف.
(٢) ديوان حسان ص ٢١٥ ومابعدها.

وقد ظهرت النزعة القبلية أو الجاهلية فى شعر الوليد بن عقبة بن أمية ففى رثائه لعثمان يحرِّض أخاه عمارة بن عقبة على الأخذ بالثأر من قتلة عثمان، فيقول[1]:

أَلا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلاثَة ... قَتِيلُ التُّجَيْبِى الَّذِى جَاءَ مِنْ مَصْرِ

فَإِنْ يَكُ ظَنِّى بِابْنِ أُمِّى صَادِقاً ... عُمَارَةُ لا يَطْلُبْ بِذَحْلٍ وَلا وِتْرِ

يَبِيْتُ وَأَوْتَارُ ابْنِ عَفَّانَ عِنْدَهُ ... مُخَيَّمهُ بَيْنَ الْخَورْنَقِ وَالْقَصْرِ

فيجيبه الفضل بن عباس بن عُتْبَة بن أبى لهب بشعر تظهر فيه هذه النزعة الحزبية التى كانت ترى أن عليا أحق بالخلافة، فيقول[2]:

أَتَطْلُبُ ثَأراً لَسْتَ مِنهُ وَلاَ لَهُ ... وَأَيْنَ ابْنُ ذَكْوَان الصَّنُورىّ مِنْ عمرو!

كَمَا اتَّصَلَتْ بِنْتُ الْحِمَارِ بِأُمِّهَا ... وَتَنْسَى أَبَاهَا إِذْ تَسَامَى أُولِى الفَخْرِ

أَلا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ مُحَمَّد ... وَصىُّ النَّبىِّ الْمُصْطَفى عِنْدَ ذِى الذِّكْرِ

وَأَوَّلُ مَنْ صَلَّى وَصِنْوُ نَبِيِّه ... وَأَوَّلُ مَنْ أَرْدَى الغُوَاةَ لَدَى بَدْرِ

فَلو رَأَت الأَنْصَارُ ظُلْمَ ابْنِ عَمِّكُمْ ... لَكَانُوا لَهُ مِنْ ظُلْمه حَاضِرِى النَّصْرِ

كَفَى ذَاكَ عَيباً أَنْ يُشِيْروا بِقَتْله ... وَأَنْ يُسْلِمُوهُ للأَحَابِيشِ مِنْ مَصْرِ

ثم نرى الوليد بن عقبة فى قصيدة أخرى يوضح موقف الأمويين تجاه الهاشميين، فيعلن صراحة أن بنى هشام وعلى رأسهم علىّ هم الذين غدروا بعثمان وقتلوه ليحلوا محله ويشبههم فى ذلك بمرازبة الفرس الذين غدروا من قبل بكسرى، فيقول [3]:

---

(١) الطبرى جـ٤ ص٤٢٦.

(٢) المصدر نفسه جـ٤ ص٤٢٦.

(٣) الكامل للمبرد جـ٢ ص٣٧.

بَنِى هَاشِمٍ رُدُّوا سِلاحَ ابْنِ أُخْتِكُمْ وَلا تَنْهَبُوهُ لا تَحِلُّ مَنَاهِبُهْ
بَنِى هَاشِمٍ كَيْفَ الْهُوَادَةُ بَيْنَنَا وَعِنْدَ عَلِـــــــــىٍّ دِرْعُهُ وَنَجَائِبُهْ
هُمُ قَتَلُــــــــوهُ كَى يَكُونُوا مَكَانَهُ كَمَا غَدَرَتْ يَومــــاً بِكِسْرَى مَرَازِبُهْ

وتعبــر ليلى الأخيلية فــى رثائها لعثـمان عن هذا الانقســام بصورة أوضح وأصرح فهــى ترى أن أمر المسلمين ضاع بعد مــقتل ابن عفان، فـضلوا سبل الرشاد، فنراها فى هذا الموقف تعلن صراحــة تأييدها للأمويين، إذا تستنهض معاوية ليأخذ بثأره، ثم تبايعه على خلافة المسلمين، فتقول[1]:

قُتِلَ ابْنُ عَفَّــــــــــانَ الإِمَا مُ وَضَاعَ أَمْرُ الْمُسْلِميــــــــــــنَا
وَتَشَتَّتَتْ سُبُلُ الــــــــــــرَّشَا دِ لِصَادِرِيــــــنَ وَوَارِديـــــــنَا
فَانْهَضْ مُعَـــــــــاوِىَ نَهْضَةً تَشْفِى بِهَا الـــدَّاءَ الـــدَّفِيـــنَا
أَنْتَ الَّـــــــــــذِى مِنْ بَعْدِهِ تُدْعَى أَمِيـــــــــرَ الْمُؤْمِنِيـنَا

وعندما علمت السـيدة عائشــة بمقتل عثمــان ومبايعــة الناس لعلىّ إلا نفرا يسيراً، قالت: قُتِلَ والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، وخرجت ومعها طلحة والزبير ومن تبـعهم واتجهوا إلى البصرة ليسـتنفروا الناس هناك، وكان على قد اتجه إلى الكوفة ونشبت الحرب بين الفريقين وأسفرت عن قتل طلحة والزبير، ويذكــر الأخباريون روايات كـثيرة حول خــروج السيدة عــائشة ومن تبــعها، ومــوقف علىّ منهــا. وكل ما يهــمنا هو الشعــر الذى نتج عن هذه الخلافات والذى عبر عن أحداث موقعة الجمل وما بعدها؛ لنبين التطور الذى شهده هذا الشــعر الحماسى، وكيف تحــول فى هذا العهد إلى شعــر سياسى يعبر عن الانقسام الذى شهدته الأمة الإسلامية.

---

(١) الاستيعاب جـ٣ ص١٠٥١، والنويرى جـ١٩ ص٥١٣.

فعندما خرج عليّ وأتباعه إلى البصرة قبل موقعة الجمل، وكانوا يريدون الإصلاح، نجد الرجز يساير هذه المسيرة، فيقول راجزهم[1]:

سِيرُوا أبابيلَ وَحُثُّوا السَّيْرَا إذْ عَزَمَ السَّيْرَ وَقُولُوا خَيْرَا
حَتَّى يُلاقُوا وَتُلاقُوا خَيْرَا تَغْزُو بِهَا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَا

وذكر الأخباريون أن عليا أرسل لطلحة والزبير ومن تبعهما فتى من أتباعه يدعى مسلم بن عبدالله العجلى يحمل مصحفاً يدعوهم إلى ما فيه فقطعوا أيديه وقتلوه، فارتجزت أم مسلم ترثيه بقولها[2]:

لاهُمَّ إنّ مُسْلِماً أتَاهُمُ مُسْتَسْلِماً لِلْمَوْتِ إذْ دَعَاهُمُ
إلَى كِتَابِ اللهِ لا يَخْشَاهُمُ فَرَمَّلُوهُ مِنْ دَمٍ إذْ جَاهُمُ
وَأُمُّهُمْ قَائِمَةٌ تَرَاهُمُ يَأْتَمِرونَ الغَيَّ لا تَنْهَاهُمُ

فما كان من عليّ إلا أن أمر أصحابه بالقتال، وحمى وطيس المعركة ثم نجد الحارث الضبى -وهو من أتباع البصرة- يحمس أصحابه على القتال ويطاليهم بالثأر لعثمان، ويطالب أصحاب على أن يردوا عليهم قتيلهم، فيرتجز بقوله[3]:

نَحْنُ بَنِى ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلْ نُنَازِلُ الْمَوْتَ إذَا الْمَوتُ نَزَلْ
والْمَوتُ أشْهَى عِنْدَنَا مِنَ العَسَلْ نَنْعَى ابنَ عَفَّانَ بأَطْرافِ الأسَلْ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بَجَلْ

---

(1) الطبرى جـ٤ ص٤٨٠.

(2) راجع المصدر نفسه جـ٤ ص٥١١ وما بعدها، ص٥٢٩.

(3) الطبرى جـ٤ ص٥١٨، المسعودى جـ٢ ص٣٧٥، النويرى جـ٢٠ ص٧٤. ولهذا الرجز شبيه في شرح ديوان الحماسة للمرزوقى، ونسبة للأعرج المعنى جـ١ ص٢٨٩ وما بعدها.

وفى هذه المعركة نسى الفريقان الأواصر الدينية والرابطة الإسلامية التى تجمع بينهما ولم يستشعرا غير العداء المتبادل. فنجد محمد بن طلحة بن عبيدالله -وكان يلقب بالسجاد -يأخذ بخطام جمل عائشة ويقاتل قتالاً شديداً وكان يتلو آيات من القرآن الكريم(حم لا ينصرون) فحمل عليه أحد أتباع علىّ، فأخذ محمد بن طلحة يذكره بآيات الله، ولكنه لم يحتفل به بل سخر منه؛ لأنه لم يتبع عليا، ثم قتله وأخذ يقول[1]:

وَأَشْعَثَ قَوَّامٍ بِآيَاتِ رَبِّهِ ... قَلِيلِ الأَذَى فِيما تَرَى العَيْنُ مُسْلِمِ
شككْتُ لَهُ بِالرُّمْحِ حَضْنَى قَمِيصِهِ ... فَخَرَّ قَتِيْلاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ
عَلَى غَيْرِ شَىءٍ غَيْرَ أَنْ لَيْس تَابِعاً ... عَلِيًّا وَمَنْ لا يَتْبَعِ الحَقَّ يَنْدَمِ
يُنَاشِدُنِى «حَم» وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ ... فَهَلاّ تَلا "حَم "قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وبعد انتهاء موقعة الجمل وانتصار علىّ وأتباعه نجده يتجه نحو الكوفة ويصرف بعض الولاة الذين ولاهم عثمان عن مواقعهم، وفى الوقت نفسه نجد أهل الشام يجتمعون مع معاوية على قتاله، ويبكون ويقولون: إن عليا قتله وآوى قتلته، وأرسل علىّ إلى معاوية يدعوه لأن يسلم له الأمر، ويدعو أهل الشام لطاعته، ولكنه أبى، فأخذ أصحاب علىّ يحرضونه على المسير إلى الشام وخاصة بعد انتصارهم فى موقعة الجمل ويرون أن بالشام حية صماء يجب أن تستأصل قبل أن تنفث سمها وتعضهم، فينشد الشنِّىُّ قوله[2]:

---

(١) المعارف لابن قتيبة ص٢٣١، الطبرى جـ٤ ص٢٥٦، والمسعودى جـ٢ ص٣٧٤، وطبقات ابن سعد جـ٥ ق١ ص٣٩، والنويرى جـ٢٠ ص٧٩ (ورواية الأبيات عندهم جميعا متقاربة واختلفوا فى نسبتها).

(٢) الأخبار الطوال ص١٥٢. وأعتقد أنه الأعور الشنى بشر بن منقذ عبدالقيس (راجع الشعر والشعراء جـ٢ ص٦٣٩)

قُلْ لِهَذَا الإمَامِ قَدْ خَبَتِ الْحَرْ ... بُ وَتَمَّتْ بِذَلِكَ النَّعْمَاءُ
وَفَرَغْنَا مِنْ حَرْبِ مَنْ نَكَثَ الْعَهْـ ... ـدَ، وَبِالشَّامِ حَيَّةٌ صَمَّاءُ
تَنْفُثُ السُّمَ، مَا لِمَنْ نَهَشَتْهُ ... فَارْمِهَا قَبْلَ أَنْ تَعَضَّ شِفَاءُ

وتحقق قول الشاعر، فسار معاوية بجيشه من الشام فسبق عليا إلى صفين.

والتقى الفريقان فى صفين وحمى القتال بينهما، وكان الشعر من بين وسائل القتال فى هذه الفترة فأخذ الشعراء يهددون ويتوعدون، وكل فريق يعتقد أنه على صواب. وزخرت هذه المرحلة من مراحل الصراع بأشعار حماسية ونقائض متبادلة وأشعار أخرى فى المديح والهجاء أسفرت عما كمن فى نفوسهم، فانتفضت المعانى الجاهلية من جديد وأطلت العصبيات القبلية والحزبية برأسها، ونسى المسلمون أنهم أمة واحدة.

فنرى معاوية بن صعصعة التميمى يحرِّض بنى سعد على الانضمام لصفوف علىّ، فيقول من قصيدة له[1]:

وَإِنَّ عَلِيًّا خَيْرُ حَافٍ وَنَاعِلٍ ... فَلا تَمْنَعُوهُ الْيَومَ جَهْدًا وَلا جِدًّا
يُحَارِبُ مَنْ لا يَخْرجُونَ بِحَرْبِهِ ... وَمَنْ لا يُسَاوِى دِينهُ كُلُّهُ رَدًّا
وَمَنْ نَزَلَتْ فِيهِ ثَلاثُونَ آيَةً ... تُسَمِّيهِ فِيهَا مُؤْمِنًا مُخْلِصاً فَرْدًا
سِوى مُوجِبَاتٍ جِئْنَ فِيه وَغَيْرِهَا ... بِهَا أَوْجَبَ اللهُ الولايَةَ وَالْودًّا

فلما بلغهم شعره ساروا بجموعهم حتى نزلوا الكوفة وانضموا إلى صفوف علىّ، وعندما تجهز جيش علىّ للقاء معاوية وأتباعه نجد أحد رجاله يرسل إلى معاوية بقوله[2]:

أَثْبُتْ مَعَاوِى قَدْ أَتَاكَ الحَافِلُ ... تِسْعُونَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مُقَاتِلُ
عَمَّا قَلِيلٍ يَضْمَحِلُّ الْبَاطِلُ

(١) وقعة صفين لنصر بن مزاحم، تحقيق عبدالسلام هارون طـ٢ مطبعة المدنى ص٢٧
(٢) المسعودى جـ٢ ص٣٨٤.

ونرى النجاشى الحارثى يخاطب معاوية وأتباعه فى قصيدة حماسية يظهر فيها تعصبهم للحزب العلوى، فيحذر معاوية من هذا الجيش الجرار من فرسان الحجاز والعراق يقودهم علىّ على خيول قوية فكأنهم أسود تحمى حماها، وديدنهم قتال الفرسان فى المعارك الضارية فهم الذين هزموا الزبير وطلحة وأتباعهما وحلفوا أن يتجهوا إلى الشام ليلقنوهم درسا فى الحروب التى تشيب من هولها الرءوس قبل أوان المشيب وتجهض الحوامل من هولها ثم يخاطب أتباع معاوية الذين كرهوا خلافة علىّ وخرجوا يطلبون دم عثمان ويعلن لهم أن أهل الحجاز والعراق بايعوا عليا ولم يرضوا له بديلا ففرقوا بين الغث والسمين أما أتباع معاوية فقد ضلوا وأرادوا أن يجعلوا ابن هند نظيرا لعلى أول من آمن بالرسول ـ ﷺ ـ وصنوه من العالمين وصهره الذى دافع عنه وعن الإسلام ولم يأل جهدا فى ذلك، فيقول[1]:

دَعَنْ يَامُعَاوِىَ مَا لَنْ يكُونَا   فَقَدْ حَقَّقَ اللهُ مَا تحْذَرُونَا

أَتَاكُمْ عَلِىٌّ بِأَهْلِ الحِجَازِ   وأَهْلِ العِرَاقِ فَمَا تَصْنَعُونَا

عَلَى كُلِّ جَرْدَاءَ خَيْفَانَةٍ   وأَشْعَثَ نَهْدٍ يَسُرُّ الْعُيُونَا

عَلَيْهَا فَوَارِسُ مَخْشِيَّةٌ   كَأُسْدِ العَرِينِ حَمَيْنَ العَرِينَا

يَرَوْنَ الطِّعَانَ خِلالَ العَجَاجِ   وَضَرْبَ الْفَوَارِسِ فى النَّقْعِ دِينَا

هُمُ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمْعَ الزُّبَيْرِ   وَطَلْحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّاكِثِينَا

وَقَالُوا يَمِيناً عَلَى حَلْفَةٍ   لَنُهْدِى إِلَى الشَّامِ حَرْبًا زَبُونَا

تُشِيبُ النَّوَاصِى قَبْلَ الْمَشِيبِ   وَتُلْقِى الحَوَامِلُ مِنْهَا الجَنِينَا

فَإِنْ تَكْرَهُوا المُلْكَ مُلْكَ العِرَاقِ   فَقَدْ رَضِىَ الْقَوْمُ مَا تَكْرَهُونَا

(١) وقعة صفين ص٥٨ وما بعدها.

فَقُــلْ للمُضَلَّــلِ مِــنْ وَائــلٍ	وَمَنْ جَعَلَ الْغَثَّ يَوْمـــاً سَمِيْنَا
جَعَــلْتُـــم عَلِيّا وأشْيَــاعَـــهُ	نَظِيـــرَ ابْن هِنْدٍ ألا تَسْتَحُونَا
إلَى أوَّلِ الـــنَّاسِ بَعْدَ الـــرسُولِ	وَصِنْوِ الـــرَّسُولِ منَ الـــعَالَمِيـــنَا
وَصِهْرِ الرَّسُـــولِ وَمَـــنْ مِثْـــلُهُ	إذا كَانَ يَوْمٌ يُشـــيبُ الـقُرونَا

وفى الطرف الآخر نجد أيمن بن خريم الأسدى يوجه أبياتا لعلىّ وأتباعه يصف فيها جيش معاوية وكثرة كتائبه التي يقودها جبريل ليحقق لهم النصر؛ لأنهم على دين عثمان، فمن يقف فى مواجهتهم إما أن يؤخذ أسيرا ويعيش عبدا لهم وإما أن يموت وتكون النار مثوى له يشرب فيها صديدها ومهلها، فيقول[1]:

إلَــى رَجَبٍ أَوْ غُـــرَّةِ الـشَّهْرِ بَعْدَهُ	تُصَبِّحُكُمْ حُمْـــرُ الْمَنَايَا وَسُـــودُهَا
ثَمَانِينَ ألـفـــاً دِينُ عُثْمَانَ دِينُهُمْ	كَتَائِبُ فِيـــهَـــا جِبْرَئـيلُ يَقُودُهَا
فَمَنْ عَاشَ عَبْداً عَاشَ فِيـــنَا وَمَنْ يَمُتْ	فَفِي الـــنَّارِ، يُسْقَى مُهْلُهَا وَصَدِيْدُهَا

فجيش معاوية كما وصفه الشاعر يدين بدين عثمان، فكأنه يرى أن هذا الدين هو دين الإسلام، أما الحزب الآخر فهو على الباطل؛ لأنه خرج عن هذا الدين وتبع دين علىّ الذى يخالف الإسلام بدليل أن قتلاهم مثواهم النار.

ولما رأى معاوية بن أبى سفيان انحياز سعد بن أبى وقاص إلى علىّ -كرم الله وجهه -أرسل إليه كتابا يدعوه أن يشارك طلحة والزبير وعائشة -رضى الله عنها- فيما سبقوا إليه من قبل، برفضهم البيعة لعلىّ وجعل الخلافة شورى بين المسلمين، ثم أرسل إليه بالقصيدة التى يقول فيها[2]:

---

(١) وقعة صفين ص٥٥٥ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ص٧٤ وما بعدها.

ألا يَا سَعْدُ قَدْ أظْهَرْتَ شَــــكّا ... وَشَكُّ الْمَرءِ فِى الأحْدَاثِ دَاءُ

عَلَى أىِّ الأمُورِ وَقَــــفْـتَ حَقّا ... يُرَى أوْ بَاطِلاً فَلَــــهُ دواءُ

وَقَدْ قَالَ الــــنَّبِىُّ وَحَدَّ حَدّا ... يَحِلُّ بِهِ مِنَ الـــنَّاسِ الـــدِّمَاءُ

ثلاَثٌ: قَاتِلٌ نَفْســــاً، وَزانٍ ... وَمُرتَدٌّ مَضَى فِيــــهِ الـقَضَاءُ

فَإنْ يَكُـــنِ الإمَـــامُ يَلُـــمُّ مِنْهَا ... بِوَاحِدَةٍ فَلَـــيْسَ لَهُ وَلاءُ

وإلا فَـــالَّتِى جِئْتُـــمْ حَـــرَامٌ ... وَقَـــاتِلُهُ وَخَـــاذِلُهُ سَـــوَاءُ

وَهَذَا حُكْمُهُ لا شَكَّ فِيـــــهِ ... كَمَا أنَّ الـــسَّمَاءَ هِى الــسَّمَاءُ

وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا أوْجَزْتَ فِيــــهِ ... وَفِى إكْثَارِكَ الـــدَّاءُ الـــعَيَاءُ

أبَا عَمــــرو دَعَوتُكَ فِى رِجَالٍ ... فَجَازَ عِرَاقِى الــدَّلْـو الــرِّشَاءُ

فَــأَنَّا إذْ أبَيْتَ فَلَـــيْسَ بَيـنى ... وَبَيْنَكَ حُرْمَةٌ، ذَهَبَ الـــرَّجَاءُ

سِوَى قَولِى، إذَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ ... عَلَى سَعْدٍ مِنَ اللهِ الـــعَفَاءُ

فأجابه سعد بن أبى وقاص بكتاب مثله يبين له كراهيته لما حدث من أمر المسلمين ويذكره بوصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى جعل الخلافة شورى بين المسلمين، وأن عليا كان من أهل الشورى وفيه من الفضائل ما تجعله أهلا لذلك، ثم يجيبه بأبيات تقع فى نفس بحر وروى أبيات معاوية، يذكره فيها بطمعه فى الحياة ويوضح له أن هذه الحياة فانية لا تدوم لأحد، وكل ما فيها غرور، فعلام الخلاف والطمع، ثم يقول إنه غير خاذل عليا، فإذا دعاه أجابه ليجتث جذور هذا الشر الطائر بين المسلمين، ثم يأمره بأن يدع أمر عثمان؛ لأن البلاء الذى حل بجماعة المسلمين ذهب بآرائهم الصائبة، فيقول مجيبا معاوية على قصيدته(1):

---

(1) وقعة صفين ص ٧٥ وما بعدها.

مَعَـــاوِىَ دَاؤُكَ الـــدَّاءُ الـعَيَـــاءُ فَلَيْـسَ لِمَـا تَجِـــئُ بِـــهِ دَوَاءُ
طَمَعْتَ الْيَوْمَ فِىَّ يَا بْنَ هِنْدٍ فَلا تَطْمَعْ فَقَدْ ذَهَبَ الــــرَّجَاءُ
عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَا أَصْبَحْتَ فِيــــهِ فَمَا يَكْفِيـــــكَ مِنْ مِثْلِى الإبَاءُ
فَمَا الـــــدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَىٍّ وَلا حَىٌّ لَهُ فِيــــهَا بَقَاءُ
وَكُلُّ سُرُورِهَـا فِـيــهَـا غُرُور وَكُلُّ مَتَاعِهَا فِيــــهَا هَبَاءُ
أَيَـــدْعُونِى أَبُو حَسَنٍ عَلِىٌّ فَلَـمْ أَرْدُدْ عَلَيْهِ مَـــا يَشَاءُ
وَقُلْتُ لَهُ أَعْطِنِى سَيْـــفًـــا بَصِيرًا تَمَــــرُّ بِهِ الـعَدَاوةُ والـوَلاءُ
فَإنَّ الــــشَّرَّ أَصْغَرُهُ كَبِيرٌ وَإنَّ الـــظَّهْرَ تُثْقِلُهُ الــدِّمَاءُ
اتَطْمَعُ فِى الَّذِى أَعْيَا عَلِيــــا عَلَى مَا قَدْ طَمِعْتَ بِهِ الْعَفَاءُ
لَيَوْمٌ مِنْهُ خَيْــــرٌ مِنْكَ حَيًا وَمَيْتًا، أَنــــتَ لِلْمَرْءِ الْفِدَاءُ
فَــأَمَّا أَمْرُ عُثْـــمَانٍ فَدَعْـــهُ فَإنَّ الــــرَّأْىَ أَذْهَبَهُ الْبَلاءُ

ونجد المعانى الدينية الخالصة تظهر بوضوح عند هذا المجاهد الذى أبلى بلاء حسنا فى هذه الواقعة وكان من أنصار علىّ -كرم الله وجهه- كما كان عمرو بن العاص من أنصار معاوية، وقد أغراه بمصر، فنرى شاعرنا يوجه أبياته لعمرو، فيقول إنك قد بعت دينك بمصر تبًا لك، وطالما بغيت الإسلام عوجا! ثم قاتل قتالا شديدا حتى قتل وهو يقول(1):

صَـدَقَ اللهُ وَهُـوَ لِـلصِّدْقِ أَهْـلٌ وَتَعَالَـى رَبِّـى وَكَـانَ جَـلِيْـلا
رَبِّ عَجِّـل شَـهَادةً لِـى بِقَتْـلٍ فِى الَّـذِى قَـدْ أَحَـبَّ قَتْـلاً جَمِـيلا
مُقْبِلاً غَيْـــرَ مُدْبِرٍ إنَّ لِـلْقَتْـــلِ عَلَى كُلِّ مَيْتَةٍ تَفْضِيـــلا

(1) وقعة صفين ص ٣٢٠ ونسبت الأبيات فيه لعمار بن ياسر وورد البيت الرابع فى اللسان منسوبا لعبدالله بن رواحة، جـ٣ ص٢٠٦٤.

إِنَّـهُـمْ عِـنْـدَ رَبِّـهِـمْ فِـي جِـنَـانٍ يَـشْرَبُـونَ الـرَّحِـيقَ وَالـسَّـلْـسَبِـيـلا
مِـنْ شَرَابِ الأَبْـرَارِ خَـالَطَـهُ المِـسْـ ـكُ، وكَـأسًا مِـزَاجُهَـا زَنْـجَـبِـيْـلا

فتأثر الشاعر فى هذه الأبيات بآيات الذكر الحكيم فتمثل قوله تعالى[1]:
﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، وقوله تعالى[2]: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴾.

وكما رأينا انحيازا من المسلمين لكل فريق من الفريقين، وكذلك الشعراء، نجد شعراء آخرين تراجعوا وترددوا فى موقفهم تجاه هذه الفرقة التى لا تعم على المسلمين إلا بالبلاء فنجد أيمن بن خريم الأسدى بعد انحيازه لمعاوية - كما مر بنا - يتراجع عن موقفه ويغريه معاوية بفلسطين على أن يبايعه ويشايعه على قتال علىّ، ولكنه رفض بعد ما رأى أن قتال المسلم لأخيه المسلم إثم كبير سيعاقبه الله عليه، فنراه يبعث إلى معاوية مستعيذا بالله من هذا السفه والطيش بقوله[4]:

وَلَـسْـتُ مُـقَـاتِلاً رَجُـلاً يُـصَـلِّـي عَـلَى سُـلْطَـانِ آخَـرَ مِـنْ قُرَيْـشِ
لَـهُ سُـلْـطَـانُـهُ وَعَـلَـيَّ إِثْـمِـي مَـعَـاذَ اللهِ مِـنْ سَـفَـهٍ وَطَـيْـشِ
أَأَقْـتُـلُ مُـسْـلِـماً فِـى غَـيْـرِ جُـرْمٍ فَلَـيْسَ بِـنَـافِعِـى مَا عِشْـتُ عَيْـشِى

(١) سورة المطففين، الآيات ٢٢: ٢٦.
(٢) سورة الإنسان ،آية ٥.
(٣) سورة الإنسان ،الآيتان ١٧، ١٨.
(٤) وقعة صفين ص٥٠٤، وطبقات ابن سعد جـ٦ ص٢٥، والأخبار الطوال ص١٩٤.

وكذلك نجـد عليّا ـ كرم الله وجهـه ـ يدعو رجلا من الأنصـار إلى عونه ونصرته فى قتال خصومه، فـيرفض أن يشترك في هذا الصراع الذي يحولهم أعداء بعد أن كانوا أنصارا للنبى ـ ﷺ ـ ويتمنى أن يكون لـلجماعة الإسلامية قائد يحـميهـا ويخاف عليـها من الهلاك ويعـمل بكتاب الله، كـما يرى أن الطرفين المتصارعين من قريش وقد عرفت قريش منذ بعث النبى ـ ﷺ ـ بهذه الفرقة فمنهم من غدر بنبيهم ومنهم من نصره ولذلك فهو لا ينحاز إلى أحده بل ينحـاز إلى جمـاعة المسلمين الـذين تبعـوا النبى ـ ﷺ ـ واهتدوا بهـديه وعملوا بسنته، فيقول[1]:

مَالى أُقَاتِلُ عَنْ قَوْمٍ إذَا قَدَرُوا ... عُدْنَا عَدُوًّا وَكُنَّا قَبْلُ أَنْصَارَا
وَيْلٌ لَهَا أُمَّةٌ لَوْ أنَّ قَائِدَهَا ... يَتْلُو الْكِتَابَ وَيَخْشَى الـنَّارَ وَالْعَارَا
أمَّا قُرَيْـشُ فَلَمْ نَسْمَعْ بِمِثْلِهِمُ ... غَدْرًا وَأَعْجَبَ فِى الإِسْلَامِ آثَارَا
إلا تَكُن عُصْبَةً خَالُوا نَبِيَّهُمُ ... بِـالْعُرفِ عُرفًا وَبالإنْكَارِ إنْكَارَا

ونجد النابغة الجـعدى ـ وهو من أقدم المخضرمين وقـد عاش حتى النصف الثانى من القـرن الأول الهجرى ـ يسجل فى شـعره وقعة صـفين والأحداث التى مرت بهـا الجماعة الإسلامـية، فنراه فى قصيـدة له جاهلية يضيـف إليها قسما آخر فى الإسلام ليصور حـال الأمة الإسلامية بعد هذا الصراع الدموى الذى استمر منذ مقتل ابن عفان حتى استوى معاوية على الملك، فيقول[2]:

سَـأَلَتْنِى جَـارَتِـى عَـنْ أُمَّتِـى ... وَإذَا مَاعَىَّ ذُو الـلُّبِّ سَأَلْ
سَأَلَتْـنِى عَنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا ... شَرِبَ الـدَّهْرُ عَلَيْهِم وأكَلْ
بَلَغُوا الْمُلْكَ فَلَـمَّا بَلَغُوا ... بِخَسَارٍ وَانْتَهَـى ذَاكَ الأَجَلْ
وَضَعَ الـدَّهْرُ عَلَيْـهِم بَرْكَهُ ... فَأُبِيدُوا لَـمْ يُغَـادَرْ غَيْـرُ فَـلْ

(١) رسائل الجاحظ جـ٤ ص٢٩٤ من (كتاب فى الجوابات في الإمامة).
(٢) ديوانه ص٩٢ وما بعدها.

فَأَرَانِى طَــــرِبًا فِــــى إِثْرِهِمْ ... طَرَبَ الْوَالِهِ أَوْ كَــالْمُخْــتَبَلْ
أَنْشُدُ الــنَّاسَ وَلَا أَنْشُدُهُمْ ... إِنَّمَا يَنْشُدُ مَــنْ كَــانَ أَضَلْ
لَيْتَ شِعْرِى إِذْ مَضَى مَا قَدْ مَضَى ... وَتَجَلَّــىَّ الأَمْرُ للهِ الأَجَلْ
مَــا يُظَنَّنَّ بِنَــاسٍ قَتَلُــوا ... أَهْــلَ صِفِّينَ وَأَصْحَــابَ الجَمَــلْ
وَابْنَ عَفَّــانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ... وَلُحُومَ الــبُدنِ لَمَّا تُنْتَقَلْ
أَيَنَامُونَ إِذَا مَا ظَلَــمُوا ... أَمْ يَبِــيتُونَ بِخَوفٍ وَوَجَلْ
وَلَهُمْ سِيــمَــا إِذْ تُبْصِرُهُمْ ... بَيَّنَتْ رِيبَةَ مَــنْ كَــانَ سَأَلْ

ومما لا شك فيـه أن هذه الأحداث التى مرت بهـا الجماعـة الإسلاميـة قد أذكت جذوة الشعـر العربى وأشعلتهـا وتحول فيهـا الشعر من شعـر حماسى يفتخر فيه الشعراء بمآثرهم الإسلامية ووحدتهم الدينية وجهادهم فى سبيل الله ونصـرة رسـولهم - ﷺ - وانتـصارهم علـى أعدائهم المـشركين إلى شـعـر سياسي، فانقـسم الشعراء بين زعيمين وأخذوا يصـورون فى شعرهم تصويرا مباشرا أو غير مباشر نزعتين سياسـيتين تتصارعان فى سبيل الحكومة الإسلامية لمن تكون؟ فـغـابت المعـانى الدينيـة فى ظل هذا الصـراع الذى نفث الروح الجاهلية من جـديد بعد أن أخمد الإسلام ثائرتها فى عـهد الرسول - ﷺ - وخلفائه الأولين.

* * *

سابعاً: شعر الحنين وتصوير البيئات الجديدة.

من الفنون الشعرية الجديدة التى طـرقها الشعراء المخضرمون فى فترة صدر الإسلام والـفتوح الإسلامـية: شعر الحـنين إلى الأبـناء والأوطان ووصفـهم للمشاهد الجديدة فى المناطق المفتـوحة. وقد أثر الإسلام بطريق مباشر أو غير مباشـر فى هذا الغـرض الشعرى؛ لأن شعـر الحنين مرتـبط بالفـراق وهجر الديار، والنـزوح إلى مناطق نائية، عـندما أجاب المسلمون داعـى الجهاد فى سبيــل الله فخرجوا مـسرعين إلى بقـاع الأرض المختلفة تـاركين من خلـفهم أهليهـم وذويهم، يغيبون عـنهم فترات طويـلة قد تبلغ عامـا أو بعض عام، فَيَحِنُّ إليـهم أهلهم ويتشوقون إلـى رؤيتهم، وتلهب نار الفـراق عواطفهم، فتجود قرائحهم بأشعار تظهر فيها لواعج الحنين وأحاسيس الشوق.

وقد يحن المجـاهد الذى خرج فى سبـيل الله إلى أهله وذويه وأيـام شبابه التى قضاها بينـهم، فيعبر بعاطفة رقيقة شجية عـن هذه المشاعر والأحاسيس الصادقة التى طالما تجذبه إليهم.

ويغلب على شعر الحنين فى مجموعه حزن رقيق ولوعة رقيقة[1]، وهو فى مجموعه أيضا يعبر عن نزعة إنسانـية؛ لأنه يصدر عن عاطفة صادقة، فأحيانا يناجى الشاعـر نفسه أو يشكو حاله لولـى الأمر، وقد ينفعل بمظاهر الـطبيعة التى تهيج مشاعره وآلامه فى أحيان أخرى.

وإلى جانب هذه السمات الإنسانية لا تغـيب الظواهر الإسلامية، فالشاعر الذى يحـن إلى المجاهدين لا يـغفل أنهم خـرجوا فى سبيــل الله، والمجاهد الذى يحن إلى وطنـه يؤمن برسالته التى من أجلهـا فارق أهله وذويه، وهى

(١) شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام، النعمان عبدالمتعال القاضى ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥م ص١٤١.

نشر هذا الدين الجـديد والجهاد فى سـبيل الله، وهذه المعانى وإن كانت غـير واضحة بصورة مـباشرة فى شعرهم إلا أنهم لم يغفلوها تمامـا بل عبروا عنها بصور مختلفة.

فنرى هذه المرأة التى خـرج زوجها للجـهاد فى سـبيل الله زمن عـمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ تناجى نفسـها بشعر صادق تصف فـيه طول ليلها بعد أن تركها زوجها دون أنيس أو رفيق يلاعـبها وتلاعبه، فهذه الوحدة التى تشعر بها نغصت عليها مضـجعها وأخذت الوساوس تدور بذهنها وكادت أن تخطىء لولا حيـاؤها وخوفها من الله، فهى امـرأة مؤمنة تؤمن بالله الذى لا يغفل ولا ينام فعرفت حق ربها، فلا تأتى بالمعصية واستطاعت أن تملك نفسها وتصبر لتحفظ غيبة زوجها، فقالت[1]:

تَطَاوَلَ هَذَا اللَّيْلُ تَسْرِى كَوَاكِبُهْ ... وَأَرَّقَنِى أَلا ضَجِيعَ أُلاعِبُهْ

فَوَاللهِ لَوْلا اللهُ تُخْشَى عَوَاقِبُه ... لَزُحْزِحَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهْ

وَلَكِنَّنِى أَخْشَى رَقِيبًا مُوَكَّلا ... بِأَنْفُسِنَا لا يَفْتُرُ الدَّهْرَ كَاتِبُهْ

مَخَافَةَ رَبِّى وَالْحَيَاءُ يَصُدُّنِى ... وَأُكْرِمُ بَعْلِى أَنْ تَنَالَ مَرَاتِبُهْ

وكان لهـذا الشعر أثر كـبير فى نفس عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- حينمـا سمعـها وهو يطوف ليـلاً بالمدينة فقال لـها: ما لك؟ قـالت أغزيت زوجى منذ أشهـر وقد اشتـقت إليه، قـال: أردت سوءا؟ قالت: مـعاذ الله، قال: فـاملكى عليك نفسك، فإنما هو البـريد إليه، فبـعث إليه ثم دخل على حفصة ابنته، فقال: إنى أسألك عن أمـر قد أهمنى فأفرجيه عنى؟ كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فخـفضت رأسها واستحيت قال: فـإن الله لا يستحيى من

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥.

الحق، فأشارت بيدهـا ثلاثة أشهر وإلا فأربعة أشهر، فكـتب عمر ألا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر[١]:

فهذا الشعر لو لم يعبر عن عاطفة صادقـة ونزعة إنسانية سامية ومعان دينية خالصة ما غير عمر- رضى الله عنه- سياسته التى اتبعها مع الجند.

وكذلك نجد دعوة الإسلام إلى الجهاد تؤثر فى نفوس المسلمين، فخرجوا يلبـون نداء الله لا يحفلون بما تركـوا وراءهم من آباء ضـعاف قـد علت بهم السن وأنهكهـم المشيـب فنرى كـلاب بن أمـية بـن الأسكر يتـرك أباه وأهله ويهاجـر إلى المدينة فى خلافة عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- فأقـام بها مدة، ثم سأل طلحة والزبير عن أفضل الأعمال، فأخبراه أنه الجهاد فى سبيل الله فسأل عـمر الجهاد، فأغزاه فى جـيش، وطالت غيبته، وكان أبوه قـد كبر وضعف، وعيل صبـره بعد طول غيبته، فأخذ ينتـحب ويناشده العودة لهذين الأبوين اللذين علت بهما السنون، ويبين له أن مصاحبة والديه الضعاف أفضل فى الأجر من الجهاد، فيقول[٢]:

لِمَنْ شَيْخَانِ قَدْ نَشَدَا كِلابًا	كِتَابَ اللهِ إِنْ قَبِلَ الْكِتَابَا
أُنَادِيهِ فَيُعْرِضُ فِى إِبَاءٍ	فَلا وَأَبِى كِلابٍ مَا أَصَابَا
إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَةُ بَطْـــــنِ وَادٍ	إِلَــى بَيْضَـــاتِـــهَا دَعَـــوا كِـــلابًا
أَتَـــــاهُ مُهَـــاجِـــرَانِ تَكَنَّـــفَــــاهُ	فَفَـــارَقَ شَيْخَـــهُ خَطِئًا وَخَـــابَا

. . .

تَرَكْتَ أَبَاكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ	وَأُمَّـــكَ مَـــا تُسِيغُ لَهَـــا شَـــرَابَا
فَإِنَّكَ وَالْتِمَاسَ الأَجْرِ بَعْدِى	كَبَـــاغِـــى الْمَـــاءِ يَتَّبِعُ السَّـــرَابَا

(١) تاريخ الخلفاء ص٢٢٨ وما بعدها.

(٣) الأغانى جـ٢١ ص١٠ وما بعدهـا. وراجع أيضاً طبقات ابن سلام جـ١ ص١٩١، والإصابة جـ١ ص١١٥، وذيل الأمالى ص١٠٨ وما بعدها.

فلم يحفل به كلاب ولم يـرجع، واعتقد أبوه أن ما فـعله ابنه هو العقوق بعينه فذهب إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عـنه- يستعطفه أن يرد عليه ابنه لشدة حـاجته إليـه، ويعلن أنه سيشكوه إلى الله ان لـم يرد كلابا إلى أبويه، فقال[1]:

أَعَاذِلُ قَدْ عَزَلْتَ بِغَيْرِ قَدْرٍ ... ولا تَدْرِيـــــنَ عَاذِلَ مَا أُلاقِى
فَإِمَّـــا كُنْت عَـــاذِلَتِى فَـــرُدِّى ... كلابـــــاً إِذْ تَوَجَّه لِلْعِراقِ
ولَمْ أَقْضِ الـــــلُّبَانَةَ مِنْ كِلابٍ ... غَدَاةَ غَدٍ وأُذِّنَ بالـــــفِرَاقِ
فَتَى الْفِتْيَـــانِ فـــى عُسْـــرٍ ويُسْـــرٍ ... شَدِيـــدُ الـــرُّكْنِ فـــى يَوْمِ الـــتَّلاقِى
فَلا واللهِ مَـــا بَـــالَيْتَ وَجْــــدِى ... وَلا شَفَقِى عَلَيْكَ وَلا اشْتِيَاقِى
وَإِبْقَـــائِـــى عَلَيْـــكَ إذَا شَـــتَـــوْنَا ... وَضَمَّكَ تَحْتَ نَحْرِى وَاعْتِنَاقِى
فَلَوْ فَلَـــقَ الـــفُـــؤادَ شَدِيـــدُ وَجْـــدٍ ... لَهَمَّ سَوَادُ قَلْبِى بِانْفِلاقِ
سَـــأَسْـــتَعْدِى عَـــلـــى الـــفَـــارُوقِ رَبّاً ... لَهُ دُفِعَ الْحَجِيـــجُ إلـــى بُسَاقِ
وأَدْعُـــو اللهَ مُجْتَهِـــداً عَلَيْهِ ... بِبَطْـــنِ الأخْشَبَيْنِ إلـــى دُفَاقِ
إِنِ الْفَارُوقُ لَمْ يُرْدِدْ كِلابـــاً ... إلـــى شَيْخَيْنِ هَامُهُمَا زَوَاقِ

فعندما سمع عمـر -رضى الله عنه- هذا الشعر بكى بكاء شديداً وأمر برد كلاب إلى أبيه، فلما عاد قال له: الزم أبويك فجاهد فيهما ما بقيا[2].

وكذلك نجد شيبان بن المخبل السعـدى يتلهف إلى الجهاد فيخرج مع سعد ابن أبى وقاص إلى غزو فارس، ويترك أباه يتحسر على وحدته، وينتحب هلعاً

---

(١) الأغانى جـ٢١ ص١١، وراجع أيضاً الإصابة جـ١ ص١١٧، والعمدة جـ١ ص٥٨.
(٢) الأغانى جـ٢١ ص١٢.

على فراق ابنه الذى عقه وتركه عاجزا وقد حنت ظهره الخطوب المتتابعة بعد أن علت به السن وأصبح يرى الشخص شخصين، ويتذكر ذلك الغبوق الذى كان يقدمه له، فيحن إليه ويزداد وجداً، ويقول[1]:

أَيَمْلِكُنِى شَيْبَانُ فِى كُلِّ لَيْلَةٍ ... لِقَلْبِى مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ وَجِيبُ
وَتُخْبِرُنِى شَيْبَانُ أَنْ لَنْ يَعُقَّنِى ... يَعُقُّ إِذَا فَارَقْتَنِى وَتَحُوبُ
فَإِنْ يَكُ غُصْنِى أَصْبَحَ الْيَوْمَ بَالِياً ... وَغُصْنُكَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِ رَطِيبُ
فَإِنِّى حَنَتْ ظَهْرِى خطُوبٌ تَتَابَعَتْ ... فَمَشْيِى ضَعِيفٌ فِى الرِّجَالِ دَبِيبُ
إِذَا قَالَ صَحْبِى يَا رَبِيعُ أَلا تَرَى ... أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَهُوَ قَرِيبُ
أَشَيْبَانُ مَا يُدْرِيكَ أَنْ كُلُّ لَيْلَةٍ ... غَبَقْتُك فِيهَا وَالْغَبُوقُ حَبِيبُ

وكذلك نجد أبا خراش الهذلى يقتله شوقه وحنينه إلى ابنه خراش الذى خرج مع جيوش المسلمين إلى أرض الشام وتركه وحيداً دون أنيس أو رفيق فيعلن له حاجته إليه ويستعطفه أن يعود إليه مضمناً حنينه تلك المعانى الإسلامية حيث يبين له أن ثواب المهاجر بعد الهجرة قليل، وإذا أراد أن ينال البر فعليه أن يرافق أباه، فيقول[2]:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّى خِرَاشًا ... وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالنَّبَاءِ الْبَعِيدُ
وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَن لا ... تُجَهِّزُ بِالْحِذَاءِ وَلا تُزَيِّدُ

---

(١) راجع الشعر والشعراء جـ١ ص٤٢٠، والإصابة جـ٣ ص٣٩٠، والأغانى بتحقيق إبراهيم الإبيارى طبعة دار الشعب جـ١٣ ص٤٧٠٢ (ورواية الأبيات مضطربة فى جميع المصادر).
(٢) ديوان الهذليين طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م جـ٢ ص١٧٠ وما بعدها.

.....

ألا فاعلَمْ خراشُ بأنَّ خيْرَ الـ ... مُهَاجِرِ بَعْدَ هجرَته زَهيْدُ
فَإنَّكَ وابْتغاءَ البرِّ بَعْدى ... كَمَخْضُوبِ اللُّبَانِ وَلاَ يَصيْدُ

فطغت دعوة الجهاد-كما رأينا- على كل النزعات الإنسانية، فجعلت المجاهدين لا يعبأون بما خلفوا وراءهم من نساء بائسات أو آباء هدهم الشيب والفراق؛ لأنهم آثروا الآخرة على الدنيا الفانية، واستثار فراقهم عاطفة أهليهم وذويهم، فتدفقت على ألسنتهم هذه المشاعر الإنسانية الصادقة، كما تدفقت على ألسنتهم حينما اشتاقوا إلى أهليهم ومواطنهم، فعبروا عن شوقهم وحنينهم إلى بلادهم وأهليهم فى شعر صادق مؤثر يصورون فيه مشاعر الألم والمواجع التى تملأ جوانبهم، ويشكون فيه غربتهم وحنينهم، ويخلطون مشاعرهم-فى الغالب- بمظاهر الطبيعة المختلفة.

فنجد أحد المجاهدين يضيق بغربته ويشتاق إلى وطنه ومناخه الطيب عندما يرى البرق يكشف الظلمات فيتذكر بلده نجداً، ويوازن بين هذا الليل الذى يطل فى الغربة وليله القصير فى وطنه حيث كانت تهب فيه رياح نجد الباردة، فيقول[1]:

ألا أيُّها البَرْقُ الَّذى بَاتَ يُرْتَقَى ... ويَجْلُو دُجَى الظُّلْمَا ذَكَّرْتَنى نَجْدَا
ألَمْ تَرَ أنَّ اللَّيْلَ يَقْصرُ طُولُهُ ... بِنَجْدٍ وتَزْدَادُ الرِّيَاحُ بِهِ بَرْدَا؟

وهذا أعرابى آخر من المجاهدين يتشوق إلى وطنه فيرى حمامة وحيدة قد تركها إلفها فاعتقد أنها غريبة مثله فى مرو الشاهجان، فأخذ يطارحها البكاء، فقال[2]:

أَقَمْرِيَّةَ الْوَادِى الَّتِى خَانَ إلْفُهَا ... مِنَ الدَّهْرِ أَحْدَاثٌ أَتَتْ وَخُطُوبُ
تَعَالِى أُطَارِحْكِ الْبُكَاءَ فَإنَّنَا ... كِلانَا بِمَرْوِ الشَّاهِجَانِ غَرِيْبُ

(١) معجم البلدان جـ٥ ص٢٦٤.
(٢) المصدر نفسه جـ٥ ص١١٤. والقمرية: ضرب من الحمام (اللسان) جـ٥ ص٣٧٣٧.

وكذلك نـرى بشر بن أبـى ربيعة بصـحراء العذيـب، يغزو مع المجـاهدين المسلمـين فى جيش سعد بن أبـى وقاص، فيتذكر محـبوبته وقدألم به طـيفها عندما غابـت إحدى النجوم فى السماء، فـيبكى لشدة فراقه، وقد حـالت بينه وبينها هذه الصحراء الشاسعة فيتخـيل أن هذه النجمة التى ظهرت فى السماء غريبة مثله، فجاءت لتزوره فى وحدته التى لا يملك فيها سوى جواده وسيفه، فيقول(1):

أَلَـمَّ خَـيَـالٌ مِـنْ أُمَـيْـمَـةَ مُـوْهِـنـاً ... وَقَـدْ جَعَـلَتْ إِحْـدَى الـنُّجُـومِ تَغُـورُ

وَنَـحْنُ بِـصَـحراء الْـعُـذَيْـبِ وَدُونَهَـا ... حِـجَـازِيَّـةٌ إِنَّ الْـمَـحَـلَّ شَـطِـيـرُ

فَـزَارَتْ غَـرِيْـبَـاً نَـازِحـاً، جُـلُّ مَـالِـهِ ... جَـوَادٌ، وَمَـفْـتُـوقُ الْـغِـرَارِ طَـرِيـرُ

ونرى أبا المنهال بقـيلة الأكبر الأشجعى يشتاق إلى أهـله ونسائه، وقد طال حصاره فـى إحدى الغزوات، فلا يمـلك إلا أن يناشد أمـير المؤمنين عـمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يوصيه بنسائه، فيقول (2):

أَلا أَبْـلِـغْ أَبَـا حَـفْـصٍ رَسُـولاً ... فِـدًى لَكَ مِـنْ أَخِـى ثِقَـةٍ إِزَارِى

قَـلائِـصَـنَـا هَـدَاكَ اللهُ إِنَّـا ... شُـغِلْـنَـا عَنْـكُـمُ زَمَـنَ الْـحِصَـارِ

وهذا أعرابى آخر يستبد به الحنين والشوق فيتجه بنظره ناحية نجد، فلا يرى شيئاً لأن نظره يقـصر عن إدراكه، ولكنه يكرر هذه النظرات لـشدة حنينه إلى وطنه الخصب الذى تخيله كأنه روضة غنـاء، فيحن إلى طيب هوائها وخيامها التى أصبح الطـرف قاصراً عنها، وبرغم يقينه بـأن نظراته لا تجدى إلا أنه لا يزال ينظر عله يطفئ لهيب شوقه الذى جعل عبراته تنحدر كل يوم، فقلبه لا يستريح فهو إما غاز فى المعارك وإما ناء يتذكر، فيقول(3):

---

(1) الأخبار الطوال ص١٢٤.

(2) رسائل الثعالبى لأبى منصـور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسـابورى تقديم على الخاقانى نشر دار صعب بيروت (د/ت) ص٣ من كتاب الكناية والتعريض واللسان جـ١ ص٧١.

(3) معجم البلدان جـ٥ ص٢٦٢ وما بعدها.

أُكَرِّرَ طَرْفِى نَحْوَ نَجْدٍ وإنَّنِى إليه، وَإنْ لَمْ يُدْرِكَ الطَّرْفُ أَنْظُرُ

حَنِيناً إلى أرْضٍ كَأَنَّ تُرابَهَا إذَا مُطِرَتْ عُودٌ وَمِسْكٌ وَعَنْبَرُ

بِلادٌ كَأَنَّ الأُقْحُوانَ بِرَوْضَةٍ وَنَوْرُ الأَقَاحِى وَشْىُ بُرْدٍ مُحَبَّرُ

أَحِنُّ إلَى أَرْضِ الحِجَازِ وَحَاجَتِى خِيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ

وَمَا نَظَرِى مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ بِنَافِعِى أَجَلْ لا، وَلَكِنِّى إلى ذَاكَ أَنْظُرُ

أَفِى كُلِّ يَومٍ نَظْرَةٌ ثُمَّ عَبْرَةٌ لِعَيْنَيكَ مَجْرَى مَائِهَا يَتَحَدَّرُ

متَى يَسْتَرِيحُ الْقَلْبُ إمَّا مُجَاوِرٌ بِحَرْبٍ وإمّا نَازِحٌ يَتَذَكَّرُ

وإذا انتقلنا إلى المناطق النائية التى فتحها المجاهدون المسلمون نجد قرائح الشعراء المخضرمين تفيض فى وصف ما وقعت عليه أعينهم من مشاهد جديدة لا عهد لهم بها من قبل، فأخذوا يصورون فى شعرهم انطباعاتهم بهذه المشاهد وانعكاساتها على أنفسهم، فصوروا ما رأوه من مشاهد ومعالم تصويراً دقيقاً رائعا، أضافوا به إلى ما ألفته أذواقهم وما صورته قرائحهم فى جزيرتهم معانى وصوراً جديدة.

فقد حظيت طبيعة البلدان المفتوحة التى تختلف عن طبيعة بلاد العرب باهتمام الشعراء، فصوروها، وعبروا عن إعجابهم بها فى شعرهم. فنجد أبا نجيد الأسود بن قطبة أحد المجاهدين فى الفتوح يتغنى فى شعره بريف الرى، وقد رضى المقام بهذه البلدة لما فيها من متع العيش وجمال الطبيعة الساحرة، فيقول[1]:

رَضَيْنَا بِرِيفِ الرَّىِّ والرَّىُّ بَلْدَةٌ لَهَا زِينَةٌ فِى عَيْشِهَا الْمُتَوَاتِرِ

لَهَا نَشَرٌ فِى كلِّ آخِرِ لَيْلَةٍ تُذَكِّرُ أَعْرَاسَ الْمُلُوكِ الأَكَابِرِ

(١) معجم البلدان جـ٣ ص١١٨.

وكذلك نجد سواد بن قطبة يتغنى بجمال الطبيعة فى جرجان حين دخلها مع سويد بن مقرن سنة ثمانى عشرة، فيقول[1]:

أَلا أَبْلِغْ أُسَيْداً، إِنْ عَرَضْتَ، بِأَنَّنَا بِجُرْجَانَ فِى خُضْرِ الرِّيَاضِ النَّوَاضِرِ

وإلى جانب إعجاب الشعراء بطبيعة هذه البلاد المفتوحة وتصويرهم لها نجدهم أحياناً يضيقون منها ومن طبيعة جوها الذى يختلف عن جو بلادهم، فلن تعدم الحسناء ذاماً. فنجد أحد المجاهدين المسلمين يرسم صورة رائعة يصور فيها شدة البرودة فى مرو وقد تتابع الثلج على الأرض حتى تنكرت، ويعجب من أهلها الذين يقضون الشتاء فيها، ويرتدون ملابس يدسون فيها أيديهم من شدة البرد وكأنهم مقرورون، ثم يشبه هذا الرجل الذى يضع يديه فى جيبه طوال الشتاء بالأسير الذى لا يستطيع فك قيوده، فيقول[2]:

وَأَرَى بِمَرْوِ الشَّاهَجَانَ تَنَكَّرَتْ أَرْضٌ تَتَابَعَ ثَلْجُهَا الْمَذْرُورُ
إِذْ لا تَرى ذا بِزَّةٍ مَشْهُورَةٍ إِلا تَخَالُ بِأَنَّهُ مَقْرُورُ
كِلْتَا يَدَيْهِ لا تُزايِلُ ثَوْبَهُ كُلَّ الشِّتَاءِ كَأَنَّهُ مَأْسُورُ

وهذا أعرابى من المجاهدين يصرخ بهذه البلاد النائية المقسمة إلى بنود، فينعى حظه الذى سيره إلى هذه البلاد، وجعله يترك نجداً مسقط رأسه، فيقول[3]:

تَبَدَّلْتُ مِنْ نَجْدٍ ومِمَّنْ يَحِلُّهُ مَحَلَةَ جُنْدٍ مَا الأعَارِيبُ والْجُنْدُ؟
وَأَصْبَحْتُ فِى أَرْضِ الْبُنُودِ وقَدْ أَرَى زَمَاناً بِأَرْضٍ لا يُقَالُ لَهَا بَنْدُ

---

(١) معجم البلدان جـ٢ ص ١٢١ وسماه (سويد بن قطبة) وراجع أسد الغابة جـ٢ ص٤٨٥.
(٢) المصدر نفسه جـ٥ ص١١٥.
(٣) المصدر نفسه جـ٥ ص٢٦٤ (والبنود بأرض الروم كالأجناد بالشام والكور بالعراق).

ولعل أهم المشاهد التى بهرت العرب فى هذه المناطق المفتوحة تلك القصور والأبنية الضخمة والفيول التى شاهدوها لأول مرة فى حروبهم مع الفرس، ورأوا منها ما يكرهون فى حروبهم، فنجد الشعر يصور ما حدث لخيول المسلمين من اضطراب بسبب رؤيتها لهذه الفيلة، فنرى أبا محجن الثقفى يصور شجاعته فى هذه المعارك، فهو لم يبرح ساحة القتال رغم هذه الإصابات الكثيرة التى أصابته، ورغم هذا الجزع الذى أصاب فرسه عندما رأت الفيل وقد أصاب نحرها وخاصرتها، يقول[1]:

وَمَا رِمْتُ حَتَّى خَرَّقُوا بِسِلاحِهِمْ ... إِهَابِى وَجَادَتْ بِالدِّمَاءِ الأَبَاجِلُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ مُهْرَتِى مُزْوَئِرَّةً ... لَدَى الْفِيلِ يُدْمَى نَحْرُهَا وَالشَّوَاكِلُ

ويفتخر ربيعة بن مقروم الضبى برؤيته لآثار ملوك فارس ومشاهدته للمعارك التى اشتركت فيها الفيول، فيقول[2]:

وَدَخَلْتُ أَبْنِيَةَ الْمُلُوكِ عَلَيْهِمُ ... وَلَشَرُّ قَوْلِ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَفْعَلِ
وَشَهِدْتُ مَعْرَكَةَ الْفِيُولِ وَحولَهَا ... أَبْنَاءُ فَارِسَ بَيْضُهَا كَالأَعْبَلِ
مُتَسَرْبِلِى حَلَقِ الحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ ... جُرْبٌ مُقَارِفَةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِلِ

ويشبه القعقاع بن عمرو الفيلة ذوات الأجسام الضخمة بالبيوت حينما فعلت فعلتها بجيوش المسلمين فى القادسية، ولولا شجاعته التى مكنته من قطع مشافرها وفقئه لأعينها حتى ولت لانهزم المسلمون، فيقول[3]:

فَإِنْ كُنْتُ قَاتَلْتُ العَدُوَّ فَلَلْتُهُ ... فَإِنِّى لأُلْقَى فِى الحُرُوبِ الدَّوَاهِيَا
فُيولاً أَرَاهَا كَالْبُيُوتِ مُغِيرَةٍ ... أُسَمِّلُ أَعْيَاناً لَهَا وَمَآقِيَا

(١) الأغانى جـ١٩ ص٩ وما بعدها. (٢) الحيوان جـ٧ ص ٢٦٣. (٣) الطبرى جـ٣ ص٥٥٧.

وكما ضاق الشعراء المخضرمون بالفيلة وفعلها بالمسلمين ضاقوا أيضاً بهذه الأوبئة التى تـعرضوا لها فى هذه البـلاد، فنرى المهاجر بن خالـد بن الوليد يصور المأسـاة التى لحقت بالمـسلمين بسبـب طاعون عمواس، حين اجـتمع عليهم الطعن والطاعون آنذاك، ففقـد من قومه بنى خزوم، ومن بنى عمومته أربعين فارسا، وتظـهر فى شعره هذه الروح الإيمانية بـقضاء الله وقدره الذى قدر لهم ذلك، فيقول[1]:

أَفْـنَـى بَـنِـى رَيـطَـةَ فُـرْسَـانُـهُـمْ ... عِـشْـرُونَ لَمْ يُـعْـصَـبْ لَهُـمْ شَـارِبُ
وَمِـنْ بَـنِـى أَعْـمَـامِـهِـم مِـثْـلُـهُـمْ ... مِـنْ مِـثْلِ هَـذَا يَـعْـجَـبُ العَـاجِـبُ
طَـعْـنٌ وَطَـاعُـونٌ مَـنَـايَاهُـمُ ... ذَلِـكَ مـا خَـطَّ لَـنَـا الْـكَـاتِـبُ

فأثرت هذه الأجـواء الجديدة-كما رأينـا- فى نفوس الشعـراء المخضرمين فأخذوا يصدرون فى شعـرهم عن نزعات إنسانية صادقة، فعبـروا عن حنينهم وشوقهم إلى أوطانهم وأهـليهم، وإعجابهم أو سخطهم بهذه المـناطق النائية من ناحية، وعبر الأهل وذوو الأرحام عن شوقـهم إلى أبنائهم ورجالهم من ناحية أخرى.

ولعل أهم السـمات التى تميز هذا النـوع من الشعر، أن معظمـه مجهول القائـل، كما يتمـيز بأنه مقـطعات قصيرة، كـانت استجابـة عاطفية سـريعة لأصحابها، ولهـذا تخلو من المقدمات والتأنـق اللفظى،وتشيع فيهـا البساطة والبعد عن الإغـراب،ويضمن الشاعر فيهـا عادة معنى إسلامياً يرتـبط بفكرة الجهاد[2].

---

(١) الإصابة جـ٦ ص٢٦٥ وما بعدها، وكان المهاجر غلاماً علـى عهد الرسول- ﷺ- وريطة التى أشار إليها هى زوج المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم وولدت من المغيرة عشرة رجال.

(٢) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى ص٨٦ وما بعدها.

وفى اعتقادنا أن هذا اللون من الشعر لا نعرف له شبيهاً يقابله فى شعرهم فى الجاهلية بالرغم مما عرف به العربى من كثرة التنقل والترحال وعدم الاستقرار فكل ما نجده فى شعرهم هذه المقدمات التى يتشوق فيها الشاعر إلى الظاعنين أو يبكى أطلالهم، وهى-فى الغالب- تقليد لنهج فنى متوراث لا يشترط فيه الصدق الواقعى، كما أننا لا نشعر فيها بهذه النزعات الإنسانية الصادقة التى أوضحناها.

وأعتقد أننا فى هذا الفصل استطعنا أن نلم بهذه الموضوعات الجديدة التى ظهرت فى شعر المخضرمين بظهور الإسلام،وتمثلت فيها تعاليم الإسلام السمحة بعد أن تغلغلت هذه التعاليم فى نفوسهم وملكت عليهم ضمائرهم وتغيرت نظرتهم إلى الحياة فجادت قرائحهم بأغراض شعرية جديدة أملتها عليهم طبيعة الحياة الجديدة فى ظل الإسلام، فاستثارتهم المواقف والأحداث، فصدروا فى شعرهم عن عاطفة صادقة تشيع فيها هذه الروح الإيمانية والعقيدة الثابتة ليخلصوا لنا بهذه الموضوعات التى لم نجد لأغلبها شبيهاً قبل الإسلام.

* * *

الباب الثالث

الظواهر الإسلامية
فى عناصر الشكل الفنى

الفصل الأول
لغــة الشعــر وموسيقــاه

الفصل الثانى
الصورة الفنية وبناء القصيدة

الظواهر الإسلامية فى عناصر الشكل الفنى

تحدثنا فى الباب الثانى عن الظواهر الإسلامية فى موضوعات الشعر عند المخضرمين سواء أكانت موضوعات تقليدية أم موضوعات جديدة ازدهرت ونمت على أيديهم فى الإسلام ورأينا كذلك إلى أى مدى أثرت تعاليم الإسلام وقيمه ومبادئه فى تغيير المضامين والمعانى التى طرقها هؤلاء الشعراء، ومع ذلك فإننا نشعر بأن هذه الظواهر الإسلامية لم تكتمل صورتها بعد؛ لأن ما حدث من تغيير فى المضامين والموضوعات كان لابد أن يستتبع تغييراً فى عناصر الشكل الفنى، لأن العمل الأدبى كل متكامل يرتبط فيه المضمون أو المحتوى بالشكل ارتباطاً وثيقاً، والشعر بوصفه فناً يؤثر فى نفس الإنسان بما فيه من جمال ومتعة وإثارة فنية للأحاسيس والمشاعر لايمكن أن ينظر إليه من ناحية محتواه فحسب أو من ناحية شكله بصورة عامة.

فالإنسان لا يتلقى تأثير الشيء الجميل مجزّأً على دفعات، ولكن الإحساس ينتقل إليه مباشرة، وتنفعل نفسه بالتأثر دفعة واحدة [(١)]. ولذلك وجب علينا أن نتحدث فى هذا الباب عن الظواهر الإسلامية فى عناصر الشكل الفنى عند المخضرمين لنضع أيدينا على الظواهر الشكلية الجديدة، ونبين إلى أى مدى كان التوافق والتلاؤم بين المضمون الذى تحدثنا عنه من قبل، وبين الشكل الفنى الذى أفردنا له هذا الباب.

وقد فرض علينا المنهج العلمى الذى اتبعناه فى هذه الدراسة من استقصاء وتحليل أن نقسم هذا الباب إلى فصلين:

الأول: لغة الشعر وموسيقاه.

الثانى : الصورة الفنية وبناء القصيدة.

---

(١) اتجاهات الشعر العربى ص٥٣٣ وما بعدها.

الفصل الأول

لغة الشعر وموسيقاه

أولا: لغة الشعر.

لغة الشعر فى أى عـصر من العصور مرتبطة ارتباطاً وثيـقاً بما يحدث فيه من تطورات عقلية واجتماعية، وفى ذلـك يقول نالينو: « إن اللغة لكائن حى فعلى مـثل كل حى تقبـل النمو والتجـدد والفساد. وكذلك الألـفاظ المفردة فكثيراً ما يـطرأ عليها من التغيير والانـتقال من معنى إلى آخر حسبمـا يقتضيه تغيـر أحوال الأمة الاجتـماعية والـسياسيـة والتقدم والـتقهقـر فى الصنـائع والعلوم»[1].

وقد بيـنا -قبل ذلك- أثر الإسـلام فى الحياة العـربية على عهـد الرسول -ﷺ- وخلفائه الراشدين، فقد تفاعلـت تعاليم الإسلام فى نفوس الشعراء وتطورت عـقليتهـم وثقافتهـم واتسعت مـداركهم بتلاوتـهم للقرآن وحـفظه وترديدهم لأحاديث الرسول- ﷺ- وهذا التطـور كان لابد أن يستتبع تطوراً آخر فى لغة شعرهم وتغييراً فى طرائق التعبير بها وفى تركيب جملها.

فقد حـرص الشعراء المخضـرمون منذ الـسنوات الأولى للإسـلام على أن يعايشوا هذا التطور فتأثروا تأثراً واضحاً -كما رأينا- بالمعانى الدينية، وكذلك تأثروا بالأسلوب القرآنى الذى بهرهم بإعجازه، فالبيئة التى عاش فيها هؤلاء الشعراء بيـئة جديدة فى فكرها وأخلاقهـا وعلاقاتها الاجتماعية، فـهم ليسوا بمعزل عن هذه المؤثرات بل كان لهم دور مـشهود فى نصرة الدين والمشاركة فى وقائع الدعـوة الإسلامية من خلال التعـبير عن القيم والقـضايا الجديدة، فكان عليهم أن يجدوا لأنفسهم من الألفاظ والأساليب ما يصور كل ذلك.

وأول ما نلاحـظه من مظاهر الـتطور فى لغـة الشعر عن المخضـرمين هو اختفاء الجزالـة البدوية القديمة التى كانـت سمة غالبة على شعـرهم الجاهلى

(١) تاريخ الآداب العربية ص٢١.

فتجنبوا كثيراً من الألفاظ التى لم يعد إيقاعها يناسب البيئة الحضرية الجديدة، حيث انتقل الشعر من البادية إلى المدينة ومكة، فرق الحس اللغوى والفنى عند الشعراء فمالوا إلى بساطة الأسلوب ورقة الألفاظ متأثرين فى ذلك بألفاظ القرآن وأساليبه، وكذلك تطورت دلالات الألفاظ لتناسب المعانى الجديدة التى تطرق إليها هؤلاء الشعراء، وقد أشار عبدالقاهر الجرجانى حين عرض لنظرية النظم إلى أهمية دلالات الألفاظ وارتباط بعضها ببعض، وقدرتها على إثارة الموقف المطلوب التعبير عنه، وانتهى إلى أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة أو كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، فيقول: « وهل يقع فى وهم -وإن جهد- أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه، من التأليف والنظم وبأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية؟ وأن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفى خلافه قلقة ونابية، ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية فى مؤداها؟ وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى[1]: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فتجلى منها الإعجاز وبهرك الذى ترى وتسمع، إنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل

(١) سورة هود، الآية ٤٤.

تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها» [1].

فالسياق اللغوى إذاً هو الذى يحدد دلالة اللفظ، لذلك حاول المخضرمون أن يحققوا التجانس بين اللفظ والمعنى فى شعرهم، لأن الكلام-كما يقول الباقلانى- موضوع للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس، ولذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته فى اللفظ عن الإفهام أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة[2].

ونخرج من هذا بأن الكلمات فى اللغة عامة وفى الشعر خاصة ليست مجرد علامات أو إشارات نتخذها لنشير على وجود شىء أو سواه، وإنما هى رموز تتضمن شحناً من المشاعر والأحاسيس، فهى ليست قطعاً من الخشب أو الفسيفساء يوضع بعضها إلى جانب بعض، وإنما هى أرواح تختزن فى داخلها مشاعر وإحساسات. وهى بتفاعلها مع غيرها فى داخل سياق لغوى قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة. وبذلك تكون اللغة فى يد الكاتب أو الأديب فى حركة خلق مستمرة، والفن الأدبى استثمار لإمكانات اللغة التى لا تنتهى عند حد[3].

وقد حاول المخضرمون استغلال هذه الإمكانات على أكمل وجه، فبفضل انتشار الثقافة الإسلامية الجديدة التى شملت كل جوانب الحياة فى أرجاء الجزيرة العربية توسع الشعراء فى دلالات كثير من الألفاظ التى كانت شائعة آنذاك؛ لتتسع لما جاء به الإسلام من عبادات وشرائع لم تكن تعرف من

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى، تعليق وشرح محمد عبدالمنعم خفاجى، نشر مكتبة القاهرة. ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ص٩٣ وما بعدها.

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى (أبى بكر محمد بن الطيب) تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٧٧م ص١١٧.

(٣) قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث د/ محمد زكى العشماوى -الطبعة الثالثة الهيئة المصرية العامة للكتاب الأسكندرية ١٩٧٨م ص٢٤١.

قبل، ولتساير أيضاً هذا التطور الحضارى الذى شهده المجتمع العربى فى ظل الإسلام، وفى ذلك يقول ابن فارس: «كانت العرب فى جاهليتها على إرث من إرث آبائهم، فى لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله -جل ثناؤه -بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر، بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول[1]».

ولا شك أن نزول القرآن وعكوف المخضرمين على تلاوته وحفظه والنظر فى آياته جعل بعض ألفاظه تتسرب إلى أشعارهم. فأول ما نلاحظه من الظواهر الإسلامية فى المعجم الشعرى عند المخضرمين:

أولا: الاقتباس من القرآن الكريم وأحاديث الرسول -ﷺ.

عاش الشعراء المخضرمون فى ظل القرآن الكريم يستمدون منه كثيراً من أفكارهم وصورهم وألفاظهم ومعانيهم، وانعكس ذلك على لغة شعرهم فصبغت بصبغة قرآنية واضحة، فاقتبسوا كثيراً من الآيات القرآنية وضمنوها شعرهم دون تبديل أو تغيير، وأحياناً تدفعهم ضرورة تركيب الجمل أو اتساق الوزن وانسجام القافية إلى إدخال بعض التحوير والتعديل فيما يقتبسوه من آيات الذكر الحكيم، وفى ذلك يقول أحد الباحثين: «ويمكن أن نحس بأثر الإسلام فى ثقافة الشاعر التى كان يودعها أشعاره وفى ألفاظه وتراكيبه، حيث كان الشعراء يغترفون من القرآن الكريم والحديث الشريف نصاً وروحاً»[2].

وليس من السهل استقصاء كل ما اقتبسه الشعراء المخضرمون من القرآن الكريم؛ لأنهم كانوا على صلة وثيقة به، ومع ذلك يمكننا أن نشير إلى أمثلة متعددة لهذا الاقتباس نستطيع أن نتوصل من خلالها إلى جود ظواهر إسلامية

(١) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العربية لأحمد بن فارس تحقيق مصطفى الشويمى. مؤسسة بدران للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٣م ص٧٨.

(٢) الإسلام والشعر ص٢٠٥.

واضحة فى معجمهم الشعرى. فنرى الحصين بن الحمام عندما يستعيذ بالله من أهوال هذا اليوم الذى تتحرك فيه الأرض بشدة فيصيب القلوب بالخوف والحذر، يقول[1]:

أَعُوذُ بربِّى مِنَ الْمُخْزِيـــــــا ت يَوْمَ تَرَى الـــــــنَّفْسُ أَعْمَالَهَا
وخفَّ الْمُوازِيـــــنُ بِالْكَافِرِيـــــنَ وَزُلْزِلـــــــت الأَرْضُ زِلْزَالَهَا

فيقتبس الشطر الأخير من قوله تعالى[2]: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.

ويذكرأحد المخضرمين فى أبيات له منزلة الشهداء عند ربهم فيستعير ألفاظ القرآن الكريم نفسها، فيقول[3]:

إِنَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِى جِنَانٍ يَشْرَبُونَ الرَّحِيقَ والسَّلْسَبِيـــــلا
مِنْ شَرَابِ الأَبْرَارِ خَالَطَهُ الْمِسْـــــــكُ وَكَأْســـــاً مِزَاجُهَا زَنْجَبِيــــلا

فيأخذ ألفاظ قوله تعالى [4]: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ . . . ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وقوله تعالى [5]: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ . . . ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلا. عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾.

وفى اعتذار قيس بن الربيع للرسول -ﷺ- يستمد معجمه من النص القرآنى، فيقول[6]:

وَإِنْ جَنَحُوا لِلســـــلْمِ فَاجْنَحْ لِمِثْلِهَا وَإِنْ كَتَمُوا عَنْكَ الْحَدِيـــــثَ فَلا تَسَلْ

---

(١) الأغانى جـ١٤ ص٤٨٩٢.

(٢) سورة الزلزلة، الآية١.

(٣) وقعة صفين ص٣٢٠ ونسب الأبيات لعمار بن ياسر، واللسان جـ٣ ص٢٠٦٤ ونسبها لعبدالله بن رواحة.

(٤) سورة المطففين، الآيات ٢٢، ٢٥، ٢٦.

(٥) سورة الإنسان، الآيات ٥، ١٧، ١٨.

(٦) أسد الغابة جـ٤ ص٤٢١.

فاستعار قوله تعالى[1]: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وكان النعمان بن بشير الأنصارى من الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم تأثرا واضحا يظهر فى قوله[2]:

مَرَجْتَ لَنَا الْبَحْرَيْنِ: بَحْرًا شَرَابُه فُرَاتٌ وبَحْرًا يَحْمِلُ الْفُلْكَ أَسْوَدَا
أُجَاجًا إِذَا طَابَتْ رِيحُه جَرَت به، وَتَرَاهَا حِينَ تَسْكُنُ رُكَّدَا

فيقتبس ذلك من قوله تعالى[3]: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وفى القصيدة نفسها يقول[4]:

فَمَا مِنْكُم مُحْصٍ لِنِعمَةِ رَبِّه وَإِنْ قَالَ مَاشَا أَنَ يَقُولَ وَعَدَّدَا

فيقتبس قوله تعالى[5]: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾.

ونراه فى قصيدة أخرى يتحدث عن القرآن الكريم، فيقول[6]:

قَدْ أَتَاكُمْ مَعَ النَّبِيِّ كِتَابٌ صَادِقٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ

فيقتبس قوله تعالى[7]: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾.

وكذلك لم تتضح الظواهر الإسلامية فى لغة شعر أحد من المخضرمين كما اتضحت عند حسان بن ثابت لقربه من الرسول-ﷺ- واتصاله الوثيق بنزول القرآن الكريم، فنراه يقتبس الأسلوب ويتمثل ألفاظه أمام عينيه، ففى

---

(١) سورة الأنفال، الآية٦١.
(٢) شعر النعمان بن بشير الأنصارى تحقيق د/ يحيى الجبورى مطبعة المعارف بغداد (د/ت) ص٩٨.
(٣) سورة الفرقان، الآية ٥٣.
(٤) شعر النعمان بن بشير ص٩٨.
(٥) سورة إبراهيم الآية ٣٤
(٦) شعر النعمان بن بشير ص ٨٩
(٧) سورة الزمر، الآية ٢٣ .

رده على شاعر وفد بنى تميم، يقول[1]:

فَلا تَجْعَلُوا لله نِدًا وَأَسْلِمُوا ... وَلا تَلْبَسُوا زِيًا كَزِىِّ الأَعَاجِـــــم

فيستعـير ألفاظ الشطر الأول من قوله تعالى[2]: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنـدَادًا وَأَنـتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

وفى قصيدته الدالية التى رثى بها الرسول-ﷺ- يقول[3]:

عَزِيـــزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَجُورُوا عِنِ الْهُدَىٰ ... حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيــمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لايُثَنِّى جَنَاحَهُ ... إِلـــى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ

فيستعـير ألفاظه من قوله تعالى[4]: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنـفُسِكُمْ عَزِيـزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفى هجائه للمشركين يتحدث عن غواية الشيطان لهم، فيقول[5]:

دَلاهُمُ بِغُــــــرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ ... إِنَّ الخَبِيْثَ لِمَنْ وَالاهُ غَـــــرَّارُ
وَقَالَ إِنِّى لَكُـــمْ جَارٌ فَأَوْرَدَهُمْ ... شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيـــهِ الْخِزْىُ وَالْعَارُ

فيأخذ الآية القـرآنية نفسها مع تعديل بسـيط تقتضيه الصيـاغة الشعرية من قوله تعالى[6]:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الـشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ الـنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ﴾.

---

(١) ديوانه ص٢٣٧ ووزن البيت فى الديوان غير مستقيم فأثبت رواية السيرة جـ٤ ص٢٣٢.
(٢) سورة البقرة ،الآية ٢٢.
(٣) ديوانه ص،٣٨٩.
(٤) سورة التوبة ،الآية ١٢٨.
(٥) ديوانه ص ،٣٨٨ وما بعدها.
(٦) سورة الأنفال، الآية ٤٨.

وكذلك نرى عبد الله بن رواحة يستقى معجمه الشعرى من القرآن الكريم حتى إن زوجته التبس عليها بعض شعره، واعتقدت أنه كلام الله، حينما وقع على جاريته، واتهمته امرأته. فقال: ما فعلت، فقالت: فاقرأ القرآن إذا، فقال[1]:

وَفِينَا رَسُولُ الله يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ... إِذا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

فيقتبس قوله تعالى[2]: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقوله تعالى[3]: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وذكر بعض الرواة أنه أنشدها قوله[4]:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلائِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

فيقتبس قوله تعالى[5]: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وقوله[6]: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

---

(١) ديوانه ص٩٦، وتهذيب الآثار مسند عمر جـ٢ ص٦٠٧، وأسد الغابة جـ٧ ص٤٢٧، وبهجة المجالس ق٢ ص٣٦.
(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٠.
(٣) سورة السجدة، الآية ١٦.
(٤) ديوانه ص١٠٦، والاستيعاب جـ٣ ص٩٠١، وبهجة المجالس ق٢ص٣٦.
(٥) سورة الكهف ،الآية ٩٨
(٦) سورة الزمر ،الآية ٣٢.

مثوى للكافرين﴾ وقوله[1]: ﴿وكان عرشه على الماء ليبلوكم﴾ وقوله[2] : ﴿ثم استوى على العرش﴾. وقوله تعالى[3] : ﴿ الذيـــن يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم﴾.

وإذا نظرنا فى قصيدة الـنابغة الجعدى التى تحدثنا عنها فى الشـعر التعليمى نجده يهجر لغة البادية التى عاش فيها حياة طويلة ويتأثر بالإسلام فيرق أسلوبه وألفاظه ويتحـول معجمه الشعـرى تحولا جذريا عندما يعرض لمجـموعة من الآيات الكونية، فـيتأثر بما ورد فى القرآن الكريم، ويظهـر ذلك فى ألفاظه، فيقول[4]:

المُولِجُ الـــلَّيــلَ فِى الـــنَّهَارِ وَفِى الـــلَّيـــلِ نِهَارًا يُفَرِّجُ الـــظُّلَمَا

فيقتـبس قوله تعالى[5]: ﴿ ذلك بأن الـلـه يولج الـليل في الـنهار ويولج الـنهار في الليل﴾، ثم يستمر الشاعر فى عرض هذه الآيات الكونية، فيقول[6]:

الخَافِضِ الـرَّافِعِ الـسَّمَآءَ عَلَى الـــ أَرْضِ وَلَـــمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعَمَـــا

فيستعير ألفاظه من قوله تعالى[8]: ﴿الـله الذي رفع الـسموات بغير عمد ترونها﴾ وقوله[9]: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي﴾.

---

(١) سورة هود ،الآية ٧.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٥٩.
(٣) سورة غافر ،الآية ٧.
(٤) ديوانه ص ١٣٢.
(٥) سورة الحج، الآية٦١.
(٦) ديوانه ص ١٣٣.
(٧) سورة الرعد، الآية ٢.
(٨) سورة لقمان، الآية ١٠.

وبعد أن انتـهى من هذه الآيات الكونية، ينتـقل إلى آية أخرى من الآيات التى تصور خلق الإنسان، فيقول[1]:

الْخَالِقِ الْبَارِئْ الْمُصَوِّرِ فِى الْـــــ	أَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيـــــــــرَ دَمَا
مِــــنْ نُطْفَةٍ قَــــدَّهَا مُقَــــدِّرُهَا	يَخْلُقُ مِنْهَا الأَبْشَارَ وَالـــــنَّسَمَا
ثُمَّ عِظَــــامًا أَقَامَهَــــا عَصَبٌ	ثَمَّتَ لَحْمًا كَسَاهُ فَالْــــتَأَمَا

وهذه الألفاظ كـما نرى- لم نجـد لها شبـيهـا فى المعجم الشـعرى عند المخضرمين قبل الإسـلام؛ لأنهم كانوا يجهلون حقيقـة الخلق بهذه الصورة، ولولا أن عرض لها القرآن الكريم مـا وجدناها فى شعرهم، وهذا دليل على أنه استقى هذه الألفاظ من قوله تعالى[2]: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. وقوله تعالى[3]: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وإلى جانب تأثر الـشعراء المخـضرمين بتلاوتهم للـقرآن الكريم واقتـباس أساليبـه وألفاظه لشعرهم، نجدهم أيضا يتـأثرون بأقوال الرسول-ﷺ-فنرى حسان بن ثابت فى قصيدته البائية التـى يتذكر فيها يوم بدر، ينظم معنى قول الرســول-ﷺ- لأصحـاب القليب: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًا؟ فَإِنِّى قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنى رَبِّى حَقًّا» فقـيل له: يارسُولَ اللهِ! أَتُنَادى قَومًا قَدْ جَيَّفُوا، فَقَالَ: (مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لايَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجـيبُونِى)[4]، فيقول[5]:

---

(١) ديوانه ص ١٣٣.

(٢) سورة الحشر، الآية ٢٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات ١٢: ١٤.

(٤) السيرة جـ٢ ص٢٨٠.

(٥) ديوانه ص ١٣٥ وما بعدها.

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللهِ لَمَّا قَذَفْنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِى الْقَلِيبِ
أَلَمْ تَجِدُوا حَدِيثِى كَانَ حَقًّا وَأَمْرُ اللهِ يَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ
فَمَا نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا صَدَقْتَ وَكُنْتَ ذَا رأْيٍ مُصِيبِ

ولما دعا الرسول -ﷺ- على عتبة بن أبى لهب بقوله: (اللَّهُمَّ سَلِّط عَلَيه كَلْبًا مِنْ كِلابِك)؛ لأنه كان شديد الإيذاء له، تخطى عليه سبع وهو فى عدة من قومه، فأكله، فأخذ حسان معنى هذا الدعاء، فقال(1):

فَاسْتَوْجَبَ الدَّعْوَةَ مِنْهُ فَقَدْ بَيَّنَ لِلنَّاظِرِ وَالسَّامِعِ
إِنْ سَلَّطَ اللهُ بِهِ كَلْبَهُ يَمْشِى الْهُوَيْنَى مِشْيَةَ الخَادِعِ
مَنْ يَرْجِعِ العَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِعِ

ومرت بنا قصيدة عبد الله بن كرز التى أنشدها بين يدى الرسول-ﷺ- ونظم فيها معنى حديثه-ﷺ-: (أيها الناس مثل أحدكم ومثل أهله وماله وعمله كمثل رجل له أخوة ثلاثة...).

والقصيدة كلها تشيع فيها الروح الإسلامية، وتبدو قوية محكمة النسج فى موضوعها وألفاظها التى استمدها من قول الرسول-ﷺ.

وعندما قتل ابن جرموز الزبير بن العوام، وجاء برأسه إلى على بن أبى طالب- كرم الله وجهه- قال له: أبشر بالنار فإنى سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: «بشروا قاتل ابن صفية بالنار».

فانصرف ابن جرموز، وذكر ذلك فى شعره، فقال(2):

أَتَيْتُ عَلِيًّا بِرَأْسِ الزُّبَيْرِ وَكُنْتُ أُرَجِّى بِهِ الزُّلْفَهْ
فَبُشِّرْتُ بِالنَّارِ قَبْلَ العِبَادِ وَبِئْسَتْ بِشَارَةُ ذِى التُّحْفَهْ

(1) ديوانه ص١٦٢.
(2) ثمار القلوب ص٣٧٩.

فالصلة واضحة- كما رأينا- بين هذه الأشعار وبين آى الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة، وفى ذلك دليل على تأثر الشعراء المخضرمين بهما، وإذا كان القرآن الكريم يمثل الذروة العليا فى البلاغة العربية ويليه الحديث النبوى فى ذلك فإن اقتباس الشعراء منهما ومحاولة تقليد أسلوبيهما إنما يعنى محاولة التقرب من تلك الذروة العالية، وكلما ازداد الشاعر فى اقتباسه كان أقرب إلى تلك الذروة[1].

ثانيا: ألفاظ وتراكيب ذات دلالات جديدة.

وإلى جانب اقتباس الشعراء المخضرمين لألفاظ القرآن الكريم وأساليبه وكذلك أحاديث الرسول-ﷺ- نجدهم يدخلون فى معجمهم الشعرى ألفاظا ذات دلالات جديدة لم تكن متداولة بمعانيها الإسلامية فى أشعارهم قبل الإسلام، فهناك ألفاظ كثيرة لوحظ تطور دلالاتها فانتقل كل منها من دلالته الأولى إلى دلالة أخرى، من هذه الألفاظ: لفظ الجلالة، فقد ورد فى الشعر الجاهلى؛ لأنهم كانوا يعرفون المصطلح كما يعرفه أصحاب ديانات التوحيد، ولكنهم يختلفون عنهم فى إدراك ماهيته، وعادة الشعراء الجاهليين أن يذكروا أحد لفظين: **الله**، أو المليك[2].

وقد أدرك المخضرمون بعد الإسلام ماهية هذا اللفظ فهو الله -عز وجل- لا معبود سواه ولا خالق سواه كما أخبر عز ذكره فى قوله تعالى[3]: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ *﴾**.

كما أمرهم بإخلاص العبادة له، ومجانبة المشركين والملحدين فى قوله تعالى[4]: **﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**.

---

(١) الإسلام والشعر ص٢٢٤.

(٢) دراسات ونصوص فى الأدب العربى د/ هدارة ص١٥٢.

(٣) سورة الإخلاص.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٨٠.

فيذكـرون العديد من هذه الأسـماء فى أشعارهم، فـنجد النابغـة الجعدى يقول[1]:

الْـحَـمْـــدُ للهِ لا شَـــرِيْــكَ لَـــهُ   مَـنْ لَـمْ يَقُـلْهَـا فَـنَـفْسَـهُ ظَلَـمَـا

فيذكر لفـظ الجلالة مقترنا بكلـمة(الحمد) وإذا استقصينـا مادة (الحمد)نجده نقيض الـذم وفى كلام العرب معـناه الثناء الكـامل، وحمد الله الثنـاء عليه، ويكون شكرا لنعـمه التى شملت الكل، والحمد أعم مـن الشكر وزيادة فى إظهار النعمة والإشادة بها[2].

وتتطـرد هذه الصيـغة عند الـشعراء المخضـرمين، فيقـول حمزة بن عـبد المطلب[3]:

حَـمِـدتُ اللهَ حِـيْـــنَ هَـدَى فُـؤَادِى   إِلَـى الإِسْـلامِ وَالـدِّيـنِ الْـحَـنِـيـفِ

وكذلك لـو تتبعنـا مادة(شرك) فى قول النـابغة السابـق لوجدنا أنهـا قبل الإسلام كانت تعنى الشركة فى البيع والمـيراث والغنيمة، والاسم منها الشرك والشريك، وشـاركته فى الأمر أى صرت لـه شريكا، وتطورت دلالـتها فى الإسلام إذ اقترنت باسـم الله، فقالوا: أشرك بالله: أى جعـل له شريكا فى ملكه، تـعالى الله عن ذلـك، وقال تعالى حكـاية عن عبده لقـمان إنه قال لابنه[4]: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ والشرك أن يجعل لله شريك فى ربوبيته تعالى الله عن الشركاء والأنداد، ومن عدل به شيئا من خلقه فهو كافر مشرك.

فالشرك الكفر[5]. وقد أدرك النـابغة الجعدى هذا الـتطور الدلالى للـفظة (شريك) فى بيته السابق، كما أدركهـا غيره من المخضرمين، فيقول كعب بن مالك[6]:

---

(١) ديوانه ص١٣٢.

(٢) اللسان: (حمد) جـ٢ ص٩٨٧.

(٣) الروض الأنف جـ٣ ص١٥١.

(٤) سورة لقمان، الآية ١٣.

(٥) اللسان(شرك) جـ٤ ص٢٢٤٨ وما بعدها.

(٦) ديوانه ص٢٨٠.

بِـأَنَّ اللهَ لَـيْـسَ لَـهُ شَـرِيْـكٌ وَأَنَّ اللهَ مَـوْلَـى الْمُـؤْمِنِـيـنَـا

ويعدد المخضرمون هذه الصفات الإلهية فيذكر حسان بن ثابت فى شعره (الله أكبر) فيقول[1]:

لَـتَسْمَعَنَّ وَشِيـكًا فِى دِيَـارِهِـمُ اللهُ أَكْبَـرُ يَـا ثَـارَاتِ عُـثْمَـانَـا

وهذه الصياغة لانجد لها شبيها فى الشعر الجاهلى؛ لأن (كبر) من الألفاظ التى تطورت دلالتها إذا اقترنت بلفظ الجلالة فصارت صفة لله تعالى بمعنى العظيم الجليل والمتكبر الذى تكبر عن ظلم عباده، والكبرياء عظمة الله والملك، وقيل هى عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى[2]، فقد أدرك حسان حقيقة ماهيته، فهو أعظم من كل شىء.

ويذكر كعب بن مالك اسما آخر من هذه الأسماء الحسنى، فيقول[3]:

وَكُونُـوا كَمَـنْ يَشْرِى الْـحَيَـاةَ تَقَـرُّبًا إِلَـى مَلِـكٍ يُـحْيَـا لَـدَيْـهِ ويَرْجِـعُ

فلفظ (ملك)تطورت دلالته، فبعد أن كان يطلق على الملك من ملوك الأرض؛لأنه يمتلك المال والخول، أصبحت تطلق على الله تعالى وتقدس ملك الملوك وهو مالك يوم الدين يملك إقامته، وهو مالك كل شىء؛ لأنه مالك الملك[4].

ويذكر حمزة بن عبد المطلب (العزيز)و (الخبير)و (اللطيف) فى قوله[5]:

لَـدِيـنٍ جَـاءَ مِـنْ رَبٍّ عَـزِيـزٍ خَـبِيـرٍ بِـالْـعِـبَـادِ بِـهِـمْ لَـطِـيـفِ

فـالعـزُّ فى الأصـل: القـوة والشـدة والغـلـبة، والـعزُّ والـعزَّةُ الـرفعـةُ والامتناع،والعزيز من صفات الله -عز وجل- وأسمائه الحسنى، هو الممتنع فلا يغلبه شىء، وهو القوى الغالب كل شىء[6].

(١)ديوانه ص٢١٦.
(٢) اللسان (كبر) جـ٥ ص٣٨٠٧.
(٣) ديوانه ص ٢٢٤.
(٤)اللسان (ملك) جـ٦ ص٤٢٦٦.
(٥) الروض الأنف جـ٣ ص١٥١.
(٦) اللسان(عزيز) جـ٤ ص٢٩٢٥.

وخَبُرْتُ بالأمر أى علمته. وخبرت الأمر أخْبُرُهُ إذا عرفته على حقيقته والخبير من أسماء الله -عز وجل- العالم بما كان وما يكون[1].

واللُّطْفُ واللَّطَفُ: البرُّ والتَّكرِمَةُ والتَّحَفِّى، والاسم اللُّطْفُ. وهو لطيف بالأمر أى رفيق. واللطيف: صفة من صفات الله واسم من أسمائه وفى التنزيل العزيز: **(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)**[2] ومعناه الرفيق بعباده الذى اجتمع له الرفق فى الفعل، والعَلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها من خلقه[3].

ويذكر النابغة الجعدى مجموعة أخرى من هذه الأسماء الحسنى التى تطورت دلالتها فى مفهوم المسلمين لتصبح صفات الله تعالى، فيقول[4]:

الخَافِضِ الرَّافِعِ السَّمَاءَ عَلَى الـ ... أَرْضِ ولَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دِعَمَا

الخَالِقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ فِى الـ ... أَرْحَامِ مَاءً حَتَّى يَصِيرَ دَمَا

فيذكر الخافض والرافع والخالق والبارئ والمصور.

ولو تقصينا مادة هذه الألفاظ نجد دلالتها قد تطورت تطورا ملحوظا أدركه المسلمون بعد الإسلام شعراء وغير شعراء. ففى مادة(خفض) الخفض: الدعة والعيش الطيب، وخفّض عليك: أى سهل. وخفض جأشك: أى سكن قلبك، والعرب تقول أرض خافضة السقيا إذا كانت سهلة السقيا، ورافعة السقيا إذا كانت على خلاف ذلك. وفى أسماء الله تعالى: الخافض هو الذى يخفض الجبارين والفراعنة أى خلاف ذلك. وفى أسماء الله تعالى: الخافض هو الذى يخفض الجبارين والفراعنة أى يضعهم ويهينهم، ويخفض كل شىء يريد خفضه[5].

وفى مادة(رفع) العرب تقول: رفعت الشىء فارتفع إذا علا، والرافع من

---

(١) اللسان ((خبر) جـ٢ ص١٠٩٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

(٣) اللسان،(لطف) جـ٥ ص٤٠٣٦.

(٤) ديوانه ص١٣٣.

(٥) اللسان (خفض) جـ٢ ص١٢١٠وما بعدها.

الإبل التى رفعت لبنها فلم تدر، ورفـع لى الشىء أبصرته من بعد، ورفعه: قربه وقـدمه، وكل ما قـدمته، فقد رفـعته ، والرفعـة نقيض الـذلة وخلاف الضعـة. والرافع من أسـماء الله تعالـى، فهو الذى يـرفع المؤمن بـالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع نقيض الخفض فى كل شىء[1].

والخلق فى كلام العرب ابتداع الشىء علـى مثال لم يسبق إليه، وقد يكون على وجـه التقديـر،والخالق والخلاق من صـفات الله تعالـى، ولاتجوز هذه الصفة بالألف والـلام لغير الله عز وجل، وهو الذى أوجد الأشيـاء جميعها بعد أن لم تكن موجودة وأصـل الخلق التقدير[2]. وفى التنزيل[3] : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ .

وجاء فى مادة(برأ) البارئ: من أسماء الـله -عز وجل- الذى خلق الخلق لاعن مـثال،وبـرأ اللـه الخلـق، أى خلـقهـم، ويكـون ذلك فـى الجوهـر والأعراض[4].

وجاء فى مادة(صور) قـولهم: تصورت الشىء: توهمت صـورته فتصور لى. والصورة ترد فى كلام العرب على ظاهرهـا، وعلى معنى حقيقة الشىء وهيئته، وعلى مـعنى صفته يقال: صورة الفعل كـذا وكذا: أى هيئته وصورة الأمر كذا وكذا: أى صفته. والمصور من أسمـاء الله تعالى، فهو الذى صور جميع المـوجودات ورتبها فأعـطى كل شىء منهـا صورة خاصة وهيئـة مفردة يتميز بها. علـى اختلافها وكثرتها، وذكر سبحانه وتعـالى تصويره الخلق فى الأرحام قبل نفخ الروح، وكانوا قبل أن صورهم نطفا، ثم علقا، ثم مضغا، ثم صورهم تصويرا[5].

وعلى هـذا النحو أدرك الشعـراء المخضرمون ماهـية لفظ الجلالة وصـفاته

(١) اللسان جـ٢ ص١٦٩٠ (رفع).

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص١٢٤٤ (خلق). .

(٣) سورة الحشر، الآية ٢٤.

(٤) اللسان جـ١ ص٢٣٩ (برأ).

(٥) المصدر نفسه جـ٤ ص٢٥٢٣ وما بعدها (صور).

-عز وجل- كما أدركوا تطور مدلولات ألفاظ هذه الصفات التى اطردت فى أشعارهم بصورة واضحة.

ومن الظواهر الإسلامية التى نلاحظها فى تطور دلالات الألفاظ عند المخضرمين هذه الإضافات المتعددة إلى لفظ الجلالة وصفاته، فقولهم (رسول الله) يطرد بصورة ملحوظة فى أشعارهم، فيقول كعب بن مالك[١]:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ والأوسُ حَوْلَهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ ونَاصِرُ

ويقول مالك بن نمط الهمدانى[٢]:

بِأَنَّ رَسُولَ اللهِ فِينَا مُصَدَّقٌ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِى الْعَرْشِ مُهْتَدِ

ومر بنا قول حسان فى أبى بكر الصديق -رضى الله عنه[٣]:

وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللّهِ قَدْ عَلِمُوا مِنَ البَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلا

ويقول ابن رواحة فى هجائه للمشركين[٤]

عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللّهِ أُفٍّ لدِينِكُمْ وَأَمْرِكُمُ السَّيِّئُ الَّذى كَانَ غَاوِيَا
فَإِنِّى وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِى لَقَائِلٌ فِدًى لِرسُولِ اللّهِ أَهْلِى وَمَالِيَا

فتطرد هذه الإضافة بهذه الصورة فى شعر المخضرمين كما يطرد غيرها من الإضافات كقولهم: أمر الله، وملة الله، وسبيل الله، وجند الله، وخيل الله، ونصر الله، وأسد الله، وحبل الله، وغيرها كثير ليس من السهل حصره أو استقصاؤه، وحسبى أن أشير إلى قليل منها:

فيذكر حسان فى شعره (ملة الرحمن) فيقول[٥]:

عَلى مِلَّةِ الرَّحْمَنِ وَارِثِ جَنَّةٍ مَعَ الشُّهداءِ وَفْدُهَا أكْرَم الوفْدِ

(١) ديوان كعب ص ٢٠٠.

(٢) السيرة جـ٤ ص٢٧٠.

(٣) ديوان حسان ص ٣٩٥.

(٤) ديوان ابن رواحة ص ١٠٩.

(٥) ديوان حسان ص ١١٤.

ويذكر أيضا (جند الله) و(خيل الله) فى قوله[1]:

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلاً من عـداوتـــكُمْ إلـى الرَّسُـول فَجُنْـدُ اللَّه مُخْزِيها

هَلاّ اعتَبَرْتُم بِخَيْلِ اللّه إذ لَقــيَتْ أهْلَ الْقَلِيب وَمَنْ أرْدَيْنـهُ فِيــهَا

ويذكر (ذمة الله) فى قوله[2]:

فَهَـلا رَعَيْتُمْ ذِمَّـةَ الـلَّه وسْطَـكُمْ وَأَوْفَيْتُمُ بـالـعَهْدِ عَهْدِ مُحَمَّدِ

و(أمر الله) يذكره حسان فى قوله[3]:

أوْ حَلَّ أمْرُ الله فِيـنَا عَاجِلا فـى رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أوْ فِى غَدِ

ويذكره عبدالله بن أبى بكر الصديق فى قوله[4]:

كَذَلكَ أمْرُ الـلَّهِ غَادٍ وَرَائِحٌ عَلَى الـنَّاسِ فِيـهِ أُلْفَةٌ وَتـبَايُنُ

و(حبل الإله) يذكره حسان فى قوله[5]

مُسْتَعْصِمِـينَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْـجَذِمٍ مُسْتَحْكَمٍ مِنْ حِبَالِ الـلَّهِ مَمْدُودِ

ويذكره حمزة بن عبدالمطلب فى قوله[6]:

وَقُلْنَا لَهُمْ حَبْلُ الإلـهِ نَصِيـرُنَا وَمَا لـكُم إلا الـضَّلالَةَ مِنْ حَبْلِ

ويذكر أبو سفيان بن الحارث (ثواب الله) فى قوله[7]:

رَجَـاءَ ثَـوَابَ الله والـلَّهُ وَاسِـعٌ إلَيْهِ تَعَالَى كُـلُّ أَمْـرٍ سَيَرْجِعُ

و(تقوى الله) يذكرها عبدة بن الطبيب فى قوله[8]:

أُوصِيكُمُ بِتُقَى الإلـهِ فَإنَّهُ يُعْطِي الرَّغـائِبَ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ

---

(١) ديوان حسان ص ٢٠٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٣

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٩

(٤) المردفات للمدائنى جـ ١ ص ٦٢، والنويرى جـ ١٩ ص ١٣٧.

(٥) ديوان حسان ص ٢٤٢

(٦) العمدة جـ ١ ص ٣٦.

(٧) طبقات ابن سعد جـ ٤ ق ١ ص ٣٦

(٨) المفضليات ص ١٤٦

ويذكرها لبيد فى قوله(1):

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَـــلْ وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِى وَعَجَـــلْ

ولاشك أن إضافة مثل هذه الألفاظ إلى لفظ الجلالة أكسبتها دلالات جديدة لم تكن موجودة من قبل، واستطاع المخضرمون أن يستخدموها بدلالاتها الجديدة فى أشعارهم، وأفادت تعبيراتهم وتراكيبهم وأكسبتها ثراء لغويا ملحوظا.

وإلى جانب ذلك حفلت أشعار المخضرمين بعد الإسلام بالعديد من الألفاظ والمصطلحات الإسلامية التى اكتسبت دلالات جديدة غير التى كانت سائدة من قبل وهى فى مجملها تحمل فى داخلها معانى الإسلام وأركانه وأصوله وشرائعه. فوردت فى أشعارهم ألفاظ عديدة للتعبير عن القرآن الكريم.

فهو (كتاب الله) فى قول حسان(2):

نَبِىٌّ يَرَى مـــا لا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ الـــلَّهِ فِى كُلِّ مَشْهَدِ

وهو كذلك عند كعب بن مالك(3):

تَمَنَّـــى كِتَـــابَ الـــلَّهِ أَوْلَ لَيْلِهِ وآخِرَهُ لاقِى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

وهو كذلك عند النابغة الجعدى فى قوله(4):

يـــا بْنَةَ عَمِّى كِتَابُ الـــلَّهِ أَخْرَجَـــنِى كُرْهًا وَهَلْ أَمْنَعَنَّ الـــلَّهَ مَافَعَلا

وهو كذلك عند النجاشى الحارثى فى قوله(5):

فَأَصْبَحَ أَهْلُ الـشَّامِ قَدْ رَفَعُوا الْقَنَـــا عَلَيْهَا كِتَـــابُ الـــلَّهِ خَيْـــرُ قُـــرَانِ

(1) ديوان لبيد ص ١٧٤.

(2) ديوان حسان ص ٣٧٧

(3) ديوان كعب ص ٢٩٤

(4) ديوان النابغة ص ١٩٤.

(5) وقعة صفين ص ٥٢٤

وهو(القرآن) عند حسان فى قوله[1]:

جَحَدُوا القُرانَ وكَذَّبوا بِمُحَمَّدٍ وَاللَّهُ يُظهِرُ أمْرَ كُلِّ رَسُولِ

وهو (الوحى) فى موضع آخر فيقول[2]:

أعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِى الْوَحْىِ عِفَّتُهُمْ لا يُطْبَعُونَ ولا يُرْدِيهُم الطَّمَعُ

وهو (الفرقان) فى قول العباس بن مرداس[3]:

أمِينٌ عَلَى الفُرْقَانِ أوَّلُ شَافِعٍ وَأوَّلُ مَبْعُوثٍ يُجِيبُ المَلائِكَا

وهو (الآيات المحكمات) فى قول حسان[4]:

وَقُلْتُم لَنْ نَرَى وَاللَّهُ يُبْصِرُكُم وَفِيكُمُ مُحكَمُ الآيَاتِ وَالْقِيلِ

وهو (الآيات البينات) فى قول كعب بن مالك[5]:

نَذِيرٌ صَادِقٌ أدَّى كِتَاباً وَآيَاتٍ مُبَيَّنَةً تُنِيرُ

ويتردد لفظ (الجنة) فى أشعار المخضرمين بصيغ مختلفة، منها (الجنة العالية) فى قول حسان[6]:

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ مُكْرَمَةِ الدَّاخِلِ

وهى (جنة الخلد) فى موضع آخر من شعره، يقول[7]:

وَلَيْسَ هَوَائِى نَازِعًا عَنْ ثَنَائِه لَعَلِّى بِهِ فِى جَنَّةِ الخُلْدِ أخْلُدُ

وهى (جنة الفردوس) فى موضع آخر من شعره، يقول[8]:

فِى جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ واكْتُبْهَا لَنَا يا ذَا الْجَلالِ وذَا العُلا والسُّؤْدُدِ

---

(1) ديوان حسان ص ٢٨٤.
(2) المصدر نفسه ص ٢٣٨
(3) حياة الصحابة جـ ٣ ص ٥٧٨
(4) ديوان حسان ص ٣٠٢
(5) ديوان كعب ص ٢٠٣
(6) ديوان حسان ص ٢٢١.
(7) المصدر نفسه ص ٣٨٠
(8) المصدر نفسه ص ٢٠٩.

وهى كذلك عند الجعدى فى قوله[1]:

فَسَلامُ الإلـــــــــهِ يَغْدَو عَلَيْهِم   وَفُيُوءُ الفِرْدَوسِ ذَاتِ الــــــظِّلالِ

وهى (جنات عدن) فى قول أروى بنت عبدالمطلب[2]:

عَلَيْكَ مِنَ الــــلَّهِ الـــسَّلامُ تَحِيَّةً   وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ الْعَدْنِ رَاضِيَا!

وهى (جنات النعيم) فى قول كعب بن مالك[3]:

وَقَتْلاهُمُ فِي جِنَانِ الــــــنَّعِيْمِ   كِـــرَامُ المَـــدَاخِلِ وَالمخْـــرَجِ

ويتردد ذكر (النار) فى شعر المخضرمين بصيغ مختلفة، فهى (السعير) فى قول حسان[4]:

ألا مَـــــنْ مُبَلِـــــغٌ عَنِّى أُبَيَّا   لَقَدْ أُلقِيتَ فى سُحْقِ الـسَّعِيــــرِ

وهى (جهنم) فى موضع آخر من شعره، فى قوله[5]:

وَزَادُكَ ذَمٌّ فـــــى الحَيَاةِ وإنْ تَمُتْ   فَحَظُّكَ رُكْنٌ مِنْ جَهَنَّمَ وَاسِعُ

وهى(النار) و (جهنم) فى قول كعب بن مالك[6]:

فـــــأَمْسُوا وَقُودَ النَّارِ فى مُسْتَقَرِّهَا   وَكُلُّ كَفُورٍ فِى جَهَنَّمَ صَائِرُ

وهى(جهنم)أيضا فى شعر أبى خيثمة (مالك أحد بنى سالم بن عوف)[7]:

وَسِرْبَالِ قَارٍ خَالِداً فـــى جَهَـــنَّمِ   وَسِرْبَالِ قَارٍ خَالِداً فـــى جَهَـــنَّمِ

وهى (النار) فى قول أيمن بن خريم الأسدى[8]:

(١)ديوان النابغة الجعدى ص ٢٣١ والمنازل والديار جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ق ٢ ص ٩٣
(٣) ديوان كعب ص ١٨٧.
(٤) ديوان حسان ص ٣٨٩
(٥) المصدر نفسه ص ٢٦٣
(٦) ديوان كعب ص ٢٠١
(٧) السيرة جـ ٢ ص ٣٠١
(٨) وقعة صفين ص ٥٥٦

فَمَنْ عَاشَ عَبْدًا عَاش فِينَا وَمَنْ يَمُتْ ... فَفِى النَّارِ يُسْقَى، مُهْلَهَا وَصَدِيدُهَا

ويتردد مصطلح (الكفر) كثيرا فى شعر المخضرمين بدلالته الجديدة، فالكفر فى اللغة: التغطية، وأصل الكفر تغطية الشىء تغطية تستهلكه والكفر جحود النعمة وسترها، وهو ضد الشكر، ويقال لأهل الحرب قد كفروا أى عصوا وامتنعوا، والكفر القير الذى تطلى به السفن لسواده وتغطيته، والكافر السحاب المظلم، والليل، والبحر، والكافر أيضا من غطى درعه بثوب فسترها. ثم تطورت دلالته بعد الإسلام وأصبح نقيض الإيمان، فقالوا: آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت، ورجل كافر: جاحد لأنعم الله، مشتق من الستر، وقيل لأنه مغطى على قلبه. وذلك أن الكافر لما دعاه الله إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة، وأحبها له إذا أجابها إلى ما دعاه إليه، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيد كان كافرا نعمة الله، أي مغطيا لها بإبائه، حاجبا لها عنه. والكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بألا يعرف الله أصلا، ولا يعترف به، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق[1].

فأدرك الشعراء هذه الدلالة الجديدة واستخدموا المصطلح بصيغ مختلفة فيستخدم حسان (أئمة الكفر) فى قوله[2]:

أَنْتُم أَحَابِيشُ جُمِّعْتُمْ بِلا نَسَبٍ ... أَئِمَّةُ الكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَاغِيهَا

ويستخدم (أهل النفاق) فى موضع آخر، فيقول[3]:

وَكَمْ رَدَدْنَا بِبَدْرٍ دُونَ مَا طَلَبُوا ... أَهْلَ النِّفَاقِ وَفِينَا أُنْزِلَ الظَّفَرُ

ويستخدم لفظ (كفور) فى موضع ثالث، فيقول[4]:

عَلَى أَسدِ اللهِ الَّذِى كَانَ مِدْرَهًا ... يَذُودُ عَنِ الإِسْلامِ كُلَّ كَفُورِ

(١) اللسان جـ ٥ ص ٣٨٩٧ وما بعدها (كفر).

(٢) ديوان حسان ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧..

(٤) المصدر نفسه ص ٢١٩.

ويستخدم كعب بن مالك لفظ (كافر) فيقول[1]:

وَشَيْبَةَ والـــتَّيمِىَّ غَادَرْنَ فِى الْوَغَى   وَمَا مِنْهُمُ إلا بِذِى الْعَرْشِ كَافِرُ

ويستخدم لفظ(الكفر) فى موضع آخر، فيقول[2]:

يَذُودُونَنَا عَنْ دِيـــنِنَـــا وَنَذُودُهُمْ   عَنِ الْكُفْرِ وَالـــرَّحْمَـــنُ رَاءٍ وَسَامِعُ

ويستخدم نوفل بن الحارث بن هاشم لفظ(كافر) فيقول[3]:

لَعَمْرِكَ مَا دِينِى بِشَىْءٍ أَبِيـــعُهُ   وَمَا أَنَا إذْ أَسْلَمْتُ يَوْمًا بِكَافِرِ

ويستخدم الحصين بن الحمام لفظ(الكافرين) فيقول[4]:

أَعُوذُ بِرَبِّى مِنَ الْمُخْزِيـــــات يَوْمَ تَرَى الـــنَّفْسُ أَعْمَالَهَا

وَخَفَّ الْمَوازِيـــنِ بِالْكَافِرِيـــنَ   وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَـــا

ويستخدم عمرو بن جبلة الكلبى لفظ(الجحد)، فيقول[5]:

أَجَبْتُ رَسُولَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى   وَأَصْبَحْتُ بَعْدَ الْجَحْدِ بِاللهِ أَوْجَرَا

ويتردد ذكر (الملائكة) فى شعرهم بصيغ مختلفة استمدوها -فى الغالب- من القرآن الكريم.

فهم (الملائكة المنزلون) فى شعر كعب بن مالك، يقول[6]:

لِفَقْدِ الـــنَّبِىِّ إِمَامِ الْهُدَى   وَفَقْدِ الْمَلائِكَةِ الْمُنْزِلِيـــنَا

ويذكر (جبريل) عليه السلام فى موضع آخر، فيقول[7]:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُـــمْ   جِبْرِيـــلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

---

(١) ديوان كعب ص ٢٠١.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠.
(٣) طبقات ابن سعد جـ٤ ق١ ص٣٦.
(٤) الأغانى جـ١٤ ص٤٨٩١.
(٥) طبقات ابن سعد جـ١ ق٢ ص٦٨.
(٦) ديوان كعب ص ٢٨١.
(٧) المصدر نفسه ص ١٩١.

وفى موضع آخر يذكر (جبريل وميكال)، فيقول[1]:

بِنَصْرِ اللهِ رُوحُ القُدُسِ فِيهَا   وَمِيكَالٌ فَيَاطِيبَ الْمَلاءِ

وكذلك يذكرها حسان بن ثابت فى قوله[2]:

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِينَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ   فَيَرْفَعُ النَّصْرَ مِيكَالٌ وَجِبْرِيلُ

ويذكر ابن رواحة أنهم(ملائكة شداد) وهم كذلك (ملائكة الإله المسومون)، فيقول:[3]

وَتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدَادٌ   مَلاَئِكَةُ الإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

ثالثا: ألفاظ ومصطلحات استدعتها الحياة الإسلامية الجديدة.

وإلى جانب هذه الألفاظ والمصطلحات التى رأيناها فى شعر المخضرمين وقد اكتسبت دلالات جديدة غير التى كانت تعرف بها نراهم يضمنون معجمهم الشعرى ألفاظا حضارية استدعتها الحياة الإسلامية الجديدة وتعاليم الإسلام.

فيذكر حسان بن ثابت (ليلة القدر) ويبين أنها فى العشر الأواخر من رمضان المعظم، فيقول[4]:

أُصِيبُوا وَفِى شَهْرِ الصِّيَامِ بَقِيَّةٌ   لِسَبْعِ لَيَالٍ تِلْكُمُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ

---

(١) ديوان كعب ص ١٦٩

(٢) ديوان حسان ص ٣٩٤.

(٣) ديوان ابن رواحة ص ١٠٦

(٤) ديوان حسان ص ١١٥.

ويذكرها أيضا أيمن بن خريم الأسدى ويبين أنها الليلة التى نزل فيها القرآن فيقول[1]:

أَمَا والَّذِى أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... وأَنْزَلَ ذَا الْفُرْقَانَ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ

ويذكر المخضرمون (قيام الليل) بما فيه من تسبيح وتلاوة وتهجد، فيقول ابن رواحة[2]:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ

ويذكر حسان عبادة عثمان بن عفان -رضى الله عنه - الذى كان يقضى ليله فى التسبيح وتلاوة القرآن، فيقول[3]:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

فإلى جانب قيام الليل والتسبيح وتلاوة القرآن يذكر حسان أيضا مصطلح (السجود) والسجود فى الإسلام يكون على جهة العبادة ولا يكون لغير الله عز- وجل-، وهو يعنى التواضع والخضوع بوضع الجبهة على الأرض، ولا خضوع أعظم منه، وتردد هذا المصطلح كثيرا فى شعر المخضرمين، فيقول حسان أيضا[4]:

أَمَّا قُرَيْشٌ فَإِنِّى غَيْرُ تَارِكِهُمْ ... حَتَّى يُنِيبوا مِنَ الْغَيَّاتِ لِلْرَشَدِ
وَيَتْرُكُوا اللاتَ والعُزَّى بِمَعْزَلَةٍ ... وَيَسْجُدُوا كُلُّهم لِلْخَالِقِ الصَّمَدِ

ويتردد أيضا فى قوله أبى خيثمة[5]:

---

(١) وقعة صفين ص٥٠٣.
(٢) ديوان ابن رواحة ص٩٦.
(٣) ديوان حسان ص٢١٦.
(٤) المصدر نفسه ص١٦١.
(٥) السيرة جـ٢ ص٣٠١.

فَـأَبْـلِغْ أَبَـا سُـفْـيَـانَ إِمَّـا لَقِـيْـتَـهُ   لَئِنْ أَنْتَ لَمْ تَخْلِصْ سُجُودًا وَتَسْلَمِ
فَأَبْـشِرْ بِـخِزْيٍ فِي الْـحَيَـاةِ مُعَـجَّلٍ   وَسِـرْبالِ قَـارٍ خَـالِدًا فِـى جَـهَنَّـمِ

ويذكره حميد بن ثور مقترنا بمصطلح (الزكاة) و(الصلاة) فى قوله[1]:

حَـتَّـى أَرَانَـا رَبُّـنَـا مُـحَـمَّـدَا   يَتْـلُـو مِـنَ اللهِ كِـتَابًـا مُرْشِـدَا
فَـلَـمْ نُـكَـذِّبْ وَخَرَرْنَـا سُـجَّـدَا   نُعْـطِي الـزَّكَاةَ وَنُـقِيـمُ الْمَـسْجِـدَا

وكذلك يتردد فى شعر المخضرمين العديـد من المصطلحات الإسلامية التى تحمل فرائض الإسلام وأحكامه.

فيذكـر حسان بن ثابت دعـائم الإسلام وفرائضـه وأحكامه التى نـزل بها جبريل عليه السلام، فيقول[2]:

اللهُ أَكْـرمَـنَـا بِـنَـصْـرِ نَـبِـيِّـهِ   وَبِـنَـا أَقَـامَ دَعَـائِـمَ الإِسْـلامِ
...
يَـنْـتَـابُنَـا جِـبْـرِيـلُ فِـى أَبْيَـاتِـنَـا   بِـفَرَائِـضِ الإِسْـلامِ والأَحْـكَـامِ

ويذكر حسان (الصلاة) فهى عنده عمود الدين فى قوله[3]:

أَقَامُوا عَمُودَ الدِّينِ حَـتَّى تَمَكَّنَتْ   قَـوَاعِـدُهُ بِـالْمُرْهَفَـاتِ الْـبَـوَاتِـرِ

ويرد مصـطلح (الصلاة) مقـترنا (بالزكاة) أيـضا فى قول عمرو بـن قريط العامرى[4]:

(١) ديوان حميد بن ثور ص٧٨.
(٢) ديوان حسان ص١٤٣ وما بعدها، وفى ديوان كعب أبيات من القصيدة نفسها (ديوانه ص٢٦ وما بعدها).
(٣) ديوان حسان ص٢٤٦.
(٤) الإصابة جـ٥ ص١٤٠.

ثَقُلَتْ صَلاةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْكُمُ بَنِى عَامِرٍ والْحَقُّ جَدٌّ ثَقِيلِ
واَتْبَعْتُمُوهَا بالزَّكَاةِ وَقُلْتُمُ أَلا لا تَفِرُّوا مِنْهُمَا بِقَتِيلِ

ويتردد أيضا لفظ(الصيام) فى قول كعب بن مالك[1]:

حَتَّى إِذَا خَلَصُوا إِلَى أَبْوَابِهِ دَخَلُوا عَلَيْهِ صَائِمًا عَطْشَانَا

وتقرن زينب بنت العوام الصلاة بالصوم فى قولها[2]:

وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الدِّينَ أَصْبَحَ مُدْبِرًا فَكَيْفَ نُصَلِّى بَعْدَهُ وَنَصُومُ

ومن الألفاظ التى استدعتها الحياة الإسلامية الجديدة ووردت فى شعر المخضرمين قولهم أمير المؤمنين وخليفة المسلمين والإمام، وأمين الله وولى الله، وغيرها من الألفاظ التى تدل على من يتولى أمر المسلمين.

فيذكر حسان بن ثابت(خليفة الله) فى قوله[3]:

لَعَلَّكُمْ إن تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبَطَةٍ خَلِيفَةَ اللهِ فِيكُمْ كَالَّذِى كَانَا

ويذكر فى موضع آخر (الإمام والأمين) فيقول[4]:

يَا قَاتَل اللهُ قَومًا كَانَ شَأْنُهُمُ قَتْلَ الإِمَامِ الأَمِينِ الْمُسْلِمِ الْفَطِنِ

ويذكر أيضا كعب بن مالك(الخليفة والإمام) فى قوله[5]:

قَتْلُ الْخَلِيفَةِ كَانَ أَمْرًا مُفْظِعًا قَامَتْ لِذَاكَ بَلِيَّةُ التَّخْوِيفِ
قَتْلُ الإِمَامِ لَهُ النُّجُومُ خَوَاضِعٌ والشَّمْسُ بَازِغَةٌ لَهُ بِكُسُوفِ

---

(١) ديوان كعب ص٢٨٤.
(٢) نسب قريش ص ٢٣٢، وجمهرة نسب قريش جـ١ ص٣٧٩، وأسد الغابة جـ٧ ص١٣٣، .
(٣) ديوان حسان ص ٢١٥.
(٤) المصدر نفسه ص٢١٣.
(٥) ديوان كعب ص٢٣٨.

ويذكر حنظلة التميمى كاتب الرسول-ﷺ- لفظ (الخلافة)فى قوله[1]:

عَـجِبْـتُ لِـمَا يَـخُوضُ الـنَّـاسُ فِيـهِ   يَــرُومُـونَ الْــخِــلافَـةَ أنْ تَــزُولا

ويستخدم حميد بن ثور المصطلح نفسه فى رثائه للخليفة عثمان بن عفان، فيقول[2]:

إنَّ الْـخِلافَـةَ لَمَّا أُظْـعِنَـتْ ظَعَـنَــتْ   عَنْ أَهْلِ يَثْرِبَ إذ غَيْرَ الْـهُدَى سَلَكُـوا

ولفظ (أمير المؤمنين) يتكرر كثيرا فى شـعر المخضرمين، فيستخدمه يزيد بن قيس بن الصعق فى قوله[3]:

أَبْـلِـغْ أَمِـيـرَ الْـمُـؤمِـنِـينَ رِسَـالَـةً   فَـأَنْتَ أَمِـينُ اللهِ فِى الـنَّـهْىِ وَالأَمْـرِ
وأَنْـتَ أَمِينُ اللهِ فِـيـنَـا وَمَنْ يَـكُـنْ   أَمِيـنًا لِرَبِّ الْعَـرشِ يُسْلِمْ لَـهُ صَدْرِى

ويرد أيضا فى شعر ليلى الأخيلية فى قولها[4]:

أَنْــتَ الَّــــذِى مِــــنْ بَـعْــــدِهِ   تُـدْعَــى أَمِيــرَ الْـمُــؤمِـنــيـنَـــا

ويستخدم أنس بن زنيم المصطلح نفسه فى قوله[5]:

أَبْـلِغْ أَمِـيَــر الْـمُــؤمِـنِـينَ رِسَالَـةً   مِـنْ نَاصِـحٍ لَـكَ لايُـرِيدُ خِـدَاعَـا

وعلى هذا الـنحو انتشرت هذه الألفـاظ والمصطلحات الإسلامـية الجديدة بصورة واضحـة فى المجتمع الإسلامـى وأدرك الشعراء المخضرمـون دلالاتها

(١) الطبرى جـ٤ ص٣٨٦.
(٢) ديوان حميد ص١١٤.
(٣) فتوح البلدان ص٥٤١.
(٤) نهاية الأرب للنويرى جـ١٩ ص٥١٣.
(٥) الشعر والشعراء جـ٢ ص٧٣٧.

الجديدة وضمنوها معجمهم اللغوى وحفلت بها أشعارهم ترددت على ألسنتهم، فلم يكن وجودها إلا صدى للمؤثرات الإسلامية والتعاليم الدينية الجديدة.

رابعا: الظواهر الإسلامية فى الأسلوب.

وكذلك استخدم المخضرمون أساليب إسلامية جديدة صبغت شعرهم بصبغة متميزة فهم فى رثائهم يرددون قولهم: صلاة الله وسلامه وتحياته على الفقيد أو رضوانه عليه، أو صلاة الملائكة والمؤمنين وسلامهم، وكلها أساليب استمدها الشعراء من آى الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى[1] ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وقوله[2]: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾. ويستمدون سلام الله والملائكة من قوله تعالى[3]: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ويستمدون رضوان الله من قوله تعالى[4]: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فيذكر حسان بن ثابت فى شعره(صلاة الله وصلاة الملائكة الذين يطوفون بالعرش وصلاة المؤمنين الطيبين)، فيقول[5]:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٣) سورة الرعد، الآيتان ٢٣، ٢٤.

(٤)سورة التوبة، الآية ٧٢.

(٥) ديوان حسان ص٢٠٩.

صَلَّى الإِلَــــهُ وَمَنْ يُطِيفُ بِعَرْشِهِ   وَالــــــطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحْمَدِ

ويستخدم كعب بن مالك الصياغة نفسها فى قوله[1]:

صَلَّى الإِلَــــهُ عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ   وَسَقَى عِظَامَهُمُ الــــغَمَامُ المُسْبِلُ

وتســتخـدم أروى بنت عـبـد المطلب (سـلام الله وتحيـاته ورضـوانه)فى قولها[2]:

عَلَيْكَ مِنَ اللهِ الــــسَّلامُ تَحِيَّةً   وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ الْعَدْنِ رَاضِيَا

وتستخدم صفية بنت عبد المطلب (رضوان الله) فى قولها[3]:

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَيًّــــا وَمَيْتًا   وَجَزَاهُ الجِنَــــانَ يَوْمَ الْخُلُودِ!

ومن الأساليب الشـعرية التى اسـتخدمـها الشعـراء المخضـرمون أسلوب القسم، وقد اتضحت فيه الظواهر الإسلامية عندما تأثر الشعراء بآيات القرآن الكريم وتعاليم الإسلام ومـفاهيم الحياة الجديدة، فنجد الشـعراء المخضرمين يستـمدون ألوان القـسم الجديدة من هذه التـعاليم حـيث لاينعقـد اليمين إلا بالله.

فنرى حـسان بن ثابت يقـسم قـسمـا جديدا فى مـدحه للرسـول-ﷺ- فيقول[4]:

وَاللهِ رَبِّى لا نُفَــــارِقُ أَمْــــرَهُ   عَفًّ الخَلِيــــقَةِ سَيِّدَ الأَجْــــدَادِ

. . .

وَاللهِ رَبِّى لا نُفَــــارِقُ أَمْــــرَهُ   مَــــادَامَ عَيْشٌ يُرْتَجَى لِمَعَــــادِ

---

(1) ديوان كعب ص٢٦١.
(2) طبقات ابن سعد جـ٢ ق٢ ص٩٣.
(3) المصدر نفسه ص٩٦.
(4) ديوان حسان ص٣٣٨.

ويقسم أيمن بن خريم الأسدى بمن أرسى الجبال وبمن أنزل الفرقان فى ليلة القدر، فيؤكد أفكارا إسلاميـة جديدة يستمدها من قوله تعالى[1]: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، يقول[3]:

أمَا والّذى أرْسَى ثَبِيـــــــراً مكَانَهُ ... وأَنْزَلَ ذَا الْفُرْقَانَ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ

ويقسم أبو صخر الهذلى قسما جديدا، فيقول[4]:

أمَا والَّذِى أبْكَى وأَضْحَكَ وَالّذِى ... أَمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِى أَمْرُهُ الأَمْرُ

فتأثر الشاعر بقوله تعالى[5]: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾.

ولم يكتف كثير من الشعراء بقسم واحد فى حلفهم، بل كانوا يكثرون من ألوان قسمـهم، ليرسموا صورا متـتابعة، ومشاهد مـتوالية؛ زيادة فى الإبداع الفنى وتقريرا لما يقصدون من معان.

وهذه الظاهرة الإسلاميـة نجدها فى قسم حميـد بن ثور الهلالى فى رثائه للخليفة عثمان بن عفان- رضى الله عنه، فيقول[6]:

إنِّى وَرَبِّ الــهَدَايَا فِى مَشَاعِرِهـــا ... وَحَيْثُ يُقْضَى نُذورُ الـنَّاسِ وَالـنُّسُكُ

وَرَبِّ كُلِّ مُنِيبٍ بَاتَ مُبْتَهِلاً ... يَتْلُو الـــــكِتَابَ اجْتِهَادًا لَيْسَ يَتْرُكُ

لا أُنْكِرَنَّ الَّذِى أَوْلَيْتَنِى أَبَدًا ... حَتَّى أُعَدَّ مَعَ الْهَلْكَى إِذَا هَلَكُوا

---

(١) سورة النازعات، الآية ٣٢

(٢) سورة القدر، الآية١.

(٣) وقعة صفين ص٥٠٣.

(٤) شرح أشعار الهذليين ج٢ ص٩٥٧.

(٥) سورة النجم، الآيتان ٤٣، ٤٤.

(٦) ديوان حميد بن ثور ص١١٤ والإسلام والشعر ص٢٠٨.

فلا شك أن هذه الأساليب الجديدة فى القسم متأثرة بتعاليم الإسلام وأفكاره ومبادئه التى كانت أهم ما يميز الشعر فى هذه الفترة.

ومن الظواهر الإسلامية التى نلاحظها فى لغة المخضرمين وأسلوبهم، استخدامهم التعبيرات الإسلامية التى تدل على روح الجماعة الإسلامية التى ينتمى إليها الشاعر ويتحد وجدانه بوجدانها، فيصور المسلمين وحدة واحدة تربطهم وحدة العقيدة الدينية.

وقد أكد علماء النفس أن التعبير اللغوى من الممكن أن يكشف سلوك الفرد تجاه الجماعة، فالإنسان عندما يتحدث عن اتجاهه نحو الهدف المشترك أو العقيدة المشتركة لا يقول(أنا) ولكن يقول(نحن). وهذا الضمير يكشف عن حقيقة دينامية ليست مجرد (أنوات مستقلة) ولكنها كل واحد[1].

فاستخدم المخضرمون العديد من الأساليب والصيغ التى تدل على روح الجماعة الإسلامية.

فهم (رجال هاجروا نحو ربهم) كما فى قول حسان بن ثابت[2]:

ذَرُوا فَلَجَاتِ الشَّامِ قَدْ حَالَ دَونَهَا ... ضِرَابٌ. كَأَفْوَاه اللِّقَاحِ الأَوَارِكِ

بِأَيْدِى رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ ... وَأَنْصَارِهِ حَقّا وَأَيْدِى الْمَلائِكِ

وهم كذلك عند عاصم بن عمرو التميمى، حيث يقول[3]:

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة. د/ مصطفى سويف، الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٨١ ص ١٢٣.

(٢) ديوان حسان ص١٦٤.

(٣) الطبرى جـ٣ ص٤٥٠وما بعدها، وياقوت جـ٥ ص١٢٩، ص ٤١٩.

لَعَمْرِى وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ   لَقَدْ صُبِّحَتْ بِالْخِزْىِ أَهْلُ النَّمَارِقِ
بِأَيْدِى رِجَالٍ هَاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ   يَجُوسُونَهُمْ مَا بَيْنَ دُرْتَا وَبَارِقِ

وهذه الصياغة الجديدة يستمدها الشعراء من قوله تعالى فى شأن جماعة المسلمين المخلصين[1]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ .

والهجر ضد الوصل والاسم منه الهجرة ويقصد به الخروج من أرض إلى أرض. والمهاجرون الذين ذهبوا مع الرسول-ﷺ-مشتق منه. وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن، يقال هاجر الرجل إذا فعل ذلك ، وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل إلى قوم آخرين بسكناه، فقد هاجر قومه وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التى نشأوا بها لله. والهجرة كما قال ابن الأثير: هجرتان: إحداهما التى وعد الله عليها الجنة فى قوله تعالى[2]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ .

فكان الرجل يأتى النبى-ﷺ- ويدع أهله وماله ولا يرجع فى شىء منه وينقطع بنفسه إلى مهاجره.

والهجرة الثانية: من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى، فهو مهاجر، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك الهجرة[3].

وبهذه الخصوصية الإسلامية للهجرة عبر الشعراء عن جماعة المسلمين بأنهم رجال هاجروا نحو ربهم.

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٧٤.
(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.
(٣) اللسان جـ٦ ص٤٦١٧ (هجر).

ويتردد ذكر جماعة المسلمين عند الشعراء المخضرمين فهم(خيار المؤمنين) عند حسان بن ثابت فى قوله[1]:

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا   شَعُوبَ وَقَدْ خُلِّفْتُ فِيمَنْ يُؤَخَّرُ

وهم (المؤمنون) فى موضع آخر من شعره، يقول[2]:

غَدَاةَ غَدَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ   إِلَى الْمَوتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَرُ

وهم كذلك عند كعب بن مالك، يقول[3]:

وَأُمَيَّةُ الْجُمَحِى قَوَّمَ مَيْلَهُ   عَضَبٌ بِأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ مُهَنَّدُ

وهم (كتيبة الإيمان) فى شعر بجير بن زهير، يقول[4]:

إِذْ قَامَ عَمُّ نَبِيِّكُمْ وَوَلِيُّهُ   يَدْعُونَ يَا لَكَتِيبَةِ الإِيْمَانِ

والمخضرمون أدركوا الخصوصية الإسلامية لهذه الصياغة الجديدة، فالإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق، ضده التكذيب. والفرق بين الإسلام والإيمان :أن الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى-ﷺ- وبه يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب، فذلك الإيمان الذى يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم، وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب عليه، وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه ولايدخله فى ذلك ريب. فهو المؤمن وهو المسلم حقا، كما قال الله- عز وجل[5]: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا

---

(١) ديوان حسان ص٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص٢٢٣.

(٣) ديوان كعب ص١٩١.

(٤) السيرة جـ٤ ص٩٣.

(٥) سورة الحجرات، آية ١٥.

وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾أى أولئك الذين قالوا إنّا مؤمنون فهم الصادقون، فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو فى الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق، فذلك الذى يقول أسلمت لأن الإيمان لابد أن يكون صاحبه صديقا[1]. وقد أدرك الشعراء هذه الدلالة الجديدة، فلم يكتفوا فى تعبيرهم عن جماعة المسلمين بالمؤمنين أو بخيار المؤمنين، بل أشاروا إلى التصديق أيضا الذى يصاحب الإيمان.

فهم (عباد صدق مخلصون) فى قول كعب بن مالك[2]:

لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا واللهَ حتَّى ... نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَا

وهم(فتيان صدق) جعلوا أموالهم وأنفسهم دون الرسول-ﷺ، يقول حسان[3]:

أَمْوَالُنَا وَنُفُوسُنَا مِنْ دُونِه ... مَنْ يَصْطَنِعْ خَيْرًا يُسَرُّ وَيُحْمَدُ
فِتْيَانُ صِدْقٍ كَاللُّيُوثِ مَسَاعِرٌ ... مَنْ يَلْقَهُمْ يَوْمَ الْهِيَاجِ يُعَرِّدِ

وهم كذلك عند العباس بن مرداس السلمى حيث يقول[4]:

وَأَنَّا مَعَ الْهَادِى النَّبِىِّ مُحَمَّدٍ ... وَفَيْنَا وَلَمْ يَسْتَوْفِهَا مَعْشَرٌ أَلْفَا
بِفِتْيَانِ صِدْقٍ مِنْ سُلَيْمٍ أَعِزَّةٍ ... أَطَاعُوا فَمَا يَعْصُونَ مِنْ أَمْرِهِ حَرْفَا

وهم (جند هداه الله) فى موضع آخر من شعره، يقول[5]:

---

(١) اللسان: جـ١ ص١٤٠ وما بعدها (أمن).
(٢) ديوان كعب ص ٢٨٠.
(٣) ديوان حسان ص٢٠٣.
(٤) السيرة جـ٤ ص١٠٢.
(٥) المصدر نفسه جـ٤ ص٥٣.

بِـجُــنْـدٍ هَــدَاهُ اللهُ أَنْـتَ أَمِــيـرُهُ   نُصِيبُ بِهِ فِى الْحَـقِّ مَنْ كَانَ أَظْلَـمَا

وهم (جند الله) كما فى قول زياد بن حنظلة التميمى[1]:

وَإِذْ أَرْطَـبُونُ الـرُّومِ يَحْـمِى بِـلادَهُ   يُـحَـاوِلُـهُ قَـرْمٌ هُـنَــاكَ يُـسَـاجِـلُـهْ

فَلَـمَّا رَأَى الْـفَارُوقُ أَزْمَانَ فَـتْحِـهَا   سَـمَا بِـجِـنُـودِ اللهِ كَيْـمَـا يُـصَاوِلُـهْ

وجند الله هؤلاء هـم (الضاربون جنود الشرك) كما فـى قول العباس بن مرداس[2]:

قَوْمٌ هُــمُ نَصَــرُوا الرَّحْمــنَ وَاتَّبَـعُوا   دِينَ الـرَّسُولِ وَأَمْـرُ النَّـاسِ مُشْـتَجِـرُ

. . . .

الضَّـارِبُونَ جُـنُودَ الشِّـرْكِ ضَاحِـيَةً   بِـبَـطْــنِ مَـكَّـةَ وَالأَرْوَاحُ تُـبْـتَـدَرُ

وهم (حـزب الإله) والحزب جـماعة الـناس، وحزب الـرجل: أصحـابه وجنده الذين على رأيه. وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب.

والمنافقـون والكافرون حزب الشيطـان الذين تألبوا وتظاهـروا على حزب النبى-ﷺ[3]. أما حـزب الإله فـهم الـذين اتبـعوا الـرسول-ﷺ-وصـدقوه وتشاكلت قلوبهم وأعمالهم على طاعة الله ونصرة رسوله.

وهؤلاء(هم أولياء الله) كما فى قوله تعالى[4]: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فهو ولـيهم فى حجـاجهم وهدايتـهم وإقامة البـرهان لهم؛ لأنه يـزيدهم

(١) الطبرى جـ٣ ص٦١٢ وما بعدها.
(٢) السيرة جـ٤ ص١٠٥ وما بعدها.
(٣) اللسان جـ٢ ص٨٥٣ (حزب).
(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

بإيمانهم هداية، ووليهم فى نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على مخالفيهم، وقيل: وليهم أى يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم[1]. أما الذين كفروا فهم أولياء الشيطان.

فتطرد هذه الصيغ عند المخضرمين فهم(حزب الإله) عند كعب بن مالك، يقول[2]:

لَيْسَا سَوَاءً وَشَتَّى بَيْنَ أَمْرِهِمَا حِزْبُ الإلهِ وأَهلُ الشِّرْكِ وَالنُّصُبِ

وهم أولياء الله عند حسان بن ثابت، يقول[3]:

هُمُ أَوْلِيَاءُ اللهِ نَزَّلَ حُكْمَهُ عَلَيْهِمْ، وَفِيهِمْ ذا الكِتَابُ الْمُطَهَّرُ

وهم(المعتصمون بحبل الله) كما أخبر عن ذلك جل ذكره[4]: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ و قوله[5]: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فيقول حسان[6]:

مُتَعْصِمِينَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْجَذِمٍ مُسْتَحْكَمٍ مِنْ حِبَالِ اللهِ مَمْدُودِ

وهم (عصبة) و(عصب) حول النبى-ﷺ- نصره الله بهم. والعصبة والعصابة: جماعة مابين العشرة إلى الأربعين، وقد جاء فى قوله تعالى[7]: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وكل جماعة رجال وخيل بفرسانها، أو جماعة طير أو

---

(1) اللسان جـ٦ ص٤٩٢٣.

(2) ديوان كعب ص١٧٥.

(3) ديوان حسان ص٢٢٤.

(4) سورة آل عمران، الآية ١٠٣

(5) السورة نفسها ،الآية ١٠١..

(6) ديوان حسان ص٢٤٢.

(7) سورة يوسف، الآية٨.

غيرها: عصبة وعصابة، والعصبة: الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يعصبونه، ويعتصب بهم، أي يحيطون به ويشتد بهم، وتعصبنا له ومعه: نصرناه، وعصبة الرجل: قومه الذين يتعصبون له، وعصبوا به: اجتمعوا حوله[1].

فيدرك كعب بن مالك الخصوصية الإسلامية لهذه اللفظة، فيقول مشيرا إلى جماعة المسلمين[2]:

فِى عُصْبَةٍ نَصَرَ الإلـهُ نَبِيَّهُ ... بِهِمُ وَكَانَ بِعَبْدِهِ ذَا مَرْفَقِ

ويقول فى موضع آخر[3]:

تَلْقَاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِىِّ لَهُمْ ... مِمَّا يُعِدُّونَ لِلْهَيْجَا سَرَابِيلُ

وهم (أعفة) كما جاء فى قوله تعالى[4]: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾.

والعفة: الكف عما لا يحل ويجمل. عفَّ عن المحارم والأطماع الدنية، والاستعفاف كما جاء فى التنزيل: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[5]: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾[6] طلب العفاف، وهو الكف عن الحرام والسؤال من الناس، أى من طلب العفة وتكلفها أعطاه الله إياها. والاستعفاف: الصبر والنزاهة عن الشيء[7]: فيتمثل حسان بن ثابت الخصوصية الإسلامية لهذه الصياغة فيقول[8]:

أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِى الْوَحْىِ عِفَّتُهُمْ ... لا يُطْبَعُونَ وَلا يُرْدِيهُمُ الطَّمَعُ

---

(١) اللسان جـ٤ ص٢٩٦٥ وما بعدها(عصب).

(٢) ديوان كعب ص٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه ص٢٥٦.

(٤) سورة البقرة ،الآية ٢٧٣.

(٥) سورة النور، آية ٣٣.

(٦) سورة النساء، الآية ٦.

(٧) اللسان جـ ٤ ص٣٠١٥ (عفف).

(٨) ديوان حسان ص٢٣٨.

وعلى هذا النحو لم يعد لصوت العصبيات القبلية صدى فى شعر المخضرمين الذين أسلموا وحسن إسلامهم؛ لأنهم استبدلوا بتعبيراتهم عن العصبية تعبيرات أخرى جديدة- كما رأينا- تنبع من روح الإسلام، وتستمد مادتها اللغوية من معينه لتدل على هذه الروح القومية التى تحققت لدى جماعة المسلمين فى عهد الرسول-ﷺ- وخلفائه الأولين.

ويمكننا القول بأن المعجم الشعرى لدى الشعراء المخضرمين فى ظل الإسلام قد طرأ عليه تغيير وتعديل وتطويرلا ينبغى التهوين من شأنه، فقد تأثروا فى ألفاظهم وأساليبهم وتعبيراتهم وطرق صياغتهم بآى الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول-ﷺ- واستمدوا لغتهم-فى الغالب- من هذا القبس الذى لايخبو، وتطورت دلالات كثير من ألفاظهم واستحدثت دلالات جديدة ومصطلحات جديدة تتناسب مع مفاهيم الحياة الإسلامية المتميزة والتطور الذى شهده المجتمع آنذاك. وهذه الحقيقة أغفلها كثير من الباحثين الذين انساقوا وراء آراء اللغويين والرواة القدماء الذين جاهروا بدعوى ضعف الشعر فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين، إذ كانت الأشعار الجاهلية بما فيها من رصانة وجزالة وغريب تمثل عندهم النموذج الكامل للشعر العربى[1].

وأغلب الظن أن هذه الدعوى ليس سببها الإسلام كما يعتقد البعض؛ لأننا لو دققنا النظر فيما ذكره القدماء لأدركنا أن هذه الفكرة لم تنطبق على شعراء الإسلام وحدهم بل اختصوا بها بعض شعراء الجاهلية، فقد أعرضوا من قبل عن رواية شعر عدى بن زيد العبادى وأبى دؤاد الإيادى؛ لأنهما

---

(١) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول ص٧٨ وما بعدها.

تحررا من الأساليب البدوية التى تميل إلى الجزالة والفخامة، واستخدموا الألفاظ والأساليب الحضرية.

وبالرغم من اعترافهم بمكانة عدى بن زيد الشعرية، فقد ذكر أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء قال: (كان عدى بن زيد من الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم، يعارضها ولايجرى مجاريها. قال: والعرب لا تروى شعره؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية، وكان نصرانيا من عباد الحيرة قد قرأ الكتب)[(1)]: وقالوا عنه أيضا: (وكان يسكن الحيرة، ويدخل الأرياف، فثقل لسانه واحتمل عنه شىء كثير جدا، وعلماؤنا لا يرون شعره حجة)[(2)].

ونفهم من ذلك أن جزالة الألفاظ وشدة وقعها على الأذن وغرابتها كانت من أهم المعايير التى اعتمد عليها الرواة واللغويون فى تقويم الشعر الجاهلى.

وقد أحس اللغويون والرواة فى شعر عدى بن زيد وأبى دؤاد لينا وسهولة[(3)]. لاختلاطهما بالبيئات الحضرية، وركونهما إلى الريف والبعد عن البادية. ثم قالوا عن عدى: إنه نصرانى قد قرأ الكتب. فما بالنا بالشعراء المخضرمين الذين أسلموا وعكفوا على كتاب الله- وهو ذروة البلاغة والفصاحة- بالحفظ والتلاوة، وسمعوا أحاديث الرسول-ﷺ- وكان أغلبهم من المناطق الحضرية فى مكة والمدينة وغيرها، وخالطوا الفرس والروم، وغيرهما من الأجناس بعد استقرار الفتوحات الإسلامية.

ألم يكن لكل ذلك تأثير فى شعرهم؟ وإن كان التأثير واضحا- كما بينا-

(1) طبقات ابن سلام جـ1 ص140 والشعر والشعراء جـ1 ص230.
(2) الشعر والشعراء جـ1 ص225.
(3) المصدر نفسه جـ1 ص 238.

فى معــانيهم ولغتــهم، فلماذا يتــهم معظم شعــرهم بأنه أقرب إلى الــنظم، وينقصه الخيال الخلاق والقدرة الفنية؟.

ألم يكن عدى بن زيد من الشعراء بمنزلة ســهيل فى النجوم؟ وحياته تشبه إلى حد كبير حــياة المخضرمين الذين جابوا الآفاق وقرأوا كتــاب الله فهم من الشعــراء بمنزلة عدى بــل يفضلونــها؛ لأنهم عاشــوا فترة الثورة والانــتقال. والنظرة الموضــوعية لشعرهم ينبغــى ألا تغفل مراحل التطور التــدريجى التى تبلورت فيها اللغة الإسلامية الحضرية بألفاظها وأساليبها، تلك التى اتضحت معالمها فى العصر الأموى بعد ذلك.

* * *

ثانيا: الموسيقا.

لاشك أن الوزن والموسيقا فى شعرنا العربــى هما أبراز الخصائص الشكلية التى تميزه، وقد أشار ابن رشيق إلــى ذلك حين قال: (الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولاها بــه خصوصية)[1]؛ لأنه بمثابــة الوعاء الذى يتخلق الــشعر فى حناياه.

فالشــعر فى الحقيقــة ليس إلا كـــلاما منغمـــا فيـــه عدة نواح جمــالية أسرعــها إلى نــفوسنا مــا فيه مــن جرس الألفــاظ والانسجـــام فى تــوالى المقاطع،بحيث تخــضع لنظام خاص فى هذا التوالى، ويتردد بعــضهــا بعــد قدر معين منهـــا، وإذا دربت الآذان على هذا النظام الخاص ألفته وتوقعته فى أثناء سمـــاعها.

(١) العمدة جـ١ ص١٣٤.

ومثل الوزن فى هذا مثل كل شيء منظم التركيب منسجم الأجزاء يستطيع الإنسان بسهولة أن يدرك سر توالى أجزائه وتركيبها خيرا مما يمكن أن يدرك المضطرب الأجزاء الخالى من النظام والانسجام[1]. ولسنا نعرف شاعرا فى أى أمة من الأمم كان ينظم الشعر دون إعداد سابق؛ لأن عملية النظم تتطلب شحذ الذهن، وإعمال الفكر، ولا سيما إذا كان الشاعر يهدف إلى الإجادة والتفوق فى ميادين المنافسة الشعرية حتى يحظى بإعجاب جمهور السامعين، فينتشر شعره، وتتناقله الألسنة وتعيه الحافظة فيضمن له الذيوع والخلود. وشرط ذيوع الشعر أن ينسجم مع بيئته اللغوية فى ألفاظه وأخيلته وأوزانه، وربما فرضت البيئة اللغوية على شعرائها التزام أوزان خاصة شاعت فيها وألفتها الآذان أكثر مما تفرض عليهم التزام أخيلة وألفاظ بعينها. فالجمهور من حيث الوزن يتوقع طريقا مرسوما قد ألفته أذنه وتعود سماعه، فإذا أخل به الشاعر أو تصرف فيه أو اخترع وزنا جديدا لم يجد الناس يقبلون بحماسة على هذا الجديد[2].

لذلك عندما ما جاء الإسلام وجد للشعر العربى نظاما خاصا فى أوزانه وقوافيه ثم تكوينه وشيوعه منذ العصر الجاهلى. ومن ثم لانكاد نظفر من الشعراء المخضرمين بجديد فى أوزان الشعر وقوافيه، فليس منهم من حاول التجديد أو التفنن فى نظام الموسيقا الشعرية الخارجية التى تشكل الإيقاع العام للبيت أو القصيدة؛ لأن هذا النظام قد شاع فى بيئاتهم اللغوية وألفته

(١) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م ص٨ وما بعدها.
(٢) المرجع نفسه ص ١٨٧ وما بعدها.

آذانهم، فمن العسير إذًا التعديل أو التغيير فيه؛ لأن تطور الأوزان الشعرية أو التجديد فيها أمر بطيء، فأدنى تعديل أو تغيير يتطلب زمنا طويلا ونتاجا شعريا كثيرا حتى تستسيغه الآذان ويصبح مألوفا محبوبا يعتاده جمهور السامعين. وحقيقةأخرى ينبغى أن نشير إليها، وهى أنه لا يمكن أن يقاس نبوغ الشاعر بأن نتلمس فى شعره أوزانا جديدة كل الجدة، فقد استمرت الأوزان العربية القديمة التى حصرها الخليل وتلميذه فى ستة عشر وزنا حتى يومنا هذا، ولم يكن ذلك (مجرد مسألة تقليدية أو قصورا من الشعراء عن الابتكار والتجديد، ولكن هذه الأوزان الستة عشر تمثل فى الواقع تنوعا موسيقيا واسع المدى يتيح للشعراء أن ينظموا فى دائرته كل عواطفهم وخواطرهم وأفكارهم، ودون أن يجدوا تضييقا أو حرجا يضطرون معه إلى محاولة الخروج على هذه الأوزان ليلائموا بين مادة شعرهم الجديدة وما تقتضيه من موسيقا وإيقاع خاصين)[1].

وبعد هذا، ينبغى أن نسأل أنفسنا: هل كان الشاعر المخضرم يتخير لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته؟ وهل جاءت هذه الأوزان المختلفة تبعا لاختلاف الشعور عند الناظمين المخضرمين؟ ونحن لانجد إجابة مقنعة لهذا التساؤل، فهناك فكرة قديمة ذهبت إلى تحديد طابع نفسى لكل وزن أو مجموعة من الأوزان الشعرية، فبعض الأوزان يتفق وحالة الحزن، وبعضها يتفق وحالة البهجة وما إلى ذلك من أحوال النفس.

وعلى هذا، فالشاعر حين يعبر عن نفسه خلال وزن معين إنما يختار لنفسه

---

(١) اتجاهات الشعر العربى ص٥٣٥.

أكثر الأشكال الطَّبعيّة تناسبا مع حالته الشعورية، وعندئذ يمكن أن يقال: إن الوزن، برغم أنه صورة مجردة، يحمل دلالة شعورية عامة مبهمة، ويترك للكلمات بعد ذلك تحديد الدلالة. فالمبدأ الذى ينبغى أن يسود فى البناء الموسيقى للقصيدة، أن يكون البناء صورة نفسية لحالة الشاعر... وتمشيا مع هذه الفكرة القديمة تستحضر نفس الشاعر الوزن الذى يتفق وحركتها من بين مجموعات الأوزان التى تناسب ألوان الانفعال المختلفة[1]. ومع ما فى هذه الفكرة المبكرة من جوانب صادقة إلا أننا لا نستطيع أن نؤمن بها إيمانا كاملا، فالوزن ذاته ، أى فى صورته المجردة، لا يمكن أن يحتمل أى دلالة انفعالية ولا يستطيع أن يضفى على الشعر لونا معينا؛ لأن أى عملية استقراء بسيطة لمجموعة من القصائد تدلنا فى وضوح على أن الشعراء قد عبروا عن حالات الحزن والبهجة فى الوزن نفسه. فالوزن المجرد وحده لا يحمل أى دلالة خاصة، وإنما تحدد دلالته فيما بعد عناصر الشكل التى تعطى للقصيدة لونها بالإضافة للعناصر الموسيقية الأخرى التى ترتبط بالايقاع ودرجته، مثل الصعود والهبوط فى الشدة الصوتية، وتوزيع النبرات القوية والضعيفة والعادية مع وقفات أطول وأقصر[2].

وفى ذلك يقول أحد الباحثين: (إن الأوزان المختلفة التى تتألف منها بحور الشعر لاتتبع أغراض الشعر من مديح أو هجاء، أو تهنئة أو رثاء، بحيث يناسب كل منها غرضا معينا دون الآخر، بقدر ما تكون تابعة للحالة الانفعالية للشاعر ودرجة توتره النفسى حين العملية الإبداعية. فإذا كان توتر

(١) التفسير النفسى للأدب، د/ عز الدين إسماعيل، نشر دار العودة ودار الثقافة بيروت (د/ت) ص ٥٩.
(٢) المرجع نفسه ص ٦٠

الشاعر النفسى معتدلا، وحالته الشعورية الانفعالية متزنة، فإن شعره فى الغالب يأتى على البحور الطويلة التى تكون أكثر انسجاما مع تلك الحالة الشعورية حيث تنساب العاطفة على إيقاعاتها انسيابا، سواء أكان الغرض مدحا أم هجاء، تهنئة أم رثاء أم غير ذلك. أما إذا كان توتر الشاعر النفسى حادا أو انفعاله شديدا حين العملية الإبداعية، فإن ذبذبات حركاته الشعورية المحتدمة المتأججة المتلاحقة، تكون أكثر انسجاما مع البحور الشعرية ذات الإيقاع القصير السريع، سواء أكان انفعال الشاعر وتوتره النفسى ناشئا عن حزن أو فرح، طمع أو وفاء أو غير ذلك)[1].

ويؤكد غيره هذه الفكرة حين يقول: (ليس من الحتم اللزام أن تكون البحور الكثيرة المقاطع مقصورة على الفخر والمدح، والبحور القصيرة والمتوسطة مقصورة على الغزل)[2].

ونخلص من ذلك بأن المخضرمين فى نظمهم استخدموا الأوزان نفسها التى نسج عليها الأوائل أشعارهم، وأكثروا من استخدام أوزان معينة ألفتها الطباع واستراحت إليها الآذان والأذواق فى بيئتهم العربية. فمن خلال تتبعنا لبعض دواوينهم وجدنا أن البحور التى كانت موفورة الحظ من الذيوع والاستعمال فى شعرهم هى:

الطويل: ويليه فى نسبة الشيوع الكامل والبسيط، ثم يأتى بعد ذلك الوافر والخفيف والمتقارب، وتذبذبت نسبة شيوع البحور الأخرى بين القلة والكثرة،

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د/ مجيد عبد الحميد ناجى، الطبعة الأولى المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ص٥٩.

(٢) التجربة الشعرية فى القصيدة العربية القديمة، د/ مصطفى على عمر- دار المعارف ١٩٨٩م ص١٢٠.

مثل: الـرمل والسريع والمنـسرح والرجز. وإذا تتبـعنا هذه البحـور فى إطار عناصر الشكل الأخـرى- بحثا فى خصائص أوزانها، وما تتـركه فى النفوس من آثار- لوجدنا لأكثرها خصائص بارزة- ليـس هنا مجال تفصيلها- أدركها الشعراء المخضرمون وحاولوا الانتفاع بها قدر استطاعتهم حتى يبلغوا بشعرهم الغاية المبتغاة.

وينبـغى أن نشيـر فى هذا الموضـع إلى حقيـقة أخرى، وهى أن الـشعراء المخضرمين لـم يلجأوا كثيرا فى شـعرهم إلى البحور القـصيرة أو المجزوءة، بالرغم من طبيعة المواقف التى فرضتـها الظروف الجديدة واضطرتهم فى كثير من الأحيان إلى الارتجال، وإنشاء الشعر تحت تأثير انفعالات معينة يلجأ فيها الشاعـر عادة إلى اختيـار البحور القصـيرة والأوزان المجزوءة فأعرضـوا عـن ذلك ، ومالوا إلـى استخدام البحـور الطويلة لينـتفعوا بمزاياهـم، حتى جاء معظم شعرهم مقطـعات قصيرة فرضتها عليهم طبيعة المواقـف السابقة وميلهم إلى هذه البحور الطويلة.

وإذا تتبـعنا شعر المخـضرمين الإسلامى نجد مـعظمه يهـدف الى الإصلاح الاجتماعى وتعضيد الدعوة الإسلامية وخـدمة الدين ونشر مبادئه والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذه الأمور تتطلـب شحذ الذهن وإعمال الفكر لذلـك كان شعرهم من النوع الهادئ الذى نلـمس فيه التأنى والتؤدة، فجاء معـظمه فى أوزان طويلة ذات مقاطع متعددة تـتناسب مع طول النفس فى الإنشاد، ويسـتطيع الشعراء من خلالها التعبير عما يجيش فى نفوسهم من مشاعر ذاتية وأحاسيس.

وهذه الظاهرة جديرة بأن نقف عندهـا؛ لأن هؤلاء الشعراء عندما أسلموا وحسن إسلامهم أحسوا أنهم يعيشـون فى كنف الرسول-ﷺ- يهتدون بهديه ويطمئنون لجواره، فشعروا بهذا الاطمئنان الـنفسى الذى نستطيع أن نلمسه من

خلال الإيقاع والموسيقا الداخلية التى يقصد بها جرس اللفظة المفردة ووقعها على السمع الناشئ من تأليف أصوات حروفها وحركاتها، ومدى توافق هذا الإيقاع الداخلى مع دلالة اللفظة.

فجرس الألفاظ له دور هام فى إثارة الانفعال المناسب؛ لأن الإيقاع الداخلى للألفاظ والجو الموسيقى الذى يحدثه عند النطق بها يعد من أهم المنبهات المثيرة للانفعالات الخاصة المناسبة كما أن له إيحاء نفسيا خاصا لدى مخيلة المتلقى والمتكلم على السواء[1].

فاذا نظرنا فى قصيدة حسان بن ثابت التى مطلعها[2]:

وشَقَّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُعِزَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

نجدها من بحر الطويل الذى تتعدد فيه المقاطع الصوتية لتحدث نوعا من الموسيقا الداخلية، والشاعر فى هذه القصيدة يمدح الرسول-ﷺ- ويمدح الذات الإلهية فحالته النفسية مستقرة، فنلاحظ على انفعالاته الاطمئنان والهدوء؛ لأنه يريد أن يركز على فكرة معينة تحتاج إلى منطق العقل ونوع من التفكير، فظهر فى أبياته نوع آخر من الموسيقا إلى جانب الإيقاع العام للقصيدة، وهذا النوع من الموسيقا يحدثه جرس الألفاظ ويظهر بوضوح حين تتردد بعض الحروف التى تكسب الشطر أو البيت لونا من الإيقاع الهامس الذى تستريح إليه الآذان، وتحدث أنغاما معينة تزيد من موسيقا البيت جمالا وروعة إلى جانب الإيقاع الخارجى، وهذه الموسيقا تظهر بوضوح عند حسان حين يقول[3]:

فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا ... يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنَّدُ

. . .

فَأَنْتَ إِلهُ الخَلْقِ رَبِّى وَخَالِقِى ... بِذَلِكَ مَاعُمِّرْتُ فِى النَّاسِ أَشْهَدُ

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ص٤١.
(٢) ديوان حسان ص٣٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص٣٣٩.

ففى البيت الأول نلاحظ تكرار حرف السين وهو حرف صفيرى، كما نلاحظ تكرار التنوين فى الشطر الأول ثلاث مرات (سراجا)، (مستنيرا)، هاديا). وفى الشطر الثانى استخدم الجناس الاشتقاقى (يلوح)، (لاح) والحاء حرف حلقى له صوت عميق، كما نلاحظ توالى حركات المد فى (يلوح)، (لاح)، (الصقيل) والتضعيف فى (المهند).

ونلاحظ أن هذه الموسيقا الداخلية تزداد وضوحا حين يضيف الشاعر إلى القافية التى بنى عليها قصيدته قافية أخرى داخلية فيما يسمى بالتصريع الذى يكون عادة فى مطلع القصيدة فحسب تتمثل فى قوله[1]:

لأَنَّ ثوَابَ اللهِ كُلَّ مُوَحِّدٍ   جِنَانُ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فِيهَا يُخَلَّدُ

وإلى جانب تكرار الحروف وتعدد المقاطع فى بحر الطويل نجد أيضا الوقفات المتعددة التى تختلف بين الطول والقصر تساهم فى هذا اللون الهادئ من الموسيقا الداخلية، ويتحقق ذلك فى شعر حسان بن ثابت فنراه فى خطابه لأبى بكر الصديق- رضى الله عنه- يكرر حرف الضاد ليحدث هذا الإيقاع الهادئ رغم أنه من الحروف المطبقة التى تناسب المعانى العنيفة، ولكن براعة الشاعر فى اختيار بنية الكلمات جعل حرف الضاد يتآلف مع حروف أخرى لينة ليحدث لنا هذه الموسيقا التى نلحظها فى قوله[2]:

فَإِنْ تَرْضَ هَذا فَالرِّضَا مارضيته   وَإِلا فَغَيْرٌ إِنَّ أَمْرَكَ رَاشِدُ

ويظهر هذا الهدوء والاطمئنان النفسى بوضوح حين ينظم الشعراء التعاليم الدينية؛ لأن الفكرة هى التى تسيطر على مشاعرهم ومحاولة عرضها فى سهولة ويسر يجعل لجرس الألفاظ إيقاعا ظاهرا دون تعمد أو قصد.

فإذا نظرنا فى قصيدة حسان التى نظمها فى هذا الغرض التعليمى نستطيع أن نحس هذا الإيقاع حين يقول[3]:

---

(١) ديوان حسان ص٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه ص٣٨٢.

(٣) المصدر نفسه ص٢٧٨.

والشُّـرْبُ لاتُدْمِـنْ وَخُذْ مَـعْرُوفَـهُ   تَخْـرُجْ صَحِيـحَ الرَّأْسِ لاتَتَـصدَّعُ
وَاكْدَحْ لِـنَفْسِـك لاتُكَـلِّف غَيْـرَهَا   فَـبِدِيـنِهَـا تُجْـزَى وَعَـنْهَـا تَدْفَـعُ
وَالْمَـوتُ إعْدَادُ النُّـفُوسِ وَلا أَرَى   مِنْـهُ لِـذِى هَـرَبٍ نَجَـاةً تَـنْفَـعُ

ويتحقق هذا اللـون من الموسيقا أيضا فى شعر لبيد بـن ربيعة حين يعرض لفكرة تحتاج إلى إعمال الفكر وشحذ الذهـن فيصحب انفعاله لونا هادئا من الموسيقا الداخلية نلاحظه فى قوله[1]:

لِـلَّـه نَـافِـلَةُ الأَجَـلِّ الأَفْـضَـلِ   ولَـهُ الْعُـلَـى وَأَثِيـثُ كُـلِّ مُؤَثَّـلِ
لا يَسْـتَطِـيعُ الـنَّاسُ مَـحْوَ كِـتَابِـهِ   أَنَّـى ولَـيْـسَ قَـضَـاؤُهُ بِـمُـبَـدَّلِ
سَـوَّى فَأَغْـلَـقَ دُونَ غُـرَّةِ عَرْشِـهِ   سَـبْعـاً طِـبَاقـاً فَوْقَ فَـرْعِ المـنْقَـلِ

فتنـاغم الحروف والألفاظ إلى جـانب إيقاع بحـر الكامل الذى تطـرد فيه متفـاعلن بصـفة مستـمرة واطلاق حرف الـروى، كل هذه الأمور تـزيد من الموسيقا الداخلية التى تجذب الآذان وينفعل معها الوجدان.

ولو تتبعنا شعر المخضرمين لوجدنا شواهد كثيرة على ذلك منها قصيدة أبى قيس صرمة بـن أبى أنس التى تحدثنا عنهـا فى الشعر التعليمـى وعرض فيها لقضايا دينية وأخرى اجتماعية عرض لها الإسلام وأكدها، فغلبت الفكرة فيها على الـتجربة الشعـرية؛ لأنها من شـعر الدعوة الذى يهـدف إلى الإصلاح الدينى والاجـتماعى، فتتمـيز موسيقاه، بـالهدوء؛ لأنه يستخـدم ألفاظا ذات دلالات إسلامية تتآلف أصوات حروفها وحركاتـها على الأذن فتثير فى النفس إيحاء نفسيا خاصا يتناسب مع انفعال الشاعر في عرض هذه القضايا، فيقول فى هذه القصيدة[2]:

---

(١) ديوان لبيد ص٢٧١.

(٢) السيرة جـ٢ ص١٣٢ ومابعدها.

يَابنِىَّ الأَرْحَامَ لاتَقْطَعُوهَا   وَصِلُوهَا قَصِيــــرَةً مِنْ طُوَالِ

وَاتَّقُوا اللهَ فِى ضِعَافِ الْــيَتَامَى   رُبَّمَا يُسْتَحَــلُّ غَيْــرُ الْحَــلالِ

وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْـــيَتِيـــم وَلِيًا   عَالِمًا يَهْتَدِى بِغَيْرِ الـــسُّؤَالِ

ثُمَّ مَــالَ الْــيَتِيـــمِ لاتَأْكُلُــوهُ   إِنَّ مَالَ الْــيَتِيـــمِ يَرْعَاهُ وَالِى

يَابَنِىَّ الْــــتُّخُومَ لاتَخْزِلُوهَا   إِنَّ خَزْلَ الْــــتُّخُومِ ذُو عُقَّالِ

يَابَنِىَّ الأَيَّامَ لاتَأْمَنُــــوهَـــا   وَاحْذَرُوا مَكْرَهَا وَمَرَّ اللَّيَــــالِى

وَاعْلَــمُوا أَنَّ مَرَّهَا لِنَفَادِ الْخَلْـ   ـــقِ مَا كَانَ مِنْ جَدِيــدٍ وَبَالِ

وَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالــتَّقْـ   ـــوَى وَتَرْكِ الْخَنَا وَأَخْذِ الْحَلالِ

وتتضح هذه الظاهرة في الابتـهالات الدينية ذات السمات الإسـلامية التى يتوجه بها الشـعراء إلى الله- عز وجل- طمعا فى عفوه ومغـفرته ورحمته، وتضرعا إليـه، وخشية من سخطه وعذابه، وهذه الابتـهالات تتطلب الهدوء النفسى، والاطمئنان القلبى الذى يشعر به الإنسـان المؤمن ويفتقده من يعرض عن ذكر الله؛ لأنه كما قـال الحق تبارك وتعالى[1]: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾.

ولابد أن ينعكس هذا الاطمـئنان على التجـربة الشعـرية للشاعر فـيخـتار لنفسه من الألفاظ ما يتناسب وحالـته الشعورية ولابد لهذه الألفاظ أن تكون ذات دلالات إسلامية ولها خصوصية دينية، فـيركب الشاعر بنية كلماته تركيبا فيه لين ورفق بحيث يحدث هذا الإيقاع الداخلى الذى يتميز بالهدوء ليناسب انفعالاته التى أراد التـعبير عنها وهو فى حالة اطمـئنان وخشوع، ويطرد هذا فى شعر النعمان بن بشير الأنصارى فى مثل قوله[2]:

(١) سورة الرعد، الآية ٢٨.

(٢) شعر النعمان بن بشير ص٩٢.

رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى كَثِيراً فَاعْفُ عَنِّى أَنْتَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ
وَقِنِى شَرَّ مَنْ أَخَافُ فَإِنِّى مُشْفِقٌ خَائِفٌ لِمَا تَسْتَعِيدُ
مِنْ خُطُوبٍ إِذَا ذَكَرْتُ ذُنُوبِى وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ فِيهِ الْوَعِيدُ

وإلى جانب تردد الحروف التى تحدث أنغاما معينة تزيد من الموسيقا الداخلية للبيت، نجد أيضا البديع اللفظى، وهذا النوع من البديع وثيق الصلة بموسيقا الألفاظ، فهو فى الحقيقة ليس إلا تفننا فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام حتى يكون له نغم وموسيقا؛ لأنه يعتمد على المهارة فى نظم الكلمات والبراعة فى ترتيبها وتنسيقها.

ومهما اختلفت أصنافه وتعددت طرقه يجمعها أمر واحد، هو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ فى الأسماع. ومجىء هذا النوع فى الشعر يزيد من موسيقاه؛ لأن الأصوات التى تتكرر فى حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر فى القافية تجعل البيت أشبه بفاصله موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان نلمس فيها المهارة والمقدرة الفنية[1].

فنرى الجناس بأنواعه المختلفة يتردد فى شعر المخضرمين ليحدث هذا النوع من الموسيقا، كما في قول عبدالله بن الزبعرى[2]:

وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِيكِ عَلامَةٌ نُورٌ أَغَرُّ وَخَاتَمٌ مَخْتُومُ

ويتردد أيضا عند أيمن بن خريم فى قوله[3]:

ضَحُّوْا بِعُثْمانَ فِى الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضُحىً وَأَىَّ ذِبْحٍ حَرَامٍ وَيْلَهُمْ ذَبَحُوا

(١) موسيقى الشعر ص٤٥.
(٢) السيرة جـ٤ ص٤٠.
(٣) الاستيعاب جـ٣ ص١٠٥١.

كذلك يتردد الترصيع الذى يحدث نوعـا من الموسيقا الداخلية إلى جانب القافية التى بنى الشاعر قصيدته عليها، كما فى قول حسان بن ثابت[1]:

وَقَائِلُهُـــم بِالْحَـــقِّ أَوَّلُ قَائِلٍ فَحُكْمُهُمْ عَـــدْلٌ وَقَوْلُهُـــمْ فَضْلُ

ونرى ذلك أيضا عند كعب بن مالك فى مثل قوله[2]:

كُنَّا نُؤَمِلُ أُخْرَاكُمْ فَأَعْجَلَكُمْ مِنَّا فَوَارِسُ لاعُزْلٌ وَلامِيـــلُ

ومثله كذلك فى قول أبى دهبل الجمحى[3]:

كَتَسَاقُطِ الــرُّطَــبِ الْجَنِّى مِنَ الْـ أَقْنَاء لانَثْراً وَلانَـــزْراً

فالموسيـقا الداخلية لجرس الألفـاظ- كما رأينا- تسيـر جنبا إلى جنب مع الموسيقـا الخارجية فى شعـر المخضرمين نتيجـة لاستخدامهم الـبحور الطويلة ذات المقاطع الصوتية المتعددة.

وكـذلك نجد الشعـراء المخضـرمين عندمـا يصـدرون فى أشعـارهم عن انفعالات سريعة وعاطفة متدفقة ليـعبروا عن أحداث متلاحقة ومواقف سريعة متغيرة، يغيب هذا الاطمئنان النفسى، فيـستخدمون بحورا ذات إيقاع متلاحق تتقارب فيها المقاطع والأجزاء. فيستخدمون بحرا كالمتقارب ليعبروا من خلاله عن هذه الانفعـالات السـريعـة، كـمـا فى قـول عـبـدالرحـمن بن حنبل الجمحى[4]:

وأَحْلِفُ بِالله جَهْدَ الـــيَمِيْنِ مَاتَرَكَ اللهُ أَمْـــراً سُدَى

ولَكِـــنْ خُلِقْتَ لَنَـــا فِتْنَةً لِكَـــىْ نَبْتَلِى بِكَ أَوْ تُبْتَـــلَى

دَعَوْتَ الـــطَّرِيـــدَ فَأَدْنَيْتَهُ خِلافـــاً لِمَا سَنَّهُ الْمُصْطَفَى

وَوَلَّيْتَ قُرْبَاكَ أَمْـــرَ الْعِبَـــادِ خِلافـــاً لِسُنَّةِ مِنْ قَدْ مَضَى

(١) ديوان حسان ص١٤٢.

(٢) ديوان كعب ص٢٥٨.

(٣) مجالس ثعلب جـ٢ ص٤٠٨.

(٤) الاستيعاب جـ٢ ص٨٢٨ ،والمعارف ص١٩٥، وأسد الغابة جـ٣ ص٤٣٩ ورواية الأبيات فيها اختلاف.

واستخدم العباس بن مرداس البحر نفسه فى قصيدته التى عاتب فيها النبى -ﷺ- يقول فيها[1]:

فَأَصْبَحَ نَهْبِى وَنَهْبُ الْعُبَيْـ ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ

...

وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلا حَابِسٌ يَفُوقَانَ مِرْدَاسَ فِى الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لايُرْفَعِ

ونلاحظ أن العباس خرج عن الصورة المألوفة لهذا البحر؛ لأنه إذا استخدم تاما فعروضه تأتى صحيحه فى أغلب أبيات القصيدة، ويجوز أن يدخل الزحاف فى بعض منها. فقد أجاز العروضيون دخول الحذف فى عروضه، بحيث يمكن دخوله فى أبيات أو بيت وتركه فى آخر منها، بوصفه علة من العلل الجارية مجرى الزحاف فى عدم اللزوم. ولكننا نجد العباس فى هذه القصيدة يلتزم بالحذف فى عروض القصيدة كلها، وتصبح تفعيلاتها على هذا النحو:

فعولن فعولن فعولن فعل فعولن فعولن فعولن فعل

واستخدم أيضا المخضرمون الرجز بصورة واضحة؛ لأنه كما قال عنه العروضيون: مطية الشعر، فهو وزن متدفق يستخدم عادة فى التعبير عن المواقف الحماسية، فهو يعطى شحنات نفسية قوية. ولسهولة هذا الوزن يستخدمه العرب عادة فى التعبير عن المعانى العارضة، ويرددونه كثيرا؛ لأن آذانهم قد ألفت موسيقاه.

فنجد عمرو بن سالم الخزاعى فى قصيدته التى مدح بها الرسول -ﷺ- واستصرخه فيها ليجمع المسلمين ويرد عادية قريش على قومه، لم يجد سوى

(١) السيرة جـ٤ ص١٤١، والطبرى جـ٣ ص٩١، والأغانى ط دار الكتب جـ١٤ ص ٣٠٨.

هذا الرجز المتدفق ليستنهض به الهمم، يقول فيها[1]:

يَارَبِّ إِنِّى نَاشِــدٌ مُحَمَّــدَا	حلفَ أَبِينَا وَأَبِيـــه الأَتْلَدَا
قَــدْ كُنْتُمُ وَلَــدًا وكُنَّا وَالِدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَــمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ هَـــدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا	وَادْعُ عِبَــادَ اللهِ يَأتُوا مَــدَدَا
فِى فَيْلَــقٍ كَالْبَحْرِ يَجْــرِى مُزْبِدَا	إِنَّ قُــرَيْشًا أَخْلَفُــوكَ الْمَوْعِدَا

فاهتزت مشاعر الرسول -ﷺ- بسماعه هذا الرجز، لقوة معانيه وسلاسة ألفاظه وروعة موسيقاه، فأمر المسلمين بالاستعداد للقتال.

ومرت بنا فى شعر النقائض والجهاد أراجيز مختلفة يظهر فيها جمال النغم وروعة الموسيقا التى يحدثها إيقاع الرجز المتلاحق.

وكما استخدم الشعراء المخضرمون حروف الروى المطلقة فى معظم قوافيهم، استخدموا أيضا الروى المقيد، كما فى قصيدة سويد بن أبى كاهل العينية التى يقول فيها[2]:

أَرَّقَ الْعَيْنَ خَيَــالٌ لَــمْ يَــدَعْ	مِــنْ سُلَيْمَى، فَفُــؤادِى مُنْتَزَعْ

وكما فى قصيدة حسان بن ثابت اللامية التى مطلعها[3]:

ذَهَبَتْ بِابْنِ الـــزِّبَعْرَى وَقْعَـــةٌ	كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيــــهَا لَوْ عَدَلْ

ونلاحظ أن هاتين القصيدتين جاءتا من بحر الرمل، وهذا البحر له إيقاع سريع، تطرد فيه (فاعلاتن) بصورة متلاحقة، فإذا جاء الروى ساكنا بهذه الصورة نشعر بروعة الموسيقا التى تشبه إلى حد بعيد الموسيقا التصويرية؛ لأن الروى الساكن، يجعل الأبيات أشبه بفواصل موسيقية بعد هذا الإيقاع المتلاحق[4].

(١) السيرة جـ٤ ص١٠، وأنساب الأشراف جـ١ ص٣٥٣، والاستيعاب جـ٣ ص١١٧٥، وفيها اختلاف.
(٢) المفضليات ص١٩٥.
(٣) ديوانه ص٩٣.
(٤) راجع ما ذكره د/ هدارة عن الروى الساكن فى قصيدة سويد اليتيمة (دراسات ونصوص فى الأدب العربى ص١٥٥ وما بعدها)..

ومما تقدم يتبين لنا أن الشعراء المخضرمين تأثروا فى لغتهم وموسيقاهم إلى حد بعيد بـالإسلام، وظهر هذا التأثيـر واضحا فى معجمهـم الشعرى، فى ألفاظهم وأساليبهم فمالوا إلى الرقة والسهولة واقتبسوا كثيرا من ألفاظ القرآن الكريم، وأحاديـث الرسول -ﷺ- كما أثر الإسـلام أيضا فى موسيـقاهم، فاختاروا لأنفسهم البحور التى تلائم أغـراضهم الشعرية المختلفة، ومالوا إلى استخدام البحور الطويلة ذات المقاطع المـتعددة وتجنبوا- فى الغالب- البحور المجزوءة والقصيرة، وذلك نتيجة لهذا الاطمـئنان النفسى الذى غمرهم عندما دخلوا فى ديـن الله أفواجا، واهتدوا بـهدى رسولهم -ﷺ- فاسـتطاعوا أن يعـبروا عن انفـعالاتهـم فى هذه الأوزان الطـويلة الـتى تتـسع لذلك، كـما استطـاعوا أن يضيفوا لـونا آخر من الموسـيقا الداخلـية التى يحدثـها جرس الألفاظ وتكرار حروف بعـينها فى البيت أو الشطر يسير جـنبا إلى جنب مع الأوزان العروضية التى ألفتها آذانهم وشاعت فى بيئتهم العربية.

* * *

الفصل الثاني

الصورة الفنية وبناء القصيدة

أولا: الصورة الفنية.

الصورة الفنية هي الوشيجة العضوية في بناء القصيدة العربية، فهي إذن قديمة قدم الشاعر[1] وهي ليست إلا تعبيرا عن حالة نفسية يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة، وينبغي أن يسري فيها نفس الإحساس، ومن هنا لزم أن تكون الصورة وفاء لهذا الإحساس[2].

وهي في شعرنا العربي ثمرة لتطور الخيال والوعي الفني لدى الشعراء؛ لأن الشاعر في تصويره يعتمد على الخيال ويستخدم الكلمات أداة لذلك، والكلمات في لغتنا العربية ليست رموزا جديدة أو أصواتا صماء تقتصر على معناها المحدد من غير جذور تاريخية، وتنزوي في مدلولها المقرر من غير إيماءات فكرية وشعورية، وإنما هي نبع فائض وصدى شفاف، لذلك نجدها ترسم صورة فنية بطبيعتها وتستوي أداة لتجسيد الأمور المعنوية وتشخيص الموات[3]

والصورة الفنية في شعر المخضرمين تجسد هذا التطور الذي دفعه الإسلام دفعا حينما نزل القرآن بخصائصه الفنية والجمالية التي فاضت بالألوان البديعية المبتكرة في التعبير عن موضوعات متعددة تجاوزت في معظمها الحياة المحسوسة في الدنيا إلى قضايا الدين ووسائل الروح والغيبيات ومعضلات النفس في الآخرة، بالإضافة إلى أحاديث الرسول -ﷺ- التي زخرت بالعديد من الصور البيانية التي يرجع معظمها إلى روح القرآن وتعاليمه.

فقد كان للجو النفسي الذي عاش فيه الشعراء المخضرمون بعد الإسلام

---

(١) الصورة والبناء الشعري د/ محمد حسن عبد الله، طبعة دار المعارف ١٩٨١م ص٢٧.

(٢) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص ١٠٨

(٣) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيق د/ كامل حسن البصير، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م ص٢٧٢

أثره في إطلاق الخيال العربي الموروث في منبته الفكري من عقال المحسوس ليرسله في تواصل دائم إلى ما وراء الحس؛ لأن هؤلاء الشعراء الذين آمنوا كان يستقبلون الوحي من الرسول- ﷺ -قرآنا عربيا، يستظهرونه، ويفقهونه في شتى جوانبه، فتأثروا ببلاغته وصوره واتخذوها في كثير من الأحيان أساسا لتصويرهم في قصائدهم، وإن كنا نؤمن بأن هؤلاء الشعراء كانوا علي صلة وثيقة بالشعر العربي قبل الإسلام وأن مخيلتهم قد تشبعت بهذا الشعر مضمونا وصورا فنية، إلا أنهم حين واجهوا بشعرهم المعاني الإسلامية رأينا لونا من الصراع يعتمل في نفوسهم وقلوبهم ويتجلى هذا الصراع في صورهم الفنية التي جادت بها قرائحهم، واستمدوا مادتها اللغوية وألفاظها البنائية ودلالتها من آي الذكر الحكيم وروح الإسلام وتعاليمه.

فإذا عرضنا للظواهر الإسلامية في الصورة الفنية عند المخضرمين لابد أن نذكر آيات بينات من القرآن الكريم لنقر مطمئنين أن هذا الذكر الحكيم قد أرسى مبادئ وقيما ومعايير فكرية ونفسية واجتماعية وجمالية جديدة في صياغتها وتعبيرها، هذا إلى جانب بيان المصادر الإسلامية في الصورة التي تتمثل فيما يلي:

أولا: صور الهداية.

لاشك أن لغة القرآن الفنية التي طرقت موضوعات متعددة في شئون الدنيا والآخرة-خلقت للخيال العربي أفقا جديدا ازدهرت فيه لغته الشعرية وأثمرت صورا فنية ترسم لنا اتجاه الشعراء الفكري والتزامهم العقدي، وقد تهيأت لهم الأجواء لذلك كما بينا في حديثنا عن مضامين شعرهم ولغتهم. ولا شك أيضا أن المخضرمين وقفوا بين يدي الرسول-ﷺ-متأملين سيرته، فقد خاض معهم تجارب جديدة في الحياة، ، فأخرجهم من ظلمات الكفر إلي نور الإيمان، وهداهم إلي الطريق المستقيم، وطهر مجتمعهم مما شاع فيه من الفساد ليستوي مجتمعا جديدا يستطيع الشاعر فيه أن يتنفس بشعره في أجواء عبقة

بالإيمان والطهر والنقاء، ويتأمل هذا الإعجاز البياني الذى يتلى عليه ليلا ونهارا، فتتشبع مخيلته بصوره الفنية وألوانه البديعية.

أ-النور والضياء.

فنرى الكثرة الغالبة من الشعراء المخضرمين تنطلق بهم أجنحة الخيال فيستمدون كثيرا من صورهم من النور والضياء، لتفيض شاعريتهم بمجموعة من الصور الفنية البديعة التي استقوا مادتها ودلالاتها من آي الذكر الحكيم. فقد صدق الله تبارك وتعالى حينما شبه الرسول- ﷺ-بالسراج المنير في قوله تعالى[1] : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيراً *﴾ ويشبهه في موضع آخر بالنور؛ لأنه يهدي من اتبعه إلى الحق وسبل السلام، يقول الله تعالى[2]: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ .

والنور والضياء لهما في حياة العرب مكانة وأهمية؛ لأنهم يشعرون في بيئتهم برهبة الظلام وقسوته، لذلك يؤكد القرآن الكريم في أكثر من موضع هذه الصورة، فالذين آمنوا الله وليهم أخرجهم من ظلمة الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية كما في قوله تعالى[3] ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ .

وغير ذلك من الصور البديعية التي وردت في القرآن الكريم، وتأملها الشعراء المخضرمون بظلالها ودلالاتها، فرسموا صورهم الفنية على نسقها.

---

(١)سورة الأحزاب، الأيتان٤٥، ٤٦

(٢)سورة المائدة، الآية١٥.

(٣)سورة البقرة، الآية ٢٥٧. .

فنرى حسان بن ثابت يرسم صورة فنية مقابلة للرسول -ﷺ- فى قوله[1]:

فأمْسَى سِراجَاً مُسْتَنِيراً وهَادِياً يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنَّدُ

ويرسم كعب بن مالك الصورة نفسها فى قوله[2] :

وكَانَ سِرَاجاً لَنَا فى الدُّجَا نَخُصُّ بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِه

وكَانَ بَشِيراً لنا مُنْذِراً ونُوراً لَنَا ضَوْءُهُ قَدْ أَضَا

فَأَنْقَذَنَا اللهُ فى نُورِه ونَجَّى بِرَحْمَتِه مِنْ لَظَا

فكلاهما رسم صورة مقابلة مطلقة حذف منها أداة التشبيه ووجه الشبه، أو ما يسميه البلاغيون (التشبيه البليغ) الذى يحتاج إلى إعمال الفكر لنلمس ماخفى فيه من وجه الشبه.

فجعلا الرسول -ﷺ- (سراجا منيرا)؛ لأن أمره ظاهر فيما جاء به من الحق، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها لايجحدها إلا معاند.

وجعلا هذا النور مصدر الهداية التى تنقذهم مما هم فيه من الضلال، فهما متأثران فى تصويرهما بالصورة الفنية القرآنية فى الآية السابقة.

ولو تتبعنا شعر حسان الإسلامى نجد (النور) مصدرا أساسيا فى كثير من الصور الفنية للرسول -ﷺ- فى ظلال هذه العقيدة، وهى صور متلاحقة مترابطة يضم نسيجها شعور واحد من الفكر والوجدان.

فنراه فى صورة أخرى من هذه الصور المتتابعة يصور العقيدة بأنها نور كان مصدره الرسول -ﷺ- فيقول[3]:

فَبَيْنَا هُمُ فِى ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا إلى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ

وأَمْسَتْ بِلادُ الْحَرْمِ وَحْشاً بِقَاعُهَا لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْىِ تَعْهَدُ

---

(١) ديوان حسان ص٣٣٦.

(٢) ديوان كعب ص١٧٣.

(٣) ديوان حسان ص٣٧٩.

فنراه يتأمل وفاة الرسول -ﷺ- فيرسم صورة مجسمة يجسد فيها أثر وفاته على المسلمين فى ظل هذه العقيدة حين جعل للموت سهاما تتجه إلى الرسول -ﷺ- الذى استعار له لفظ النور للدلالة على الهداية ومصدر هذا النور اتجهت إليه سهام الموت، فانقطع الوحى الذى كانوا يستأنسون به.

وتطرد صور حسان على هذا النحو، فالرسول عنده نور فى قوله(١):

وأَرْسَلَهُ فى النَّاسِ نُوْراً وَرَحْمَةً ... فَمَنْ يَرْضَى مَا يَأْتِى مِنَ الأَمْرِ يَهْتَدِ

وهو كذلك فى قوله(٢):

مِنَ الَّذِى كانَ نُوراً يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُبَارَكُ الأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَإِرْشَادِ

وقوله(٣):

نُورٌ أَضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... مَنْ يُهْدَ لِلنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِ

وهو الضياء والنور فى موضع آخر(٤):

كان الضِّياءَ وكَانَ النُّوْرَ نَتْبَعُهُ ... وكَانَ بَعْدَ الإلهِ السَّمْعَ والبَصَرَا

والقرآن عنده نور أيضا(٥):

فَلَمَّا أَتَانَا رَسُولُ الإلهِ ... بالنُّورِ والدِّينِ بَعْدَ الظُّلَمْ

ويستعير كعب بن مالك أيضا النور للهداية فى قوله(٦):

وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللهِ يَجْلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا وَالْغِطَاءِ

ويشبه الرسول -ﷺ- بالشهاب الذى يتبع ضوءه المسلمون، فيقول(٧):

فِينَا الرَّسُولُ شِهَابٌ ثُمَّ نَتْبَعُهُ ... نُورٌ مُضِيءٌ لَهُ فَضْلٌ عَلَى الشُّهُبِ

(١) ديوان حسان ص٢٠٥.
(٢) المصدر نفسه ص٢٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص٢٠٩.
(٤) المصدر نفسه ص٢١٠.
(٥) المصدر نفسه ص١٣٩.
(٦) ديوان كعب ص١٦٩.
(٧) المصدر نفسه ص١٧٤.

ويرسم العباس بن عبدالمطلب صورة فنية أخرى تؤكد أن عالم النور والإضاءة ينبوع دائم للصورة الشعرية التى تعالج شخصية الرسول -ﷺ- فيقول[1]:

وأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأرْ ... ضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ

ففى هذا البيت استعارتان مصدرهما النور والإضاءة، أو قل صورتان بديلتان؛ لأن الصورة البديلة مصطلح يكشف عن خصوصية حياة الكلمة العربية فى خطوات تطور معانيها واستوائها أداة للتعبير والتأثير. والاحتكام إلى هذا المصطلح معيار فنى وذوقى نستطيع أن نقوم في ضوئه تجديد الكلمة العربية والانتقال بها من معناها اللغوى الحقيقى إلى ماشاء الله من المدلولات لملابسة يسوغها الذوق العربى وتبررها قواعد الاشتقاق وضوابط الصياغة القياسية والسماعية[2].

فإذا نظرنا إلى الصورة الأولى نجده يرسم صورة فنية للأرض وقد أشرقت بميلاده -ﷺ- ولفظ (الإشراق) له دلالته؛ لأنه يرسم صورة متجسدة بديلة عن المعانى الحقيقية لمادة (شرق) التى تطلق على الشمس والضوء، فأشرقت الشمس إشراقا أضاءت وطلعت وانبسطت على الأرض[3].

وقد استوعبت صورة الشاعر هذه المعانى واقتبست منها، ثم استقلت بكيان مخصوص متجدد، حيث جعل الأرض تشرق ومصدر هذا الإشراق ميلاده -ﷺ- ثم يحدد الشاعر أبعاد صورته فى الصورة الثانية حيث جعل النور -وهو سمة غالبة للإشراق -يتجاوز مساحة الحواس وحدودها إلى آفاق التخيل والتصور ليغمر هذا الأفق ويشيع فيه الضياء، والشاعر لايريد الضوء الحقيقى أو النور الحقيقى ولكنه عبر عن رسالته السماوية بالنور، كما جاء فى تصوير القرآن الكريم، وعبر عن هداية البشر بضياء الأفق.

---

(١) الاستيعاب جـ٢ ص٤٤٨، وأسد الغابة جـ٢ ص ١٣٠.

(٢) بناء الصورة الفنية فى البيان العربى ص٣١٢.

(٣) اللسان جـ٤ ص٢٢٤٥.

ولعل مصدر الشاعر فى هـذه الصورة كان قوله تعالى[1]: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فامتلأت ذاكرته ومخيلته بهذا التـصوير القرآنى مما جعله يصوغ مادة (شرق) فى صورة بديلة عن معانيها السـابقة، لها دلالتها المجازية فى تصوير رسالة السماء التى حملها الرسول - ﷺ - للـناس كافة لتمتلئ قلوبهم بنور الإيمان. ومن هـذه الصور الفـنية التى لـها دلالات عقديـة قول عبدالـله بن رواحة فى مقطوعة له[2]:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَـــــهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ

فى هذا البيت يتصور الشاعر مكانة الرسول -ﷺ- وهو ماثل بينهم، ولو تأملنا هـذه الصورة أدركنا أنه مثول عقـدى يأتى من قوله: (يتلـو كتاب الله) فإذا بالهادى البشير آخذ بيد هذه الأمة ليخرجها من الظلمات إلى النور يرتفع صوته بآى الذكر الحكـيم، وإذا المؤمنون حوله يسمعون وينـصتون فى خشوع وتبتل.

وملامح هذه الصورة ومدلـولاتها يمكن أن نكشف عنها إذا تخـيلنا عظمة الرسول -ﷺ- وكيـفية التفاف المؤمنـين حوله. وإذا تأملنا أيضـا لفظة (إذا) أدركنا أن الشاعـر انطلق بخياله ليفـتح على صورته السابقـة أبواب السماء، وذلك لأن الرسول -ﷺ- وهو يتلو القرآن الكريم وحوله المؤمنون (إذا انشق معروف من الفـجر ساطع) ولفظ (معروف) جـاء مرتبطا بالفجـر ليدل أيضا على هذه العقيدة؛ لأنه اسم جامع لكـل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسـان إلى الناس وكـل ما ندب إلـيه الشـرع ونهى عنـه من المحسـنات والمقبحـات، وهو من الصفات الـغالبة، أى أمر معـروف بين الناس إذا رأوه لاينكرونه[3].

ثم إنه يحدد الزمان فأحداث هذه الصورة قد جرت فى وقت الفجر وليس

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

(٢) ديوان ابن رواحة ص ٩٦.

(٣) اللسان (عرف) جـ٤ ص ٢٩٠٠.

هذا هو المقصود فهو لايعنى وقتا ولكنه يعنى هداية وإرشادا.

ومن هنا اتضحت معالم الصورة، بيد أننا نرى لها أبعادا أخرى يرسمها الشاعر فى بيت تال، يقول:

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا　　　بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِــعُ

فهو فى هذا البيت يعتمد على الاستعارة ليحدد أبعاد هذه الصورة العقدية، فهم لايحتاجون إلى نور الفجر الحقيقى، ولكنهم يريدون هذا النور الذى يتسلل إلى قلوبهم التى ختم عليها العمى والضلال من قبل، فهذا القرآن الذى تلى عليهم اقتحم قلوبهم فكشف عنها العمى والضلالة، وتجلت لهم تعاليم الإسلام السمحة فالتمسوها إيمانا وعقيدة.

ب- الحبـــل.

وتتمثل العقيدة أيضا فى تمسك جماعة المسلمين بكتاب الله الذى لايأتيه الباطل، ويستعير القرآن الكريم لها كلمة (الحبل)، فتتردد كثيرا فى آياته المحكمات كما فى قوله تعالى[1]: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

ففى هذه الصورة الفنية المعجزة يخرج لفظ (الحبل) من معناه الحقيقى ودلالته اللفظية التى يراد بها: الرباط، أو الرسن، أو العهد، والذمة والأمان، أو السبب، أو التواصل[2]. إلى معنى آخر له ظلال وإيماءات أخرى بإضافته إلى لفظ الجلالة.

وهذه الإضافة لم تعرفها العرب قبل الإسلام. ولكننا نجد المخضرمين يستخدمونه كما ورد فى كتاب الله بلفظه ودلالته، فيقول حمزة بن عبدالمطلب[3]:

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٢) اللسان جـ٢ ص٧٥٩ ومابعدها.

(٣) العمدة جـ١ ص٣٦.

وَقُلْنَا لَهُمْ. .حَبْلُ الإلهِ نَصِيرُنَا   وَمَا لَكُمْ إلا الضَّلالَةَ مِنْ حَبْـلِ

ويقول حسان بن ثابت[1]:

مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْجَذِمٍ   مُسْتَحْكِمٍ مِنْ حِبَالِ اللهِ مَمْـدُودِ

ففى البـيتين صورة فنيـة بديلة لازمة حيث يـخرج لفظ (الحبل) مـن معناه اللغوى إلى المعنى المجازى، فيستعار لكتاب الله المتصل بالسماء وإن كان يتلى فى الأرض ويقصد به نور هداه.

وهذا النور هو العقيدة التى تجمع المسـلمين وتجعلهم أمة واحدة متماسكين آمنين من عذاب الله وعقابه.

وفى بيت حمزة تفرقة بين عقيدتـى الإيمان والشرك اللذين يعتركان آنذاك، فيصور انتصار عقيدة الحق؛ لأنهم اعتصموا بهذا النور الإلهى.

أما أهل الـباطل فلـيس لهم حـبل يتمـسكون به أو يـنصرهم سـوى هذا الضلال الذى يهيمون فيه.

فهذه النماذج تـؤكد أن عالم النور والإضاءة ينبوع دائم للـصورة الشعرية عند المخضـرمين، وهذا العالم يقـابله عالم مظلم كـئيب يركز عليـه الشعراء غالبا لـيصور مرحلة الجاهـلية أو مرحلة الـكفر المواجهة للإسـلام، ومن هنا تبدو ثنائية النور والظلام فى الصـورة الشعرية عند المخضرمين؛ لأنهم وجدوا فيها المناسبة المتاحة للتعبير بـالإيحاء غير المباشر على هذا التفاوت بين الشرك والإيمان.

جـ - النعمة.

لقد أنعم اللـه - عز وجل - على أمة رسولنا محـمد -ﷺ- بأن هداهم إلى دين الحق وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتمثلت العقيدة الإيمانية فى قلوبـهم وملكـت عليهـم ضمائرهم، فـأرسوا قواعدهـا، وأصلحوا بـناءها

---

(١) ديوانه ص٢٤٢.

بطاعتهم لله ورسوله وإذعانهم لأوامره، فزادهم الله هدى كما قال فى محكم كتابه[1] : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ .

فكان لهذه الهداية أثر واضح فى نفوس الشعراء المخضرمين، وأصبحت (النعمة) مادة التصوير الفنى لمعنى الهداية ومصدرا أساسياً يعتمدون عليه فى صورهم التى اقتبسوها من القرآن الكريم. كما نرى فى صور حسان الفنية التى تشكل فيها الهداية محورا أساسيا يعتمد عليه الشاعر فى تحديد معالم صورته، فيقول[2]:

فَبَيْنَا هُمُ فِى نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيْقَةِ يُقْصَدُ

فالشاعر فى هذا البيت يرسم صورتين جزئيتين ليضعهما فى إطار واحد لصورة فنية تجسد هذه العقيدة الإيمانية التى رسخت فى نفوس المسلمين بأن أطاعوا ربهم وأخلصوا له العبادة، وأطاعوا رسوله الذى هداهم إلى سبل الخير والرشاد والطريق المستقيم.

ويعتمد خياله فى البيت على الصورة البديلة أو الاستعارة، فينقل الكلام من معناه اللغوى الحقيقى إلى معناه المجازى، فهو فى قوله: (فبينا هم فى نعمة الله) لايستخدم لفظ (نعمة) بمعناه اللغوى اللفظى الذى يراد به الخفض والدعة والمال وما يستمتع به فى الدنيا[3] - واللفظ بمشتقاته لايخرج عن هذا المعنى- ولكنه استعمل فى الإسلام استعمالا آخر، وأصبحت له دلالات مجازية جديدة ليدل على الهداية للإسلام والطاعة والعبادة لله الواحد القهار.

وقد ورد هذا اللفظ بهذه الصورة المجازية فى القرآن الكريم، فقد أنعم الله على عباده بأن هداهم إلى دين الإسلام وبعث إليهم الرسول -ﷺ-

---

(١) سورة مريم، الآية ٧٦.

(٢) ديوانه ص٣٧٩.

(٣) اللسان جـ٦ ص٤٤٧٨.

ليخرجهم من الظلمات والضلال إلى النور والخير فقال جل ذكره[1]: ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ .

فتأمل الشاعر هذه الصورة الفنية القرآنية، وكأنه استقى لفظها ودلالتها ليصور هداية المسلمين الذين شهدوا أن لا إله إلا الله وأطاعوه ودانوا له بالعبادة الخالصة. ويكنى عن هذه الهداية بأنها نعمة أنعم الله بها عليهم.

د- الدليل.

وفى البيت نفسه نجده يستخدم الاستعارات فى قوله:

. . . . بَيْنَهُمْ دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ

فينقل لنا صورة أخرى بديلة مع أنه استخدم ألفاظا لها دلالات حقيقية مثل: دليل نهج، طريقة، يقصد.

وقد صور القرآن الكريم الرسول -ﷺ- بأنه الدليل الذى ينجى الناس من المهالك، فهو يرشدهم إلى الطريق ويهديهم إلى الإسلام، ويقصد بذلك الإيمان بالله ورسوله فقال تعالى[2]: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

وإذا نظرنا فى قول حسان نرى مخيلته قد وعت هذه الصورة وترسمت حدودها ومعالمها فيستعير للهداية لفظ (الدليل) ويقصد به الرسول -ﷺ- الذى أرسى أسس هذه العقيدة التى أشار إليها فى الصورة الأولى، ومن ثم تتحدد لنا ملامح وأبعاد هذه الصورة الكلية للهداية التى أرشدهم إليها الرسول الكريم -ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣١.

(٢) سورة الصف، الآيات ٩:١١.

هـ - الوحى.

ويرسم كعب بن مالك صورة فنية جديدة لاستقبال الوحى حين ينبسط جبريل عليه السلام من عند الله، فيقول[1]:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ نَتْبَعُ أَمْرَهُ ... إِذَا قَالَ فِينَا الْقَوْلَ لانَتَطَلَّعُ

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ ... يُنَزَّلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ وَيَرْفَعُ

ففى البيت الثانى نتلقى صورا فنية جديدة تجسد لنا حالة هبوط الوحى على الرسول -ﷺ- فى صور حركية متلاحقة. فالرسول -ﷺ- قائم بين المسلمين، كما هو واضح من البيت الأول. وقد خص الشاعر مكانته ووجوده باستخدام الضمير (نا) فيقر قائلا: (إنه فينا)، ثم تنطلق به أجنحة الخيال ليبدع فى رسم صورة حركية متعدد الألوان نلمسها فى قوله (تدلى) بمعناه الحقيقى والمجازى، فهو يدل على الانبساط والدنو فى سكينة ووقار فى المنظر والهيئة والشمائل.

وقد صور القرآن الكريم هبوط الوحى على الرسول -ﷺ- بهذه الشاكلة، فى قوله تعالى[2] ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾.

ففاضت هذه الصور بمدلولات فنية وإيماءات وظلال استقى منها الشاعر صورته، فجعل جبريل عليه السلام- يهبط من عند ربه إلى الأرض، ينبسط فى سكينة ووقار حاملا الوحى للرسول -ﷺ- ونلاحظ ديناميـة الحركة في هذا التضاد بين قوله (ينزل) و(يرفع) وفى الترادف بين (التدلى) و(التنزل) فلعب الخيال دورا هاما فى تركيب هذه الصورة، حتى ليجعل الإنسان المتلقى يستجلى ملامحها وأبعادها إلى ما شاء الله.

---

(١) ديوان كعب ص٢٢٤.

(٢) سورة النجم، الآيات ٤ : ١٠.

ثانياً: صور التقــوى.

وينطلــق خيال عبداللــه بن رواحة ليرسم صــورة جسدية جديدة لــلرسول -ﷺ- فى قوله[1]:

يَبِـيتُ يُـجَافِي جَـنْبُـه عَنْ فِـرَاشِهِ إذَا اسْتَثْقَلَتْ بالْمُـشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

ففى البيــت كناية عن قيامه -ﷺ- الليــل متعبدا يخشى اللــه ويريد جزيل ثوابه.

وقد استقى الشاعر مادة صورته ومدلولاتها من التصوير الفنى القرآنى لهذا المشهد فى قوله تعالى[2]: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾

فالرسول -ﷺ- كــما صوره الشاعر يسهــر آناء الليل ساجدا وقائــما لله رب العالمــين. وتقابل هذه الصــورة صورة أخرى للمــشركين الذين تثــاقلت مضاجعهــم فى الليل؛ لأنهم يقضون الــنهار فى المعاصى، والليــل فى اللهو والحانات يــشربون الخمر ويــستمتعون بــالنساء، فغــابت عقولهــم، وامتلأت بطونهم، فخمــدت مشاعرهم وأحاسيسهم، وتجمدت حركــتهم فإذا هم مثل الفراش الذى يضطجعون عليه.

ويصور أيمن بن خريم التقوى التى تميز آل هاشم بقوله[3]:

نَـهَـارُكُـمُ مُـكَـابَـدَةٌ وَصَـوْمٌ وَلَـيْـلُـكُـمُ صَـلاةٌ واقْـتِـرَاءُ

---

(1) ديوانه ص٩٦.

(2) سورة السجدة، الآية ١٦.

(3) الأغانى جـ٢٠ ص٣١٠.

فيعـتمد على المجاز إذ أن الـنهار لايصوم واللـيل لايصلى وإنما يـصام فى النهار ويقام فى الليل، والفاعل الحقيقى هو الصائم والقائم.

فاعتمد على العلاقة الزمانية التى تكشف لنا عن صورة بديلة عقلية تثير فى النفس والـعقل مالايثيره الـتعبير الذى نـابت عنه الصورة: فصـورة (نهاركم صوم) تؤدى عن الصـائمين المتبتلين فيه، وكـأن الدنيا كلها صائمـة معهم فى يوم صيـامهم، وكذلك صورة (لـيلكم صلاة) تنـبض بفيض من الأحـاسيس والرؤى والظلال دونه التعبير الحقيقى (مصلون فى ليلهم)، ففى الصورة الليل الذى يخيم علـى القائم قد بدا فى وقار وخشوع بكل مـظاهره، فإذا الكون كله حول القائم الحقـيقى يمضى فى مشاهد القيام وسماتـه الحركية والصوتية والروحية[1].

ثالثا: صور الخير والشر.

لقد كانت ثنائية الخير والشر من المصادر الأساسية للصورة الإسلامية؛ لأن القرآن الكريم هـو الوسيلة للتفرقـة بين الخير والشر وفيصـل الحكم بين الحق والباطل، نزل على قلب الرسول -ﷺ- لـيبشر هذه الأمة، وقد التف حوله جماعة المسلمين مصدقين مخلصـين مطيعين لأوامره، فاستطاعوا أن يميزوا بين الحق والباطل، ومن ثم اتخذوا من المشركين مـا تفرضه عقيدتهم من موقف دعاهم إلى خير الدنيا وسعادة الآخرة، فقد قال تعالى[2]: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

---

(١) بناء الصورة الفنية ص٣٢٠.

(٢) سورة النحل، الآيتان ١٢٥، ١٢٦.

بيد أن المشركين سلكوا طريق الشر وشهروا أسلحتهم فى وجه كلمة لا إله إلا الله ونازلوها بالمكر والخداع كما هو مقرر فى القرآن الكريم. وأصحاب العقيدة الإسلامية سلكوا طريق الخير ولم يحتكموا إلى القوة، ولم يسبقوا إلى السلاح، ومع ذلك وجدوا أنفسهم فى هذا المعترك الذى فتح المشركون جبهته.

فيعتمد أبو أحمد بن جحش على التشبيه حين يصور جماعة المسلمين الذين اهتدوا وأجابوا الرسول -ﷺ- ويوازن بينهم وبين أهل الشرك، فهما فوجان أحدهما على الحق والآخر على الباطل، فيقول[1]:

وَكُنَّا وأَصْحَابـاً لَنَا فَارَقُوا الْهُدَى ... أَعَانُوا عَلَيْنَا بِالسِّلاحِ فَأَجْلَبُوا
كَفَوْجَيْنِ أَمَّا مِنْهُمَا فَمُوَفَّقٌ ... عَلَى الْحَقِّ مَهْدِىٌّ وفَوْجٌ مُعَذَّبُ

ونجد كعب بن مالك يصور حومة القتال الذى دار بين المسلمين والمشركين يوم الخندق، وهو فى هذه الصورة لم يجعل المؤمنين يتخاذلون فى نصرة دينهم والدفاع عن عقيدتهم، فهم أبناء الحروب ضرستهم الدربة وصفت صفوفهم تجارب النزال والقتال ولذلك هم أصحاب العلامات المميزة فى المعارك، فيقول[2]:

دَرِبُوا بِضَرْبِ الْمُعْلِمِيْنَ وَأَسْلَمُوا ... مُهَجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ

فالى جانب تجسيد الشاعر لهذا الجانب المادى لجبهة المسلمين، فإنه لا يغفل أن يضفى على صورته إشراقات الإيمان التى يفيض خياله فى رسمها،

---

(١) السيرة جـ٢ ص٨٣.

(٢) ديوان كعب ص ٢٤٤.

مستلهما أدواته من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى[1]: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيعبر الشاعر عن هؤلاء المؤمنين المقاتلين بصورة فنية نشعر فيها بهذه الروح الإشراقية، فيقول:

. . . . وَأَسْلَمُوا   مُهَجَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِرَبِّ الْمَشْرِقِ

فهؤلاء المقاتلون لم يركنوا الى حياة الدعة واللهو ولم يعبأوا بزينتها فيعزهم انتصارهم حرصا عليها، ولكنهم باعوا أنفسهم لرب المشرق والمغرب يريدون جزيل ثوابه ويطلبون الحياة الآخرة؛ لأنها خير وأبقى.

وهذه الصورة الفنية التى تندى بقطرات الإيمان يتبعها الشاعر بصور أخرى يجسد فيها الجانب المادى لأسلحة المؤمنين، فيقول[3]:

فى كُلِّ سَابِغَةٍ تَخُطُّ فُضُولُهَا   كَالنِّهْيِ هَبَّتْ رِيحُهُ الْمُتَرَقْرِقِ
بَيْضَاءَ مُحْكَمَةٍ كَأَنَّ قَتِيرَهَا   حَدَقُ الْجَنَادِبِ ذَاتَ شَكٍّ مُوثَقِ
جَدْلاءَ يَحْفِزُهَا نِجَادُ مُهَنَّدٍ   صَافِى الْحَدِيدَةِ صَارِمٍ ذِى رَوْنَقِ

وأغلب هذه الصور المتلاحقة بضاعة يعرفها الشعراء المخضرمون والجاهليون، فهى صور مألوفة لدى العرب عندما تعترك المعارك، فتشبعت بها مخيلتهم وعاشت فى ذاكرتهم حية نابضة، ولذلك وفق الشاعر فى اختيارها لعلمه أنه يخاطب المشركين بشعره، فلابد أن يأتى بهذه الصور المألوفة لديهم والمرسومة فى مخيلتهم ليدركوا ماتثيره هذه الصور من رعب فى نفوسهم.

---

(١) سورة لقمان، الآية ٢٢.
(٢) سورة النساء، الآية ١٢٥.
(٣) ديوان كعب ص ٢٤٥.

وهذه الصـور الموروثة لا تطـغى على خـيال الشاعـر؛ لأنه حصرهـا بين صورتين فنيتين استمد مادتهما ودلالاتهما من آى الذكر الحكيم- كما رأينا فى صورة المؤمنين المقاتلـين- ثم أطلق لخياله الأجنحة ليحلق فـى سماء العقيدة ويسبغ على صوره لـونا من عقيدته التى استمدهـا من قوله تعالى[1]: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، فيقول[2]:

تِلكُمْ مَـعَ التَّقْوَى تكُونُ لِـبَاسَنَا   يَوْمَ الـهِيَـاجِ وكُلَّ سَـاعَةَ مَـصْدَقِ

ففى هذا البيت تكتمل لنا صورة عدة المـؤمنين للقتال، فهذه الأسلحة التى صورها فى الأبيات السابقة لاتصلح أن تكون درعا وسلاحا إلا ومعها التقوى لتطهـر نفوسهم التـى أسلموها من قـبل لرب المشرق والمغـرب. و(التقوى) مصطلح قرآنى له دلالاته، كخشيـة الله ومراعاة حدوده والاعتراف بما حررته هذه الحدود من حقوق وواجبات للناس، وورد فى البيت مجردا عن الإضافة إلى لفـظ الجلالة، فأخذت مدلـولاته تسلك مـسارا عاما فى جعـله أداة من أدوات القتال.

والتركيب اللغوى (تلكم مع الـتقوى) يتبادر منه دلالات أخرى إلى جانب هذه الدلالات السابقة، فقد صيره الشاعر مشبها فى ضمير مستتر فقدره اسما للفعل الناقـص (تكون) وإزاء هذا المشبه جاء الشاعر بالمشبـه به كلمة (لباس) مضافة إلى ضمير (نا) الدال على المؤمنـين. وبذلك صاغ الشاعر بهذا التشبيه صورة فنية مقابلة جمعت بين الأسلحة التقية ولباس المـؤمنين. ولفظة(اللباس) فى معناها الحقيـقى تطلق على ما يرتديه الإنسان تزيـنا وحماية من أى شىء يسىء إليه.

وقد صيرهـا المعجم القرآنـى فى مواضع من آياتـه البينات استـعـارة ذات

(١) سورة الأعراف، آية ٢٦.
(٢) ديوان كعب ص ٢٤٥.

مدلولات مختلفة فاضت وتنوعت وفقا لما أضيفت إليه، فقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[1] و﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[2] و﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[3].

وفى ضوء مدلولات هذه الصورة يمكننا أن نتمثل مبادئ المؤمنين فى الجهاد من أجل الخير وقد ارتدوا لباسا من الأسلحة التقية يوم الهياج وكل ساعة مصدق، فتحولت الحرب بين أيديهم من صورتها الكريهة الى مدرسة للصلاح والهداية، تفيض لقاءاتها بالإيمان والمحبة وتنتهى بالفتح الذى تنكشف فى ضوئه ظلمة الأحقاد، وتتحطم على هداه قيود العبودية[4].

وانطلق خيال الشاعر عروة بن زيد الخيل خارج الجزيرة العربية ليصور لنا تجربة شخصية وملحمة جماعية خاض غمارها فى معارك القادسية. فيستهل قصيدته بتصوير حالته النفسية والفكرية، فقد جفا النوم عينيه، وفارقه لذيذ الكرى وصحبه نيام، فزاره طيف حبيبته، ثم يحدد مكان إقامته بإيوان سيرين لنلمس هذه الوحدة الشعورية التى تتحدد فيها غاية الجهاد مع زيارة خيال الحبيبة.

وهذه الصورة الفنية نسج عليها الشاعر صوره الأخرى حين روى بطولاته فى جلولاء ونهاوند، فصوَّر بلاءه هو وجماعة المسلمين، والتفت أيضا إلى تصوير أعدائه فى مجموعة من الصوره التقريرية التى تغيب فيها روح الجهاد الإسلامى.

ولم تشأ مخيلة الشاعر التى تشبعت بالصور الفنية القرآنية أن تمضى فى هذا اللون من التصوير، فأخذ يسبغ على صوره ألوان الجهاد الإسلامى فى مقطعه الأخير الذى يقول فيه[5]:

وَكَمْ كُرْبَةٍ فَرَّجْتُهَا وَكَرِيهَةٍ ... شَدَدْتُ لَهَا أَزْرِى إِلَى أَنْ تَجَلَّتِ

---

(1) سورة الأعراف، آية ٢٦.
(2) سورة النحل، آية ١١٢.
(3) سورة البقرة، آية ١٨٧.
(4) بناء الصورة الفنية فى البيان العربى ص ٤١٤ وما بعدها.
(5) الأخبار الطوال ص ١٣٨.

وَقَدْ أَضْحَـتِ الدُّنْيَا لَدَىَّ ذَمِـيْمَةً	وَسَلَّيْـتُ عَنْهَا النَّـفْسَ حَتَّى تَـسَلَّتِ
وَأَصْبَحَ هَمِّى فى الْـجِهادِ وَنِيَّتِى	فَـلِلَّـهِ نَـفْــسٌ أَدْبَـرَتْ وَتَـولَّــتِ
فَلا ثَرْوَةَ الـدُّنْيَا نُرِيـدُ اكْتِسَابَـهَا	أَلا إِنَّـها عَـن وَفْرِهَـا قَدْ تَـحَلَّـتِ
وَمَاذَا أُرَجَّى مِنْ كُنُــوزٍ جَمَعْتُهَا	وَهَذِى المَـنَايَـا شُرَّعًـا قَدْ أَطَـلَّــتِ

ففى هذه الأبـيات نشاهد مجـموعة من الصور الفـنية وإن كانت مخـتلفة الألوان، فإن ظلالـها واحدة؛ لأن أبعادها وإيحاءاتـها التى تنبعـث من نفس الشاعر تحدد لنا ملامح صورة كلية تبين الهدف الأسمى للجهاد الإسلامى.

ففى البيـت الأول يصور الغاية من الجهاد، والمـهمة التى ينبغى لـلمجاهد المسلم أن يقوم بها وهى تفريج الكرب عن المسلمين.

وعبر عن هذه الصورة باستخدام مادة(كرب) التى وردت فى أربعة مواضع فى آى الذكر الحكيم، نذكر مـنها قوله تعالى[1]: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُـم مِنهَا وَمِن كُلِّ كَرب﴾.

ومدلولاتـها تعبر عـن الحزن والغم الذى يأخـذ بالنفس اذا اشـتد الأمر، والاقتراب والإسراع، ودلالتها المجازية: التوثيق والتقييد والعجلة[2].

وقد ورد اللفـظ فى البيت نكرة، فأخـذت مدلولاته تلك مســارا عاما فى ترسيخ لـفظه فى حالتـى الجهاد: الهجوم والـدفاع. ثم نجد الشاعـر يتساءل (بكم) الاستـفهامية التى يـسأل بها عن العدد لـتدل على الكثرة. ويـستخدم الشاعر أيضا مادة (كره) التى ورد ذكرها فى قوله تعالى[3] : ﴿كُتِب عَلَيكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرهٌ لَكُم﴾.

---

(١) سورة الأنعام ،آية ٦٤ ،وأيضا سورة الأنبياء، الآية ٧٦، سورة الصافات، الآيتان ٧٦،١١٥.

(٢) اللسان جـ٥ ص ٣٨٤٥ ، وأساس البلاغة للزمخشرى- الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م جـ٢ ص٣٠١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

وحقيقتها اللغوية: سخط الشيء وفعله على تكره، وأطلق لفظ(الكريهة) على الحرب مجازا[1]. والمعنى الحقيقي والمجازى له دلالاته فى الآية السابقة، واستخدمه الشاعر بدلالاته الحقيقة والمجازية ليصور الحرب من وجهة النظر الإسلامية فلم تكن شغلهم الشاغل، ولم يكن هدفهم إراقة الدماء أو طمعا فى خير مادى أو مال، بل كانوا يخيرون أعداءهم بين ثلاثة خيارات يجعلون آخرها المنازلة بالسيف- كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن شعر الجهاد- ولذلك فالشاعر خرج إلى الجهاد لاهم له إلا طاعة الله، وهو مكره على ذلك، وهى الصورة نفسها التى أشار إليها النابغة الجعدى من قبل حينما خرج للجهاد. ولم يشأ شاعرنا أن يصور هذا الاستنباط، ولكن طبيعة صورته الفنية المؤدية عن هذا المشهد القتالى الذى رسمه هى التى أوحت بذلك، فتومئ إلى إشراقة الجهاد الإسلامى طبيعة وغاية نستشفها من قوله: (فرجتها) وقوله(شددت لها أزرى إلى أن تجلت). ولفظ (فرجتها)و(تجلت) لكل منهما دلالاته التى تؤدى عن الكشف والفتح والحماية والمخرج[2]. وهى الغاية المبتغاة من خروج المسلمين إلى القتال. وهذه الصورة فى حقيقتها بداية الخيط الذى نسج عليه الشاعر صوره الفنية فى بقية أبياته.

فنراه فى البيت الثانى يرد على من يزعم أن المسلمين كان هدفهم من الفتوحات الإسلامية الطمع فى الخيرات الخصبة التى كان يتمتع بها أعداء الإسلام. فيصور الشاعر الدنيا وقد أصبحت- فى نظره وفى نظر غيره من المجاهدين-(ذميمة) وهذه اللفظة لها دلالاتها، إذ تجرد الدنيا من أى مظهر من مظاهر الزينة والإغراء؛ لأنه يريد ثواب الآخرة، ولكننا نجد هذه الصورة تومض بمعاناة الشاعر النفسية؛ لأن الأنفس البشرية بطبيعتها تميل إلى حب الشهوات والزينة، ونفس الشاعر لم تكن إلا واحدة منها.

ومن هنا نستطيع أن نلمس هذا الصراع وهذه المعاناة التى تتمثل فى قوله: (وسليت عنها النفس حتى تسلت) فهو يسلى نفسه إرغاما وإكراها حتى

(١) أساس البلاغة جـ٢ ص٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ص ١٩١.

استسلمت له وتسـلت عن رغائبها ومطامعها فى هذه الحـياة. وكأنى بالشاعر يتأمل آى الذكر الحكيم ويضعه أمام عينيه، مثل قوله تعالى[1]: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

فيتمثل هذا القـول المعجز صورا واقعية ملموسة، ثم تحلق مخـيلته ليكمل لنا هذه الصورة، فبعد أن سلى النفس عن رغائبها ومطامعها، يجسد لنا هذه العقيدة التى دفعته إلى الجهاد فى قوله:

وَأَصْبَحَ هَمِّى فِى الجِـهَادِ وَنِيَّتِى ... فَـلِلَّـهِ نَفْـسٌ أَدْبَرَتْ وَتَـوَلَّـتِ

فأصبح الجهاد هو الـهدف والغاية التى من أجلها جرد نـفسه عن هواها، وتفيض لـفظة (الجهاد) بهذه الـعقيدة الإيمانية الـتى تنشر ظلالهـا على صورة الفارس المجاهد الذى فرج كرب المسلمين من قبل، كما تمتد ظلالها إلى هذه المناجاة الـروحية التى توحـى بعدم التهالك عـلى ثروات الدنيا وكـنوزها فى قوله:

فَلا ثَرْوَةَ الدُّنْـيَا نُرِيدُ اكْتِسَـابَهَا ... أَلا إِنَّهـا عَنْ وفْرِهَـا قَدْ تَحَـلَّتِ

ثم يجسد بعد ذلـك العلة التى جعلت همه فى الجهاد وعـدم تهالكه على الثروات فى قوله:

وَمَاذَا أُرَجِّى مِنْ كُنُوزٍ جَـمَعْتُهَا ... وَهَذِى المَـنَايَا شُـرَّعاً قَدْ أَطَـلَّتِ

ففى هذا الـبيت تتجسد الـعلة فى صورة فنيـة رائعة تصور معانـاة الشاعر وتحكى قـصة الصراع بين الحيـاة والموت، فالحياة بـثرواتها وكنوزهـا يمكن أن تتحقق للفارس المجاهد، ولكن مافائـدة هذه الكنوز؟ هل تستطيع أن تعصب عينـيه عن رؤية المنايـا وهى ماثلة أمامـه؟ وهذه الصورة الأخيرة تـؤكد صدق الشاعر فى تصويـره السابق بأن جعل الجهاد هدفا ونيـة، وهذا الإبداع الفنى لايلم به خيال إنسان إلا إذا كـان مؤمنا تشرب عقله وفاضت مخيلـته بالعقيدة

---

(١) سورة النازعات الآيات ٣٧:٤١.

القرآنيـة التى فتحت للـمؤمنين أبواب الهدايـة، فأطل منها الشـعراء من بين هؤلاء المؤمنين على هـذا اللون من التفكر والتأمل، ليبـدعوا لنا هذه الصورة الفنية التى تفيض بقوة العقيدة متـأثرة بالقرآن الكريم فى مضمون آياته البينات ومفيدة من معجم مصطلحاته وأبنية صوره[1].

رابعا: صور الإيمان والكفر.

وتتمثل الثنائـية أيضا فى صور الإيمان والكفر التى تستخـدم فيها مادة البيع والشراء وهى من الصور الفنية القـرآنية كما فى قوله تعالى[2]: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾. وقوله تعالى[3]: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ**﴾.

فينطلق خيال المخضرمين متأثرا بهذه المـادة الجديدة بألفاظها البنائية ودلالتها المجازية ليرسم صورا فنية ذات ظلال وإيماءات جديدة.

فيعتمد ضرار بن الأزور على الاستعارة مستخدما هذه المادة فيقول[4]:

فَـيَـارَبِّ لا أُغْبَـنَـن بَيْـعَتِـى فَقَدْ بِعْتُ أَهْلِـى وَمَالِى بِـدَالا

ويستخدم كعب بن مالك التشبيه فى قوله[5]:

(١) بناء الصورة الفنية ص ٤١٩ وما بعدها.

(٢) سورة التوبة، آية ١١١.

(٣) سورة النساء ،آية ٧٤

(٤) مجالس ثعلب جـ ٢ ص ٤٢٣

(٥) ديوانه ص ٢٢٤

وَقَالَ رَسُولُ اللَّه لَمَّا بَدَوْا لَنَا ... ذَرُوا عَنْكُمُ هَوْلَ الْمَنِيَّاتِ وَاطْمَعُوا
وَكُونُوا كَمَنْ يَشْرِى الْحَيَاةَ تَقَرُّباً ... إِلَى مَلِكٍ يُحْيَا لَدَيْهِ وَيُرْجَعُ

ويعتمد ذباب من بنى أنس بن سعد العشيرة على الاستعارة حين يصور شراءه للآخرة بهذه الحياة الدنيا الفانية، فيقول[1]:

فَأَصْبَحْتُ لِلإِسْلَامِ مَا عِشْتُ نَاصِراً ... وَأَلْقَيْتُ فِيهَا كَلْكَلِى وَجِرَانِى
فَمَنْ مُبْلِغٌ سَعْدَ العَشِيرَةِ أَنَّنِى ... شَرَيْتُ الَّذِى يَفْنَى بِآخَرِ فَانِ؟

خامسا: صور الثواب والعقاب.

يبدو أن رغبة الإنسان فى الحياة رغبة فطرية، فحاجاته على الأرض لاتنقضى وآماله لاتحدها حدود. وقد سلَّم الشعراء المخضرمون الذين آمنوا برسالة السماء بأن أيامهم فى هذه الحياة الدنيا محدودة، وأدركوا أن الخير والشر يصطرعان فيها، ولم يشهدوا رد الفعل أو النتيجة الحتمية لعواقب الخير والشر، كما أدركوا أن للنفس أهواءها وآمالها، وقد يموت الإنسان وفى نفسه بقية من هذه الأهواء والآمال، وقد يعز عليه أن يفارق أحباء له فى هذه الحياة، ولكنه مع ذلك يفارقهم إلى عالم آخر ويفجعهم بغيبته.

والإنسان المؤمن بوجود إله عادل يحق الحق ويضع ميزان العدل يؤمن حتما بوجود جزاء على الخير والشر، وإن لم يتم فى هذه الحياة الدنيا، أوفى هذا العالم الأرضى فلابد أن يتم هناك فى عالم آخر.

وقد طبعت هذه الحقيقة فى نفوس الشعراء المخضرمين ظلالا نفسية وشعورية عندما رددوا آى الذكر الحكيم الذى يصور مشاهد هذا العالم أبدع تصوير فى مثل قوله تعالى[2]: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَفَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

(١) طبقات ابن سعد جـ ١ ق ٢ ص ٧٤.
(٢) سورة ص، الآيات ٤٩: ٥٦

والآيات القرآنية كثيرة تصور هذه الحقيقة وتعرضها فى صور شتى حافلة بالعديد من المشاهد والأوضاع والأشكال والسمات وهى مع ذلك مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة، ولا خطوط جامدة، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، فتراها العين وتحسها النفس نابضة بالحياة.

وقف الشعراء المخضرمون إزاء هذه الصور تتملاها نفوسهم ويتابعها خيالهم واستغرق فيها حسهم حتى تراءت أمامهم ظلالها فاقتبسوا بعض ألفاظها ودلالاتها فى صورهم.

ومن هذه الصور التى عرض لها هؤلاء الشعراء فى أشعارهم: مشهد الاحتضار عندما يشتد الداء أو الألم بالإنسان، فنرى كعب بن مالك فى نقيضته التى يرد بها على ضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص يصور هذا المشهد فى أحد أبياتها، فيقول[1]:

إنْ يَنْجُ مِنَّها ابْنُ حَرْبٍ بَعْدَمَا بَلَغَتْ   مِنْـهُ التَّـرَاقِى وَأَمْـرُ اللَّـهِ مَفْـعُولُ

ففى هذا البيت يصور نجاة أبى سفيان بن حرب عندما بارزه حنظلة بن أبي عامر فى غزوة أحد. فلما استعلاه حنظلة وكاد أن ينزع روحه من جسده، رآه ابن شعوب (شداد بن الأسود) فطعن حنظلة فقتله، ويكنى عن هذا الاحتضار بقوله: (بلغت منه التراقى) وهو تعبير قرآنى ورد فى قوله تعالى[2]: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، ولفظ التراقى: جمع ترقوة وهى العظام التى بين ثغر النحر والعاتق ويكنى به عن الحشرجة وهى الغرغرة عند الموت، وتردد النفس.

وقد مر بنا رجز مجاهد من بنى كاهل بن أسد وهو يحمس أخاه على الصبر على القتال عندما حمى وطيس المعركة يوم عماس واعتقد أن نهايته قد اقتربت، وأوشكت روحه أن تفارق جسده، فصور هذا المشهد بقوله[3]:

---

(١) السيرة جـ ٣ ص ١١٩.   (٢) سورة القيامة، آية ٢٦

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٨

وَجَاشَتِ النَّفْسُ عَلَى التَّرَاقِى صَبْراً عِفَاقُ إِنَّهُ الْفِرَاقُ

وإن كانت هذه الصورة تقترب فى مشهدها من صور كعب السابقة إلا أن الفرق بينهما يتضح فى المشاعر والأحاسيس. فابن حرب فى صورة كعب هو الذي يحتضر وقد نجى لأمر أراده الله، ثم إن كعبا نفسه لم يشعر بهذا الاحتضار أو هذه الحشرجة التى عير بها ابن حرب، وهنا يتضح الفرق بين التعبير عن المشهد فقط، وبين التعبير والإحساس والمعايشة، فالراجز المجاهد عاش هذه اللحظات التى ترددت فيها أنفاسه وبلغت الحلقوم، وهى تجربة حقيقية تختلف عن تجربة كعب، فقد ذكر الأخباريون أنه استشهد ليلتئذ من ضربة أصابته فى فخذه[1]؛ ولذلك نراه يستكمل أبعاد المشهد فلم يقصر تصويره على بلوغ نفسه التراقى ولكنه أضاف بعدا جديدا لصورته بقوله: (صبرا. . . إنه الفراق)، وكأنه يتمثل المشهد القرآنى الذى يصور لحظات الاحتضار فى قوله تعالى[2]: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

وثمة صورة أخرى نجدها فى شعر حسان بن ثابت حين يرسم لنا مشهدا آخر يقارن فيه بين مصير شهداء المسلمين ومصير قتلى المشركين، فيقول[3]:

فَإِنْ تَذْكُرُوا قَتْلَى وَحَمْزَةُ مِنْهُمُ قَتِيلٌ ثَوَى للّهِ وَهُوَ مُطِيعُ
فَإِنَّ جِنَانَ الْخُلْدِ مَنْزِلُهُ بِهَا وَأَمْرُ الَّذِى يَقْضِى الأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلاكُمْ فى النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعًا فِى جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

ففى البيت الأول يصور حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقد نال الشهادة مع هؤلاء الشهداء الذين قدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله. وهذا الشهيد

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٥٥٨

(٢) سورة القيامة، الآيات ٢٦ : ٣٠.

(٣) ديوانه ص ٩٩ وما بعدها

(ثوى لله) ولفظة (ثوى) من دلالتها طول المقام، ويقال للمقتول أيضا قد ثوى[1]. فصور الشاعر هذا الشهيد الذى قتل بأنه قدم روحه طاعة لله، ومن أجل ذلك فمنزله ومقامه عند الله. ثم إننا فى البيتين الثانى والثالث نجد هذه المفارقة التصويرية حيث وضع الشاعر الصورة وجها لوجه أمام نقيضتها حتى يظهر الفارق بينهما، فبالأضداد تتميز الأشياء، فيوازن بين منزلة هذا الشهيد ومصير قتلى المشركين، فى صورة ذات جانبين فى الجانب الأول يصور المنزلة التى ثوى بها الشهيد بأنها جنة الخلد التى وعد الله بها عباده المخلصين، وفي الجانب الآخر يصور قتلى الكفار ومنزلتهم، بأنه لا مكان لهم سوى النار التى أعدها الله للكافرين.

وفى المشهد الأخير الذى يصور قتلى المشركين وهم في النار يضيف الشاعر بعدا جديدا لصورته بهذه الاستعارة التهكمية أو التلميحية حيث استعمل الألفاظ الدالة على المدح فى نقائضها من الذم والإهانة[2] فى قوله:

..... أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعًا فِى جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

فيصور أحسن مايناله المشركون من رزق فى جوف جهنم، بأن جعل الله لهم هذا الماء الذى أسخن وأغلى حتى انتهى حره، ولم يجعل لهم طعاما سوى نبات الشبرق المنتن اليابس، وهو شر الطعام وأبشعه وأخبثه[3].

وأغلب ظنى أن شاعرنا استقى دلالات هذه الصورة التهكمية من صور القرآن الكريم، فقد قال تعالى[4]: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد أنذرهم. ومثل هذه الاستعارة التهكمية نجدها فى قول أبى خيثمة مالك أحد بنى سالم بن عوف، حين يقول[5]:

(١) اللسان جـ ١ ص ٥٢٤ وما بعدها
(٢) فنون بلاغية، البيان والبديع، أحمد مطلوب، الطبعة الأولى نشر دار البحوث العلمية الكويت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ص ١٤٤.
(٣) ابن كثير جـ ٤ ص ٥٠٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية ٢١، سورة التوبة، الآية ٢٤، سورة الانشقاق، الآية ٢٤.
(٥) السيرة جـ ٢ ص ٣٠١

فَأَبْلِغْ أَبَــــا سُفْيَــــانَ إِمَّا لَقِيتَهُ لَئِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْلِصْ سُجُودًا وَتَسْلِمِ
فَأَبْشِرْ بِخِزْيٍ فِى الحَيَــــاةِ مُعَجَّلٍ وَسِرْبَالِ قَارٍ خَالِــــداً فِي جَهَنَّمِ

كما استقى حسان التقابل أو التضاد فى جزئيات المشهد الكلى السابق من هذه الصورة القرآنية فى قوله تعالى[١] : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ .

ويرسم كعب بن مالك مشهدا جديدا يصور فيه مصير قتلى المشركين الذين كفروا بذى العرش، فيقول[٢] :

فَأَمْسُوْا وَقُودَ الــنَّارِ فــى مُسْتَقَرِّهَا وَكُلُّ كَفُــــــورٍ فِى جَهَنَّمَ صَائِرُ
تَلَظَّى عَلَيْهِمْ وَقَدْ شَبَّ حَمْيُهَا بِزُبَرِ الحَدِيــــــدِ والحِجَارَةِ سَاجِرُ

ففى هذين البيتين مجموعـة من الصور الجزئية تتآلف وتتناسق لتشكل فى النهاية مشهدا عاما يصور الجزاء الذى يناله الكفار فى جهنم، ويستمد الشاعر ألفاظ صـوره ودلالاتها وايماءاتها من الصور الـقرآنية، فهـؤلاء القتلى الذين باتت جهنم مستقرا لهم (أمسوا وقـود النار) فشبههم بالحطب الذى تسجر به النار وتوقد، وهذه الصـورة استمد الشـاعر مادتها من قـوله تعالى[٣]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ .

وفى الصورة الثانية يكنى الشاعر عـن المنزل الذى يثوى إليه كل كفار عنيد فى قوله: (وكل كـفور فى جهنم صائر) فـجهنم هى المصير الذى يـحشرون

---

(١) سورة الغاشية، الآيات ٢: ١٦
(٢) السيرة جـ ٢ ص ٣٧٩
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠.

إليه، وقد استمد الشاعر مادة هذه الصورة ودلالاتها من آى الذكر الحكيم فى قوله تعالى[1]: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

وفى البيت الثانى يرسم صورة للنار نفسها فيصفها بأنها تغلى عليهم كالمراجل، واستعار الصورة بلفظها من قوله تعالى[2]: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أو قوله تعالى[3]: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ثم صور هذه النار التى تغلى بقوله: (شب حميها) وكلمة (شب) تؤدى دلالتها عن كل ما ارتفع وزاد حتى بدا فى أحسن مايكون[4] لهذه النار التى أوقدت بهؤلاء القتلى وارتفعت حرارتها والتهبت وسجرت وحميت بقطع الحديد والحجارة. فهذه الصور الجزئية تضم إليها ألوانا من صور جهنم التى رسمها القرآن الكريم نذيرا للمشركين بنارها التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين، وهذه الألوان تتحد فى النهاية لتحدد أبعاد هذا المشهد العام الذى يصور مصير هؤلاء الكفرة. وهذه الصورة الكلية أيضا بألفاظها ودلالاتها المجازية لم نجد لها مايماثلها فى الشعر العربى قبل الإسلام، لذلك يمكننا أن نقطع بأن الشاعر فى تصويره قد تأثر تأثرا واضحا بتصوير القرآن الكريم لهذا المشاهد فى مثل قوله تعالى[5]: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وكما رسم كعب بن مالك فى أبياته مشهدا خاصا للكافرين، نجد أحد الشعراء المخضرمين يرسم فى أبيات له مشهدا آخر مقابلا لشهداء المسلمين، فيصور هذه المنزلة التى وعدهم الله إياها، فيقول[6]:

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢.
(٢) سورة الليل، الآية ١٤.
(٣) سورة المعارج، الآية ١٥
(٤) أساس البلاغة جـ ١ ص ٤٧٤ وما بعدها.
(٥) سورة البقرة، الآية ٢٤.
(٦) وقعة صفين ص ٣٢٠، واللسان جـ ٣ ص ٢٠٦٤ وأشرنا من قبل إلى اختلاف نسبتها.

إنَّـهُمْ عِـنْـدَ رَبِّهِـمْ فِـي جِنَـانٍ ... يَـشْرَبُـونَ الـرَّحِيـقَ والـسَّلْـسَبِيْـلا
مِنْ شَرَابِ الأَبْرَارِ خَالَـطَهُ المِسْـ ... ـكُ وَكَـأْساً مِـزاجُـهَـا زَنْـجَبِـيْـلا

فبعد أن تـوجه الشاعر إلى ربه بـهذه المناجاة التـى يتمنى فيهـا من الله أن يعجل له بالشهادة فى سبيله ـ لأنـها أفضل من أى ميتة أخرى ـ يصور لنا فى مشهد تحفه الظلال الـقرآنية من كل جانب منزلة الشهداء عـند ربهم، ويكنى عن هذه المنزلة بقوله (إنهم عند ربهم فى جنان).

أما قوله: (يشربون الرحيق والسلسبيلا) فلفظ الرحيق: يطلق على الخالص من الخمر، ويستخدم مجازا للشىء الذي لاغش فيه ولا شوب، والسلسبيل: السهل المدخـل فى الحلق[1]، وهذا التعبـير بألفاظه القرآنية كـناية عن شراب أهل الجنة بما فيه من صفاء وحلاوة وسهولة.

وفى البـيت الأخير يـكنى عن هـؤلاء المؤمنين الـذين أطاعوا ربـهم بأداء فرائضه واجـتناب محارمه (بالأبرار) وهـو لفظ قرآنى أطلق علـى الذين بروا بطاعتهم ربهم. ثم يصور شـراب أهل الجنة فى صورة أخرى، فهذا الشراب قد وضع فى كئوس وخالطه المسك وامتزج بالزنجبيل، وللمتلقى أن يتخيل إلى ماشاء الله هذا النـعيم الذي ينعم به الشهداء فى الجـنة، وصوره الشاعر فى هذه الصورة الكلية.

ومثل هذا التصوير لم يرد فى شعر الجاهليين قبل الإسلام، فلولا أن صور القرآن الـكريم الثواب والعقـاب والعذاب والنعـيم وأثرت صوره فى مخـيلة الشعـراء المخضرمين لما وردت أمـثال هذه الصور فى شـعرهم. فقد اسـتقى الشاعر وغيره مادة صوره ودلالاتها المجازية من آى الذكر الحكيم الذى صور النعيم الذى ينـعم به أهل الجنة. وإن كان الشاعر تناول جـزءا يسيرا من هذا

(١) اللسان جـ ٣ ص ٢٠٦٤ ،وأساس البلاغة جـ ١ ص ٣٢٨ وما بعدها.

النعيم فى تصويره فقد استـقاه ألفاظا ودلالات من قوله تعالى[1]: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ .... يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ... * ... خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ وقوله تعالى[2]: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾.

وغير هؤلاء الـشعراء نجد من المخضرمـين من يصور مقام هـؤلاء المؤمنين الذين أطاعوا ربهم بأنهم فى جنات الفردوس تتدلى عليهم ظلالها[3]، أو هم مع النبى- ﷺ- فى جنة الفردوس التى تنبى عيون الحسد[4].

كما يصور مقام الكافرين والظالمين بـأنهم ملقون فى سحق السعير[5]، أو هم فى النار يسقون مهلها وصديدها[6] أو يصب الله عليهم سوط عذاب[7]. وهى فى مجموعها صور قرآنية استمدهـا الشعراء فى أشعارهم وتشبعت بها مخيلتهم، فأضافت إلى صورهم الموروثة صورا جديدة فى ألفاظها ودلالتها، وهى صور إسلامية جديدة ـ كما رأينا ـ لم نجد لها شبيها قبل الإسلام.

سادسا: الرمز من وسائل التصوير.

كانت المرأة فى الجاهلية محورا هاما من مكونات الصورة عند الشعراء قبل الإسلام فتشبـعت مخيلتهم بصورهـا فى وصالها وهجرها، والسعـادة بقربها والتألم بحبها، ونظروا إليها نظرة مـادية ـ فى أغلب الأحيان ـ بوصفها متاعا للرجل، فصوروا مظاهـرها الجمالية، وجسدوا مفاتنها فى مـطالع قصائدهم التقليدية أو فى قصائدهم الغزلية.

واختلـفت هذه الصـورة عند المخضرمـين ـ فى الغالب ـ فـطبعت بـطابع الإسلام وتعـاليمه عند أصـحاب المحور الثانـى الذين استقوا مـادة صورهم

---

(١) سورة المطففين، الآيات ٢٢، ٢٥، ٢٦

(٢) سورة الإنسان، الآيات ١٧، ١٨.

(٣) النابغة الجعدى، انظر ديوانه ص ٢٣١

(٤) حسان بن ثابت، انظر ديوانه ص ٢٠٩

(٥) المصدر نفسه ص ٣٨٩.

(٦) أيمن بن خريم، راجع وقعة صفين ص ٥٥٦

(٧) أوس بن بجير الطائى، راجع الإصابة جـ ١ ص ٢١٧.

ودلالتها من آى الذكر الحكيم. فعندما نطالع قوله تعالى[1]: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ ترتسم فى مخيلتنا هذه الصورة الفنية الكلية التى تتألف من ثلاث صور جزئية تمتد عنها وتتفرع منها لتصور لنا مشهدا من مشاهد الحياة يتراءى أمامنا فى كل زمان ومكان فهى تجسد العلاقة الجسدية والروحية بين الرجل والمرأة.

وقد وقف الشعراء المخضرمون إزاء هذه الصورة الفنية المعجزة ليتأملوا معالمها وحدودها ودلالاتها التى يعجز الخيال البشرى عن الإتيان بمثلها، ولكنهم استقوا منها روحها ودلالتها. فنرى حميد بن ثور الهلالى فى قصيدته التى أشرنا اليها عند حديثنا عن النسيب، ورمز فيها إلى محبوبته بالسرحة ليعبر عما يعتمل فى قلبه من وجد الحب ولوعة الشوق، فيرسم لنا مجموعة من الصور الفنية العفيفة لتلك المرأة، فيقول[2]:

سَقَى السَّرْحَةَ المِحْلالَ والأَبْطَحَ الَّذى ... بِهِ الشَّرْىُ غَيْثٌ مُدْجِنٌ وبُرُوقُ

بِأَبْطَحَ رَابٍ كُلَّ عَامٍ يَمُدُّهُ ... عَلَى الحَوْلِ عَرَّاضُ الغَمَامِ دَفُوقُ

تَنَوَّطَ فِيهَا دُخَّلُ الضَّيْفِ بالضُّحَى ... ذُرَى هَدَبَاتٍ فَرْعُهُنَّ وَرِيقُ

فالشاعر هنا يرسم صورة لهذه السرحة التى تنعم فى مسيل واسع فيه دقاق الحصى والغيث الذي لاينقطع لتورف وتعلو على ماحولها من أشجار ونبت. وهذه الصورة لايمسها نور القرآن الكريم فى شىء؛ لأن الشاعر استقى مادتها من معجمه التراثى قبل الإسلام، فقد كانت العرب تكنى عن المرأة بالسرحة وغيرها[3].

وحميد بن ثور بوصفه شاعرا مسلما يتلو كتاب الله، ويهتدى بهديه ويتأمل صوره ومعانيه نراه لايقنع بهذه الصورة، فيمضى ليضيف إليها دلالة جديدة من الصور الفنية فى الآية الكريمة التى ذكرناها.

---

(١) سورة الروم، الآية ٢١ (٢) ديوانه ص ٣٨ وما بعدها.

(٣) رسائل الثعالبى، الكناية والتعريض ص ٣.

فيمضى فى البيت الثالث ليرسم لنا هذه الصورة الفنية التى تجلت فى هذه الاستعارة الترشيحية حيث رشح صورة السرحة واستدعى إليها مايلائمها وضم إليها ماتقتضيه بتوظيفه للألفاظ ومدلولاتها. فاستخدم لفظة (تنوط) بمعنى: (تعلق بالسرحة). ولفظة (دخل) بمعنى: (صغار الطير)، ليكنى بها عن نفسه. فتتمثل هذه السرحة امرأة سكنا كما صورتها الآية الكريمة، والرجل نفسه أحد هذه الطيور الصغيرة يأوى إلى هذه السرحة ليتعلق بها ويتمتع بالهدوء والاطمئنان والسكينة بين أغصانها المورقة، فقد استلهم الشاعر دلالة هذه الصورة من صورة الرجال فى الآية الكريمة حينما خلق الله لهم الأزواج ليكن سكنا يأوون إليهن، ويجدون فيه الهدوء والاطمئنان النفسى مثلما تجد صغار الطير حين تأوى إلى أغصان هذه السرحة البديعة.

ويستمر الشاعر بعد ذلك فى رسم صوره الفنية ليصرح بأن هذه السرحة امرأة حقيقية يهفو إليها، وقد جمعه وإياها وصالها، ولكنه لايريد أن يكشف لنا ذلك؛ لأن وفاءه لها إلى جانب عفته التى هذبتها آداب القرآن فى تحديده للعلاقة بين الرجل والمرأة جعلته يتستر عليها، بأن أكد صرم هذه المرأة السرحة، ثم نراه فى نهاية أبياته يرسم صورة أخرى لهذه المرأة السرحة، فقد أبى الله إلا أن تفوق بحسنها وبهائها كل النساء، فالأمر إذا ليس بيد الشاعربل هو قضاء الله وقدره، فيقول[1]:

وَمَا وَجْدُ مُشْتَاقٍ أُصِيبَ فُؤَادُهُ	أَخِى شَهَوات بِالعِنَاقِ نَسِيْقُ[2]
بأَكْثَرَ مِنْ وَجْدِى عَلَى ظِلِّ سَرْحَةٍ	مِنَ السَّرْحِ إذْ أَضْحَى عَلَىَّ رَفِيْقُ
وَلَوْلا وِصَالٌ مِنْ عُمَيْرَةَ لَمْ أَكُنْ	لأَصْرِمَهَا إِنِّى إِذَنْ لَطَلِيْقُ
أَبَى اللَّهُ إِلا أَنَّ سَرْحَةَ مَالِكٍ	عَلَى كُلِّ أَفْنَانِ العِضَاةِ تَرُوْقُ

(١) ديوانه ص ٤٠ وما بعدها

(٢) نسيق : هكذا فى الأصل، ولعله لبيق وهو الظريف الحاذق بعمل كل شىء.

فالصور الفنية فى أبيات حميد بن ثور بمدلولاتها الرمزية تمازجت فيها عناصر بناء القصيدة فانتظمت فى خيط شعورى موحد تفضى كل واحدة منها إلى الأخرى فى تماسك عضوى ونوعية مطردة من الصياغة اللغوية القائمة على سوق ألفاظ ليس المقصود منها معانيها الظاهرة حقائق وإنما المقصود منها دلالاتها المستعارة تجريدا وقرائن[1].

وإلى جانب هذه الصورة الفنية التى تجسد علاقة الرجل بالمرأة فى القرآن الكريم واستقى دلالاتها حميد بن ثور فى شعره، نجد صورة أخرى فى الذكر الحكيم تجسد هذه العلاقة، فحينما نطالع قوله تعالى[2]: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ ترتسم فى مخيلتنا صورة فنية كلية تتكون من تشبيهين بليغين يجسدان مايكنى به عما بين الرجل والمرأة ويستمدان بناءهما اللغوى من جملتين خبريتين، المشبه به فيهما كلمة (لباس) وهى نكرة مطلقة، والمشبه فى أولهما الضمير (هن) وفى ثانيهما الضمير (أنتم)، ونلاحظ أن مساحة هذه الصورة لم تتقيد بأداة تشبيه أو بذكر وجه شبه مخصوص، فهى صورة مطلقة تستوى فيها العلاقة بين الرجل والمرأة فى صورة ضرب من اللباس بمعانيه الحقيقية ودلالاتها المجازية.

وقد أعجزت هذه الصورة البيانية الشعراء المخضرمين عندما تأملوها وأرادوا أن يستعيروا مادتها اللغوية فى شعرهم، فنرى النابغة الجعدى يفهم كلمة اللباس لفظا لغويا ماديا فى معناه، فيقول[3]:

بِأَنسَةَ غَيرِ أُنْسِ القِـــرَافِ تَخْلِطُ بالأُنْسِ مِنْهَا شِمَاسَا
إذَا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى جِيْدَهَا تَثَنَّتْ عَلَيْهِ فَكَانَتْ لِبَاسًا

---

(١) بناء الصورة الفنية فى البيان العربى ص ٣٩٠.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٧.

(٣) ديوانه ص ٨١.

فأدار فى البيت الثانى صورة اللباس الفنى القرآنى لفظا لم يتجاوز معناه الحقيقى؛ لأنه جعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة آلية تتثنى فيها المرأة وتتداعى فلم يترك لخياله العنان لينطلق ويبدع فى رسم هذه الصورة ويتذوق مدلولاتها، ولكنه حرك خياله مثل الطائر بلا أجنحة ليسير فى اتجاه الآلية نفسه فلا يزيد عن هذا التشبيه فى قوله: (فكانت لباسا).

ويمكن أن نستخلص من هذه الصور الفنية الرمزية التى رسمها الشعراء المخضرمون للمرأة متأثرين ببيان القرآن وإعجازه، أن الشاعر عندما يترك العنان لمخيلته ليسير فى الاتجاه الذى حدده القرآن الكريم للعلاقة بين الرجل والمرأة بكل جوانبها، وما يرمى إليه من طهر وعفاف، نجده يقترب من المبادئ الإنسانية السامية التى هدفت إليها الصور الفنية القرآنية.

أما إذا جنح الشاعر بخياله وقيد حركته، واقتصر بالمدلول اللفظى الحسي للتصوير الفنى القرآنى، فإن صوره تخفق فى الاقتراب منه، ويظل خياله جامدا، دون أن تحركه المؤثرات الإسلامية.

* * *

ثانياً: بناء القصيدة.

عندما نعرض لبناء القصيدة عند المخضرمين ينبغى أن نناقش ثلاثة موضوعات رئيسة:

أولاً: التحرر من النهج الفنى للقصيدة العربية.

وهنا نتساءل هل ظل النهج الفنى للقصيدة العربية عند المخضرمين كما هو بكاء أطلال ووصف رحلة وراحلة ثم الدخول للموضوع؟ والإجابة عن هذا السؤال تتطلب العودة إلى المؤثرات الإسلامية فى موضوعات شعرهم، ولعل هذه المؤثرات نفسها - التى أشرنا إلى بعض منها فى هذا الموضع - هى التى دفعت الشعراء فى بناء أغلب قصائدهم إلى التخلى عن بعض التقاليد الفنية الموروثة التى رسمها الشعر الجاهلى، كالإطاحة بمقدمات القصائد الطللية والغزلية فى بداية قصائدهم، والتحلل بطبيعة الحال من النظام التقليدى للقصيدة الجاهلية، الذى أطلق عليه النقاد فيما بعد نهج القصيدة العربية، والذى حدده ابن قتيبة فى قوله: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الريح، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير، بدأ فى المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح وفضله على الأشباه، وصغر فى قدره الجزيل.

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدة منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظَمَآءٌ إلى المزيد"[1].

فهذه هى التقاليد الفنية التى ينبغى للشاعر اتباعها ليكتب لشعره الخلود والحياة بين يدى النقاد والرواة، ومع ذلك فإننا نجد معظم الشعراء المخضرمين - كما مر بنا فى ثنايا هذا البحث - يتخلون عن هذه التقاليد الفنية للأسباب التى أشرنا إليها آنفا، ومع ذلك فإننا لا نعدم وجود شعراء منهم يلتزمون بهذا النهج الفنى المتوارث، أو على الأقل ببعض منه، كعنايتهم فى بعض قصائدهم بالمقدمات الطللية والنسيب.

ولكننا نلاحظ أنها مقدمات سريعة متعجلة تنقصها العناية والاهتمام على العكس مما نجده فى مقدمات الجاهليين.

وفى ذلك يقول أحد الباحثين: " لقد تحرر معظم الشعراء فى هذا العصر من الالتزام بكثير من تقاليد الجاهليين فى أشعارهم، كمخاطبة الاثنين وهو التقليد الذى يحرص الشعراء الجاهليون على إيراده فى أشعارهم، لطبيعة حياتهم المحتاجة إلى الأصحاب والرفاق.

كما تحرروا فى الحديث عن تجربة الناقة والجمل والصحراء والرحلة، وما يستتبعها من ألفاظ تعبر عن تلك الرحلة.

تلك التجارب التى كان يحفل بها الشعر الجاهلى، واستبدلوا بها تجارب جديدة، اقتضتها طبيعة حياتهم الجديدة.

وتحرر معظم الشعراء من المقدمات الطللية أو الغزلية التقليدية واستبدلوا بها أحياناً مقدمات دينية جديدة، ظهرت بدايتها فى العصر الإسلامى، ثم شاعت فيما بعد فى العصر الأموى" [2].

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ صـ٧٤ وما بعدها.

(٢) الإسلام والشعر صـ ٢٤٠.

ونتيجة للصراع العقائدى بين المسلمين والمشركين، أو المنافقين، وبين المسلمين وأهل الكتاب فى صدر الإسلام، ثم بين الأحزاب السياسية المختلفة بعد عهد الخلفاء، فقد برز تيار جديد فى أسلوب الشعر العربى، يعتمد على المناقشات المنطقية والمناظرات الفكرية، المستمدة من أصول الدين أو فروعه، وهو أسلوب قرآنى جديد، حيث وضع القرآن الكريم الأسس الأولى لهذا المنهج، عندما ناقش المشركين فى عقائدهم وكشف سرائرهم، وكذلك الحال مع أهل الكتاب والمنافقين ممن كان يقف ضد رسالة الإسلام، بإقامة الحجج الدامغة، وإلزامهم الأدلة الواضحة البينة، من خلال إيراد أفكارهم ثم نقضها بتضعيف ما تستند إليه من البراهين والحجج. وهو أسلوب جديد على العرب، سواء أكان فى التفكير أم فى طريقة النقاش [(١)].

وقد كان لهذا الأسلوب صداه الكبير فى أشعار المسلمين فانتفعوا به واندفعوا فى سلوك طريقه مثلما فعل حسان بن ثابت فى قصيدته التى وجهها إلى أبى سفيان بن الحارث، فيقول [(٢)]:

وَقَالَ اللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا	يَقُولُ الحَقَّ إنْ نَفَعَ البَلاءُ
شَهِدتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ	فَقُلْتُمْ: لا نُجِيبُ وَلا نَشَاءُ
وَجِبْرِيلٌ أَمِينُ اللّهِ فِينَا	وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
أَلا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّى	فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللّه مِنْكُم	وَيمْدَحُه وَيَنْصُرُه سَوَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ	وَعِنْدَ اللّهِ فِى ذَاكَ الجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْوٍ	فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ

---

(١) الإسلام والشعر صـ٢٤٣ وما بعدها.

(٢) ديوان حسان صـ ٧٥ وما بعدها.

ويظهر هذا الأسلوب الجديد فى النقاش والجدل وعرض الأفكار والحجج والبراهين وتفنيدها فى شعر الصراع السياسى الذى جد على الحياة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فنجد معاوية بن أبى سفيان يرسل كتابا إلى سعد بن أبى وقاص يقول فيه: "أما بعد، ، فإن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره، وقد نصره طلحة والزبير، وهما شريكاك فى الأمر، ونظيراك فى الإسلام، وخفت لذلك أم المؤمنين، فلا تكرهن ما رضوا، ولا تردن ما قبلوا، فإنا نردها شورى بين المسلمين". ويرسل مع الكتاب شعرا يوضح فيه موقف سعد وموقفه هو، معتمدا على هذا الأسلوب الجديد، فيقول[1]:

أَلا يَا سَعْدُ قَدْ أَظْهَرْتَ شكّا	وَشَكُّ المـرْءِ فى الأَحْدَاث دَاءُ
عَلَى أىِّ الأُمُور وَقَفْتَ حَقّا	يُرَى أَوْ بَاطلاً فَلَهُ دَوَاءُ
وَقَدْ قَالَ النَّبِىُّ وَحَدَّ حَدّا	يَحِلُّ به مِنْ النَّاسِ الدِّمَاءُ
ثَلاثٌ: قَاتِلُ نَفْسًا وَزَان	وَمُرْتَد مَضَى فيه القَضَاءُ
فَإِنْ يَكُنِ الإِمَامُ يُلِمُّ مِنْهَا	بِوَاحِدَةٍ فَلَيْسَ لَهُ وَلاءُ
وَإِلا فَالَّتِى جِئْتُمْ حَرَامٌ	وَقَاتِلُهُ وَخَاذِلُهُ سَوَاءُ
وَهَذَا حُكْمُهُ لاشَكَّ فيه	كَمَا أَنَّ السَّمَاءَ هى السَّمَاءُ
وَخَيْرُ القَوْلِ مَا أَوْجَزْتَ فيه	وَفِى إِكْثَارِكَ الدَّاءُ العَيَاءُ
أَبَا عَمْرو دَعَوْتُكَ فى رِجَالٍ	فَجَازَ عِرَاقِى الدَّلْوِ الرِّشَاءُ
فَأَمَّا إِذْ أَبَيْتَ فَلَيْسَ بَيْنِى	وَبَيْنَكَ حُرْمَةٌ، ذَهَبَ الرَّجَاءُ
سِوَى قَوْلِى، إِذَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ	عَلَى سَعْدٍ مِنْ اللّهِ العَفَاءُ

فيجيبه سعد بكتاب مماثل يقول فيه: " أما بعد فإن عمر لم يدخل إلا من يحل له الخلافة من قريش، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا

(١) وقعة صفين صـ ٧٤ وما بعدها.

باجتماعنا عليه، غير أن عليا قد كان فيه ما فينا ولم يك فينا ما فيه. وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره، فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما كان خيرا لهما. والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت". ثم يجيبه بشعر مماثل يعتمد فيه على هذا الأسلوب الجديد فى تفنيد الحجج والبراهين، فيقول [1]:

مَعَاوِىَ دَاؤُكَ الدَّاءُ العَيَاءُ ... فَلَيْسَ لِمَا تَجِىءُ بِهِ دَوَاءُ
طَمَعْتَ اليَوْمَ فِىَّ يَا ابْنَ هِنْدٍ ... فَلاَ تَطْمَعْ فَقَدْ ذَهَبَ الرَّجَاءُ
عَلَيْكَ اليَوْمَ مَا أَصْبَحْتَ فِيهِ ... فَمَا يَكْفِيكَ مِنْ مِثْلِى الإِبَاءُ
فَمَا الدُّنْيَا بِبَاقِيَةٍ لِحَىٍّ ... وَلاَ حَىٌّ لَهُ فِيهَا بَقَاءُ
وكُلُّ سُرُورِهَا فِيهَا غُرُورٌ ... وَكُلُّ مَتَاعِهَا فِيهَا هَبَاءُ
أَيَدْعُونِى أَبُو حَسَنٍ عَلِىٌّ ... فَلَمْ أَرْدُدْ عَلَيْهِ بِمَا يَشَاءُ
وَقُلْتُ لَهُ أَعْطِنِى سَيْفاً بَصِيراً ... تَمُرُّ بِهِ العَدَاوَةُ والوَلاَءُ
فَإِنَّ الشَّرَّ أَصْغَرُهُ كَبِيرٌ ... وَإِنَّ الظَّهْرَ تُثْقِلُهُ الدِّمَاءُ
أَتَطْمَعُ فِى الَّذِى أَعْيَا عَلِيّاً ... عَلَى مَا قَدْ طَمِعْتَ بِهِ العَفَاءُ
لَيَوْمٌ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْكَ حَيّاً ... وَمَيْتاً، أَنْتَ لِلْمَرْءِ الفِدَاءُ
فَأَمَّا أَمْرُ عُثْمَانٍ فَدَعْهُ ... فَإِنَّ الرَّأْىَ أَذْهَبَهُ البَلاَءُ

ثانياً: الميل إلى المقطعات.

والموضوع الثانى الذى ينبغى أن نناقشه فى الحديث عن بناء القصيدة عند المخضرمين هو شيوع المقطعات الصغيرة التى قد تقتصر أحياناً على البيت أو البيتين.

فمن خلال أشعارهم التى بين أيدينا نلاحظ هذه الظاهرة، فقد ابتعدوا إلى

(١) وقعة صفين صـ ٧٥ وما بعدها.

حد ما عن القصائد المطولات التى كانـت أساسا فى الشعر الجاهلى، ويرجع ذلك لأسباب عديدة نذكر منها: طبيعة التطور الذى شهده المجتمع العربى منذ ظهور الإسلام، وطبيعة الحياة التى عاشها المسلمون فى عصر الرسول - ﷺ - وخلفائه الراشدين، فـسرعة التحول والتـغيير إلى جانب سـرعة الأحداث المتـلاحقـة والطارئة منذ بداية الدعـوة الإسـلاميـة وهجرة الرسـول- ﷺ- والمسلمين، ثم تفـرغهم لنشـر دعوتهم وتحـمل أعبـائها وخـروجهم لمـلاقاة المشركين وأعـداء الإسلام في الغزوات المختلـفة، حتى فتح مكة، ثم مـاكاد المسلمون يشعرون بالاسـتقرار بعد الفتح حتى فـجعوا بموت الرسول- ﷺ- وظهرت الفئـة المرتدة، ثم مالبثوا أن خـرجوا لغزو فارس والروم وأفـريقيا، فسخروا حياتهم كلها لنشر دعوتهم وتوطيد أركان دولتهم.

فسرعـة الأحداث المتلاحقـة، إلى جانب تسخيـر الشعراء شعـرهم لخدمة الدعـوة الجديدة، جـعلت الملل يتـسرب إلى نفـوسهم من الأعـمال الأدبيـة المطولة، فلم يعد لـديهم متسع من الوقت أو اسـتعداد نفسـي يتيح لهم نظم القصائد المطولة، ولأن الشـعر نفسه خالف الشعر الجـاهلي في هذه الفترة، فلم يعد أداة لخدمة القبيلة أو ألهية يتلهى بها الشاعر في سبيل التسلية والطرب والاسـتمـتاع، وتحـول إلى أن يكون أداة إجتـمـاعيـة تحفظ تماسك الوحـدة الإسلاميـة ووسيلة من وسائل صـيانة الفكرة الإسلاميـة وتأييدها[1] .ثـم إن المسلمين أنفـسهم في هذه الفتـرة التقـوا حول الرسول- ﷺ- يـأخذون عنه تعاليم الإسلام ويحـفظون القرآن ويرددونه فيما بينهم ويعكفـون على دراسته وتفـهم معانـيه وتبليـغه لكل راغب في الإسـلام، فلم يتوفـر لديهم الوقت الكافي للاستمتاع بالقصائد المطولة، كما كان يحدث في الجاهلية.

وهناك أيضا أسـباب أخـرى تتعلق بالشـعراء أنفسـهم تفسر لـنا انكماش القصائد المطولات في شعر المخضـرمين، وهي أن معظم هؤلاء الشعراء كانوا يميلون إلى الأوزان الطويلة- كما بينـا من قبل- التي مكنتهم من التعبـير عما

---

(١) شعرالفتوح الإسلامية ص ٣٠٤.

يجيش في أنفسهم من مشاعر وأحاسيس، كما أنهم- في الغالب- كانوا يعبرون في قصائدهم عن فكرة معينة أو غرض بعينه لم يستغرق من الشاعر أكثر من أبيات معدودة يركز فيها فكرته ليكتب لها الذيوع والانتشار وقوة التأثير.

فقد سئل ابن الزبعري: لم تقصر شعرك؟ فقال: لأن القصار أولج في المسامع، وأجول في المحافل، وقال مرة أخرى: يكفيك من الشعر غرة لائحة، وسبة فاضحة[1] .بالإضافة إلى أن معظم شعراء هذه الفترة كانوا من المقلين الذين لم يبلغوا درجة الفحول في التمرس والدراية بقول الشعر، ومن ثم تفاوتت مواهبهم وقدراتهم الفنية والإبداعية تفاوتا ملحوظا، فكادت تختفي القصائد المطولات التي تشمل أغراضاً كثيرة كالتي نراها عند الجاهليين.

وأصبحت فكرة الشاعر التي يعبر عنها تستغرق أبياته من أولها إلى آخرها، ولم يعد البيت الشعري- في معظم قصائدهم ومقطعاتهم- وحدة منفصلة قائمة بذاتها، بل أصبح جزءا لا يتجزأ منها، فليس ثمة شيء يريد الشاعر المسلم أن يفضي به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة، يلقيها دونما إسهاب أو إطالة، فهي مشاعر واضحة وبسيطة، وليست بحاجة إلى بيان أو إيضاح أو إفاضة، كما أنها ليست بحاجة إلى إلحاح على فكرة أو التقليب لها على وجوهها، أو تشقيقها، أو التوليد عنها وإنما هي بريق خاطف، وانفعال لاهب، وتعبير مركز مضغوط، وبالتالي كان على هذه القصائد القصيرة أو المقطوعات أن تستوعب الانفعالات الحادة والعواطف الملتهبة التي تشبه الضربات المتلاحقة في غير امتداد في النفس أو تمهل في العواطف يستطيع الشاعر من خلالها أن يتأمل ذات نفسه تأملاً مستأنيا[2].

وقد مرت بنا أبيات حسان بن ثابت التي وجهها إلى أبي بكر- رضي

---

(١) العمدة جـ١ صـ ١٨٧، وزهر الآداب جـ٣ ص ٦٩٤.

(٢) شعر الفتوح صـ ٣٠٧.

الله عنه- عندما تزوج خالد بن الوليد ابنة مجاعة ابن مرار الحنفي، وتنكر للأنصار غاية التنكر، فقال: (١)

مَنْ مُبْلِغُ الصِّدِّيقَ قَوْلاً كَأَنَّهُ	إذَا قُصَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْمَبَارِدُ
أَتَرْضَى بِأَنَّا لَمْ تَجِف دِمَاؤُنَا	وَهَـذَا عَرُوسٌ بِالْيَمَامَةِ خَالِدُ
يَبِيتُ يُنَاغِي عُرْسَهُ وَيَضُمُّهَا	وَهَامٌ لَنَا مَطْرُوحَةٌ وَسَوَاعِدُ
إذَا نَحْنُ جِئْنَا صَدَّ عَنَّا بِوَجْهِهِ	وَيُلْقِي لأَعْمَامِ العَرُوسِ الوَسَائِدُ
ومَا كَانَ فِي صِهْرِ اليَمَامِيِّ رَغْبَةٌ	وَلَوْ لَمْ تُصِبْ إلا مِنَ النَّاسِ وَاحِدُ
فَكَيْفَ بِأَلْفٍ قَدْ أُصِيبُوا كَأَنَّمَا	دِمَاؤُهُم بَيْنَ السُّيُوفِ المَجَاسِدُ
فَإِنْ تَرْضَ هَـذَا فَالرِّضَا مَا رَضِيتَهُ	وإلا فَغَيْرٌ إنَّ أَمْرَكَ رَاشِدُ

فالشاعر يركز اهتمامه على فكرة معينة لا يكاد يحيد عنها، وهو يرسل أبياته إلى أبي بكر- رضى الله عنه- خليفة المسلمين يطالبه بإنقاذهم مما هم فيه، فتندفع عواطفه سريعة دون تمهل وروية ودون إسهاب أو إطالة، ودون تمهيد أو تقديم لموضوعه.

وكذلك نرى أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي يركز على فكرة محددة في أبيات معدودة قالها أيام التحكيم ليكف الذين كرهوا المدة عن الحرب، فيقول(٢).

أَمَا وَالَّذِي أَرْسَى ثَبِيراً مَكَانَهُ	وَأَنْزَلَ ذَا الفُرْقَانَ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ
لَئِنْ عَطَفَتْ خَيْلُ العِرَاقِ عَلَيْكُمُ	ولله لا لِلنَّاسِ عَاقِبَةُ الأمْرِ
تَقَحَّمَهَا قُدْمًا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ	والأَشْتَرُ يَهْدِي الخَيْلَ فِي وَضَحِ الفَجْرِ

(١) ديوانه صـ ٣٨١ وما بعدها.

(٢) وقعة صفين صـ ٥٠٣.

وَطَاعَنَكُمْ فِيـــهـــا شُرَيْحُ بنُ هَانِئٍ	وزَحـــــرُ بنُ قَيْسٍ بـالْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
وَشَمَّرَ فيــهَا الأَشْعثُ اليــومَ ذَيلَهُ	تُشَبِّهُهُ بالحــــــارِثِ بـن أبي شَمْرِ
لَتَعْرِفُهُ يا بُسْرُ يـومـــاً عَصَبْصَبـــاً	يُحَرِّمُ أطْهَارَ الـــنِّسَاءِ منَ الـــذُّعْرِ
يُشيبُ ولـيــــــدَ الحَيِّ قَبْلَ مَشِيْبِهِ	وَفِي بَعْضٍ مَا أعْطَوْكَ راغيَةُ الـبكْرِ
وَعَهْدُكَ يـا بُسْرُ بـنُ أرطـاةَ والـقَنَا	رِوَاءٌ منْ أهْلِ الشَّامِ أظْمَاوُهَا تَجْرِي
وَعَمْرُو بـــــن سُفْيَانَ عَلَى شَرِّ آلَةٍ	بِمُعْتَرِكٍ حَامٍ أحَرَّ منَ الجمْرِ

ولعل هذه الظاهرة التي غلبت على شعر بعضهم كانت تحظى بتقدير الفكر الإسلامي، وأغلب ظني أن للقرآن الكريم- الذي يمثل ذروة البـلاغة العربية- أثرا واضحـا فيها حين عكف عـليه هؤلاء الشعراء يحـفظون آياته ويتفهـمون معانيها، ويقرون بإعجازه وفصاحته وأسلوبه الذي أدهشهم في عرض القضايا المختلفة والإلمام بها دون إسهاب أو تطويل.

ثالثاً: الوحدة العضوية.

والموضوع الثالث الذي ينبـغي أن نناقشه في حديثنا عن بناء القـصيدة عند المخضـرمين هو الوحدة العضـوية ومدى تحققـها في شعـرهم. فلا شك أن اهتمام القـدماء بالبيت الواحد وإعجـابهم بأبيات مفردة- كقـولهم هذا أفخر بيت أو أهجى بيت أو أغـزل بيت، أو هذا بيت القـصيـد إلى غيـر ذلك من الأحكام العـامة التي كـانت تدفعـهم إليهـا في الغالـب حماسـتهـم وشدة إعجابهم ببـيت رائع أو بصورة شعرية فريدة- لايعني أنهم أغـفلوا أو عجزوا عن إدراك علاقات الترابط والتماسك التي ينبغي أن تتوفر في مقاطع القصيدة وأبياتها.

فقد رأى ابن طباطبا العلوي(ت ٣٢٢هـ) أن القـصيدة ينبغي أن تكون كلها ككلمة واحدة، وينتظم القـول فيها انتظاماً ويتسق أولهـا مع آخرها فإن قدمنا بيت على بيت دخلها الخلل، كـما ينبغي للشاعـر أن يحسن الخروج من كل

معنى يصنعــه إلى غيره من المـعاني حتى لا يحـدث تناقض في معانيـها، ولا وهي في مبانيها[1].

ويقول(أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ):

«وخير الشعر ما تسابق صدوره وأعجازه، ومعانيه وألفاظه، فتراه سلسا في النظام، جاريا على اللسان، لا يتنافى ولا يتنافر، كـأنه سبيكة مفرغة أو وشى منمنم أو عقد منظم من جوهر متشاكل، متـمكن القوافي غير قلقة وثابتة غير مرجـة. ألفاظه متطابقة، وقـوافيه متـوافقة، ومـعانيه متـعادلة، كل شيء منه موضوع في موضعه، واقع في موقعه، فإذا انفض بناؤه، وحل نظامه، وجعل نثرا، لم يذهب حسنه، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه»[2].

ونقل(الحصري ت ٤٥٣هـ) عن(الحـاتمي) قوله: «مثل القصيـد مثل الإنسان في اتصال بعض أعضـائه ببعض، فمتى انفـصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه، وتقضى معالمه»[3].

فهذه الإشارات مـن جانب النقاد العرب تؤكد أن تصورهم للقـصيدة لم يكن تصورا لأبيات مفردة أو منفصلة تستقل بذاتها عن بقية أبيات القصيدة.

كما يرى أستاذنا الـدكتور/ محمد زكي العشماوي أن البـيت الشعري قد يمثل معنى تاماً أو قـد يحتوي على صورة كاملة، ولكن انتـهاء المعنى الواحد ببيت من الشعر، واكتمال الصورة في جملة أو جملتين لا يعني أن هذا البيت أو تلك الصورة منفصلة عن سابـقتها أو مقطوعة عما يليـها. ولو كان الأمر أمر بيت واحد، أو أمر قصيدة مفككة الأوصال، ماوجدنا النقد الأدبي العربي يعني هذه العنـاية الكبـيرة بالكـلام عن حسن التـخلص والخـروج، وبراعـة الاستـهلال، وصحة التـقسيم، وبراعة الخـتام، وغير هذا من مـصطلحات

(١)راجع عيار الشعر ص ١٤٦، ١٤٨، وأيضا الموشح للمرزباني ص ٢٣٧.

(٢) الصناعتين ص ٣٨٢.

(٣) زهر الآداب جـ٣ ص ٦٥١.

تداولها البيانيون، وكلها يشير إلى أن تصورهم لبنية القصيدة كان تصورا لعمل متصل الأجزاء[1].

وقد اتفق النقاد قديما وحديثا على أن القصيدة العربية تمثل كيانا واحدا إذا حللناه وجدناه يتألف من طائفتين من العناصر: العناصر الداخلية: وهي الموضوع والأفكار، وعنصر العاطفة والانفعال، وعنصر الخيال والتخيل. والعناصر الخارجية: وهي عنصر الألفاظ كلمات وجملا وفقرات، وهو يؤدى عن الأفكار والموضوع، وعنصر الموسيقا والإيقاع الذي ينبثق أساساً من عنصر العاطفة والانفعال، وعنصر الصورة الفنية وهو أداة الخيال ولغة التخيل.

فهذه العناصر في كيان القصيدة تتداخل معا، فتشكل بناءها العام، وتبني قوامها الخاص، وتميزها أثرا يستقبله المتلقي فيتأثر به، ويستجيب له، ويشارك صاحبه الشاعر في تجربته التي تمثل المخاض الفكري والعاطفي والفني لميلاد قصيدته وإرساء منبتها[2].

ولاشك أن التجربة متنوعة في دواعيها وأشكالها، وهي في الأحوال جميعا تأخذ بكيان الشاعر ووجوده، وتخضعه لعاطفة تلائمها وتنبثق عنها. والعاطفة بطبيعتها تؤثر في الشاعر جسما وفكرا وخيالا فتهيج في ذهنه أفكارا: تشكل الموضوع الذي ينظم قصيدته فيها، وتفجر في ذهنه ملكة الخيال التي تعمل على خلق الصور الفنية التي تجسد التجربة أو اللحظة الشعورية التي يعانيها الشاعر، وبالتالي تسيطر التجربة علي القصيدة في موسيقاها وإيقاعها وصورها وألفاظها وتعابيرها وفي سياقها وبنائها.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أننا عندما نذكر هذه العبارات «الوحدة العضوية» أو«الوحدة الفنية» أو«الوحدة الشعورية» إنما نعني شيئا واحدا هو هيمنة إحساس واحد، أو لحظة شعورية واحدة أو رؤية نفسية ذات لون محدد يسيطر على العمل الفني كله، وأن الصورة الشعرية بكل أشكالها المجازية وبمعناها

(١) قضايا النقد الأدبي ص ٢١٥ وما بعدها.

(٢) بناء الصورة الفنية ص ٣٤٣ وما بعدها.

الجزئي والكلي هي وسيلة الفنان لتجسيد هذه الإحساس، أو تلك العاطفة أو هذه الرؤية التي يراها للوجود أو للموقف الذي يعبر عنه[1] ،ومن ثم يصبح العمل الفني أو القصيدة كأنه بناء موحد تتداخل عناصره وتتفاعل في قوام معنوي، وتتجسد وحدة فكرية وفنية لا انفصام بين أجزائها ولا تداعي يهز وجودها.

ولاشك أن الإسلام بتعاليمه التي تغلغلت في نفوس الشعراء المخضرمين كان له أثر في وجود هذه الوحدة العضوية في كثير من أشعارهم؛ لأن الشاعر المسلم- في الغالب- يصدر في شعره عن لحظة شعورية واحدة، فيهيمن على قصيدته من أولها إلى آخرها إحساس واحد ورؤية نفسية واحدة تصبغ القصيدة كلها بلون واحد وتجعلها وحدة فكرية ودينية متماسكة.

فعندما ينشد كعب بن مالك قصيدته التي قالها في إجلاء بني النضير ومقتل كعب بن الأشرف، يسيطر عليه لون واحد من الشعور يجعل قصيدته محكمة النسج، إلى جانب هذه الروح القصصية التي نلمسها في هذا التسلسل الفكري حين أبرز موقف اليهودى وبالتالي موقف جماعة المسلمين، وعرضه بصورة متسلسلة لمقتل هذا اليهودى ثم إجلاء اليهود بعد مصرعه، فيقول[2]:

لَقَدْ خزِيَتْ بِغَدْرَتِهَا الْحُبُورُ ... كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُوُ صَرْفٍ يَدُورُ

وَذَلكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبّ ... عَزِيزٍ، أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرُ

وَقَدْ أُوتُوا مَعاً فَهْماً وَعِلْماً ... وَجَاءَهُمُ مِنَ اللهِ النَّذِيرُ

نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى كِتَاباً ... وآيَاتٍ مُبَيَّنَةً تُنِيرُ

فَقَالُوا: مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صِدْقٍ ... وأَنْتَ بِمُنْكَرٍ مِنَّا جَدِيرُ

فَقَالَ: بَلَى لَقَدْ أَدَّيْتُ حَقّاً ... يُصَدِّقُنِى بِهِ الْفَهِمُ الخَبِيرُ

(1) قضايا النقد الأدبي ص ١١١.

(2) ديوان كعب ص ٢٠٣ وما بعدها.

فَمَنْ يَتْبَعْهُ يُهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ ... وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ يُجْزَ الْكَفُورُ
فَلَمَّا أُشْرِبُوا غَدْراً وَكُفْراً ... وَجَدَّ بِهِمْ عَنِ الْحَقِّ النُّفُورُ
أَرَى اللهُ النَّبِيَّ بِرَأْيِ صِدْقٍ ... وَكَانَ اللهُ يَحْكُمُ لاَ يَجُورُ
فَأَيَّدَهُ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ ... وَكَانَ نَصِيرُهُ نِعْمَ النَّصِيرُ
فَغُودِرَ مِنْهُمُ كَعْبٌ صَرِيعاً ... فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيرُ
عَلَى الْكَفَّيْنِ ثَمَّ وَقَدْ عَلَتْهُ ... بِأَيْدِينَا مُشَهَّرَةٌ ذُكُورُ
بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لَيْلاً ... إِلَى كَعْبٍ أَخَا كَعْبٍ يَسِيرُ
فَمَاكَرَهُ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرٍ ... وَمَحْمُودٌ أَخُو ثِقَةٍ جَسُورُ
فَتِلْكَ بَنُو النَّضِيرِ بِدَارِ سَوْءٍ ... أَبَارَهُمُ بِمَا اجْتَرَمُوا الْمُبِيرُ
غَدَاةَ أَتَاهُمُ فِي الزَّحْفِ رَهْواً ... رَسُولُ اللهِ وَهْوَ بِهِمْ بَصِيرُ
وَغَسَّانُ الْحُمَاةُ مُؤَازِرُوهُ ... عَلَى الأَعْدَاءِ وَهْوَ لَهُمْ وَزِيرُ
فَقَالَ: السِّلْمَ وَيْحَكُمُ، فَصَدُّوا ... وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبٌ وَزُورُ
فَذَاقُوا غِبَّ أَمْرِهِمُ وَبَالاً ... لِكُلِّ ثَلاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيرُ
وَأُجْلُوا عَامِدِينَ لِقَيْنُقَاعٍ ... وَغُودِرَ مِنْهُمُ نَخْلٌ وَدُورُ

فالوحدة العضوية في هذه القصيدة تتحقق بفضل قوة الخيال، وبفضل استجابة الشاعر لتعاليم الإسلام التي تمخضت عنها تجربة شعورية مركزة ومحددة تجاه اليهود، وبفضل قدرة الشاعر على إخضاع جميع عناصر فنه لهذه التجربة الشعورية الواحدة.

وقد مرت بنا أبيات من قصيدة عروة بن زيد الخيل التي قالها في أثناء الفتوحات الإسلامية لبلاد الفرس، وهذه القصيدة تتمخض عن تلك المعارك

التي دارت رحاها خارج الجـزيرة العربية، وتصور أجواءها النفـسية والفكرية والقتـالية، بأسلوب قـصصي: تمثل في بناء مـوحد أذاب في منعطفـاته تجربة الشاعـر الرئيسة وفـروعها، وأخرجـها حدثا ذاتيـا وجماعيـاً في آن واحد، يقول[1]:

أَلا طَرَقَتْ رَحْلِي وَقَدْ نَامَ صُحْبَتِي ... بِإِيـوَانِ سِيـرِينَ الْمُزَخْرَفِ خُلَّتِي

وَلَوْ شَهِدَتْ يَوْمَيْ جَلُولاءَ حَرْبَنَا ... وَيَوْمَ نَهَاوَنْدَ الْمَهُولَ اسْتَهَـلَّتِ

إِذاً لَرَأَتْ ضَرْبَ امْرِئٍ غَيْرِ خَامِلٍ ... مُجِيدٍ بِطَعْنِ الـرُّمْحِ أَرْوَعَ مِصْلَتِ

وَلَمَّا دَعَوْا يَا عُرْوَةَ بْنَ مُهَلْهَلٍ ... ضَرَبْتُ جُمُوعَ الْفُرْسِ حَتَّى تَوَلَّتِ

دَفَعْتُ عَلَيْهِمْ رَحْلَتِي وَفَـوَارِسِي ... وَجَرَّدْتُ سَيْفِي فِيـهِمُ ثُمَّ أَلَّتِي

وَكَـمْ مِنْ عَدُوٍّ أَشْـوَسٍ مُتَمَرِّدٍ ... عَلَيْهِ بِخَيْلِـي فِي الْهِيَاجِ أَظَلَّتِ

وَكَـمْ كُرْبَةٍ فَرَّجْتُهَـا وَكَرِيهَةٍ ... شَدَدْتُ لَهَا أَزْرِي إِلَـى أَنْ تَجَلَّتِ

وَقَدْ أَضْحَتِ الـدُّنْيَا لَدَيَّ ذَمِيمَةً ... وَسَلَّيْتُ عَنْهَا الـنَّفْسَ حَتَّى تَسَلَّتِ

وَأَصْبَـحَ هَمِّي فِي الْجِهَادِ وَنِيَّتِي ... فَلِلَّهِ نَفْـسٌ أَدْبَـرَتْ وَتَوَلَّـتِ

فَلا ثَرْوَةَ الـدُّنْيَا نُرِيـدُ اكْتِسَابَهَا ... أَلا إِنَّهَا عَنْ وَفْرِهَـا قَدْ تَجَلَّتِ

وَمَاذَا أُرَجِّي مِنْ كُنُوزٍ جَمَعْتُهَـا ... وَهَـذِي الْمَنَايَا شُرَّعـاً قَدْ أَظَلَّتِ

وتحققت هذه الوحدة العضوية في أغلب شعر حسان بن ثابت الإسلامي؛ لأنه سخر شعره لخدمة الدعوة الإسلامية والذود عنها، فصدر في معظمه عن لحظة شعورية واحدة ليعبر عن موقف مـحدد، فيغلب عليه إحساس واحد لا يكاد يخرج عنه، فـتراه- على سبـيل المثال- في هجـائه للضحاك بن خليـفة الأشهلي الذي اشتهـر بالنفاق وحبه لليهود، يصـدر عن هذا الشعور الديني

(١) الأخبار الطوال ص ١٣٨.

الذي يعبر عن شعور الجماعة الإسلامية تجاه النفاق والمنافقين، فيقول[1]:

أَلا أَبْلِغْ الضَّحَّاكَ أَنَّ عُرُوقَهُ ... أَعْيَتْ عَلَى الإِسْلامِ أَنْ تَتَمَجَّدَا

أَتُحِبُّ يُهْدَانَ الْحِجَازِ وَدِينَهُمْ ... كَبِدَ الْحِمَارِ وَلا تُحِبُّ مُحَمَّدَا

وإذا نَشَا لَكَ نَاشِئٌ ذُو غِرَّةٍ ... فَهُّ الْفُؤَادِ أَمَرْتَهُ فَتَهَوَّدَا

لَوْ كُنْتَ مِنَّا لَمْ تُخَالِفْ دِينَنَا ... وَتَبِعْتَ دِينَ عَتِيدِ حِينَ تَشَهَّدَا

دِيْناً لَعَمْرِكَ مَا يُوافِقُ دِينَنَا ... مَا اسْتَنَّ آلٌ بِالْبَدِيِّ وَخَوَّدَا

وعلى هذا النحو تطرد الوحدة العضوية في معظم شعر المخضرمين بعد الإسلام؛ لأنه كان بمثابة المرآة التي انعكست عليها آثار الإسلام والتطورات العميقة التي جدت في حياة المجتمع الإسلامي. فنراه في أغلب أغراضه ومعانيه يعبر عن الغايات السامية التي أقرها الإسلام، ومن ثم طبع الشعر بطوابع إسلامية واضحة، وظهرت ملامح التجديد في بنائه بأن تحرر الشعراء في أغلب قصائدهم من القيود التي فرضها نهج القصيدة العربية، ومالوا إلى المقطعات، ومن ثم أصبحت قصائدهم لا تستوعب- في الغالب- أكثر من غرض واحد أو فكرة واحدة يركز عليها الشاعر اهتمامه، وبالتالي لايجد نفسه في حاجة إلى المقدمات أو الانتقال من غرض إلى غرض، ومن ثم تحققت في كثير من قصائدهم الوحدة الموضوعية إلى جانب الوحدة العضوية أو الفنية التي افتقدناها في كثير من الشعر الجاهلي.

* * *

(١) ديوان حسان ص ٣٠٢.

الخاتمـــة

عرضت فى هذا البحـث بالدراسة والتحليل للظواهـر الإسلامية فى شعر المخضرمين، وهـدفى رصد الظواهر الإســلامية الجديدة فى شـعرهم، ولأرد على من ظـنوا أن المخضرمين عاشـوا بمعزل عن المؤثرات الإســلامية، أو أن شعرهـم فى الإسلام ظل جـاهليا فـى شكله ومـضمونه، بـل يقل عنـه فى المستـوى الفنى، وكـأنهم ينظـرون إلى الإسلام علـى أنه من عوامـل ضعف الشعر فى هذه الفترة.

ولذلك خصصت هذا البحث لـدراسة هذا الموضوع، وتحدثت فى الباب الأول عن أثـر الإسلام فى الحيـاة العربـية. وتحدثـت فى فصلـه الأول عن مجموعة من القيم الاجتماعية والخلقـية التى تأصلت فى المجتمع العربى قبل الإسلام، مثـل النظام القـبلى وقانون الـعصبية والأخـذ بالثأر،وبيـنت مدى تأثيرهــا فى حياة المجتمع، وأوضــحت كيفية اهـتمام الإسلام بها وتوجـيهها الوجهة الإســلامية الصحيـحة، وكيف صاغ من الـقبائل المتنـافرة أمة واحدة تخضع لسلطان واحـد، وتصطنع روحه الإنسانى مكان حميتـها الجاهلية.ثم تحدثت عن بعض القـيم التى أقرها الإسلام، وهى تتفق مع الطبـيعة البشرية فى كل زمان ومكان، وتـهدف إلى غايات سامية، مثل تحـقيق الأمن والعدل والمساواة ورفض الـظلم والاهتمام بـالأسرة وحفظ أعراض المســلمين، وهذه القيم وإن كنا نجد بعضها عنـد عرب ما قبل الإسلام، إلا أن الإسلام جعلها عمداً وركائز يقوم عليها البناء الاجتماعى السليم، فهى اللبنة التى يشيِّد عليها كيان هذه الدولة الإسلامية التى أراد الـرسول- ﷺ- أن يخضع الأمة العربية

تحت لوائها، لتكون خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحض على الفضائل، وتحارب الرذائل، وخلصت من هذا الفصل بنتيجة لا شك فيها، وهى أن الإسلام هزَّ نفوس العرب جميعاً شعراء وغير شعراء، وأثر فيهم تأثيراً واضحاً بعد أن تغيرت المعايير واختلفت المقاييس، وتحولت نظرتهم إلى الحياة، فاتجهت أنظارهم نحو الهدف والغاية التى من أجلها خلق الله الجن والإنس.

وارتبط الفصل الثانى بالفصل الأول ارتباطاً وثيقاً، فتحدثت فيه عن التعاليم الدينية التى أسهمت فى تحقيق الهدف والغاية، فأول ما دعا إليه الرسول- ﷺ- هو الاعتقاد بوحدانية الله والنظر فى الكون والتأمل فى المخلوقات، ثم شرعت بعد ذلك الفرائض والعبادات التى ينبغى أداؤها. فتحدثت عن الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغيرها من الفرائض والآداب، التى حض عليها الإسلام وتعاليمه وأثمرت ثمرتها فى نفوس العرب وبخاصة الشعراء، الذين تتلمذوا فى مدرسة الرسول- ﷺ- فكان شعرهم المصورة البارعة لكل هذه الأحداث والتعاليم، فتناول الحياة العربية على أساس جديد، وتناول الأوضاع على حسب ما أوصى الإسلام، فتغيرت معانيه الجاهلية، بل تغيرت مبانيه من لفظ وأسلوب معتمدة على معين فياض من البيان فى لفظ القرآن وأساليبه وتعابيره.

ولذلك خصصت الباب الثانى لدراسة الظواهر الإسلامية فى موضوعات شعرهم، وتحدثت فى الفصل الأول عن الظواهر الإسلامية فى الموضوعات التقليدية، فعرضت لنماذج متعددة من شعر المديح، وبعد دراستها دراسة

صابرة، اتضح لنا أن شعر المديح التزم النهج القويم ونأى عن الإسفاف والمغالاة، وتمثل - فى أغلبه - الأفكار والمبادئ والفضائل الإسلامية التى التقت فى كثير من المواضع مع الفضائل الجاهلية التى توافق المنظور الإسلامى. فقد تغيرت الدوافع التى كانت تدفع الشعراء إلى المديح، فلم يعد العطاء والتكسب هو الدافع الأول للشعراء كما كان من قبل، بل أصبحت الفضائل الإنسانية والإسلامية هى التى تستثير الشعراء، وتدفعهم إلى القول الصادق، دون رياء أو مواربة. ومن ثم جدد الشعراء فى مضامين شعرهم، فتحدثوا عن معان جديدة كشفت لنا عن الظواهر الإسلامية فى مديحهم للرسول - ﷺ - الذى كان مصدراً للهداية كما تحدثوا عن صلة الرسالة بالسماء، وتأييد الملائكة للرسول، وأفاضوا فى معجزاته وحيائه وشفاعته وتنكيله بالملحدين. وفى مديحهم للصحابة الراشدين تحدثوا عن حبهم وطاعتهم ونصرتهم للرسول، كما تحدثوا عن عدلهم وتقواهم، وأخيراً توجهوا بمديحهم نحو الذات الإلهية.

وعرضت لنماذج أخرى من شعر الهجاء بعد أن بينت بوضوح موقف الإسلام من هذا الفن الشعرى، وكيف وجهه الرسول - ﷺ - وخلفاؤه الراشدون وكيف استخدمه المسلمون سلاحاً ضد أعداء الإسلام يردون به عادية المشركين. ومن ثم تغيرت دوافع الهجاء عند شعراء المسلمين، كما تغيرت معانيه؛ لأنه - فى الغالب - كان موجهاً للمشركين من شعراء مسلمين يذودون عن الإسلام وأتباعه، ومهما اختلفت أساليبهم، فهدفهم - كما رأينا - كان واحداً، تمثل فى تعيير المشركين بالكفر فضلاً عن تعييرهم

بـالأحساب ،والأنسـاب واللؤم وعدم الوفاء ونقض العهد، وتعـييرهم أيضاً بتغريـر الشيطان لهـم وإعراضهم عن طريـق الهداية الذى دعا إلـيه الرسول -ﷺ ،كذلك توجهوا بهجائهم إلى المنافقين واليهود يريدون بذلك الذود عن الرسول -ﷺ، وأعراض المسلمين.

وعرضت لنمـاذج مختلفة من شعـر الفخر الإسلامى، وبينـت كيف رسم الإسلام له طريقـاً سوياً حتى لا تتجدد الـضغائن وتظهر الأحقـاد والنعرات والعصبيات الجـاهلية، فقد وجه الرسول -ﷺ- وخلفاؤه الـشعراء إلى المثل والفضائل التى أمر بها الإسلام، ومن ثـم أضحى شعر الفخر - بعد أن كان فخراً بـالقبائل وإشـادة ببلاء الأفراد- فخـراً إسلامياً جـديداً. فرأينا الـشعراء يفتخرون بانتمـائهم لدين الإسلام وجماعة المسلمين، ويفـتخرون بخضوعهم وولائهم للـرسول-ﷺ، ويشيدون ببـلاء جنود المسلمـين، ويفتخرون بنـيلهم الشهادة فى سبـيل الله ونصرة هذا الدين والظهور عـلى أعداء الله المشركين.
فأصبحـت العقيدة الإيمانيـة هى التى تحرك مشـاعرهم بطريق مبـاشر أو غير مباشر،ولذلك نراهم لا يغالون فى فخـرهم كما كان الحال فى الجاهلية، بل كانت الواقـعية والصدق فى التـعبير هى السمة الـغالبة على فخـرهم؛ لأنهم التزموا بتعالـيم الإسلام التى تحض على الصدق فى كل شـىء،وآمنوا بأنهم يعيشون من أجل الحق والخير والفضيلة.

وعرضت لـنماذج مخـتلفة مـن شعر الحمـاسة، وأشرت إلى الـتطورات الملحـوظة التى طـرأت على هذا الفـن الشعرى؛ لأن فكـرة الجهاد تتـجلى بوضوح فى الشعـر الحماسى عند المخضرمين بعد إسلامـهم، فقد كان إشادة

ببلاء الجماعة الإسلامية وبسالتها وتضحيتها فى سبيل نشر دين الإسلام، كما صور إقدام كتائب جنود المسلمين فى المعارك والغزوات، وضراوة القتال بينهم وبين أعداء الإسلام، وصور أيضاً شدة اللقاء وبذل المجاهدين أرواحهم رخيصة فى سبيل تحقيق النصر والفوز بوعد الله الذى وعده جنوده المخلصين، وقد يكون فى كل ذلك إشادة بالنفس أو بالغير، ولكن هدفهم كان واحداً، فبذلوا أرواحهم وضحوا بأنفسهم وأخلصوا النية فى الجهاد، ورفضوا عرض الدنيا الزائل، مؤمنين بنصر الله لهم، يطيرون إلى جناته وكأنهم يرونها رأى العين.

وعرضت بعد ذلك لنماذج من شعر الرثاء اتضحت فيها الظواهر الإسلامية كل الوضوح؛ لأن فن الرثاء من الفنون الشعرية التى حظيت باهتمام الشعراء المخضرمين لكثرة من استشهد من المسلمين فى الغزوات والمعارك التى دارت رحاها بينهم وبين أعداء، الإسلام ثم إن فقدهم للرسول- ﷺ- جعلهم يستشعرون الأسى والجزع على فقده لشدة إحساسهم بالفجيعة، ولكنهم كانوا مؤمنين بإرادة الله وقضائه الذى قدره، ولذلك تماسكوا أمام أحزانهم بالصبر، وفرجوا عن همومهم فى أشعارهم، فتمثلوا المعانى الدينية التى تبين مصير هؤلاء الشهداء الذين قدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله، وإحساسهم بانقطاع الوحى عن الأرض بعد وفاة الرسول -ﷺ، وخرجوا من حديثهم عن موتاهم إلى فلسفة الموت وسنة الله فى الكون، فتأملوا الحياة ونعيمها الزائل الذى لايدوم، راغبين فى الوصول إلى كنهها وجوهرها ليقرروا فى النهاية أنها طريق مؤدٍ إلى الآخرة، فتتماسك نفوسهم

وتطمئن قلوبهم مستسلمين لقضاء الله وقدره، مؤمنين بأنهم إليه راجعون. ثم عرضت نماذج من شعر رثـاء الأعضاء يظهر فيها نوع من التـأمل والاستبطان لم نجد له شبيهـاً فى الشعر الجاهلى، حين احتسب المجـاهدون ما فقدوا من أعضائهم عند خالقهم أو حين تمنوا أن يلـحقوا بها أو جعلها كفارة لذنوبهم، وصور هذا اللون وإن كانت قـليلة إلا أنها تدلنا على التـطور والتجديد الذى طرأ على شعر الرثاء عند المخضرمين.

ثم عرضت لنمـاذج قليلة من شعر النسيـب؛ لأن هذا الفن-وإن كان أقدم الفنـون الشعرية عنـد العرب وأكثرهـا شيوعاً فى الـشعر الجاهلى- لـم ينل اهتمامـاً بالغاً من الشـعراء المخضرمين بعد إسـلامهم؛ لأن مهمة الـشاعر قد تغيرت بعد أن حظر الإسلام على الشعراء الـتغزل والتشبيب بالنساء، وصار الدفاع عن الإسلام والمسلمين ونشر الدعوة الجديدة شغلهم الشاغل، ومن ثم لم تعد الظروف النفسـية للشاعر مهيأة تماماً لأن يدبج مطلعـاً غزلياً لقصيدته كما كان يفعل الجاهليون، ثم إن الجمهور المتلقى نفسه لم تعد لديه الرغبة فى الاستماع والاسـتمتاع بمثل هـذه المطالع؛ولذلك اختـفت المطالع الغـزلية فى أغلب قصائدهـم. وكما اتضحت الظواهر الإسلاميـة فى أغراضهم الأخرى اتضحت أيضاً -وإن كانـت بصورة غير مباشرة- فى تغزلهم وتشـبيبهم، فقد اتجه الإسلام بالشعراء اتجاهاً جديداً فى التشبيب حتى لا يؤدى هذا اللون من الشعر إلـى نوع من الانحراف الديـنى والاجتماعى،ووقـف الرسول- ﷺ- وخلفاؤه الـراشدون موقفاً متشدداً إزاء مـن يشبب بامرأة أحد من المـسلمين، فيوقعـون عليه أشد العـقوبة كإهدار دمه أو حـده أو نفيه من الوطـن حتى لا تنتشر الفتنـة والفساد. وكان لكل ذلك أثره البالغ فى نفـوس الشعراء فابتعد

معظمهم فى تغزله عن أسلوب الوصف المباشر واتجهوا إلى الكناية والرمز ومشاركة مظاهر الطبيعة فى التعبير عن خلجات أنفسهم وانفعالاتهم الذاتية، ولم يصرحوا تصريحاً مباشراً، ولم يفحشوا فى قولهم، حتى لا يؤدى ذلك إلى الانحراف الذى نهى عنه الإسلام.

واكتفيت بعرض هذه الأغراض التقليدية لإثبات أن الظواهر الإسلامية -التى تمثلت فى المعانى الدينية والالتزام بتعاليم الإسلام- قد شاعت وظهرت بصورة واضحة فى فنونهم الشعرية القديمة.

وفى الفصل الثانى من هذا الباب تناولت بالدراسة والتحليل الظواهر الإسلامية فى الموضوعات الشعرية الجديدة التى ازدهرت على أيدى المخضرمين.

فعرضت لنماذج متعددة من الشعر التعليمى الإسلامى؛ لأن المخضرمين بعد أن أوسعوا شعرهم لتعاليم الدين الجديد ليمحوا ضلالات الجاهلية انسابت على ألسنتهم معان جديدة، وقضايا إسلامية لا نجد لها شبيهاً فى الشعر الجاهلى، فتحدثوا عن قضية التوحيد، والإيمان بالرسول والملائكة والكتب، والإيمان بالثواب والعقاب، والحياة والموت، والجنة والنار، ثم سجلوا فى شعرهم بعض الأوامر والنواهى التى شرعها الإسلام مثل: صلة الرحم، وطاعة الوالدين، وبر الأقارب، وحسن معاملة اليتيم وحفظ ماله، والتمسك بالجماعة، ونبذ الفرقة، والحض على مكارم الأخلاق وغيرها. وبذلك أمكننا القول بأن فناً شعرياً جديداً أخذ طريقه فى الظهور منذ صدر الإسلام على أيدى المخضرمين.

وعرضت لنماذج من شعر التوبة الذى أعلن فيه الشعراء ثورتهم على أصنامهم وأقروا بوحدانية الله وأعلنوا توبتهم الصادقة. وهذا الفن الشعرى الجديد يدل على تأثر المخضرمين بتعاليم الإسلام الجديدة وإدراكهم حقيقة الإيمان التى غيرت اتجاهاتهم فى الحياة.

وعرضت لنماذج من شعر الاعتذار الإسلامى الذى ازدهر على أيدى المخضرمين فى عهد الرسول- ﷺ- وأوضحت الفرق بين اعتذار النابغة الذبيانى الذى كان يهدف من ورائه دفع الأذى عن نفسه وتحقيق منافع مادية أخرى، وبين اعتذار المسلمين عن أيام كفرهم ومعاداتهم للمسلمين، وتأكيد العزم والتوبة والندم على ما فرطوا فى جنب الله؛ لأنهم كانوا يصدرون فى اعتذارهم عن عاطفة صادقة وشعور بالإيمان العميق الذى تغلغل فى نفوسهم، من ثم اتضحت الظواهر الإسلامية فى هذا اللون الشعرى، وتطور تطوراً كبيراً بما حمله من معان إسلامية جديدة أعجب بها الرسول- ﷺ- وطاب قلبه لها، وجعلت اعتذارهم مقبولاً لديه.

وعرضت لنماذج مختلفة من شعر العتاب الإسلامى الذى كان نتيجة محتومة أو أثراً من آثار الشورى التى بثها الإسلام فى نفوس أبنائه، فدفعهم إلى الخوض فى موضوعات جديدة ومعان لم يألفها الشعر العربى من قبل. فكان لشدة حرص الشعراء على مصالح المسلمين ورغبتهم القوية فى صلاح الجماعة الإسلامية أثره فى توجيه أشعارهم إلى ولاة الأمور يعاتبونهم، ويرفعون إليهم شكواهم، وأحياناً يعنفونهم ويتوعدونهم لخروجهم على تعاليم الإسلام وسنن السابقين الصالحين؛ ولذلك جاء شعرهم معبراً عن

روح الجماعة الإسلامية، ملتزماً بأخلاق الإسلام فى مخاطبة ولى الأمر، فلم يفحشوا فى قولهم، بل التزموا فى خطابهم بهذا الأسلوب الديمقراطى الذى يتضمن المعانى الإسلامية المختلفة التى كانت وليدة المواقف والتجارب التى مر بها الشعراء.

وعرضت بعد ذلك لنماذج من شعر النقائض الذى ازدهر فى عهد الرسول- ﷺ- نتيجة لمعارك الهجاء الضارية التى توهجت وعلا أوارها، وتراشق الشعراء مسلمون وغير مسلمين بالقصائد. وإن كان لهذا الفن جذور فى الجاهلية إلا أننا أثبتنا أن هذه النقائض التى خلّفتها الحرب اللسانية بين شعراء المسلمين وغيرهم هى الأساس الذى بنيت عليه نقائض جرير والفرزدق والأخطل فيما بعد. ثم أوضحت الفرق بين دوافع النقائض الجاهلية التى كانت تحركها العصبية القبلية -فى الغالب- وبين النقائض الإسلامية التى اتخذت من الدين أساساً لها، ومن ثم تطورت معانيها وأساليبها واعتمد المسلمون فى نقائضهم على نقض المعانى التى عبر عنها المشركون فى قصائدهم عن طريق التكذيب والمقابلة والقلب، والتوجيه والوعد والوعيد، والسخرية والشماتة وتفنيد مزاعمهم وحججهم، وفضح تآمرهم، وكشف دواخل نفوسهم، فى محاولة لإظهار كلمة الحق ونصرة الدين الذى تمثل فى نفوسهم عقيدة وإيماناً، فانبروا يدافعون ويزجرون عنه كل باطل، وأثبتوا فى ذلك تفوقاً فنياً ملحوظاً، يبطل الدعوى التى زعمت أن الإسلام من عوامل ضعف الشعر عند المخضرمين؛ لأنهم كانوا يعتمدون فى مقابلة قصائدهم بقصائد من نفس البحر والقافية والروى، فضلاً عن المعانى الدينية التى استقاها الشعراء من تعاليم الإسلام.

وعرضت لنماذج مختلفة من شعر المخضرمين الذى عبر عن الأحداث الدينية والسياسية وما أعقبها من نزاعات وصراعات تمثلت فى التمرد والتخلى عن فكرة الوحدة الدينية والثورات ضد الخلفاء، وانقسام الجماعة الإسلامية بعد مقتل عثمان، واستطعت أن أثبت أن الشعر الحماسى الذى يفتخر فيه الشعراء بمآثرهم الإسلامية، ووحدتهم الدينية، وجهادهم فى سبيل الله ونصرة رسوله- ﷺ- وانتصارهم على أعداء المشركين، تحول إلى شعر سياسي، حيث انقسم الشعراء بين زعيمين، وأخذوا يصورون في شعرهم تصويرا مباشراً أو غير مباشر نزعتين سياسيتين تتصارعان في سبيل الحكومة الإسلامية لمن تكون؟ فغابت المعاني الدينية في ظل هدا الصراع الذي نفث الروح الجاهلية في شعر المخضرمين من جديد.

ثم عرضت بعد ذلك لنماذج من شعر الحنين وتصوير البيئات الجديدة وبينت أثر الإسلام في هذا اللون سواء أكان تأثيراً مباشراً أم غير مباشر؛ لأن الهجرة والجهاد في سبيل الله هما السبب الرئيسي في خروج المسلمين من ديارهم وفراقهم أهليهم وذويهم، فظهرت في أشعارهم التي تعبر عن حنينهم إلى أبنائهم وأهلهم وأوطانهم لواعج الشوق والحنين، وصوروا إعجابهم وسخطهم بالمناطق الجديدة التي نزحوا إليها، وهذه الأشعار وإن كانت تعبر عن نزعة صادقة، لا تغيب فيها الظواهر الإسلامية، فالشاعر الذي يحن إلى المجاهدين لا يغفل أنهم خرجوا في سبيل الله، والمجاهد الذي يحن إلى وطنه يؤمن برسالته التي من أجلها فارق أهله وذويه، فهو لم يخرج إلا لنشر هذا الدين والجهاد في سبيل الله. لذلك، لانعدم وجود هذه المعاني الدينية

في شعرهم، وإن كانت غير واضحة بصورة مباشرة إلا أنهم لم يغفلوها بل عبروا عنها بصور ومعان مختلفة.

وهذه الموضوعات الجديدة في جملتها- التي ازدهرت بعد أن جادت بها قرائح الشعراء المخضرمين- كانت تمليها عليهم طبيعة الحياة الجديدة والأجواء المحيطة بالشعراء في ظل الإسلام، فاستثارتهم المواقف والأحداث، وصدروا في شعرهم عن عاطفة صادقة تسيطر عليها روح الإيمان والعقيدة الثابتة، ليخلصوا لنا بهذه الموضوعات التي لا نجد لأغلبها شبيها قبل الإسلام.

ورأيت بعد ذلك أن الظواهر الإسلامية في موضوعات شعر المخضرمين لم تكتمل صورتها بعد؛ لأن المضمون الشعري يرتبط ارتباطاً وثيقا بعناصر الشكل الفني المختلفة ولذلك تحدثت في الباب الثالث عن الظواهر الإسلامية في عناصر الشكل الفني عند المخضرمين لتتضح لنا الرؤية ونكشف عن التوافق والتلاؤم بين المضمون والشكل.

فعرضت في الفصل الأول للغة الشعر وموسيقاه، وبينت أثر الإسلام في تطور لغة الشعر عند المخضرمين الذي ساعد على اختفاء الجزالة البدوية القديمة لتحل محلها بساطة الأسلوب ورقة الألفاظ، وساعدهم على ذلك اقتباسهم وتأثرهم بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه وأحاديث الرسول-ﷺ- وساعدهم أيضا في استخدام ألفاظ لها مدلولات إسلامية جديدة وتعبيرات لم تكن مألوفة في شعرهم من قبل.

وفي حديثنا عن الموسيقا بوصفها عنصرا هاما من عناصر الشكل الفني توصلت إلى أن الشعراء المخضرمين نظموا في كل البحور بنسب متفاوتة

وكانت البحور الطويلة ذات المقاطع المتعددة لها النصيب الأكبر في نظمهم، وساعدهم على ذلك قوة إيمانهم وشعورهم بالاطمئنان النفسي والهدوء الذي يحقق للشاعر طول النفس الشعري، وذلك جعلهم يفضلون النظم في البحور الطويلة حتى ولو جاءت قصائدهم مقطعات صغيرة، ويعرضون عن البحور المجزوءة والقصيرة. ثم تحدثت عن جرس الألفاظ وما يحدثه من موسيقا داخلية تسير جنبا إلى جنب مع الموسيقا الخارجية التي يحدثها الوزن والقافية الموحدة وخاصة إذا كان الروى مقيدا.

وتحدثت في الفصل الثاني عن الصورة الفنية وبناء القصيدة، وبينت إلى أي مدى تأثر الشعراء المخضرمون ببلاغة القرآن وصوره، في تصويرهم للهداية وجعل النور والضياء والحبل والنعمة والدليل والوحي مادة لها، كما تحدثت عن صور التقوى، وصور الخير والشر، والإيمان والكفر، والثواب والعقاب، ومادة هذه الصور مادة إسلامية خالصة استمدها الشعراء من آي الذكر الحكيم كما بينا ذلك عند تحليل صورهم، ثم تحدثت عن الرمز بوصفه وسيلة من وسائل التصوير الفني عند المخضرمين، وخلصت من ذلك إلى بيان تأثر المخضرمين في تصويرهم بمصادر الصور القرآنية ومعرفة خصوصيتها الإسلامية. وختمت هذا الفصل بدراسة بناء الصورة الفنية عندهم، وخلصت بعد مناقشة التحرر من النهج الفني للقصيدة العربية والميل إلى المقطعات والوحدة العضوية إلى أن الشعراء المخضرمين تحرروا في أغلب قصائدهم من النهج القديم ومالوا إلى المقطعات القصيرة وحققوا الوحدة العضوية أو الفنية في أغلب قصائدهم.

وبهذا يمكننا القول بأن شعر المخضرمين كان سجل الأمة العربية في دور تكوينها، والدولة الإسلامية في قمة ازدهارها وبسط سلطانها ونفوذها، والثورات الأهلية حين احتدامها، والأحزاب السياسية في فترة اصطراعها. وإلى جانب ذلك وضحت فيه الظواهر الإسلامية بصورة ملموسة حتى يمكننا القول بأن شعرهم حفل بكثير من معاني الإسلام التي نقلته إلى طور جديد، وأن أسلوب القرآن رفع أسلوب شعرهم إلى درجة أرقى مما كانت عليه أساليبهم، ولا منازع في أن أسلوب القرآن هو المثل الأعلى الذي تتطلع إليه آداب العرب في كل عصر من العصور.

تلك هي المعالم البارزة في هذه الدراسة آمل أن تسد فجوة في دراسة أدبنا العربي، وماهي إلا خطوة في الطريق ستتبعها بمشيئة الله خطوات وخطوات من الباحثين الجادين المخلصين لتقوِّم ما قد يكون فيها من عوج.

وحسبي أني أخلصت النية فيما بذلت من جهد، وعلى الله قصد السبيل.

* * *

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولا:المصادر والمراجع العربية.

١-اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري.

د/ محمد مصطفى هدارة-دار المعارف ١٩٦٨م.

٢-الأخبار الطوال.

أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري. تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠م.

٣-الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر. تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة (د ـ ت).

٤-أسد الغابة في معرفة الصحابة.

عز الدين بن الأثير(أبو الحسن علي بن محمد الجزري)دار الشعب ١٩٧٠م.

٥-الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة.

د/ مصطفى سويف. الطبعة الرابعة-دار المعارف، ١٩٨١م.

٦-الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية.

د/ مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٧-الإسلام والشعر.

د/ سامي مكـي العاني نشر سلـسلة عالم المعرفـة المجلس الوطني للـثقافة والفنون والآداب بالكويت العدد ٦٦-١٩٨٣م.

٨-أسماء المغـتالين من الأشراف في الجاهـلية والإسلام وأسماء مـن قتل من الشعراء.

محمد بن حبيب، الجزء الثاني مـن نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٢هـ-١٩٥٤م

٩-الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين.

للخالديـين: أبي بكر محمد وأبي عثمـان سعيد ابني هاشم، تحقـيق السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر(د/ ت).

١٠-الإصابة في تمييز الصحابة.

ابن حـجر العسـقلاني، تحـقيق علـي محمد الـبجاوي، طـبعة دار نهـضة مصر(د/ ت).

١١-الأصمعيات.

اختيار الأصمعي(أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك).

تحقيق وشرح أحمـد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطـبعة الرابعة، دار المعارف بمصر- ١٩٧٦م.

١٢-إعجاز القرآن.

الباقلاني(أبو بكر مـحمد بن الطيب)تحقيق: السيد أحمـد صقر، الطبعة الرابعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٧.

١٣-الأغاني.

أبو الفرج الأصفهـاني، طبعة دار الكتب المصريـة ١٩٥٠م ونسخة مصورة لطبعة دار الشعب عن دار الكتب.

١٤-الأمالي.
أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان- ١٩٨٠م

١٥-أنساب الأشراف.
أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق: محمد حميد الله، أخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٩م. الجزء الأول.

١٦-البداية والنهاية.
أبو الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقي، مكتبة المعارف- بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٨١-١٤٠٢هـ.

١٧-البرصان والعرجان والعميان والحولان.
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ-تحقيق: محمد مرسى الخولي-دار الاعتصام-القاهرة، بيروت ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٨-بناء الصورة الفنية في البيان العربي(موازنة وتطبيق).
د/كامل حسن البصير-طبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ١٩٨٧ .

١٩-بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس.
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق: محمد مرسي الخولي، مراجعة: د/عبد القادر القط-الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر(د/ت).

٢٠-البيان والتبيين.
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون-الطبعة الرابعة مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢١-تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية.
كارلو نالينو، الطبعة الثانية بدار المعارف ١٩٧٠م.
٢٢-تاريخ الأدب العربي.
كارل بروكلمان، ترجمة: عبد الحليم النجار وآخرين. طبعة دار المعارف بمصر(د/ت)
٢٣-تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي).
د/ شوقي ضيف-الطبعة التاسعة-دار المعارف ١٩٨١م.
٢٤-تاريخ الخلفاء.
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-دار نهضة مصر للطبع والنشر-القاهرة(د/ت)
٢٥-تاريخ الرسل والملوك.
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-دار المعارف بمصر(د/ت)
٢٦-التجربة الشعرية في القصيدة العربية القديمة.
د/ مصطفى علي عمر-دار المعارف ١٩٨٩م.
٢٧-تفسير القرآن العظيم.
عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، مكتبة التراث الإسلامي-حلب-سوريا ١٤٠٠هـ-١٩٨٩م.
٢٨-تفسير القرطبي(الجامع لأحكام القرآن).
لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري القرطبي-الطبعة الثالثة ١٩٨٩م-١٤٠٩هـ. دار الغد العربي بالقاهرة.

٢٩-التفسير النفسي للأدب.

د/ عز الدين إسماعيل-دار العودة والثقافة، بيروت-لبنان(د/ ت)

٣٠-التمثيل والمحاضرة.

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: عبد الفتاح محـمد الحلو-دار إحـياء الكتـب العربيـة عيسـى البابي الحـلبي القـاهرة ١٣٨١هـ-١٩٦١م.

٣١-تهذيب الآثار وتفضيل الثابت عن رسول الله- ﷺ -من الأخبار.

أبو جعفر مـحمد بن جرير الطبري-تحقـيق محمود محمد شاكـر، مطبعة المدني-القاهرة (د.ت).

٣٢-ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.

أبو منصـور عبد الملك بن محـمد الثعالبـى، تحقيق: محمد أبـو الفضل إبراهيم- دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٥م.

٣٣-جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام.

أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي، تحقيق: علي محمد البجاوي- الطبعة الأولى-دار نهضة مصر-القاهرة(د/ ت).

٣٤-جمهرة أنساب العرب.

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، تحقيق: عبد السلام هارون-الطبعة الرابعة بدار المعارف ١٩٧٧م.

٣٥-جمهرة نسب قريش وأخبارها.

الزبير بن بـكار ـ تحقيق: محمود شـاكر ـ مكتبة دار العروبـة ـ القاهرة ـ ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١م.

٣٦-حديث الأربعاء.

د/ طه حسين-الطبعة الثانية عشرة بدار المعارف ١٩٧٦م

٣٧-حركة الحياة الأدبية بين الجاهلية والإسلام.

د/ سعيد حسين منصور- طبعة دار المعارف بمصر ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

٣٨-حقوق الإنسان في الإسلام.

د/ علي عبد الواحد وافي- الطبعة الخامسة دار نهضة مصر ١٣٩٨هـ-١٩٧٩م.

٣٩-الحلال والحرام في الإسلام.

د/ يوسف القرضاوي- الطبعة الحادية عشرة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م. دار التراث العربي.

٤٠-حياة الصحابة.

محمد يوسف الكاندهلوي-دار الشهباء للطباعة والنشر(د/ت).

٤١-الحيوان:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون-الطبعة الثانية مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٥م.

٤٢-خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب.

عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧م وما بعدها .

٤٣-الخصائص العامة للإسلام.

د/ يوسف القرضاوي الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-١٩٨١م نشر مكتبة وهبة

٤٤-خلق المسلم.

محمد الغزالى الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م دار الكتب الحديثة

٤٥-دراسات ونصوص في الأدب العربي.

د/ محمد مصطفى هدارة-دار المعرفة الجامعية ١٩٨٥م.

٤٦-دلائل الإعجاز.

عبد القاهر الجرجاني-تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي-نشر مكتبة القاهرة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م

٤٧-ديوان أبي الأسود الدؤلي.

تحقيق: محمد حسن آل ياسين-مطبعة المعارف بغداد(د/ت).

٤٨-ديوان الأعشى الكبير ميمون قيس.

شرح وتعليق: مُحَمد محمد حسين-الطبعة السابعة مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٤٩-ديوان امرئ القيس.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الرابعة دار المعارف بمصر ١٩٨٤

٥٠-ديوان أمية بن أبي الصلت.

تحقيق: عبد الحفيظ السطلي-المطبعة التعاونية بدمشق-سوريا ١٩٧٤م

٥١-ديوان حسان بن ثابت.

تحقيق: د/ سيد حنفي-دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣م.

٥٢-ديوان الحطيئة.

نشر: نعمان أمين طه-مطبعة مصطفى البابي الحلبي-القاهرة-الطبعة الأولى ١٩٥٨م.

٥٣-ديوان حميد بن ثور الهلالي.

تحقيق: عبد العزيز الميمني-طبعة دار الكتب المصرية ١٣٧١هـ-١٩٥١م

٥٤-ديوان الخنساء.

نشر: إسماعيل اليوسف. منشورات دار الكتاب العربي - دمشق - سوريا (د/ت).

٥٥-ديوان زهير بن أبي سلمى.
نسـخة مصورة عـن طبعة دار الـكتب ١٩٤٤م،الـدار القوميـة للطبـاعة والنشر.
٥٦-ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني.
تحقيق: د/ صلاح الدين الهادي، دار المعاف ١٩٧٧م.
٥٧-ديوان طرفة بن العبد.
تحقيق: د/ علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية(د/ ت)
٥٨-ديوا عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي.
دراسة وتحقيق: د/ حسـن محمد باجودة، نشر مكتبة دار الـتراث بالقاهرة ١٩٧٢م.
٥٩-ديوان عبيد بن الأبرص.
تحقيق: د/ حسـين نصار-الطبعة الأولى-مطـبعة مصطفى البـابي الحلبي - القاهرة ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
٦٠-ديوان عدي بن زيد العبادي.
تحقيق: محمد جبار المعيبد-بغداد، العراق، الثقافة والإرشاد ١٩٦٥م.
٦١-ديوان عروة بن الورد.
دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٦٢-ديوان كعب بن زهير.
طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٠م.
٦٣-ديوان كعب بن مالك الأنصاري.
دراسة وتحـقيـق: د/ سامـي مكي الـعانـي، منـشورات مكـتب الـنهـضة بغداد(د/ ت).

٦٤-ديوان لبيد بن ربيعة.

تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإرشاد، الكويت ١٩٦٢م.

٦٥-ديوان النابغة الجعدي.

نشر: عبد العزيز رباح المكتب الإسلامي-دمشق-سوريا ١٩٦٤م.

٦٦-ديوان النابغة الذبياني.

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

٦٧-ديوان الهذليين.

القسم الثاني-طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٧هـ-١٩٤٨م.

٦٨-رسائل الثعالبي(نثر النظم وحل العقد).

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تقديم: علي الخاقاني، مكتبة دار البيان، بغداد، العراق، دار صعب بيروت لبنان(د/ ت).

٦٩-رسائل الجاحظ.

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م-١٣٩٩هـ.

٧٠-رسالة الشعر في خدمة الدعوة وحركات الإصلاح قديما وحديثا.

د/ عبد الرحيم محمود زلط-دار الفكر العربي ١٩٨٣م.

٧١-الأركان الأربعة(الصلاة والزكاة، الصوم، الحج)في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى.

أبو الحسن علي الحسني النووي-نشر: دار القلم بالكويت-الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٧٢-روح الإسلام.

تأليف السيد أمير علي، ترجمة: أمين محمود الشريف، مراجعة: محمد بدر أمين ومحمد مصطفى زيادة، نشر مكتبة الآداب ١٩٦١م-١٩٦٣م.

٧٣-الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام.

عبد الرحمن السهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل-الطبعة الأولى دار الكتب الحديثة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٧٤-زاد المعاد في هدى خير العباد.

لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية-دار الكتب العلمية بيروت(د/ت).

٧٥-زهر الآداب وثمر الألباب.

أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق زكي مبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة دار الجيل-بيروت-لبنان-الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.

٧٦-السلوك الاجتماعي في الإسلام.

حسن أيوب، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٧٧-سماحة الإسلام.

د/ أحمد الحوفي، الطبعة الثانية دار التراث العربي-نهضة مصر(د/ت).

٧٨-سنن الترمذي(الجامع الصحيح).

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين-الطبعة الأولى والثانية مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م وما بعدها.

٧٩-سنن الدارمي.

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، عناية: محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية(د/ ت).

٨٠- سنن النسائي.

شرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربى، بيروت- لبنان (د/ ت).

٨١-السود والحضارة العربية.

د/ عبده بدوي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م-١٣٩٦هـ.

٨٢-سيرة النبي- ﷺ .

أبو محمد عبد الملك بن هشام-تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد مكتبة دار التراث بالقاهرة(د/ ت).

٨٣-شرح ديوان الحماسة.

أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني، نشر: أحمد أمين وعبد السلام هارون. الطبعة الثانية-لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٧م.

٨٤-شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات.

أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: عبد السلام هارون -الطبعة الرابعة دار المعارف-١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٨٥-شرح المعلقات السبع.

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني-دار الاتحاد العربي للطباعة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٨٦-شعر السيرة النبوية دراسة توثيقية.

د/ شوقي رياض أحمد، الطبعة الأولى-دار المأمون للطباعة والنشر الجيزة، مصر ١٩٨٧م.

٨٧-الشعر والشعراء.

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٨٢م.

٨٨-الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي.

يوسف خليف-الطبعة الرابعة-دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٦م.

٨٩-الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري(النشأة والتطور).

د/ محمد مصطفى هدارة-الطبعة الأولى-دار المعارف ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٩٠-شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام.

د/ النعمان عبد المتعال القاضي-الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٩١-شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه.

د/ يحيى وهيب الجبوري-منشورات مكتبة النهضة بغداد، العراق، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٩٢-الشعراء المخضرمون.

د/ عبد الحليم حفني-الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

٩٣-شعر النعمان بن بشير الأنصاري.

تحقيق: د/ يحيى الجبوري مطبعة المعارف بغداد(د/ ت).

٩٤-شعر النقائض في السيرة النبوية.
د/ شوقي رياض أحمد-الطبعة الأولى مطابع الفرزدق التجارية بالرياض ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
٩٥-الصبر في القرآن.
د/ يوسف القرضاوي-نشر مكتبة وهبةالطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.
٩٦-صحيح البخاري بحاشية السندي.
أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار إحياء الكتب العربية(د/ ت).
٩٧-صحيح مسلم بشرح النووي.
أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري-دار الريان للتراث(د/ ت).
٩٨-الصناعتين(الكتابة والشعر).
أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم-المكتبة العصرية-صيدا، بيروت لبنان ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٩٩-الصورة والبناء الشعري.
د/ محمد حسن عبد الله، دار المعارف بمصر ١٩٨١م.
١٠٠-طبقات فحول الشعراء.
محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة ١٩٧٤م.
١٠١-الطبقات الكبرى.
محمد بن سعد كاتب الواقدي، دار التحرير القاهرة ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

١٠٢-العقد الفريد.

أبو عمر محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وآخرين، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة-القاهرة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.

١٠٣-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣م.

١٠٤-عيار الشعر.

محمد أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق: د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالأسكندرية ١٩٨٠م.

١٠٥-عيون الأخبار.

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ-١٩٢٥م.

١٠٦--فتوح البلدان.

أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت - لبنان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٠٧-فصول في الشعر ونقده.

د/ شوقي ضيف، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

١٠٨-فنون بلاغية، البيان، البديع.

د/ أحمد مطلوب، الطبعة الأولى -دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٠٩-قصة الحضارة.

ول وإيرل ديورانت، الترجمة العربية، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر(د/ت).

١١٠-قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.

د/محمد زكي العشماوي، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب الأسكندرية ١٩٧٨م.

١١١-القيان والغناء في العصر الجاهلي.

د/ناصر الدين الأسد، الطبعة الثانية، دارالمعارف بمصر ١٩٦٨م.

١١٢-قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر.

د/عائشة عبد الرحمن(بنت الشاطئ) دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.

١١٣-الكامل في اللغة والأدب.

أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد، مؤسسة المعارف بيروت-لبنان (د/ت).

١١٤-مجالس ثعلب.

أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثالثة والرابعة ١٩٦٩م-١٩٨٠م.

١١٥-المحبر.

أبو جعفر محمد بن حبيب، تصحيح: ايلزة ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان-(د/ت).

١١٦-مختارات شعراء العرب.

هبة الله بن علي أبو السعادات العلوي المعروف بابن الشجري، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر القاهرة(د/ت).

١١٧-المردفات من قريش.

أبو الحسن علي بن محمد المدائني، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الأول من نوادر المخطوطات، الطبعة الثانية، مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

١١٨-مروج الذهب ومعادن الجوهر.

أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد-المكتبة الإسلامية-بيروت، لبنان (د/ت).

١١٩-المعارف.

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: د/ ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٨١م.

١٢٠-معاني القرآن.

أبو زكريا، يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

١٢١-المعاني الكبير في أبيات المعاني.

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الطبعة الأولي، دار الكتب العلمية-بيروت لبنان ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

١٢٢-المغازي.

للواقدي(محمد بن عبد الله بن واقد)تحقيق: مارسدن جونس، مؤسسة الأعلي للمطبوعات، بيروت، لبنان(د/ت).

١٢٣-المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

د/ جواد علي، الطبعة الثانية والثالثة، دار العلم للملايين، بيروت مكتبة النهضة بغداد ١٩٧٦م وما بعدها.

١٢٤-المفضليات.

اختيار المفضل بن محمد الضبى، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

١٢٥-المنازل والديار.

أسامة بن منقذ الكنانى، نشر المكتب الإسلامى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

١٢٦-من نسب إلى أمه من الشعراء.

محمد بن حبيب، تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الأول من نوادر المخطوطات، الطبعة الثانية مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

١٢٧-منهج القرآن في تطوير المجتمع.

د/ محمد البهي- نشر مكتبة وهبةالطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

١٢٨-موسيقى الشعر.

د/ إبراهيم أنيس، الطبعة الخامسة، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م.

١٢٩-الموشح في مأخذ العلماء علي الشعراء.

أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني. جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة، المطبعة السلفية ١٣٤٣هـ.

١٣٠-النابغة الذبياني.

د/ محمد زكي العشماوي، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م

١٣١-نسب قريش.

أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، نشر: أ. ليفي بروفنيسال، الطبعة الثالثة دار المعارف بمصر ١٩٨٢م.

١٣٢-نقد الشعر.

أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان(د/ ت).

١٣٣-نقائض جرير والفرزدق.

أبو عبيدة معمر بن المثني التيمى، اعتناء المستشرق الإنجليزي بيفان، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٥م.

١٣٤-نهاية الأرب في فنون الأدب.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)باعتناء مجموعة من المحققين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م وغيرها.

١٣٥- وقعة صفين.

نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة، مطبعة المدني ١٣٨٢هـ.

ثانيا: المعاجم العربية.

١٣٦-أساس البلاغة.

للزمخشري(جار الله أبو القاسم محمد بن عمر)الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

١٣٧-لسان العرب.

لابن منظور، بإشراف مجموعة من المحققين دار المعارف-القاهرة(د/ ت).

١٣٨-معجم البلدان.

ياقوت بن عبد الله الحموي، طبعة دار صادر بيروت(د/ ت).

١٣٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

ثالثا: الرسائل الجامعية.

١٤٠-شعر المخضرمين.
حامد متولي الخولي-رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية دار العلوم ١٩٥٦م.
١٤١-شعر يثرب في العصر الجاهلي وصدر الإسلام.
ورد محمدي مكاوي عزب-رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الاداب، جامعة الأسكندرية ١٩٩٠م.

رابعا: المراجع الأجنبية.

142-Arabic Literature An Introduction:by, H.H.R Gibb
Oxford at the Charendon Press,Rprinted 1970.Second Revised Edition.

* * *

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
الحياة الإسلامية الجديدة. رابعا: الظواهر الإسلامية في الأسلوب.	
ثانيا: الموسيقا.	٤١٠-٤٢٤
- أهمية الوزن في الشعر العربي - الاطمئنان النفسي وأثره في موسيقا شعر المخضرمين- جرس الألفاظ والموسيقا الداخلية- محاولة الخروج على وزن المتقارب المألوف - الروي الساكن وأثره في الإيقاع.	
الفصل الثاني: الصورة الفنية وبناء القصيدة.	٤٢٥-٤٧٣
أولا: الصورة الفنية.	٤٢٥-٤٢٦
مصادر الصورة الإسلامية:	٤٢٦-٤٥٨
أولا: صور الهداية.	٤٢٦-٤٣٦
أ-النور والضياء - ب- الحبل- حـ- النعمة-د- الدليل هـ- الوحي.	
ثانيا: التقوى .	٤٣٧-٤٣٨
ثالثا: صور الخير والشر.	٤٣٨-٤٤٦
رابعا: صور الإيمان الكفر.	٤٤٦-٤٤٧
خامسا: صور الثواب والعقاب.	٤٤٧-٤٥٤
سادسا: الرمز من وسائل التصوير.	٤٥٤-٤٥٨
ثانيا: بناء القصيدة.	٤٥٩-٤٧٣
أولا: التحرر من النهج الفني للقصيدة العربية.	٤٥٩-٤٦٣
ثانيا: الميل إلى المقطعات.	٤٦٣-٤٦٧
ثالثا: الوحدة العضوية.	٤٦٧-٤٧٣
الخـــاتمـــة.	٤٧٤-٤٨٦
ثبت المصادر والمراجع.	٤٨٧-٥٠٥
فهرست الموضوعات.	٥٠٦-٥١٠

* * *